نفاضة الجراب
في علالة الاغتراب

تأليف

لسان الدين بن الخطيب
(٧١٣هـ - ٧٧٦هـ)

نشر وتعليق

الدكتور أحمد مختار العبادي

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية سابقا
الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت

مراجعة **الدكتور عبد العزيز الأهواني**

دار النشر المغربية
الدار البيضاء



تأليف

لسان الدين بن الخطيب

(٧١٣هـ - ٧٧٦هـ)

نشر وتعليق

الدكتور أحمد مختار العبادي

أستاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية سابقا
الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الكويت

مراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني

مقدمة الناشر



هذا هو الجزء الثانى من كتاب نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب[1] ، ومؤلفه هو الوزير والمؤرخ الغرناطى لسان الدين بن الخطيب[2] (٧١٣ — ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ — ١٣٧٦ م) . وقد نص على ذلك هو نفسه فى متن هذا الكتاب[3] وفى بعض مؤلفاته الأخرى[4] . كما أشار إلى ذلك أيضاً بعض المؤرخين القدامى والمحدثين الذين سيأتى ذكرهم بعد ذلك .

على أن المؤلف فى كتابه هذا ، لم يحدد لنا الزمان أو المكان الذى ألفه فيه

---

(١) مخطوط بالاسكوريال رقم ١٧٥٥ .

(٢) سبق ان فصلنا الكلام عن حياة هذا المؤرخ الكبير وعن صلته العلمية والسياسية والاقتصادية ببلاد المغرب فى مواضع أخرى يمكن الرجوع إليها .

راجع (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط . (القسم الثالث من كتاب اعمال الأعلام لابن الخطيب) نشر وتحقيق احمد مختار العبادى ، وابراهيم الكتانى (المقدمة) الدار البيضاء ١٩٦٤ ، حياة ابن الخطيب المغربية (مجلة البينة بالرباط ، العدد الأول ، مايو سنة ١٩٦٢) ، النزعات الاقتصادية فى حياة ابن الخطيب (مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) .

(٣) نفاضة الجراب لوحة ١٥٩ .

(٤) الإحاطة جـ ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ ، جـ ٢ ص ٢١٦ (طبعة القاهرة ١٣١٩ هـ) ، الإحاطة (نسخة الاسكوريال رقم ١٦٧٣) لوحات ٣٤٦ ، ٤٣٣ ، ٥٠٠ ، أنظر كذلك (ابن الخطيب اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ٩١) .

وقد ورد فى كتاب الإحاطة للمؤلف نفسه ، عبارة (ورقة رقم ٥٠٠[1]) لاشك أنها من وضع الناسخ يقول فيها :

« من كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب المذكور رحمه الله ، الذى ألفه بالعدوة (أى المغرب الأقصى) بعد صرفه عن الأندلس واستقراره بالعدوة آخرة من عمره وقرب وفاته ، ولذلك سماه نفاضة الجراب » .

وواضح من هذه العبارة أن ناسخ الإحاطة يريد أن يقول إن تأليف نفاضة الجراب حدث ببلاد المغرب فى الفترة التى بين ٧٧٣ — ٧٧٦ هـ وهى الفترة الأخيرة من حياة ابن الخطيب التى انتهت بمقتله هناك بمدينة فاس .

غير أن شواهد الأمور تدل دلالة قاطعة على أن تأليف هذا الكتاب كان فى فترة أخرى متقدمة قضاها ابن الخطيب بالمغرب أيضاً حينما نفى مع سلطانه المخلوع محمد الخامس الغنى بالله وهى الفترة التى تمتد من سنة ٧٦٠ إلى ٧٦٣هـ والأدلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بالآتى :

أولا : جميع حوادث هذا الكتاب ، سواء أكانت تاريخية أو أدبية أو اجتماعية لاتتعدى نطاق هذه الفترة بالذات ٧٦٠ — ٧٦٣هـ . أو بعبارة أخرى هذا الكتاب يعد بمثابة مذكرات شخصية للمؤلف عن المدة التى قضاها منفياً فى دولة بنى مرين بالمغرب قبل عودته ثانية إلى غرناطة لتسلم مهام منصبه من جديد .

ثانياً : ابن الخطيب فى كتابه المعروف باسم « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » يشير إلى أنه بدأ تدوين هذا الكتاب (أى اللمحة البدرية) فى منفاه بالمغرب ، وانتهى منه فى أول سنة ٧٦٥ هـ ، ثم ينصح القارىء بالرجوع إلى كتابه « نفاضة الجراب » للاستزادة من التفاصيل والأخبار[2] ، وهذا يدل على أن تأليف النفاضه كان قبل سنة ٧٦٥ هـ أى خلال الفترة التى أشرنا إليها من قبل .

---

(١) نسخة الاسكوريال .

(٢) انظر ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩١ ، ١١٣ ، ١١٩) .

هذا عن تاريخ تأليف الكتاب ومكان تدوينه ، أما عن عدد أجزائه ، فابن الخطيب يشير فى آخر النسخة التى بين أيدينا ، أن الكتاب يقع فى ثلاثة أسفار[1] ، ولكنه يعود فيناقض نفسه فى كتابه الإحاطة فيقول : « ونفاضة الجراب فى أربعة أسفار جليلة[2] » ولقد أيد هذا العدد الأخير من جاء بعده من المؤرخين القدامى والمحدثين أمثال أحمد المقرى فى كتابيه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب[3] ، وأزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض[4] . كذلك يذكره المستشرق الهولندى رينهارت دوزى فى كتابه عن بنى عباد ملوك أشبيلية[5] ، والعالم الأسبانى بونس بويجس فى المعجم الذى أفرده للمؤرخين والجغرافيين العرب فى أسبانيا[6] .

وكيفما كان الأمر فى عدد أجزاء هذا الكتاب ، فالمهم هنا أن ماوصلنا منه هو جزء واحد فقط وهو الجزء الثانى الذى بين أيدينا باعتراف المؤلف نفسه الذى يقول فى آخره: « انتهى ويتلوه فى الثالث رجع التاريخ » .

وهذا الجزء الذى وصلنا ، نسخة وحيدة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ١٧٥٥ وتقع في ١٥٩ ورقة من الحجم الكبير ، كل ورقة تحتوى على تسعة عشر سطراً مكتوبة بخط مغربى لايقرأ بسهولة في كثير من الأحيان .

وكان الراهب اللبنانى الغزيرى قد سبق أن أشار فى فهرسه المكتوب باللاتينية عن المخطوطات العربية بالاسكوريال إلى وجود الجزء الثالث من نفاضة الجراب تحت رقم ١٨١١[7] .

---

(١) نفاضة الجراب لوحة ١٥٩ .

(٢) الاحاطة فى أخبار غرناطة لوحة ٤٣٣ (نسخة الاسكوريال) .

(٣) راجع (نفح الطيب جـ ٩ ص ٣٠٤) .

(٤) راجع (أزهار الرياض جـ ١ ص ١٨٩) .

(٥) انظر (R . Dozy : Loci de Abbadidis, Tome III, P . 167)

(٦) انظر (F. Pons Boigues : Ensayo Bio - Bibliografico Sobre Los Historiadores y Geógrafos Arábigo - Espanoles P . 343)

(٧) راجع (Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis, II Matriti 1760-1770)

ولقد تبعه في هذا الرأى العالم الأسبانى بولس بويجس[1] ، والمستشرق الألمانى بروكلمان[2] ثم جاء المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال في الفهرس الذى أفرده لمخطوطات التاريخ فقط بالاسكوريال مكملا فى ذلك فهرسه درنبرج . فقال : إن نسخة نفاضة الجراب التى تحمل رقم ١٨١١ غير موجودة ، وأن النسخة الموجودة من هذا الكتاب هى التى تحمل رقم ١٧٥٥ فقط[3] .

ثم جاء الراهب الأسبانى ملتشور انطونيا Melchor Antuña الذى كان مديرا لمكتبة الاسكوريال ، ثم قتله الشيوعيون في الحرب الأهلية الأسبانية(١٩٣٦—١٩٣٩) فاستبعد فكرة الغزيرى بخصوص الجزء الثالث : وقال إنه من المحتمل جدا أن يكون هذا الجزء نسخة مكررة للجزء الثانى الموجود حالياً بالمكتبة ، خصوصاً وأن وصف الغزيرى للنسختين كان واحدا تقريباً[4] .

ثم يأتى بعد ذلك الراهب الأسبانى الأب موراتا P. N. Murata الذى كان مديرا لمكتبة الاسكوريال إلى عهد قريب فأشار إلى هذه النسخة المفقودة التى تحمل رقم ١٨١١ ونفى وجودها نفياً باتاً بناء على الجرد الشامل الذى قام به لمختلف السجلات والمخطوطات[5] .

وأخيرا نذهب إلى دائرة المعارف الإسلامية ، فنجد أنها لم تشر إطلاقا إلى كتاب نفاضة الجراب وذلك فى المقال الذى أفرده زيبولد Seybold عن ابن الخطيب[6] .

ويبدو أن اختفاء هذا الكتاب قد حدث فى الفترة التى تلت وفاة ابن الخطيب

---

(١) انظر (Pons Boigues : Op . Cit . P · 343)

(٢) (Brock : Gesch . der Arab lit. II P 262)

(٣) (Lévi Provençal : Les Manuscrits Arabes de l'Escurial, P . 261)

(٤) (P. Melchor Antuna : El poligrapho granadino Ibn el Jatib en la Real Biblioteca del Escorial, p . 30 - 31 Imprenta del Real Monasterio 1926 .)

(٥) انظر هذه العبارة موجودة بخط يده باللغة الاسبانية على هامش مقال أنطونيا السالف الذكر ، وفى العدد المحفوظ بالمكتبة نفسها .

(٦) انظر (Ency . Lslam Art . Ibn Al Khatib)

مباشرة ، ولعل النكبة التى حلت بهذا المؤرخ الكبير ، لم تكتف بقتله ومصادرة أملاكه ، بل امتدت أيضاً إلى مؤلفاته مما دعا بعض الناس إلى إخفائها . ويدلنا على ذلك مارواه أحد المعاصرين لابن الخطيب وهو الأمير العالم أبو الوليد إسماعيل ابن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر ، يقول هذا الأمير[1] :

« ونفاضة الجراب فى أربعة أسفار ، وهو من أحسن تآليفه . ولم أزل أكثر البحث فى هذا التاريخ عنها ، فلم أقف على عين ولا أثر إلا عدة أوراق متفرقة . وقد كنت قبل هذا التاريخ رأيت بعضها[2] » .

وكيفما كان الأمر فالذى نلاحظه جيداً أن المؤرخين المتأخرين أمثال المقرى وابن القاضى والناصرى السلاوى وابن غازى ، قد استفادوا من هذا الكتاب ونقلوا منه بعض أجزائه مع الإشارة ، إلى ذلك صراحة . وبمقابلة هذه الأجزاء المنقولة على نسخة نفاضة الجراب التى بين أيدينا لاحظنا أن جزءاً كبيراً منها منقول منها حرفياً[3] . أما الجزء الآخر فغير موجود أصلا مما يدل على أن هذا النقل قد جاء من بعض أجزاء

---

(١) هذا الأمير من سلالة بنى الأحمر ملوك غرناطة . خدم فى بلاط بنى مرين ملوك المغرب وتوفى بفاس سنة ٨٠٧ هـ وقيل فى سنة ٨١٠ هـ . كتب عدة مؤلفات تذكر منها .

١ — نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان.

٢ — روضة النسرين فى ملوك بنى مرين .

اما عن الكتاب الأول ، فلا يزال مخطوطا ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٣ — أدب . أما عن الكتاب الثانى فقد نشره اولا جورج مارسيه وابو على بعنوان :

(G . MarÇais, Gh. Bouali : Rawdat en Nisrin , Paris 1917)

ثم أعاد نشره حديثا الأستاذ عبد الوهاب بن منصور (الرباط مطبعة القصر ١٩٦٣) .

وكان المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال قد عثر على نسخ أخرى من أصول هذا الكتاب وكتب مقالا فى هذا الصدد تحت عنوان :

(Levi Provençal : Deux nouveaux manuscrits de La Rawadat an - Nisrin d'Ibn al Ahmar, Journal Asiatique, Oct . - Dec 1923)

راجع كذلك (عبد القادر زمامة : أبو الوليد بن الأحمر ، مجلة البحث العلمى العدد الثانى ، الرباط سنة ١٩٦٤)

(٢) انظر المقرى (أزهار الرياض جـ١ ص ١٨٩) .

(٣) الواقع أن الأجزاء الأدبية التى نقلها هؤلاء المؤرخون من نسخة نفاضة الجراب التى بين ايدينا كثيرة جدا خصوصاً ما ورد منها فى كتاب نفح الطيب للمقرى ، وقد نبهنا على ذلك فى حينه .

الكتاب الأخرى التي تعد الآن في حكم المفقودة[1] ، ولهذا فإني قد ألحقت بآخر هذا الكتاب — على شكل ملاحق — كل ما استطعت العثور عليه في الكتب الأخرى من هذه النصوص المنقولة عن النفاضة ولم ترد في هذا الكتاب .

هذا ونلاحظ كذلك أن معظم ما نقله المؤرخون المتأخرون من هذا الجزء الذي بين أيدينا من النفاضة ، كان مقصوراً على بعض القصائد الشعرية والرسائل الأدبية ، أما النصوص التاريخية فلا زالت جديدة ومفيدة ، وهذا هو الذي يجعلني أهتم بتفسيرها عند عرض هذا الكتاب .

عرض سريع لمحتويات هذا الكتاب :

يبدأ الكتاب بوصف الرحلة التي قام بها المؤلف في ربوع المغرب الأقصى خلال فترة منفاه والكلام عن هذه الرحلة يقودنا إلى نقطة هامة نقف عندها قليلا لأنها قد تلقي شيئاً من الضوء على بعض الأجزاء المفقودة من كتاب نفاضة الجراب .

---

(1) أورد المقرى فى نفحه (ج ٨ ص ٣١٦ — ٣١٩) وابن غازى فى كتابه الروض الهتون (ص ٢٧ — ٢٨) ، وصفا قيما لمدينة مكناسة الزيتون (مكناس الحالية) ، وقد اشار كل منهما إلى انه نقل هذا الوصف من كتاب نفاضة الجراب،غير أننا بعد مراجعة هذا النص على النسخة التي بين ايدينا لم نجده مدرجاً فيها. وفى موضع آخر من نفح الطيب (ج٧ ص ٢٧١) ، تكلم المقرى عن قاضى مدينة مكناس أبى محمد عبد الخالق بن سعيد وقال: إن ابن الخطيب ذكره فى نفاضة الجراب وقال إنه لقيه بمكناسة الزيتون سنة ٧٦١ هـ . ولكن بعد المراجعة أيضاً لم أجد ذكراً لهذا القاضى فى هذه النسخة التى بين أيدينا . وكذلك الحال بالنسبة لابن القاضى فى كتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس حيث اورد فى ص ٧٨ ترجمة وشعراً للعالم المكناسى أحمد بن محمد بن ابراهيم الأوسى . كما أورد فى ص ١١١ ترجمة للفقيه الحسن بن عثمان التيجانى وذلك نقلا عن نفاضة الجراب ، ولكننى بعد البحث أيضاً لم أجد هذه الترجمات . وإلى جانب ذلك فهناك شعر نظمه ابن الخطيب بمدينة فاس فى ذلك الوقت وأورده المقرى فى نفح الطيب نقلا عن نفاضة الجراب . ولكننى لم أجد له ذكرا فى هذه النسخة التى لدينا . راجع (نفح الطيب ج ٨ ص ١٧٨ ، ج ١٠ ص ١٦٠ — ١٦١) .

لهذا رأيت أن أضم هذه النصوص إلى الكتاب على شكل ملاحق فى آخره وواضح أن هذه النصوص منقولة من الجزء الأول المفقود من نفاضة الجراب الذى يصف فيه ابن الخطيب بداية رحلته من العاصمة فاس ثم يتجه جنوبا إلى مدينة مكناس سنة ٧٦١ حيث يتصل بعلمائها ثم يواصل رحلته جنوبا إلى أن يصل إلى جبل هنتاتة فى اقليم أطلس الكبير وهو بداية هذا الجزء الثانى الذى وصل الينا .

ذلك أن ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة (ورقة ٣٤٦ نسخة الأسكوريال) يحيل القارىء إلى كتاب من تأليفه يسمى كتاب الرحلة للاستزادة من أخبار الشيخ عامر بن محمد الهنتاتى رئيس قبيلة هنتاته ومزوار (أى رئيس) المصامدة بجبال درن (أى أطلس الكبير) ، وما قاله فى مدحه من نظم ونثر .

وبالرجوع إلى الكتاب الذى بين أيدينا ، نجد فعلا كلاما كثيراً فى وصف جبل وقبيلة هنتاته وشعرا ونثرا فى مدح زعيم هذه المنطقة الجنوبية ، مما يجعلنا نرجح أن كتاب الرحلة وكتاب النفاضة كتاب واحد[1] .

وقد يؤيد هذا الكلام أن بعض المؤرخين المتأخرين ، قد حاول الجمع بين هذين الاسمين لإزالة هذا الالتباس ، ومثال ذلك أبو عبدالله محمد بن غازى العثمانى فى كتابه الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون (ص ١٧ ، ٢٧) . فقد حرص هذا المؤرخ على الجمع بين الرحلة والنفاضة بتلك العبارة المختصرة :

« ذكر أبو عبدالله بن الخطيب فى رحلته المسماة بنفاضة الجراب ... » هذا الكلام يذكرنى بحديث جرى بينى وبين صديقى العالمين إبراهيم الكتانى ومحمد المنونى فى مدينة الرباط فى العام الماضى ١٩٦٣ حول مخطوط نادر بخزانة الرباط ، كان يعتقد أنه نسخة من كتاب اللمحة البدرية لابن الخطيب ، لأن مقدمته هى نفس مقدمة اللمحة ، ثم اتضح بعد ذلك أن موضوعه يختلف تماما عن موضوع اللمحة البدرية .

ولقد رجح الأستاذ الكتانى أن يكون هذا المخطوط هو كتاب الرحلة لابن الخطيب ، وأذكر أننى أبديت له رأيى الذى ذكرته آنفا وهو أنه إذا كان هذا الاحتمال

---

(١) يلاحظ ان ابن الخطيب فى الترجمة التى أفردها لنفسه فى آخر كتابه الاحاطة لم يذكر كتاب الرحلة ضمن أسماء مؤلفاته التى ذكرها فى هذا الكتاب فى حين أنه ذكر كتاب نفاضة الجراب كذلك لم يذكر كتاب الرحلة أيضاً الأديب المعاصر الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر عندما تحدث عن مصنفات ابن الخطيب فى كتابه نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨٦٣ — أدب) ، وراجع كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ٣٠٥ إلى ٣٠٦) .

الذى أبداه صحيحاً ، فإنه من الجائز أيضاً أن يكون هذا المخطوط جزءا من كتاب نفاضة الجراب على اعتبار أنهما كتاب واحد .

ثم التمست منه أن يطلعنى على هذا المخطوط لمقارنته بالنسخة التى معى من كتاب النفاضة فوعدنى بذلك ، ولكن الظروف للأسف حالت دون تحقيق هذا الطلب ، إذ حلت العطلة الصيفية وسافر الأستاذ الكتانى إلى فيشى للاستشفاء بينما عدت أنا إلى بلادى وانقطع اللقاء بيننا .

وهأنذا الآن أثير هذا الكلام من جديد بمناسبة نشر هذا الكتاب لعله يجد صدى فى المغرب الشقيق .

يبدأ هذا الكتاب كما سبق أن قلنا ، بوصف الرحلة التى قام بها ابن الخطيب فى بلاد المغرب ويلاحظ من بداية هذا الوصف أن الرحلة ناقصة غير كاملة ، إذ أنه يبدأ وبدون مقدمات بالصعود إلى جبل هنتاته وهو جبل ناء بمنطقة جبال أطلس ، فلا شك أن بداية هذه الرحلة تقع فى الجزء الأول المفقود من هذا الكتاب .

ومهما يكن من شىء فالنص الذى لدينا يبدأ كما قلنا بصعود ابن الخطيب إلى جبل هنتاتة نسبة إلى قبيلة هنتاتة التى كانت تسكنه ، وهى فرع من قبائل مصمودة الضاربة فى غرب إقليم أطلس (١) .

وفي هذا الجبل يصف ابن الخطيب المكان الذى توفى فيه السلطان الشهيد أبو الحسن على المرينى بعد أن ثار عليه ابنه أبو عنان فارس ، كذلك يصف معيشة شيوخ قبيلة هنتاتة وأنواع المآكل والمشارب التى قدموها له وهو وصف طريف يذكرنا بالولائم المغربية الفاخرة التى ما زالت تقدم حتى وقتنا الحاضر .

ثم يواصل ابن الخطيب رحلته إلى مدينة اغمات . وهنا يتكلم عن محاسن هذه المدينةوسذاجة أهلها ، وعن شخصياتها وآثارها ، ومن بين ذلك ما ذكره عن مسجدها

---

(١) راجع : (Leon Africano : Descripciòn de Africa p . 10 Tetuan 1952)

ومئذنته المخروطة الشكل وهو نص عظيم الأهمية من الناحية المعمارية الأثرية .

وقد زار ابن الخطيب فى هذه المدينة أيضا قبر[1] الملك الشاعر المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وأحد ملوك الطوائف الذى نفاه المرابطون إلى هذا المكان بعد أن استولوا على الأندلس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وقد مد... ابن الخطيب بقصيدة جميلة نشرها وترجمها المؤرخ الهولندى المعروف دوزى ضمن النصوص التى قدمها عن أسرة بنى عباد[2] .

بعد ذلك يعود ابن الخطيب إلى مدينة سلا مارا فى طريقه بمدن مختلفة مثل مراكش وآسفى ودكالة وأزمور . فأخذ يصف هذه المدن وما فيها من مساجد ومدارس ومكتبات وجبانات ، كما أشار إلى من اتصل به من علمائها وشيوخها .

وأخيرا ينتهى به المطاف إلى مدينة سلا على ساحل المحيط الأطلسى بأقصى المغرب. وهناك استقر ابن الخطيب فى ضاحيتها المعروفة باسم شالة Chella حيث الجبانة الملكية لبنى مرين[3]. يقول المقرى فى هذا الصدد : « وفى شالة سلا رابط ابن الخطيب بجوار أضرحة ملوك بنى مرين سائلا لهم من المولى عز وجل الرحمة والغفران[4] .

ولقد سجل لنا ابن الخطيب الرسائل والقصائد التى بعث بها إلى سلطان المغرب فى ذلك الوقت أبى سالم المرينى ، ومعظمها يدور حول مدحه ومدح آبائه والترحم عليهم.

ولا شك أن هذا العمل قد عاد عليه بالخير الجزيل ، إذ أن السلطان المرينى المذكور أمر بأن يصرف لابن الخطيب من مجبى مدينة سلا مرتب شهرى له ولولده مبلغ خمسمائة دينار ، وأن يعفى من كل مغرم أو ضريبة ، وأن يرفع الاعتراض فيما يجلب له من الأدم

---

(١) انظر : (E . Garcia Gomez : El supuesto sepulcro de Mutamid de Sevilla en Agmat, Al Andalus, vol. XVIII 1953)

(٢) راجع : (R. Dozy : Loci de Abbadidis, T. II pp . 222 - 223)

(٣) راجع : (Henri Basset et Lévi Provençal : Chella, une nécropole Merenide p. 157, - Paris 1922)

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٣٢٢

والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه وفيما يستفيده خدامه من عنب وقطن وفاكهة وخضر ... إلخ[1]

وهكذا تنتهي رحلة ابن الخطيب ، ونلاحظ أن أسلوبه الكتابي فيها ، وفي كتاب نفاضة الجراب ، بصفة عامة ، يختلف عن أسلوب رحلاته الأخرى ، بمعنى أنه لم يتخذ طابع فن المقامات المعروف بالسجع والتقفية ، بل كان كلاما مرسلا جزلا في غالب الأحيان[2] ، غير أن أسلوب ابن الخطيب ، سواء في هذا أو ذاك ، نراه بصفة عامة بادي التكلف ، مليئا بالصنعة اللفظية والمحسنات البديعية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت .

بعد وصف هذه الرحلة ينتقل ابن الخطيب إلى فصل آخر من كتابه تحت عنوان « فصل في إدالة الدولة بالأندلس ثانية » . وهو في هذا الفصل يصف تلك الفترة المضطربة التي مرت بها مملكة غرناطة فيما بين سنتي ٧٦٠—٧٦٣هـ (١٣٥٩—١٣٦٢م) وحسبنا أن نشير إلى أن هذه الفترة القصيرة التي لم تتجاوز ثلاث السنوات ، قد عانت فيها هذه المملكة الصغيرة ثلاث انقلابات سياسية متتابعة ذهب ضحيتها عدد من الملوك والقادة والأمراء .

حدث الانقلاب الأول في ٢٨ رمضان ٧٦٠هـ (٢١ أغسطس ١٣٥٩م) وانتهى بخلع سلطان غرناطة أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصر (محمد الخامس الغني بالله) ونفيه إلى المغرب ، وتولية أخيه أبي الوليد اسماعيل الثاني .

أما الانقلاب الثاني فقد حدث في ٨ شعبان ٧٦١هـ (٢٤ يونيو ١٣٦٠م) وانتهى بقتل السلطان أبي الوليد إسماعيل بن أبي الحجاج يوسف بن نصر ، واعتلاء قاتله عرش غرناطة . والقاتل أحد أبناء عمومته وزوج شقيقته ويدعى الرئيس أبا عبد الله محمد السادس (الغالب بالله) وتسميه المصادر الأسبانية المعاصرة بأبي سعيد البرميخو

---

(١) المقري : نفح الطيب جـ ٨ ص ١١٧ — ١١٨ .

(٢) المقري : نفح الطيب جـ ٨ ص ٣١٦ .

Bermejo وهذه الكلمة الأخيرة معناها باللغة الأسبانية اللون البرتقالى الضارب إلى الحمرة وذلك نسبة إلى لون لحيته وشعره[1].

أما الانقلاب الثالث فقد حدث فى ٢٠ جمادى الآخرة ٧٦٣ﻫ (١٦ مارس ١٣٦٢م) وانتهى بعودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله إلى عرشه بعد قتل السلطان البرميخو المغتصب.

وأسباب هذه الانقلابات عديدة ومتشعبة، بعضها تمتد جذوره إلى وباء الطاعون أو الموت الأسود الذى عم المشرق والمغرب فى منتصف القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى، وقد ذهب ضحيته فى مملكة غرناطة خلق كبير من العلماء والزراع والصناع، فهلك الزرع والضرع وانتشرت المجاعات والأوبئة[2]، وانبرت أقلام الكتاب المعاصرين الغرناطيين تصف الداء والدواء دون جدوى[3].

ولا شك أن هذه الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة كان لها دخل كبير فى الفوضى السياسية التى حلت بالبلاد بعد ذلك.

أما السبب المباشر لهذه الانقلابات فيرجع إلى الحزازات الشخصية بين أعضاء الأسرة المالكة نفسها، فالمعروف أن السلطان الراحل، أبا الحجاج يوسف بن نصر قد تزوج من امرأتين من جواريه وهما بثينة ومريم، فأنجب من الأولى محمدا وعيشة،

---

(١) انظر (P. Mariana : Historia General de Espana II P. 221) انظر كذلك: (ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ٣٥٤، الجزء الخاص بأسبانيا نشر ليفى بروفنسال).

(٢) انظر Charles Verlinden : La gran peste de 1348 en Espagne, Contribution à l'étude de ses conséquences économiques et sociales) (Revue Belge de Philologie et d, Histoire, Bruxelles' 1938, XVII, p 103)

(٣) راجع على سبيل المثال الرسائل المعاصرة التالية: ابن خاتمة: تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد، نشرطه دنانة فى (F. Gesch Der Mediz, t ' XIX p. 38) ابن الخطيب: مقنعة السائل عن المرض الوافد، نشر موار فى:

(Muller : Sitzungsbereichte Der Konigh Bayer, A. Kud. Der Wiss Philos. Philol. K L. 1863).

كذلك كتب الشقورى رسالة فى هذا الوباء لا تزال مخطوطة بالأسكوريال رقم ١٧٨٥.

ومن الثانية إسماعيل وقيسا وعدة بنات تزوج إحداهن أمير من أفراد الأسرة وهو الرئيس أبو عبد الله محمد المعروف بأبي سعيد البرميخو .

وقد علق ابن الخطيب على ذلك بقوله « وعقد له أبو الحجاج على بنته لوقوع القحط في رجال بيتهم ! »[1] ، وكان إسماعيل أصغر من أخيه محمد بنحو تسعة أشهر ، غير أن أمه مريم حاولت أن تستغل حب السلطان لها في أن تقيم ولدها إسماعيل ولياً للعهد بدلا من أخيه الأكبر محمد ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وآل العرش بعد موت أبي الحجاج يوسف إلى مستحقه الشرعي وهو السلطان محمد الخامس الغني بالله[2] .

ولقد حاول هذا السلطان الجديد أن يرضى أخوته وزوجة أبيه مريم بشتى الوسائل[3] ، غير أن طموح هذه المرأة ، والأموال التي تركها لها زوجها السلطان الراحل ، دفعاها إلى التآمر سراً مع زوج ابنتها البرميخو للتخلص من السلطان محمد وتولية ابنها إسماعيل مكانه ، وكان إسماعيل بدوره يضمر لأخيه محمد عداوة وحقداً بسبب زواجه من ابنة عم لهما كان إسماعيل يحبها ويريدها لنفسه[4] .

وأخيراً نجح المتآمرون في الوثوب ليلا على قصر الحمراء وإقامة إسماعيل سلطاناً على غرناطة غير أنهم لم ينجحوا في قتل السلطان محمد الخامس لأنه كان مقيما وقتئذ في جنة العريف Generalife وهي الحديقة المجاورة للقصر الملكي .

فحينما سمع بضوضاء المتآمرين وجلبتهم ، ركب جواده وفر إلى مدينة وادي آش

---

(١) انظر ابن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ١٦٣ (نسخة كوديرا بالأكاديمية الملكية بمدريد رقم ٣٤) .

(٢) انظر (Lafuente, Alcantara : Inscripciones àrabes de Granada p.54) (Madrid) 1860
ويعتمد هذا الكتاب على ما كتبه في هذا الصدد المؤرخ المالقي المعاصر أبو الحسن النباهي الجذامي في كتابه نزهة البصائر والأبصار (مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣) . وراجع كذلك (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦) .

(٣) راجع (ابن الخطيب : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ص ١٠٨) .

(٤) انظر المتن .

Guadix وتحصن بها ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة فاس حيث أقام فى كنف سلطان المغرب أبى سالم إبراهيم المرينى (١) .

وأول عمل قام به سلطان غرناطة الجديد اسماعيل الثانى ، هو القبض على أنصار أخيه السلطان المخلوع ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ، كما استحل لنفسه الزواج من امرأة أخيه التى كان يحبها بعد أن أوعز إلى بعض الفقهاء تلفيق الفتاوى التى تقضى بصحة طلاقها من زوجها السابق (٢) .

واستمر حكم هذا السلطان مايقرب من عام واحد ، وكان عمره وقتئذ قد أناف على العشرين عاما ثم لم يلبث ابن عمه وزوج شقيقته أبو سعيد البرميخو أن طمع فى ملكه فقتله كما قتل شقيقه الأصغر قيساً ومربيه عباداً ، واستأثر بعرش غرناطة لنفسه .

وابن الخطيب فى هذا الكتاب يعطينا لأول مرة معلومات جديدة مفصلة عن هذا الانقلاب الثانى الذى انتهى بقتل إسماعيل وتولية البرميخو ، وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن ابن الخطيب كان معاصراً ومشاركا لأحداث هذه الانقلابات ، اضطهده السلطان إسماعيل وسجنه ، وصادر أمواله لأنه كان من وزراء أخيه السلطان المخلوع محمد الخامس ، ثم شفع فيه سلطان المغرب أبو سالم المرينى ، فأطلق سراحه وسمح له بالعبور إلى المغرب (٣) .

ومن هذا نرى أن كلام ابن الخطيب عن أحداث هذه الفترة وشخصياتها ، له قيمته التاريخية بحكم كونه شاهد عيان لها ، وإن كنا فى الوقت نفسه نلاحظ فى أسلوبه تحاملا مقصودا على رجال ذلك العهد ، وهذا أمر طبيعى من رجل موتور منهم .

يبدأ ابن الخطيب كلامه فى هذا الفصل عن ضعف السلطان اسماعيل وخنوثته وسوء سيرة أمه مريم ، ثم يشير إلى تنكر هذا السلطان لقريبه أبى سعيد البرميخو

---

(١) راجع التفاصيل فى (ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة جـ٢ ص١٢ ، طبعة القاهرة)

(٢) راجع المتن .

(٣) ابن خلدون : (العبر جـ ٧ ص ٣٠٦ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٧ — ٢٨ ، أزهار الرياض ، جـ ١ ص ٢٠٧).

رغم أفضاله عليه فى استخلاص العرش له ، ثم يصف حوادث خلع إسماعيل وكيف قتله البرميخو وأخذ البيعة لنفسه[1]

ويتحدث ابن الخطيب بعد ذلك عن وزير السلطان المقتول محمد بن أبى الفتح (العقرب الردى) وابن عمه رئيس الشرطة العليا إبراهيم بن أبى الفتح (الأصلع الغوى) فينعتهما بأبشع الصفات شعراً ونثراً ، ثم يشير إلى أن السلطان المغتصب البرميخو قد أقرهما فى عملهما وجدد لهما الوزارة والشرطة ، ثم عاد فانقلب عليهما وأمر بإعدامهما فى البحر غرقاً[2] .

واتخذ البرميخو بعد ذلك وزيراً حدثا اسمه محمد بن على بن مسعود ، وقد وصفه ابن الخطيب بالصرع والجنون وأن أعماله وتصرفاته لاتقاس بمقياس منطق معقول ولهذا انقلب عليه سلطانه وأغرقه فى البحر[3] كما فعل بسابقيه ، وأخيراً يتكلم ابن الخطيب عن كبار الشخصيات الذين رفضوا التعاون مع السلطان المغتصب ، وفضلوا الفرار إلى المغرب أو إلى الممالك المسيحية المجاورة ومن هؤلاء اللاجئين السياسيين الأمير أبو الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره . وقد عاش هذا الأمير فى بادىء الأمر سجيناً فى عهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف ، فلما ولى السلطان محمد الخامس أفرج عن عمه وتزوج ابنته ، وحينما اغتصب اسماعيل العرش من أخيه عمد إلى إصدار الفتاوى التى تبيح له الزواج من امرأة أخيه ، كما حاول أن يسترضى والدها فنقله فى احتفال كبير إلى أحد القصور المصادرة من ممتلكات ابن الخطيب .

على أن السلطان إسماعيل لم تتم سعادته المنشودة إذ لقى مصرعه قبل أن يزف إلى عروسه ولم يجد عمه وسيلة بعد ذلك سوى الفرار إلى المغرب خوفاً على حياته .

ومن الفارين إلى غرناطة فى ذلك العهد أيضاً الأمير المغربى يحيى بن عمر بن رحو

---

(١) راجع المتن (ص ١٩ ــ ٢٠) .

(٢) انظر المتن (ص ٢٣ ـــ ٢٤ من هذا الكتاب) .

(٣) انظر المتن ص ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ من هذا الكتاب

ابن عبدالحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة . وهذه الوظيفة كانت لها مكانة مرموقة فى مملكة غرناطة ولا يشغلها إلا أمراء الأسرة المالكة من بنى عبدالحق ملوك فاس لأنهم « يعسوب زناتة »[1] والشياخة أو القيادة العامة لهذه القوة المغربية كان مقرها العاصمة غرناطة ، ويتفرع منها قيادات فرعية فى مالقة ووادى آش ورنده[2] ، ومن يتصفح تاريخ مملكة غرناطة ، يرى أن هؤلاء القواد المرينيين قد لعبوا دوراً كبيراً فى السياسة الغرناطية إلى درجة التدخل فى إقامة السلاطين وعزلهم[3] .

وقد استمر منصب شيخ الغزاة هذا قائماً فى غرناطة حتى عام ٧٧٥ هـ (١٣٧٤م) حينما ألغاه السلطان محمد الخامس فى سلطنته الثانية وتولى قيادة الجنود المغاربة بنفسه[4] ، ومن المعروف أن فرق الغزاة هذه كانت من الفرسان المغاربة المتطوعين فى الجيش الغرناطى ، وقد اشتهرت بنظام وتكتيك حربى خاص عرف باسم قبيلتهم زناتة . وقد انتشر هذا النظام الحربى الزناتى ، أو المغربى فى أسبانيا بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومثال ذلك قول ابن الخطيب فى مدح أحد أمراء غرناطة بقوله : وكان زناتى الشكل والركض والآلة[5] كذلك يشير المؤرخ الأسبانى المعاصر أيالا Ayala إلى أن ملوك قشتالة اتخذوا إلى جانب فرقهم الثقيلة المدرعة بالحديد فرقاً خاصة من الفرسان يحاربون على طريقة فرسان الزناتيين الخفيفة الحركة ذات الدروع الجلدية والركاب المرتفع ،وطريقة الكر والفر فى القتال وأطلقوا عليهم اسم Jinete ويلاحظ أن هذا الاسم مشتق من لفظ Zenetes أى زناتة ولا يزال لفظ Jinete مستعملا إلى اليوم فى اللغة الأسبانية بمعنى فارس[6] ، وكان الأمير يحيى بن رحو بن عبد الحق السالف الذكر شيخاً للغزاة فى

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٣٨ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحات ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٣) ابن الخطب الاحاطة ، نسخة الاسكوريال ، لوحات ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣٧٩ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٢٧ .

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة (الاسكوريال) لوحة ٣٦٥ .

(٦) راجع (Pedro Lopez de Ayala : Cronicas de los Reyes de Castilla I, p. 337-338)
انظر كذلك (Jaime oliver Asin : Origin arabe de Rebato y sus homonimos p. 34-40)

(٣) نفاضة الجراب

غرناطة أيام السلطنة الأولى لمحمد الخامس ، وكان — كما يبدو فى المتن — رجلا واسع الثراء وحجة فى الأنساب البربرية واللغة الزناتية[1] . وهى إحدى لهجات البربر فى المغرب إلى جانب الشلحة وتمازيرت .

فلما اعتلى اسماعيل عرش غرناطة ، عزل الأمير يحيى من منصبه لأنه كان من أنصار أخيه المخلوع وولى مكانه أميراً مرينيا آخر ، وهو إدريس بن عثمان بن أبى العلا بن عبدالحق ، وكان أبوه يشغل هذا المنصب من قبل . وشعر يحيى بالخطر يهدد حياته ، فعمد إلى الهرب من غرناطة ومعه اتباعه البالغ عددهم أكثر من مائتى فارس ، وعلم السلطان غرناطة بهروبه فأرسل فى أثره فرقة من جيشه استطاعت أن تلحق به بنواحى البيرة ، وهناك دارت بين الفريقين معركة عنيفة أصيب خلالها الأمير يحيى بجراح بليغة ، وقتل عدد من أتباعه ، ولكنه تمكن من الإفلات إلى داخل الحدود القشتالية عند قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد Alcala la Real وحينما علم ملك قشتالة بدرو القاسى Pedro El Cruel بقدومه رحب بمقدمه ، وأنزله ضيفاً عليه بمدينة قرطبة ؛ نظراً للصداقة التى تربط هذا الملك بالسلطان المخلوع محمد الخامس ، وأقام يحيى فى هذه المدينة الجميلة الذكريات إلى أن التأمت جراحه ، وفى سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) رحل إلى البلاط المرينى بفاس كمستشار للسلطان أبى سالم .

كذلك يشير ابن الخطيب إلى فرار زعيم غرناطة الذي يدعى إبراهيم بن السراج إلى بلاط ملك قشتالة ولا نعرف عن هذا الزعيم شيئاً ، ولكن يحتمل أن يكون من أسرة بنى السراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس ، وبنو السراج ينتسبون فى الأصل إلى قبيلة قضاعة اليمنية ، وقد عهد إليهم الأمويون بحراسة سواحل إقليم بجانة Pechina ولهذا سمى هذا الإقليم بأرش اليمن أى الأرض الممنوحة إلى اليمنيين أو بنى سراج ، وقد ظهر اسم هذه الأسرة بوضوح فى القرن الخامس عشر الميلادى حينما لعبت

---

(١) راجع المتن ص

المنافسة بينهم وبين أسرة الثغريين دوراً خطيراً فى سياسة غرناطة فى تلك الحقبة[1] .

ولم تقتصر الهجرة على القادة والأمراء فحسب ، بل شملت أيضاً عدداً من العلماء والكتاب الغرناطيين ، ونخص بالذكر منهم المؤرخ الأديب لسان الدين بن الخطيب مؤلف هذا الكتاب وشاعر الحمراء عبدالله بن زمرك الذى نشر ديوان شعره بأحرف من ذهب على جدران قصر الحمراء والقاضى الفقيه أبا الحسن النباهى المالقى صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس[2] ، وكتاب نزهة البصائر والأبصار[3] ، والشريف الأديب ابن راجح[4] ــ والطبيب اليهودى الغرناطى ابراهيم بن زرزر[5] وكل هؤلاء التجئوا إلى بلاط أبى سالم المرينى ماعدا ابن زرزر فقدخدم فى بلاط ملك قشتالة بأشبيلية.

وفى المحرم سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) هاجرت أسرة السلطان المخلوع محمد الخامس ، كى تلحق بعاهلها فى فاس ، وكانت مكونة من زوجته وابنه وبعض الجوارى ، ولم يسمح لهم السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو بحمل شىء من متاع الدنيا إلا الضروريات .

ولم يفت ابن الخطيب أن يشير إلى المحاولات التى بذلها فى شأنه سلطان المغرب لدى المسئولين فى غرناطة كى يفرجوا عن أمواله المصادرة ، وفى ذلك يقول :

---

(١) راجع الحميرى : (الروض المعطار ، نشر ليفى بروفنسال ، رقم ٣٧ حاشية ٤)
انظر كذلك (Garcia Gòmez : Sobre Los epitafios de los caballeros Abencerrajes) Al Andalus Vol V II, 1942) .

(٢) يسمى كذلك المرقبة العليافيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال

(٣) مخطوط بالاسكوريال رقم ١٦٥٣ ، وقد اعتمد عليه عدد من المستشرقين مثل مولر Muller الذى نشر منه الجزء الخاص بتاريخ ملوك بنى نصر فى كتابه المعروف :
Beitrage zur Geschichte der Westlichen araber, I . Heft, p . 102-138
كذلك اعتمد عليه لافونتى الكنترا Lafuente Alcantra فى كتابه المعروف باسم Inscripciones arabes de Granada

(٤) راجع ترجمة ابن راجح فى (ابن الخطيب : الاحاطة لوحة ٨٢ المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ١٩٤ ـ ١٩٧

(٥) يروى ابن خلدون أن هذا الطبيب كان ماهرا فى العلوم الفلكية وأنه تنبأ بقائد المغول تيمورلنك قبل ظهوره بنحو عشرين سنة ، راجع (ابن خلدون : التعريف ص ٣٧١) .

« وصدرت المخاطبة فى شأنى من بعض فصوله : فإن كنتم تبخلون بماله فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا »[1] .

وأخيراً يتكلم ابن الخطيب عن السلطان نفسه أبى سعيد البرميخو ، الرأس المدبرة لهذه الانقلابات ، فيتهمه بالضغط على رعاياه عن طريق زيادة الضرائب وإنزال جنوده فى دورهم ، كما يتهمه فى سلوكه الشخصى بالخروج عن حرمة السلطنة وهيبتها ، كسيره عارى الرأس ، مشمرا عن ساعديه ، مخاطباً العامة فى الطريق بصورة تثير الاشمئزاز ، وهذا يذكرنا بتلك العبارة المختصرة الجميلة التى قالها نفس المؤلف فى كتابه الإحاطة يصف بها هذا السلطان بقوله : « وكان حرفوشا على عرف المشارقة »[2] . ويتناول ابن الخطيب بعد ذلك ناحية اجتماعية هامة وهى أن هذا السلطان البرميخو كان يتعاطى الحشيش الذى انتشر فى أيامه حتى شمل الخاصة والعامة[3] : وهذه الحقيقة التى أوردها ابن الخطيب عن انتشار الحشيش فى غرناطة فى القرن الثامن الهجرى (١٤م) قد أيدتها المساجلات الشعرية التى دارت بين شعراء غرناطة فى ذلك العهد حول تفضيل الحشيش على الخمر ، ومثال ذلك الشاعر الغرناطى ابن الوحيد (ت ٧١١ هـ) في قوله[4] :

---

(١) راجع المتن .

(٢) راجع (ابن الخطيب الاحاطة فى نسخة الأكاديمية الملكية بمدريد رقم ٣٤ جـ ١ ص١٦٢) وكلمة حرفوش وجمعها حرافيش ، كانت مستعملة فى مصر ولا سيما فى العصر المملوكى ، وقد أطلقت على الرعاع وزعر العامة الذين كانوا يعيشون على النهب والسرقة والمشاركة فى مؤامرات المماليك ومنازعاتهم ، وهذه ليست أول مرة يستخدم فيها ابن الخطيب مصطلحا مشرقيا ، ففى كتابه الاحاطة أيضاً نجد عبارة أخرى تدل على اهتمامه بهذه المصطلحات، ومثال ذلك قولة (لوحة ٤٥٢ ، نسخة الاسكريال) : حصحص الحق يا خـوند ، أنا راودت يوسف عن نفسه

وكلمة خوند لفظ تركى أو فارسى وأصله خداوند بضم الخاء ومعناه السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور والاناث ومثال ذلك السلطانة شجر الدر التى كان أمراء المماليك يخاطبونها بهذا اللقب . راجع (المقريزى كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٠١ ــ ٤٠٢ نشر الدكتور زيادة) .

(٣) راجع المتن .

(٤) ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال جـ ١ ص ٣٠٥ــ ٣٠٦ .

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها لها وثبات فى الحشا وثبات
تؤجج نارا فى الحشا وهى جنة وتبدى لذيذ العيش وهى نبات

وهناك أبيات قيلت فى هذا المضمار أيضاً ، وتنسبها المراجع المغربية إلى الشاعر الغرناطى محمد الحجر الرعينى المعروف بابن خميس[1] (ت ٧٠٨ هـ) ، وإن كانت بعض المصادر المشرقية تنسبها للشاعر الأديب محمد بن على بن الأعمى الدمشقى ومن هذه الأبيات نذكر على سبيل المثال :

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر[2] معتقة خضراء لون الزبرجد
هى البكر لم تنكح بماء سحابة ولا عصرت بالرجل يوما ولا اليد
ولا عبث القسيس يوما بكأسها ولا قربوا من دنها نفس ملحد
ولا قول فى تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعى وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها فخذها بجد مشرفى مهند
وفيها معان ليس للخمر مثلها فلا تستمع فيها كلام المفند
(ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود)

ولا شك أن الحشيش قد بدأ انتشاره فى المشرق ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب فى القرن الثانى الهجرى ، ويبدو أن المغرب الإسلامى كان فى مأمن من تلك الآفة حتى القرن السابع الهجرى ، والدليل على ذلك تلك الملاحظة التى أبداها الرحالة الغرناطى ابن سعيد المغربى حينما زار مصر فى ذلك الوقت ، إذ عاب على المصريين أكلهم للحشيشة مبيناً أن أمثال هذه العادات القبيحة ، لا توجد فى بلاده[3] .

أما عن سياسة البرميخو الخارجية ، فقد عرضها ابن الخطيب عرضاً تاريخياً واضحاً

---

(١) ابن القاضى : درة الحجال جـ ١ ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢٧ والشيخ حيدر المذكور ، متصوف مشرقى يقال إنه هو الذى اكتشف هذا النبات المعروف بحشيشة الفقراء .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١١١ .

لا نجده فى المصادر الأخرى المعاصرة ، فيشير أولا إلى تحالف البرميخو مع ملك أراجون بدرو الرابع ضد ملك قشتالة بدرو الأول القاسى ، كما يشير إلى محاولة البرميخو حمل سلطان المغرب أبى سالم المرينى على حجز السلطان محمد الخامس عنده فى فاس ومنعه من العبور إلى الأندلس ، على أن يتبع هو الآخر سياسة مماثلة بالنسبة إلى أمراء بنى مرين المقيمين عنده فى غرناطة والطامعين في عرش المغرب ، وقد أثارت هذه السياسة غضب ملك قشتالة ، فعقد صلحاً مع أراجون كى يتفرغ لمحاربة البرميخو ، ثم ألح على سلطان المغرب في تسليمه السلطان محمد الخامس كى يتولى شد أزره في استعادة عرشه وأرسل أساطيله وكبار قواده إلى الثغور المغربية للقيام بهذه المهمة ، واضطر السلطان أبو سالم المرينى ،أمام تهديدات ملك قشتالة ، أن يضرب بوعود البرميخو عرض الحائط ، وأن يعمل بدوره على مساعدة السلطان محمد الخامس فى الرجوع إلى عرشه ، فأمده بالأموال والرجال والأساطيل وودعه من فاس فى حفل كبير[1] .

ينتقل ابن الخطيب بعد ذلك إلى فصل آخر من كتابه يتناول فيه ذكر بعض مؤلفاته وقصائده التى كتبها فى المغرب أثناء مقامه بمدينة سلا[2] . وهذا النص مفيد للغاية لأن مؤلفات ابن الخطيب كثيرة جدا ، وحياته العلمية والسياسية موزعة بين المغرب والأندلس ، بحيث يصعب على المرء أن يفرق بين ما كتبه فى وطنه الأصلى غرناطة وبين ما كتبه فى وطنه الثانى بلاد المغرب .

فالمؤلف فى هذا الجزء من كتابه يحدد معظم مؤلفاته وقصائده ورسائله التى كتبها فى المغرب فى هذه الفترة التى نفى فيها مع سلطانه هناك .

ومن أمثلة الكتب التى ذكرها فى هذا الصدد :

كتاب رقم الحلل فى نظم الدول ، معيار الاختبار فى أحوال المعاهد والديار ،

---

(١) راجع المتن من هذا الكتاب .

(٢) هذه المؤلفات والرسائل وردت فى فصلين فى الواقع . راجع مقالتنا عن مؤلفات ابن الخطيب فى المغرب فى Hespéris 1959, Trimestrse 3-4

الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة ، الأرجوزة المعلومة ، تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة ، مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة ، قطع الفلاة بأخبار الولاة .

أما القصائد والرسائل فهى كثيرة جدا ، نخص بالذكر منها :

القصائد التى أنشدها فى مدح الرسول ﷺ فى أعياد مولده ، وهى الأعياد والاحتفالات التى اختصت بها مدينة سلا فى هذه المناسبة العظيمة[1] ، حتى يومنا هذا، كذلك نشير إلى القصيدة العاطفية المؤثرة التى قالها فى تأبين زوجته وأم أولاده ، التى ماتت فى ذلك الوقت ودفنت هناك بمدينة سلا ، وقد نقش ابن الخطيب هذه الأبيات على ضريحها[2] . هذا إلى جانب الرسائل العديدة التى وجهها إلى سلطان المغرب أبى سالم المرينى ، وإلى كبار رجال الدولة المغربية كالخطيب أبى عبدالله بن مرزوق وصاحب قلم الإنشاء المؤرخ المعروف ابن خلدون ، وصاحب الأشغال أبى عبدالله بن أبى مدين : وقاضى تامسنا الرحالة الطنجى المشهور ابن بطوطة[3] ، وقائد الأسطول أبى القاسم بن بنج ، والقاضى المالقى أبى الحسن النباهى ، وزعيم المناطق الجنوبية بجبال أطلس عامر بن محمد بن على الهنتاتى ، وولاة بعض المدن المغربية مثل درعة ومكناسة ... الخ .

ثم يعود ابن الخطيب إلى التاريخ مرة أخرى ليتكلم عن نهاية سلطان المغرب أبى سالم المرينى . ولكنه بدلا من أن يبدأ عرضه بأحداث سقوط هذا السلطان ومصرعه تمشيا مع التسلسل التاريخى والترتيب الزمنى لأحداث كتابه — إذا به يخرج عن هذا النطاق المنهجى[4]، ويعود بنا إلى الوراء منذ أن كان هذا السلطان أميراً مغموراً إلى أن تولى

---

(١) راجع المتن ص.

(٢) راجع المتن ص .

(٣) راجع المتن ص .

(٤) لقد عودنا ابن الخطيب فى مؤلفاته على احترام مبدأ الزمان والمكان او مبدأ الترتيب الزمنى والتسلسل التاريخى . وقد صرح بذلك هو نفسه فى القسم الخامس بتاريخ المغرب الأقصى من كتابه أعمال الأعلام عندما بدا كلامه بالدول المغربية : بنى مدرار وبنى يفرن ومغراوة ، وبنى نجين وتوالى ، =

العرش ثم السنوات التي قضاها في الحكم حتى انتهت حياته . وبذلك أعطانا ابن الخطيب — لحسن الحظ — تاريخا كاملا لحياة هذا السلطان ، ووصفاً تفصيلياً فريداً في نوعه للأحداث التي مر بها المغرب في هذه الفترة التي عاصرها المؤلف بنفسه .

يبدأ ابن الخطيب كلامه عن الأمير أبي سالم عندما نفاه أخوه السلطان أبو عنان إلى غرناطة خوفا من منافسته له في الحكم ، ثم يتكلم عن وفاة السلطان أبي عنان واستبداد وزيره الحسن بن عمر الفودودي بالحكم لدرجة أنه قتل ولي العهد أبازيان محمد بن أبي عنان وأقام أخاه الصغير أبا بكر السعيد بن أبي عنان كي ينفرد في الحكم من غير منازع[1] ، ويبدو أن هذا الوضع السياسي قد أثار استياء رجال الدولة في المغرب ، فكتبوا إلى الأمير أبي سالم إبراهيم المريني بغرناطة يبايعونه ويحرضونه على القدوم إلى المغرب والاستيلاء على ملك آبائه ولقد صادف هذا العرض هوى في نفس الأمير أبي سالم ، فسعى لدى الحاجب رضوان وزير مملكة غرناطة طالبا منه مساعدته في تحقيق أطماعه ، ولكن الوزير الغرناطي لم يجبه إلى طلبه ، فاضطر أبو سالم إلى الفرار ليلا إلى مملكة قشتالة حيث التجأ إلى ملكها بدرو الأول القاسي بأشبيلية ، ملتمسا مساعدته ومظهرا له خطابات استدعائه ومبايعته التي وصلته من المغرب ، ومبديا استعداده لتلبية جميع ما يفرضه عليه الملك القشتالي من شروط ومطالب إذا ما نجح في تحقيق غايته .

= وبرغواطة والحميريين ، قبل أن يتكلم عن دولة الاشراف الادارسة العلويين ، فقال معللا ذلك :
« وإنما اتبعنا دولة الصناهجة ملوك إفريقية بهؤلاء ، وإن كان الشرفاء العلويون أولى بالتقديم ويكون هؤلاء وراءهم ، لمناسبة قرب الزمان والمكان ، فالعذر في ذلك واضح البيان » .
هذه العبارة تدل على مدى احترام ابن الخطيب لمبدأ التسلسل الزمني وعلى أصالته كمؤرخ ، عظيم خصوصا وأن المؤرخين الآخرين أمثال ابن زرع والسلاوي الناصري قد حرصوا على تقديم دولة الادارسة — لمكانتها الشريفة — على غيرها من الدول المغربية التي قامت قبلها متخطين في ذلك مبدأ الزمان والمكان الذي يعتبر الآن من مقومات الدراسات المنهجية التاريخية الحديثة راجع (ابن الخطيب : كتاب أعمال الأعلام — القسم الخاص تاريخ المغرب) .
نشر أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ، ص ١٣٧ (دار الكتاب ١٩٦٤) .

(١) راجع (المتن من هذا الكتاب) وراجع كذلك (ابن الأحمر : روضة النسرين ص ٢٩ — ٣٠) .

وهنا يورد ابن الخطيب حقيقة هامة وهى : أن ملك قشتالة قرر مساعدة أبى سالم رغم معارضة مستشاريه الذين كانوا يرون أن من مصلحة قشتالة الإبقاء على السلطان الطفل فى المغرب لأنه غير أهل للدفاع أو لاجتماع الكلمة .

ثم أمدّ ملك قشتالة الأمير أبا سالم بقطعة من أسطوله نقلته إلى مرسى مازيغان (الجديدة حاليا) المطل على المحيط الأطلسى بالمغرب ، وكان ذلك فى سنة ٧٦٠[١] هـ .

ويستعرض ابن الخطيب بعد ذلك الأحداث الداخلية التى مر بها المغرب قبيل وصول أبى سالم والتى مهدت له الطريق لنجاح دعوته ، ذلك أن وفاة السلطان أبى عنان وتولية ابنه الطفل بعده ، قد شجع العناصر المعادية للدولة على الثورة والعصيان . ففى المغرب الأوسط ، قام سلطان بنى عبدالواد ، أبو حمو الثانى بن يغمراسن ، مع حلفائه عرب بنى عامر وبنى زغبة الهلاليين بمهاجمة المرينيين فى تلمسان وانتزاع المدينة منهم فى أوائل سنة ٧٦٠ هـ . ولما علم الوزير المغربى الحسن بن عمر الفودوى بهذا الخبر أرسل جيشاً فى الحال بقيادة قريبه مسعود بن رحو بن ماساى الفودوى لاستعادة هذه المدينة ، ونجح القائد المغربى فى تحقيق هدفه بالاستيلاء على تلمسان عنوة ، غير أن جيوشه التى أرسلها لإخضاع العرب المقيمين خارج تلمسان ، قد منيت بهزيمة فادحة بالقرب من مدينة وجدة .

ولقد أثارت هذه الهزيمة استياء شيوخ المرينيين بتلمسان من استبداد الوزير الحسن ابن عمر ومن تمسكه بهذا السلطان الطفل الذى لاحول له ولا قوة ، واتفقوا على مبايعة أمير مرينى كان معهم ويدعى يعيش بن على ، ولما علم قائد الجيش مسعود بن رحو ابن ماساى بأخبار هذه البيعة أبدى اعتراضاً على شخصية الأمير المبايع له ، ولكنه أيد الفكرة من حيث المبدأ ، واختار أميراً مرينياً آخر كان يصحبه فى هذه الحملة واسمه منصور بن سليمان بن عبدالحق فبايعه بالسلطنة كما بايعه قائد الفرقة الأسبانية

---

(١) راجع المتن .

النصرانية التى كانت تعمل معم وتسايل إليه الناس من كل جانب مهللين ومكبرين . ولما علم شيوخ بنى مرين بأخبار هذه البيعة ، تخلوا عن مبايعة صاحبهم يعيش بن على الذى فر على وجهه إلى الأندلس ، بينما التف الجميع حول منصور بن سليمان وبايعوه بالسلطنة ، ثم اتجه الجميع إلى فاس عاصمة المغرب وحاضرة الملك[1] .

ولما بلغت هذه الأخبار الوزير الحسن بن عمر ، خرج من فوره مع سلطانه الملك السعيد لقتال المطالب بالملك منصور بن سليمان ، ولكنه ما كاد يستقر بخارج فاس ، وتقترب طلائع عدوه ، حتى انفض الناس من حوله لايلوون على شىء ، فاضطر إلى الانسحاب إلى داخل أسوار مدينة فاس الجديدة والتحصن بها .

ثم وصل المطالب بالملك منصور بن سليمان إلى المدينة وضرب حولها حصاراً عنيفاً ليجبر الوزير على التسليم ، وهنا يعقد ابن الخطيب مقارنة طريفة بين الفريق المهاجم والفريق المدافع ، فيشير إلى أن الفريق الأول كان يملك الأنصار والسلاح وآلات القتال . بينما كان الفريق الثانى يملك خزائن الأموال بداخل العاصمة ، ولقد استطاع هذا الفريق الأخير ، بفضل الأموال التى لديه أن يشترى النفوس ويبث الفرقة فى صفوف أعدائه وأن يصمد للحصار ويحل جميع المشاكل المترتبة عليه ، فى الوقت الذى أخذت فيه جموع المهاجمين تدب فيها عوامل الضعف والتفكك نتيجة لقلة المال واضطرارهم إلى ابتزازه بالقوة من أيدى الناس[2] .

وفى هذه الظروف العصيبة يظهر الأمير أبو سالم إبراهيم المرينى على مسرح الحوادث المغربية كمنافس جديد فى الملك ، وهنا نجد ابن الخطيب يتناول حركته فى شىء من التفصيل ، فيشير إلى المقاومة التى لقيها هذا الأمير فى بادىء الأمر عندما حاول النزول فى مرسى مازيغان (الجديدة) باحواز أزمور ، واضطراره إلى الانصراف

---

(١) راجع (المتن) وراجع كذلك الناصرى السلاوى الاستقصا ج ٤ ص ٧ .

(٢) انظر المتن .

عنها بخفي حنين ، إلا أنه ما كاد يصعد بسفينته شمالا إلى مدينة أصيلا ، حتى بادر إليه سكان هذه المنطقة من قبيل غماره ، والتفوا حوله مرحبين ومهللين ووعدوه بالوفاء والتأييد والدفاع عن دعوته ، ولم تلبث مدينة أصيلا ، حاضرة هذه المنطقة ، أن خضعت لنفوذه وتبعتها طنجة وسبتة وجميع جبال الريف فى شمال المغرب ، ولم تلبث كذلك عدوى هذا التأييد والمؤازرة أن انتقلت إلى منطقة النفوذ المرينية فى الأندلس ، فانضمت إليه مدينة رندة وجبل طارق[1] .

هذا ويبدو أن اشتداد حركة أبى سالم فى جبال غمارة وشمال المغرب عموما ، قد صرفت إليه وجوه أهل المغرب جميعا ، وأبطلت أمر السلطانين الآخرين : السعيد أبى بكر ، ومنصور بن سليمان .

أما الملك السعيد ، فإن وزيره الحسن بن عمر ، لما علم عن طريق جواسيسه باستفحال حركة أبى سالم ، رأى استغلال هذه الفرصة ليكيد لخصمه المحاصر له منصور بن سليمان ، فرفع الأعلام ، على أسوار فاس ، وقرع الطبول مستبشراً بنصر هذا القادم الجديد أبى سالم ، ثم بعث إليه بمبايعته وتأييده ، ووعده بخلع سلطانه الطفل وتسليمه حاضرة ملكه بمجرد وصوله .

أما منصور بن سليمان ، فإنه حاول منذ بادىء الأمر أن يقاوم دعوة أبى سالم بالقوة ، فأرسل إليه جيشا بقيادة أخويه عيسى وطلحة ، واستطاع هذا الجيش أن يجذب إليه بعض أنصار أبى سالم من قبيل غماره ، وأن يحرز نصراً مؤقتا عند مدينة القصر الكبير ، غير أن هؤلاء الأنصار سرعان ما انفضوا من حوله ومنى هذا الجيش بالهزيمة والفشل ، واضطر إلى الانسحاب إلى معسكر سلطانه .

كذلك يشير ابن الخطيب إلى أن سياسة منصور بن سليمان قد أخذت تسوء آخر الأمر إلى درجة نفرت منه أتباعه وخلفاءه ، ففر عنه إلى معسكر منافسه أبى سالم ، كاتب

(١) انظر المتن .

إنشائه المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون ، لأنه استهان بشأنه وقدم عليه صبياً تافهاً من كتابه ، ففضل ابن خلدون أن يرتكب المخاطر ويتخطى الحراس أثناء فراره على أن يبقى فى خدمته[1] ، كذلك انقلب عليه أيضا قائد من قواده البارزين وهو الرئيس الأندلسى محمد بن يوسف بن الأحمر ، الملقب بالأبكم ، وكان فى مقدمة الذين بايعوه وناصروه فى تلمسان ثم شاركه فى حصار فاس ، ولكن المنصور بن سليمان ، مع ذلك استخف بشأنه ، وبلغت به الجرأة أنه أمر بسجن امرأة من حريمه لم تعرف قط إلا الحجاب، فتنكر له هذا القائد وأخذ يتربص به الدوائر .

ولقد بلغ الحمق والاستهتار بهذا الأمير المطالب بالملك ، أنه فى وسط هذه الظروف العصيبة ورغم كبر سنه ، أقام حفلا بزواجه ، وخضب شعر رأسه ، وكأنه ذاهل عما يدور حوله من أحداث .

وانتهز الوزير المحصور فرصة الاضطراب الذى ساد صفوف المحاصرين له وأمر رجاله بالخروج من المدينة ومهاجمة معسكر منصور بن سليمان ، فانقضوا عليه كالصاعقة وعاثوا فيه فساداً ونهباً وتخريباً ولم يسع المنصور وولده إلا الفرار تجاه مدينة بادس شمالى شرق المغرب .

أما أخواه عيسى وطلحة ، ووزيره مسعود بن رحو بن ماساى فقد التجئوا إلى أبى سالم ملتمسين منه العفو والمغفرة ، فعفا عنهم ولكنه بعث بأخوى الشقى إلى مملكة غرناطة ليسكونا هناك تحت مراقبة سلطانها فيأمن بذلك جانبهما .

هذا وقد أورد ابن الخطيب بعد ذكر هذه الأحداث ، الخطابات الرسمية التى تبادلها السلطان أبو سالم مع سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله[2] ، والتى يصف فيها الأحداث التى انتهت بدخوله عاصمة ملكه فى منتصف شعبان سنة ٧٦٠ هـ وكيف

---

(١) انظر المتن .
(٢) انظر المتن .

تلقاه ابن أخيه الملك السعيد خارج المدينة مبايعاً ومتنازلا له عن الملك ، وكذلك الوزير أبو على الحسن بن عمر الفودودى الذى قدم له فروض الطاعة والولاء فأقره أبو سالم فى الوزارة مكافأة له على ثباته وحسن موقفه .

ينتقل ابن الخطيب بعد ذلك إلى عصر السلطان أبى سالم إبراهيم المرينى وماجرى فيه من أحداث فيشير أولا إلى السعايات والدسائس التى قامت ضد الوزير الحسن بن عمر والتى نجحت فى إثارة مخاوف السلطان منه ، فقرر إبعاده عن العاصمة فاس ، وتوليته مدينة مرا كش وأعمالها ، ولقد نجح الوزير فى إدارة ولايته الجديدة وتوطيد الأمن فيها إلى درجة أثارت حقد حساده من جديد ، فسعوا ضده عند السلطان حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما . وخشى الحسن بن عمر على نفسه ، وآثر ترك الولاية والامتناع بجبال تادلا فى كنف حماتها عرب قبيلة بنى جابر إحدى فروع جشم . عندئذ وجه إليه السلطان جيشاً كبيراً بقيادة وزيره الحسن بن يوسف الورتاجنى الذى استطاع احتلال تادلا والقبض على الحسن بن عمر وأسرته وإرسالهم إلى العاصمة . وهنا يصف ابن الخطيب دخوله مدينة فاس وقد أركب جملا هزيلا أعرج بعد أن ألبس جبة من الصوف التى يتخذها الساسة والملاحون ، حاسر الرأس ، وقد تصبب عرقا من موقف الهول ، وأمر بتأدية حق الخلافة ، فأومأ برأسه لثقل قيود الحديد ، وتشاغله بالامتساك على السنام . وأغرى به السباون والرعاع فنالوا منه ومن زوجته سونة زوج الوزراء قبله ، ثم نقل إلى مجلس السلطان حيث قام بعض الحاضرين بتقريعه ومجابهته بالتهم ، وهو غير ملتفت إليهم ، رابط الجأش رطب اللسان ، صادع بالحجة ، حمل السلطان على الاعتراف بحسن بلائه عنده ، وضبط عاصمته وحمايتها من أعدائه إلى حين قدومه إليها .

وبعد أن استوفى دفاعه ، أمر السلطان بإعدامه ، فسحب بالكبول على وجهه ، وتطرقت الأيدى إلى لحيته ، ثم اقتيد إلى باب السبع حيث نفذ فيه الإعدام طعنا بالرماح ثم صلب جسده بباب المحروق ، وظل هناك أياماً إلى أن أمر أهله بمواراته[1] .

---

(١) انظر المتن .

وبعد أن تخلص السلطان أبو سالم من وزيره الحسن بن عمر ، عمد إلى إبادة جميع المنافسين له فى الملك من أفراد أسرته من بنى عبدالحق ، فقتل الأطفال غرقاً وقتل الشيوخ ذبحا ، وحاول القيام بنفس هذا العمل مع ضحاياه المقيمين فى مملكة غرناطة ولكن سلطان غرناطة رفض أن يجيبه إلى طلبه فنجوا بذلك من براثنه . وقد أعطانا ابن الخطيب وصفاً مثيراً وفريداً لهذا العمل الوحشى لا بأس من أن نقتبس منه هذه الفقرات .

« وصرف السلطان وكده إلى اجتثاث شجرة أبيه وأن لايدع من يصلح للملك ولا من يترشح للأمر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع ، طائفة تناهز العشرين غلمانا روقة من إخوانه وأبناء إخوانه . فاركبوا البحر إلى رندة ، ومنهم ابن أخيه المسمى بالسعيد أبى بكر ، المتصير إليه الأمر بعد أبيه ، ثم تعقب النظر فيهم ، فأركبهم جفناً غزوياً مورياً بتغريبهم إلى المشرق مبعدا إياهم عن حدود أرضه ، ثم طير إلى قائد الأسطول أبى القاسم بن أبى بكر بن بنج يأمره بتغريقهم عند انصرافه عن مليلة ، فأخرجوا ليلا من جوف السفينة من بين أمهاتهم الثكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر ، وعاث فى شعورهم الحيوان لطول مقامهم فى البحر شهوراً عدة فأغرقوا : يركب الصبى منهم زبنى من تلك الزبانية ليخرجه إلى البر ، فإذا خاض به الغمر ، وقارب الضحضاح ظبه وأمسك أصحابه بيديه ورجليه وغمسوا رأسه فى الماء حتى تفيض نفسه ، إلى أن كمل منهم تسعة عشر بدور ملك وشموس إمارة ، غذوا بالنعيم ، ومهدت لهم الأرائك ، لم تعلق بهم شبهة توجب إباحة قطرة من دمائهم . حدثنى متولى هذا المكروه بهم بهول مصرعهم فقال : لقد علت منهم ليلتئذ الجثث حتى صارت هضبة ، وحفر لهم أخدود هيل عليهم ترابه . ونفذ السلطان أمره بعد ذلك بالإجهاز على طائفة من الأغفال من الرجال بين مشيخة وسواهم المنتسبين إلى يعقوب بن عبدالحق نسبة دلت عليهم الردى ، وقادت إلى غلاصمهم المدى أبيدوا ذبحا ، ثم ألحق بالجملة بعد مدة ابن أخته الغالبة على أمره ، فتجنى عليه ما أوجب أن أثكلها به .

ورأى السلطان أن قد خلا له الجو، إلا أن همه بمن تحصل بالأندلس من بنى عمه وبنى إخوته نقصه المنحة وكدر الشرب ، وكفل إلى المتغلب على الأندلس فى الغارب والذروة ، واستفزه عنهم بكل جهد وحيلة ، فلم يجد فيه من معمر ولا عليه من معول . وستر الله عنه أخاه المبايع له من بعده[1] » .

ينتقل ابن الخطيب بعد ذلك إلى المرحلة الأخيرة من عصر السلطان أبى سالم وهى وصف نهايته ومصرعه فى أواخر سنة ٧٦٢ هـ . والدوافع التى أدت إلى ذلك المصير المحزن .

فيتناول أولا شخصية حاجبه وخطيبه أبى عبدالله بن مرزوق كدافع من هذه الدوافع .

ذلك لأن السلطان أبا سالم قد راعى لهذا الرجل صداقته القديمة له ، ومجهوداته المشكورة فى سبيل عودته إلى ملكه ، فألقى بيده زمام الدولة ، وخلطه بنفسه بحيث صار لايقطع فى شىء إلا عن رأيه .

وقد أثار تفضيل السلطان لابن مرزوق ، حسد الخاصة والحاشية ، فنقموا على السلطان نفسه وانقلب حبهم له كرهاً .

وكذلك كان الحال بالنسبة للقبائل والرعايا الذين استولت عليهم المغارم حتى عجزوا عن فلاحة الأرض ، ولم يجدوا من ملكه ما كانوا ينتظرونه من مزايا وفوائد ، فخاب أملهم فيه ، وأخذوا يتربصون به الدوائر .

كل هذا والسلطان مشغول عن ذلك بدراسة العلوم الفلكية والعمل بآلة الاسطرلاب مع طبيب قصره المختص فى ذلك أبى الحسن المراكشى القسنطينى .

ومن الطريف فى هذا الصدد ما يرويه ابن الخطيب من أن هذا السلطان قد توجس

---

(١) انظر المتن .

خيفة من قاطع نحس فى برج طالعه ، فتحول من دار سكناه بفاس الجديد إلى قصبة فاس القديم أو فاس البالى . تفاديا لهذا النحس الذى يهدد حياته ، وأخذ يتوعدالمرجفين بالأخبار السيئة بالعقاب الرادع بمجرد مرور الوقت المحدد لهذا القاطع الفلكى . ويبدو أن هذه الأخبار قد انتقلت إلى خواصه وكتابه فأشاعوها بدورهم بين الناس ، فكان ذلك من أقوى الأسباب فيا نزل به[1] .

ذلك أن السلطان أبا سالم لما عزم على الانتقال من دار ملكه فاس الجديد ، استخلف عليها وزيره وزوج أخته عمر بن عبد الله بن على بن سعيد اليابانى (نسبة إلى بنى يا بان من بطون زناتة) غير أن هذا الوزير لم يلبث أن خان هذه الثقة التى وضعها فيه سلطانه ، فانتهز هذه الفرصة وأعلن الثورة عليه ، وتحالف على خلعه مع قائد الفرقة العسكرية الأسبانية التى فى خدمة ملوك بنى مرين واسمه على حد قول ابن خلدون غرسية ابن أنطول[2] ، ولم يكن يوجد بفاس من أمراء بنى عبدالحق سوى أمير واحد نجا من مذبحة السلطان أبى سالم لأفراد أسرته وهو أخوه أبو عمر تاشفين بن أبى الحسن المرينى الملقب بالموسوس ، وذلك لأنه كان معتوها أو مصابا بلوثة فى عقله ، زعموا أنه أصيب بها عند وقوعه في أسر الأسبان بعد وقعة طريف del Salado التى هزم فيها والده ، أبو الحسن سنة ٧٤١ هـ ولقد أنقذته هذه اللوثة من براثن أخيه ، فلم يقتله مع من قتلهم من أفراد أسرته اعتقاداً منه بأنه غير كفء للملك ، وإن كان هناك من يظن بأن هذا الأمير قد تظاهر فقط بهذا الجنون كى يسلم من المهالك .

وكيفما كان الأمر ، فقد لجأ الوزير عمر بن عبدالله إلى هذا الأمير وبايعه بالسلطنة في ذى القعدة سنة ٧٦٢ هـ وأجبر قائد الحامية بالمدينة عيسى الزرقاء على مبايعته ، ثم أعلن خلع السلطان أبى سالم ، واستولى على خزائن بيت المال ، ووزع الأموال على الجنود من غير حساب ، ويبدو أنه نتيجة لكثرة المشاعل وكثرة تحركات الجنود أثناء الليل ،

(١) انظر المتن .

(٢) انظر المتن .

عدت النار على بعض المخازن الملكية ، فأتت على ما فيها من أسلحة وآلات وكنوز يصفها ابن الخطيب وصفاً دقيقاً يثير الإعجاب[1] .

وفى صباح اليوم التالى طار الخبر إلى السلطان أبى سالم فى المدينة القديمة ، فخرج مع وزرائه وأتباعه وطاف حول أسوار عاصمته يريد اقتحامها فلم يستطع ، فقرر عندئذ حصارها وهنا نترك المؤلف يصف هذه النهاية المؤلمة التى عاصرها بنفسه فيقول : — (ص ١٦١ — ١٦٢) .

« فاستدعيت المضارب وقد تناصف اليوم ، وبدا فى المصاف الاختلال ، وكثر إلى محل الثورة النزوع وبه اللحاق ، والسلطان أبو سالم ، رحمه الله ، قد اختبل جزعا ، واستطير فرقاً ، وقعد بمضرب هجير ، نصب له ، يقلب كفيه ، ويلاحظ الموت صلتا من خلفه وبين يديه ، ويستدعى الماء لتبريد جوانحه فيؤتى به فى أوانى تعافها البهم ، من مبتذلات آلات الضعفاء ، عنواناً على الخمول ، ودليلا على الإدبار .

ولم يكن إلا أن انهزم النهار ، فانهزم عنه جمعه من غير قتال ولا مدافعة شأن من قبله ، وترك أوحش من وتد فى قاع ، وولّى العنان يخبط عشواء فى طائفته الخاصة به ، وكلهم ينجده ويقوى بصيرته ويعده بالدفاع عنه الوعد المكذوب ، ويقسم له على الوفاء له بالقسم الحانث . ولم يتم ذلك ونزل الليل إلا وقد أفردوه وخلفوه وحيداً مطرحاً مكفور الصنيعة مضاع الحق ، ورجعوا أدراجهم فاستناموا لأنفسهم من الغد ثم بدأ فى أمرهم فأكبلوا وضموا إلى الثقاف .

وأخرج للبحث عن السلطان ، شعيب بن ميمون بن وادرار ، فعثر عليه من الغد فى بيوت بعض البادية على أميال المدينة ، قد استبدل ثياب الملك أسمالا فأركبه على الظهر ، واستاقه إلى قريب من البلد ، وطير مستأذناً فى أمره فاستعجل فى قتله وجلب رأسه ، فصدر ذلك على يد علج أو أعلاج ، من قاذورات المشركين ، طرحوه عن ظهر

---

(١) انظر المتن .

(٥) نفاضة الجراب

الدابة التى سيق عليها ، وقتلوه ذبحاً عن جزع شديد واستلطاف وممانعة باليد عن حلقومه ، ثم حزوا رأسه عن عسر ، متصلا ببعض ترقوته ، وضمه بعضهم فى فضل ثوبه ، فأوصله إلى مابين يدى الثائر ، والعيون ناظرة إلى خليفتها بالأمس على هذه الحال[1] .

ينتقل ابن الخطيب بعد ذلك إلى الأعمال التى قام بها قائد هذه الثورة عمر بن عبدالله لتدعيم نفوذه فى المغرب ، وأولى هذه الأعمال هى التخلص من منافسه وشريكه فى المؤامرة القائد الأسبانى غرسيه بن أنطول فاتهمه بالخيانة والتآمر سراً ضده ، ثم قتله وشتت فرسانه الأسبان .

ومن الطريف أن ابن الخطيب يشير إلى أن الحى الذى كان يسكنه هؤلاء الأسبان النصارى بمدينة فاس ، كان يسمى بالمَّلاح[2] ، وهو نفس الاسم الذى يطلق الآن على أحياء اليهود فى جميع مدن المغرب ، ولقد اختلف العلماء حول اشتقاق لفظ الملاح ، وآخر تفسير له هو ما ذهب إليه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال ، من أنه فى الأصل اسم المكان الذى أفرد لليهود آخر أيام بنى مرين فى القرن الخامس عشر وهو النبع المالح . ومنذ ذلك الوقت صار هذا الاسم ، اسماً مطلقاً ودل على أحياء اليهود (أوالغيتو) فى سائر مدن المغرب الأقصى »[3] .

وعلى الرغم من قيمة هذا التفسير ، إلا أن كلام ابن الخطيب فى هذا الكتاب يلقى عليه ضوءا جديداً من حيث أن هذا الاسم « الملاح » قد أطلق فى بادىء الأمر على حى النصارى من الجنود وغيرهم بمدينة فاس ، ثم انفردت به بعد ذلك أحياء اليهود بفاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى .

---

(١) انظر المتن .

(٢) انظر (المتن من هذا الكتاب) .

(٣) راجع ليفى بروفنسال : سلسلة محاضرات عامة فى ادب الأندلس وتاريخها ص ١٠٠ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة (القاهرة ١٩٥١) .

ويستمر ابن الخطيب فى وصف أعمال الوزير عمر بن عبدالله فيقول بأنه أجرى الرسوم ، وأفاض العطاء ، وجدد الإقطاعات ، وضاعف السهام ، وتقرب إلى شيوخ القبائل ، وألان لهم القول ، واعترف لهم بالفضل ، فطابت به نفوسهم ، ووعدوه بالمؤازرة والمدافعة . ثم شرع الوزير المذكور فى تقوية حامية المدينة واتخاذ حرس خاص له ، كما اعتمد فى إدارة شئون دولته على عدد كبير من أفراد قبيلته من بنى يابان إحدى بطون زناتة ، فقويت نفسه بقوة عصبيته ، ودان له السهل والجبل وأمنت السبل ، وهذا يذكرنا بالخليفة الموحدى عبدالمؤمن بن على الكومى قبل ذلك بقرنين ، عندما استدعى قبيلته كومية الزناتية من المغرب الأوسط كى يعتز بعصبيتها وتشد أزره فى عاصمة ملكه مراكش .

وفى ختام هذا الفصل يصف ابن الخطيب لقاءه لهذا الوزير عمر بن عبد الله بمدينة سلا فى ذى الحجة سنة ٧٦٢ هـ وكيف أن هذا الأخير قد شمله بعطفه ، وأنزله فى بيت أهله ، ومهد له فراش نومته ، واستشاره فى كثير من أموره ، ثم يسرد ابن الخطيب بعد ذلك قصيدته التى أنشدها إياه عند انصرافه من عنده وقد استجيبت كل طلباته .

وفى الأخير يشير ابن الخطيب إلى بعض أبيات أخرى له كان قد وجهها إلى سلطان المغرب فى ذلك الوقت ، أبى عمر تاشفين الموسوس ، يطلب منه جارية أسبانية ممن اشتمل عليهن قصره[1] — وهذه الحادثة تذكرنا بصديقه ابن خلدون حينما زار غرناطة بعد ذلك بسنتين (٧٦٤ هـ) وتسرى هو الآخر هناك بجارية أسبانية تدعى هند[2] — والعجيب فى ذلك أن ابن الخطيب قد طلب مثل هذا الطلب ، ولما يمض شهران على وفاة زوجته وأم أولاده الصغار بمدينة سلا وقد سبق أن أشرنا إلى الأبيات المؤثرة التى رثاها بها ونقشها على قبرها .

ولعل ابن الخطيب أراد من وراء ذلك أن يملأ بعض الفراغ الذى كان يعانيه

(١) انظر المتن .

(٢) راجع (للمقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٢٨٠ وما بعدها) .

فى منفاه بعد فقد زوجته ، وحاجته الملحة إلى امرأة تشرف على خدمته وخدمة أولاده الصغار .

ينتقل ابن الخطيب بعدذلك إلى فصل جديد من كتابه يتناول فيه العلاقات المغربية الغرناطية ، وكيف أنها قد تغيرت فى عهد الوزير عمر بن عبد الله عما كانت عليه من قبل في عهد السلطان المقتول أبى سالم .

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان أبا سالم كان قد اتفق مع سلطان قشتالة بدرو الأول على مساعدة سلطان غرناطة المخلوع محمد الخامس المقيم عنده بفاس ، وإمداده بالمال والسلاح والرجال لاستعادة عرشه ، وقام السلطان أبو سالم بتنفيذ هذه الاتفاقية ، فأمر أساطيله بالتجمع في مضيق جبل طارق أمام ميناء سبتة متظاهرا بحرب الأسطول الأراجونى بينما كان غرضه الحقيقى هو إجازة السلطان المخلوع إلى الساحل الأندلسى ، وفى الوقت نفسه وصلت الأساطيل القشتالية إلى ميناء سبتة ، للقيام أيضا بمهمة إجازة هذا السلطان عبر المضيق إلى جبل طارق . ويفهم من النص أنه قد حدث نزاع بين رجال الأسطولين المغربى والقشتالى حول هذا الغرض ، فكل فريق يريد أن يأخذ السلطان المخلوع فى أسطوله كى ينسب هذا الفضل لسلطانه ، وواضح من النص أيضا أن السلطان محمد الخامس فضل العبور فى الأسطول المغربى بعد أن أرضى رجال الأسطول القشتالى بالأموال والهدايا ، كما ترك لهم بعض أقاربه ليركبوا معهم . ثم استقر السلطان المخلوع أول الأمر فى جبل طارق الذى كان خاضعا لنفوذ بنى مرين وهناك ترددت الرسل بينه وبين صديقه ملك قشتالة الذى كان مقيما فى مدينة أشبيليه ، لتحديد موعد للقائه ، وبعد أن تم الاتفاق على ذلك ، اتجه السلطان محمد الخامس فى جملة من مماليكه وأقربائه إلى مدينة أشبيليه[1] حيث استقبله الملك بدرو القاسى استقبالا حافلا ،

(١) لم يذكر ابن الخطيب فى هذا الكتاب ، اسم المكان الذى اجتمع فيه هذان العاهلان ولكنه نص فى كتابه رقم الحلل فى نظم الدول (مخطوط المكتبة الأهلية بباريس رقم ٥٠٢٦ لوحة ٤٥) على أن مدينة أشبيلية كانت هى المكان الذى تم فيه هذا اللقاء . كذلك أشارت بذلك بعض المصادر الأسبانية المعاصرة مثل : Bleda : Crónica de los Moros P. 537 (Valencia 1618) & Garibay : Historia de los Reyes d, Espana p 1103)

ووعده بالتأييد والمساعدة بدون قيد أو شرط ، كما أقرضه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته . وانصرف السلطان من عنده منشرح الصدر مجبور الخاطر ، واتجه إلى مدينة رندة التي اتخذها قاعدة لجيوشه وحكومته المؤقتة ، وكانت رندة هي الأخرى من القواعد الأندلسية التابعة لدولة بني مرين في المغرب ، وتتمتع بموقع استراتيجي مرتفع وخطير عند حدود غرناطة الغربية ، ولهذا ، وصفتها المصادر الإسبانية المعاصرة بحصن الحدود الغربية Bastión de la Fronrera occidevtal ، ومن هذه المدينة الحصينة ، أخذ السلطان محمد الخامس يكاتب زعماء مملكة غرناطة ويحرضهم على تأييده في حركته المستقبلة ضد سلطانهم المغتصب أبي سعيد البرميخو ، كما أخذت الإمدادات العسكرية من أساطيل وجيوش تصله تباعا من كل من أبي سالم سلطان المغرب ، وبدرو الأول ملك قشتالة .

ورأى البرميخو لدرء هذا الخطر أن يستنجد بحليفه ملك أراجون بدرو الرابع العدو اللدود لملك قشتالة[1] ، كما صمم كذلك على إرسال بعض المرشحين لعرش المغرب من أمراء بني مرين المقيمين عنده لإشعال نار الحرب الأهلية ضد السلطان أبي سالم ، واختار لهذا الغرض اثنين من أبناء عم السلطان المغربي وهما عبد الحليم وعبد المؤمن .

وحاول هذان الأميران الإبحار من ثغر المُنَكَّب Almunecar على ظهر سفينة حربية غرناطية ، غير أن الأسطول المغربي القشتالي المكلف بمساعدة محمد الخامس وحراسة مضيق جبل طارق ، هاجم هذه السفينة ، واضطر بحارتها إلى غرسها في الرمال ، كي لا تقع في يد العدو فتعذر سيرها بعد ذلك .

على أن ركاب هذه السفينة انتهزوا فرصة حلول الليل وغياب الأسطول المغربي

(١) انظر (M. Alarcon y G . Linares : Los documentos arabes del Archivo de la Corona de Aragon p . 142 - 143 .)

القشتالى لقضاء حاجته من زاد الماء ، وأبحروا على ظهر سفينة أخرى صغيرة فى جنح الظلام ، واتجهوا نحو ثغر هنين بالقرب من تلمسان بالجزائر . وهناك رحب بهم الملك أبو حمو الثانى صاحب تلمسان ، وآواهم عنده ، ثم نادى بالأمير عبد الحليم سلطانا على المغرب وأمده بالمال والرجال كى يثير حربا أهلية ضد السلطان أبى سالم ، وكان الدافع لأبى حمو من وراء ذلك هو الانتقام من أعدائه بنى مرين الذين طالما شردوه وشردوا آباءه ملوك بنى زيان أو عبد الواد وضموا بلادهم تلمسان ونواحيها إلى ملكهم بالمغرب الأقصى(1) .

ولقد نجحت هذه السياسة فى بث سمومها فى فاس . ففى ذى القعدة (سنة ٧٦٢هـ) - سبتمبر ١٣٦١م) لقى أبو سالم مصرعه على أثر انقلاب داخلى قام به وزيره عمر بن عبدالله وكان لهذا الحادث آثار بعيدة المدى فى سير الأحداث السياسية الجارية فى ذلك الوقت، ذلك أن الوزير عمر بن عبد الله بعد أن استتب له الأمر فى المغرب أسرع بالتحالف مع سلطان غرناطة المغتصب أبى سعيد البرميخو كما أصدر أوامره إلى الأساطيل المغربية المكلفة بمساعدة السلطان المخلوع محمد الخامس والإغارة على السواحل الغرناطية ، بالعودة فوراً إلى قواعدها بالمغرب ، كذلك صدرت أوامر مماثلة إلى الجيوش المغربية المقيمة مع السلطان المخلوع فى مدينة رندة لمساعدته فى استرجاع ملكه .

وهكذا وفى سرعة مذهلة ، وجد السلطان محمد الخامس نفسه وحيدا حتى من أقربائه وأصدقائه الذين حينما شاهدوا أفول نجمه ، تخلوا عنه وولوا هاربين إلى غرناطة أو المغرب .

واضطر هذا السلطان المخلوع فى غمرة يأسه ، أن يترك مدينة رندة التابعة لبنى مرين وأن يتجه إلى أشبيلية كى يتدبر الأمر مع صديقه بدرو الأول ملك قشتالة .

---

(1) انظر (المتن من هذا الكتاب) راجع كذلك. (يحيى بن خلدون : بغية الرواد جـ ٢ ص ٩٠ - ٩٢ ، عبد الرحمن بن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣١٦ - ٣١٧) راجع كذلك :

(Charles Dufourq : Les espagnols et le Royaume de Tlemecen aux treizième etquatorzieme siécles - Barcelona 1948) .

ورأى الملك بدرو أن الموقف قد تعقد بسبب موت أبى سالم حليفهما الثالث من جهة واقتراب فصل الشتاء من جهة أخرى ، فلم يسعه إلا الاعتذار للسلطان المخلوع عن عدم إمكان مساعدته فى مثل هذه الظروف العصيبة ، ولكنه فى نفس الوقت عمل على إرضائه وتطييب خاطره فأنزله هو وحاشيته فى ضيافته بمدينة آسجة أو إستجة Ecija وهى مدينة جميلة تطل على الثغور الغرناطية[1] .

فى ذلك الوقت كانت الحرب الأهلية قد سادت المغرب الأقصى ، إذ لم يرض الناس بسلطنة أبى عمر تاشفين الموسوس لضعف قواه العقلية ، وبدءوا ينحازون إلى الأمير عبدالحليم القادم من تلمسان .

واقتنع الوزير عمر بن عبدالله بأن الموقف لن يبقى فى يده طويلا طالما ظل متمسكا بهذا السلطان المعتوه ، ويبدو أنه قد فكر فى بادىء الأمر فى مبايعة الأمير عبدالحليم ولكنه عاد وتخلى عن هذه الفكرة لسوء سيرة هذا الأمير ولتخوفه من نوايا حاشيته وبطانته ، ثم هداه تفكيره أخيراً إلى مبايعة الأمير أبى زيان محمد بن أبى عبدالرحمن ابن أبى الحسن المرينى ، وهو ابن أخ السلطان القائم (الموسوس) ، وكان مقيما فى بلاط الملك القشتالى بأشبيلية .

ولتنفيذ غرضه صمم الوزير المذكور على الدفاع عن دار الملك فاس الجديد ضد أى هجوم يقع عليها من جانب عبدالحليم أو غيره من المطالبين بعرش المغرب إلى أن يأتى الأمير الذى وقع عليه اختياره من أسبانيا ، وهنا يعطينا ابن الخطيب وصفاً تفصيلياً للاستعدادات التى قام بها الوزير فى سبيل تحصين المدينة وتزويدها بالمال

---

(١) انظر المتن . وتنبغى الإشارة هنا إلى أن ابن خلدون اعتبر هذه المدينة داخل الحدود الغرناطية الإسلامية ، وراجع (ابن خلدون : التعريف ص ٨٠) أما المؤرخ الإسبانى المعاصر ايالا ، فقد جعلها فى منطقة محايدة بين الحدود الغرناطية والقشتالية انظر :

(Ayala : Cronicas de los Reyes de Castilla I, p 24)

والسلاح والمؤن والغلال ، وشحنها بأهل الحرف والصناعات والمقاتلة والرماة من المغاربة والأندلسيين والأغزاز الأتراك والنصارى الأسبان، لمقاومة أي هجوم أو حصار يقع عليها خلال هذه المدة[1] .

في نفس الوقت رأى هذا الوزير أن يستفيد من خبرات خصومه الذين سبق أن اعتقلهم بتهمة الاتصال بالعهد البائد ، فأطلق سراح وزيري السلطان الراحل أبي سالم ، مسعود بن ماساي ، وسليمان بن داود ، وعين الأول والياً على مدينة مراكش جنوباً ، كما عين الآخر والياً على مدينتي سبتة وطنجة شمالا ، فاكتسب بذلك ولاءهما وإخلاصهما.

ثم بعث رسولا خاصا إلى ملك قشتالة بدرو الأول لمفاوضته على ترك الأمير أبي زيان محمد ، والسماح له بالعودة إلى بلاده كي يتولى عرش آبائه ، والجدير بالذكر في هذا الصدد أن المؤرخ المعروف عبدالرحمن بن خلدون ، كان هو الآخر معاصراً لهذه الأحداث ومشاركا فيها وقد أعطانا في هذه النقطة رواية هامة لم يشر إليها صديقه ابن الخطيب وهي أن الوزير المذكور عمر بن عبدالله قد استعان بالسلطان المخلوع محمد الخامس في تنفيذ غرضه ، إذ طلب منه أن يتوسط لدى صديقه بدرو الأول ملك قشتالة كي يسمح للأمير أبي زيان محمد بالعبور إلى المغرب ، ووافق السلطان محمد الخامس على القيام بهذه الوساطة، ولكنه اشترط في مقابل ذلك تسليمه مدينة رندة التي كانت تابعة للمغرب كما سبق أن قدمنا ، ووافق الوزير المغربي على هذا الشرط تحت تأثير صديقه ابن خلدون[2] ، وانتهى الأمر بأن نجحت الوساطة ، وعاد أبو زيان إلى فاس حيث أقيم سلطاناً على المغرب بعد خلع عمه الموسوس في صفر سنة ٧٦٣هـ (نوفمبر ١٣٦١م) ، وكذلك تسلم السلطان محمد الخامس مدينة رندة التي كانت فاتحة خير استرد بعدها عرشه كملك على غرناطة بعد

---

(١) انظر المتن .

(٢) راجع (ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٣١٣ ، التعريف ص ٨٠) راجع كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٩ ، جـ ٨ ص ١١٩) .

فرار البرميخو وقتله في جمادى الآخرة من نفس هذه السنة (مارس ١٣٦٢)[١] .

وكان الأمير عبدالحليم خلال هذه المدة قد زحف بجيوشه من تلمسان نحو المغرب الأقصى واستطاع فى بادىء الأمر أن يجتذب الأنصار ، ويحقق بعض الانتصارات مثل استيلائه على مدينتى تازة ومكناسة وهما من المواقع الاستراتيجية الهامة فى المغرب ، ثم حاصر أخيراً قاعدة الملك مدينة فاس ، كما حاصر أيضاً مدينة سلا فى خبر طويل يذكره ابن الخطيب مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب[٢] .

ثم قرر الوزير المحاصر عمر بن عبدالله أن يقلب الدفاع إلى هجوم ، وأن يخرج بجيوشه من مدينة فاس لمقاتلة المحاصرين للمدينة ، واستطاع فعلا بفضل الخطة التى رسمها وبفضل شجاعة جنوده ولا سيا الأسبان منهم أن يحرز انتصارات حاسمة على عبدالحليم وأتباعه،وأن يجبرهم على ترك المغرب نهائياً والانسحاب شرقاً إلى تلمسان وبذلك تنتهى هذه الفتنة ، ويستتب الأمر للوزير عمر بن عبد الله وسلطانه أبى زيان محمد .

إلى هنا تنتهى الأخبار التاريخية لهذا الكتاب ، أما الأخبار الأدبية فقد استمرت حتى نهاية الكتاب[٣] ، وهى تكملة لما سبق أن تحدث فيه ابن الخطيب من قبل حول المؤلفات والرسائل والقصائد التى كتبها بالمغرب فى هذه الفترة من حياته التى كان من ثمارها هذا الكتاب الذى بين أيدينا .

ولا يسعنى فى ختام هذا التقديم إلا أن أقدم الشكر إلى صديقىّ العالمين الجليلين : الدكتور عبدالعزيز الأهوانى ؛ والدكتور محمود على مكى ، اللذين كان لتشجيعهما ومعاونتهما أثر كبير فى إخراج هذا الكتاب .

د . أحمد مختار العبادى

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الاحاطة (نسخة الاسكوريال) لوحة ٤٢٩ ، أعمال الأعلام ص ٣٥٥ نشر بروفنسال ، اللمحة البدرية ص ١١٧) .

(٢) راجع المتن .

(٣) راجع المتن .

فصل في ذكر جبل هنتاتة (1)

وعملنا على الصعود إلى الجبل المطل عليها ، والجارح المرفرف على دراجها مقتصرين على حدود هنتاتة ، عنصر الدعوة ، وأولياء الدولة المرينية ، وحلفاء الطاعة المخصوصين برعي الجوار ، والاستماتة من دون الحرمة ، وشد عروة الوفاء ، وسد الخلة ، واستحقاق الشفوف (2) على غيرهم والمزية ، إذ كان ذلك أقوى بواعث الوجهة ، وأخلص مقاصد الرحلة .

وقدمت بين يدى وصولى إلى مراكش ، المخاطبة إلى عميد تلك البقعة ، وشاه

---

(1) هنتاتة : بكسر الهاء وفتحها ، وسكون النون ، وفتح التاء الفوقية ، بعدها ألف ممدودة ثم تاء مفتوحة بعدها هاء للتأنيث (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٣٧ حاشية ١) وهنتاتة اسم يطلق على جبل من جبال أطلس كما يطلق على القبيلة المقيمة فيه . ولقد لعبت قبيلة هنتاتة دورا كبيرا أيام الموحدين وبنى مرين .

انظر: (Pierre de Cenival : Les Emirs ds Hintata Rois de Marrkech, Hespéris 1937, t. XXIV p. 245.)

وقد اختفى ذكر هنتاتة بعد القرن السادس عشر الميلادى ، ومن المصادر الأساسية التى يرجع إليها فى هذا الشأن كتاب Desecripcion de Africa أى وصف أفريقيا ، الذى كتبه باللغة الإيطالية فى القرن السادس عشر الميلادى ، الفقيه المغربى الحسن بن محمد الوزان الفاسى . وكان هذا الرجل قد اعتنق المسيحية وسمى نفسه يوحنا ليون الافريقى Juan Leon Africano ، ثم سافر إلى إيطاليا خوفا من أن يغتاله مواطنوه . وهناك اشتغل بتدريس اللغة العربية . وفى آخر حياته عاد إلى تونس حيث اعتنق الإسلام من جديد وتوفى عام ١٥٣٢ م . والكتاب لأهميته العلمية قد ترجم إلى اللغة الإسبانية بواسطة معهد الجنرال فرانكو بتطوان عام ١٩٥٢ كما ترجمه المستشرق ماسينيون إلى الفرنسية

Louis Massignon : Tableau geografique d'apres Leon I,Africain (Alger 1906)

هذا وقد أشار الوزان إلى جبل هنتاتة باسم محرف Hantera هنتيرا وقال إنه جبل مرتفع جدا وأهله مشهورون بالغنى والشجاعة . راجع (الترجمة الاسبانية ص ٧٦ — ٧٧) راجع كذلك :

(Lévi Provençal : Documents Inedits D.Histoire Almohade p. 62 Note 4)

(2) الشفوف بمعنى السمو .

تلك الرقعة ، صدر هذه الحدود القصوى ، المتميز بالرجاحة والرأى والسياسة ، المتفق فيه على إفاضة العدل ، وكف اليد ، والتجافى عن مال الجباية ، والمستأثر بحمد الجمهور من الرعية ، وحب أولى العفاف والخيرية ، إلى النُّبْل الذى لا يطيش نَبْلُه ، والإدراك الذى لا يُفَلُّ حدُّه ، والدهاء الذى لا يُسبَر غوره ، والمعروف الذى لا يتجاوز محالَّ الضرورة حكمته ، عامر بن محمد بن على [1] الهنتاتى ، بما نصه[2] :

تقول لىَ الأظعان والشوق فى الحشا ... له الحكم يمضى بين ناه وآمر
إذا جبل التوحيد أصبحت فارعاً ... فخيم قرير [3] العين فى دار عامر
وَزُرْ تربها المعصوم[4] إن مزارها ... هو الحجّ يمضى[5] نحوه كل ضامر
ستلقى بمثوى عامر بن محمد ... ثغور الأمانى من ثنايا البشائر
ولله ما تبلوه من سعد وجهة ... ولله ما تلقاه من يُمن طائر
وتستعمل الأمثال فى الدهر منكما ... بخير مَزُور أو بأغبط زائر

لم يكن همى ، أبقاك الله،مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام والليال ،

---

(١) عامر بن محمد بن على المكنى بأبى ثابت ، شيخ هنتانة من قبائل المصامدة ؛ تولى أحكام الشرطة بتونس فى عهد السلطان أبى الحسن المرينى ثم ولى الجباية لأبى عنان فارس فكفاه مؤنتها . وكان أبو عنان يقول عنه « وددت لو أصبت رجلا يكفينى ناحية المشرق من سلطانى كما كفانى محمد بن عامر ناحية المغرب ، واتودع » . أنظر (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٠٠ ـ ٣١٨) وقد أورد ابن الخطيب ترجمة لهذا الشيخ فى كتاب الاحاطة (لوحة ٣٤٦ ـ ٣٤٧ اسكوريال) وقد اشار فيها إلى أن السلطان أبا الحسن المرينى عهد إلى عامر هذا بحفظ حرمه فى سفن خاصة بجوار الساحل الأندلسى وذلك عندما دخل بجيوشه أرض الأندلس لمحاربة الثالوث المسيحى الاسبانى : قشتالة ، ارغونة ، البرتغال . ومن المعروف أن هذه الحرب انتهت بهزيمة السلطان المرينى فى وقعة طريف Del Salado عام ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) واستشهد عدد كبير من المسلمين من بينهم والد ابن الخطيب وأخوه .

(٢) نقل المقرى هذا الخطاب فى كتاب نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٤ ـ ٣١٥ (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ، وكذلك السلاوى الناصرى فى كتابه الاستقصا ج ٤ ص ١٧ .

(٣) فى نفح الطيب : قرار .

(٤) فى نفح الطيب : تربة المعلوم .

(٥) فى نفح الطيب : يفضى .

إذ الشمل جميع ، والزمن كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، إلا زيارتك فى جبلك الذى يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ، وأن أرى الأفق الذى طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية . فلما حُمَّ الواقع (وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع)[١] وأصبحت ديار الأندلس وهى البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياى المواقع ، قوى العزم وإن لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسى السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست الإذن حتى لا ترى فى قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزنْد العزم[٢] مقدوح ، والله يحقق السول ، ويسهل بمثوى الأماثل المثول ، ويهيء من قبيل[٣] هنتاتة القبول بفضله .

فأكرم الوفادة ، وأطرأ[٤] بين يدى الإمارة ، واستدعى من محل سكناه بمراكش إلى دار الكرامة ، وشرك فى الطعام نبهاء الدولة وعلية الخاصة . وأطرف من استجلاء منزله بقرة العين ، انفساح خطة ، والتفاف شجرة ، وجرية ماء ، واستبحار بركة . واستكثر من كل طرفة ، ونقل من جلسة إلى جلسة ، وحرص على تتميم البر بكل حيلة .

وفى يوم الاثنين المتصل بيوم القدوم ، توجهنا إلى الجبل فى كنف أصحابه تحت إغراء بره ، وفى مركب قرة عينه ، فخرجنا نستقبل بين يديه السهل ، و نساير الجهة ، و نشاهد الآثار ، و نتخطى المعاهد، ونَنْشَق[٥] (٣و) النسيم البليل القريب العهد بمادة الثلج وعنصر البرد ، ولما بلغنا درج الجبل ، وانتحينا طريقه من السفح ، وهى تركب ضفة الوادى الملتف بعادى شجر الجور والطَرْفاء وشجر الخلاف والدردار ، وأمعنا (و)[٥] كابدنا عنتا فى اقتحام الوادى ذى الجرية الكثيرة الصبب ، المسوقة

---

(١) الزيادة عن نفح الطيب .

(٢) فى نفح الطيب : للعزم .

(٣) فى نفح الطيب : قبل .

(٤) اطرأه أى بالغ فى مدحه .

(٥) الواو هنا زيادة كى يستقيم المعنى .

المد ، العظيمة التيار ، المجهولة المخاض ، ونقتحم منه أزرق شفافاً عن الحصباء ، كثير الجلبات ، أملس الصفاح ، لذاع البرد ، عبرناه نحوا من ثلاثين مرة فى أماكن يتخللها الدّوح ويعظم الرَّيْع ، وتَخْضُر الحرباء(*) ، وتسمو عن جانبها الجبال الشم ، والشعبات التى تزلُّ بها العُصْم ، وتفضى دروبه إلى أقوار(١) فسيحة ، وأجواء رحيبة ، يكتنفها العمران ، ويموج بها السنبل .

ولما كدنا أن نختم عدد نُوَب المجاز ، ونأتى على عَمَنِيه ، تلقتنا الخيل راكضة أمام اليعسوب المتبوع عبد العزيز بن محمد الهنتاتى ، صنوه وحافظ سيقته ، وقسيمه فى قعساء عزته ، الحسن الوجه ، الراجح الوقار ، النبيه المركب ، الملوكى البزة ، الظاهر الحياء ، المحكِّم الوَخْط إيثاراً للحشمة ، واستكثاراً من مواد التجلة على الفَتَاء والجِدَة . فرحَّب وأسْهَل ، وارتاح واغتبط ، وألطف وقدَّم . وصعدنا الجبل إلى حلة سكناه ، المستندة إلى سفح الطَّوْد ، وقد هيأ ببعض السهل الموطأ للاعتمار بين يدينا من المضارب كل سامى العماد ، بعيد الطُّنُب ، سوىّ القامة ، مقدَّر التفاصيل ، بديع النقش والصنعة ، ظاهر الجدة ، مصون عن البِذْلَة ، يظلل من مراتب الوطاء الرفيع ، ولحف الحرر (٣ ط) ومساند الوشى ، وأنطاع مزعفر الجلد ما تضيق عنه القصور المحجَّبة والأبهاء المنضدة . ولم يكد يقر القرار ، ولا تنزع الخفاف ، حتى غمر من الطعام البحر ، وطما الموج ، ووقع البَهْت ، وأُمِّل الطَّحْو(٢) ، ما بين قصاع الشيزى أفعمها الثُرُد ، وهيل بها السمن ، وترا كبت عليها لِمَان الحملان الأعجاز ، وأخونة تنوء بالعصبة أولى القوة ، غاصة من الآنية بالمُذْهَبِ والمُحْكَم ، مُهْدِيَةً كل مختلف الشكل ، لذيذ الطعم ، مُهانٍ فيه عزيز التابل ، محترم عنده سيدة الأحامرة الثلاثة(٣) إلى السمك

(*) لعلها تخضر بمعنى تبرد، او تخضر لاتخاذها لون البقعة .

(١) انظر ما كتبه دوزى فى معنى قور وأقوار فى :

(Dozy : Supplément aux Dictionnaires, Arabes, II, p. 417 a)

(٢) أى الانبساط والامتلاء .

(٣) عبارة يقصد بها اصلا اللحم والمسك والخمر .

الرضراض والدجاج فاضل أصناف الطيار ، ثم تتلوها صحون بحاسية تشتمل على طعام خاص من الطير والكُبَّاب والقالق(١) ، يقع منها بعد الفراغ إلمام ذلك الرئيس فى نفر من خاصته بما يدل على اختصاص ذلك بنفسه . ويتلو ذلك من أصناف الحلواء بين مُسْتَبْطَن للباب البُر ، ومعالج بالقَلْو ، وأطباق مُدَّخر الفاكهة وأوعية العود المحكم الحلَق ، المشتملة على مُجاج الشهد . وقد قام السماط من خدام وأساودة أخذتهم الآداب وهذبتهم الدُّربة، فخفَّت منهم الحركة وسكنت الأصوات ، وانشمرت الأذيال . وقد اعتمَّ من الآنية النحاسية للوضوء والوقود كل ثمين القيمة ، فاضل أجناسه فى الطيب والأحكام والفخامة .

ولم يكد يفرغ من الأكل إلا وقد جن الليل ، وتلاحق من الطعام السيل ، مربياً على ما تقدم بالروية وانفساح زمان الاحتفال ، وتفتن أصناف الحلواء ، وتعدَّى (٤ و) عسليها إلى السكر ، وكان السَّمر والمجالسة فى كنف لألاء الشموع الضحاكة فوق المنصات النحاسية ، والأتوار(*) اللاطونية(٢) فاستعيد الكثير من تاريخ القطر وسيره ، وخبر لجأ السلطان المقدس أمير المسلمين أبى الحسن(٣) إلى قنتة ، والتحرم

---

(١) القلق طائر طويل العنق والرجلين ويوصف بالذكاء والفطنة .

(*) وهي الشمعدانات، أنظر معجم دوزي ط. ص 154.

(٢) لعلها مشتقة من الكلمة الاسبانية لاطون Laton بمعنى النحاس الأصفر . وقد استعملها المقرى فى (نفحه ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٦٢) . راجع (Dozy ; Suppl. H. p 508 a) .

(٣) أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق (٧٣١ - ٧٤٩ هـ) عاشر ملوك بنى مرين بفاس . كان رجلا مجاهدا قويا طموحا ، استطاع أن يوحد المغرب تحت سلطانه ثم يتجه بجيوشه وأساطيله نحو الأندلس لغزو الأراضى المسيحية والسيطرة على مضيق جبل طارق . غير أن الجيوش الاسبانية ومن انضم إليها من جيوش المتطوعين الأوربيين انتصرت عليه فى وقعة بالقرب من مدينة طريف ومن نهر سلادو ؛ ولذا سميت فى المصادر العربية بوقعة طريف وفى المصادر الاسبانية del rio Salado وذلك فى عام ١٣٤٠ م / ٧٤١ هـ وقد مات فى هذه الوقعة والد ابن الخطيب وأخوه . بعد هذه الهزيمة ثار المغرب الاوسط أو الجزائر على السلطان أبى الحسن يريد الاستقلال عن فاس بزعامة بنى عبد الواد كما ثار عليه ابنه فارس أبو عنان . ولم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث المتلاحقة ، فمات حزينا شهيدا عام ٧٤٩ هـ عند بنى عامر فى جبل هنتانه . ولهذا السلطان آثار معمارية كثيرة بالمغرب الاقصى والاوسط وبالاندلس .

بمنيع وعز جواره على تفيئة هيض جناحه ، وتَبَرّى أثيره عميد العساكر منه ، وإطراق العيون عند نجدته ، وتصامم المسامع عند هاء استغاثته ، وقد خَذل النصير ، وزلت الأقدام ، وساءت الظنون ، وما كان من إجابة هذا النَّدْب عبد العزيز لندائه ، والتبجح بمنعة جبله ، ووفور عدته ، وأصيل وفائه ، واستصحابه إلى مقر أهله ومفزع ولده ، ودفاعه عنه بنفسه وقبيله ، ورضاه بتغير ما تناله الأيدى بالسهل من نعمته ، فعادت قاعاً صفصفاً بمرأى من عينه ، فعاثت فيها ألسنة النار بأرض البوار عن طيب من نفسه حتى لكادت الكرة أن تتاح ، والدولة أن تدول ، والملك أن يثب ، والعثرة أن يقال لها لعاً . لولا طارق الأجل الدى فَصَل الخطة وأُصمت الدعوة ، ورفع المنازعة . فتوفاه الله بين السحر والنحر ، والأنف والعين ، واستأمن من بعده لمن كان خلص إليه من خدامه ، وانحدر طوعاً بين يدى سريره ، وأبقى محل وفاته مرفهاً عن الابتذال بالسكنى ، مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهال والدعاء فتخلفها أى منقبة شمّاء ، ومأثرة بلغت ذوائبها أعنان السماء ، ويداً على (٤ ط) الخلق بيضاء .

ومن الغد كان التوجه إلى ذلك المحل المبارك ، فاقتحمنا وعراً نزل فيه الذّر[1] ، ولا يسلكه مع الحلم الطيف . وتسنّمنا شعاباً تعجز عنها العُصْم ، وتجاوزنا مهاوى مدت فيها أسراط من الخشب ترتفع عند الضرورة الفادحة ، فتقطع عمن وراءها الآمال ، إلى أن أفضينا ولم نكد إلى المحل المقصود وهى دار قوراء نبيهة البنية بالنسبة إلى جنسها[2] . . . ساذجة بادية ملطخة الجدران بالطين الأحمر ، متقابلة الأشكال

= راجع ترجمته فى (ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن) وقد نشره المستشرق ليفى بروفنسال تحت عنوان :

(Un nouevau texte d,histoire mérinide : le musnand d,Ibn Marzuk. Hespèris V 1925)

انظر كذلك (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٧٨ وما بعدها ؛ السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠١ – ١٠٢ ؛ المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٩ – ٣٢٢) .

(١) الذر : صغار النمل .

(٢) هنا ثلاث كلمات غير مقروءة تماما ورسمها (الآح بحق بها) .

بيوتها ، لاطية السقف غير مهذبة الخشب ، بأعلاها غرف من جنسها ، يدور بداخلها برطال[1] مستعل على أرجل متخذة من اللبن ، والحجر مُلَبَّس بالطين ، والبيت حيث متوفى السلطان مفترش بالحصباء ، قد ترك فيه دائرة كالقصعة تباشر الثرى ، وتمكن من تربته من يقصد شفاء المرضى وكحل العيون المرهى ، إذ كان رحمه الله آخر ملوك العدل نشأة ، لم تعرف الخبائث ، ولا آثرت الملاذ ، مُغْنِياً فى برٍّ والديه مصرِّفاً فى انتساخ الذكر الحكيم يمنى يديه ، محافظاً على الصلاة قيُّوماً عليها بالليل ، كثير الصدقة والصوم ، مجالساً للعلماء ، مستكشفاً أحوال الرعايا ، حانياً على الضعفاء ، معملا فى سبيل الله بيض الظُبا[2] ، صابراً على اللأواء ، محتسباً فى البلوى ، مستشعراً شعار التقوى ، ألحقه الله بالرفيق الأعلى . وبإزائه مصراع باب غسلت عليه جثته الزكية ، لا تتمالك العين أن (٥ و) تنتثر سلوك دموعها ، ولا القلوب أن تأخذ الحسرة بكظمها ، لما عضّ ذلك الملك الُحلاحِل[3] من الخطب الذى عوضه من نضرة النعيم ، ووجوه الغَرانِقة[4] الغر ، والتوكؤ على النمارق المصفوفة ، والزرابى المبثوثة ، فى المتبوأ الكريم ، واستثقال طلعة البدر ، واستجفاء هبّة النسيم بقنن الجبال الغُبْر ، وسكنى المحل الخشن ، ومفارقة الأهل والولد عند فراق الروح للجسد . جعلنا الله من الدنيا على حذر وتَوَقٍّ ، وكتبْنا ممن قدر قدره ، ولم يأمن مكره . فقعدنا وقرأنا وأفضنا فى الترحم ودعونا .

وكان الانصراف بعد أن ألممنا فى تلك المحلة بمسجد إمامهم[5] المهدى ودار

---

(١) المقصود البرطال أو البرطل : المدخل ويقابلها فى اللغة الاسبانية El Partal وفى الانجليزية Portico وفى الفرنسية Portique . انظر (جمال محرز : الرسوم الجدارية الاسلامية فى البرطل بالحمراء ص ١٣ – ١٤ ، (مدريد ١٩٥١) .

(٢) يقصد السيوف .

(٣) الحلاحل أى العظيم .

(٤) جمع غرنيق وهو طائر مائى أبيض جميل ، ويطلق كذلك على الشاب الأبيض الجميل الصورة .

(٥) مهدى الموحدين أبو عبد الله محمد بن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب عام ٥١٤ هـ .

(٧) نفاضة الجراب

سكناه ، وأثر مدرسته ومسجنه ، كل ذلك من الحول واللطو واستهجان الآلة على حال شبيهة بمبانى الدَّبْر[1] ، وقرى النمل ، وأعشاش الخُشاش[2] من الطير . فعجبنا من مفتاح تلك الدُّوَيْرة المهتضمة ، كيف تملك من القصور العظيمة ما إنّ مفاتحَه لتَنُوء بالعُصْبَة أولي القوة ؛ ولمنبر ذلك المسجد كيف أخذ على كم نه قىء الجلسة ، مصاحباً لبعض القشر ، بريّاً من الصنعة بأزمَّة المنابر المتخذة من الألُوَّة[3] والصندل المقاصرى فى لونيه ، والأبنوس الحبشى ، وأنياب الفيول ، وأرعاها بعُصَيّاه ، واستاقها بين يدى طاعته كالذَّوْد الشائل والسائمة الواردة ما بين قُرطُبَة واشبيليّة وغَرناطة وإفريقيّة[4] والمغرب ، سُنَّة الله فى إدالة الدول ، وتعقيب النِحَل ، ألم تر « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » .

وانحدرنا عن ذلك المرفق فأسْهَلنا ببطن الوادى ، وأرحنا بجلسة مُوَطَّأة ، مُعَدّة لاستجام السلطان رحمه الله ، قدظللتها الأشجار ، تجرى تحتها عين خرّارة كأعظم

قامت هذه الدولة على أكتاف قبائل المصامدة ، نخص بالذكر منها قبيلة هنتاته . وتوفى المهدى عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . أما دولة الموحدين فقد انتهت عام ٦٦٨ هـ بعد أن امتد سلطانها إلى الاندلس من سنة ٥٤٠ إلى ٦٠٩ هـ تقريبا .

وكانت دعوة المهدى تقوم على أساس نفى التجسيم الذى آل إليه أهل المغرب الذين تركوا التأويل فى المتشابه من النصوص الشرعية وأخذوا بظواهر الأمور . وقد سمى دعوته دعوة أهل التوحيد ، وأتباعه بالموحدين . واستمرت تعاليم المهدى منتشرة بين الناس حتى أواخر العصور الاسلامية بالاندلس. فيقول صاحب الحلل الموشية (ص ٨٩ — ٩٠ — نشر علوش Allouche) « إن ابن تومرت ألف كتابا سماه بالامامة وآخر سماه بالقواعد — بهما تعاليمه الدينية وما يجب على المسلم وما يستحيل عليه وما يجوز له — دونها بالعربى والبربرى وهما موجودان بأيدى الناس إلى هذا العهد » (أى القرن الثامن الهجرى) . واجع ترجمة المهدى فى (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١١٥ — ١٢٥ ؛ ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ، التعريف بابن خلدون ص ٢٣٤ حاشية ١ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٩٧) أنظر كذلك (Pierre de Cenival : Les emirs des Hintata Rois de Marrakech — Hespéris t. XXIV, 1937)

(١) الدبر : النحل .

(٢) الخشاش : أى الضعاف .

(٣) الألوة : شجر العود ، يتبخر به .

(٤) المقصود بافريقية فى المراجع العربية ، مملكة تونس أو المغرب الأدنى .

الأنهارَ فوق حَصىً كدُرِّ النحور ، القريبة العهد بلجج البحور ، أو كثنايا[1] الحور . تُركت فى تلك الجلسة أثقاب وخُروت[2] تفضى إليه ، يُجعَل الجعائل[3] على إمساك اليد بها برهة معتبرة ، يفتضح متعاطى ذلك لخصرها[4] وما يؤثر البرد الشديد فى حسِّ عصبها . وجُلب إلى ذلك المكان من الطعام والفاكهة والشهد ما يحار فيه الوصف .

ثم انتقلنا إلى محل النزول ، ومثوى الكرامة من المضارب ، ودعينا إلى الدور حيث مسكنى أولئك الأشراف ، يغمرنا بكل دار منها من الأطعمة ما يحار فيه الفكر ولا تنال منه إلا العين . وتشاهد من أجناس الفرش المرفوعة والمراتب المقدرة ، والسُتر الديباجية المسدولة على الأرائك الممهدة ، والسيوف المعلقة ، تتخللها العِدَّة من أصونة مُدرِمج[5] القرآن وصحيح الحديث ساكنة منها فى جفون[6] منقوشة محلاة بالإبريز ، مُقلَّدة بمحامل الحرير النسيج .

وعند الانصراف إلى المضارب ، أقبلت التحف والهدايا من المقرَّبات الكاملة تختال فى الحلية ، والكسا الرفيعة طىَّ الأوعية الرقيمة ، فعجز الشكر وبان التقصير .

ثم غمر الطعام وتخلف الشيخ عن المجالسة والمؤاكلة معتذراً عنه بألم مانع نغص لدينا النعيم ، وكدر (٦ و) الشِّرْب[7] تطيراً من وداعنا إياه حلْسَ فراش أو رهين شكاية . ثم (أنه حدسنا أنه ألمّ الحسباء)[8] وتذكرنا قول الأول :

---

(١) الثنايا : أسنان مقدم الفم .

(٢) الخروت : الثقوب الضيقة .

(٣) الجعائل جمع جعيلة وهى الأجر أو المكافأة .

(٤) أى لبرودتها .

(٥) أى الملفوفة أو المتقنة الكتابة .

(٦) علب من الجلد .

(٧) الشرب : الحظ والنصيب منه .

(٨) هذه العبارة التى بين القوسين غير واضحة فى المخطوط ، وربما كانت قراءتها كما فى المتن .

إذا غدا الطِّيبُ يجرى فى مفارقهم ... راحوا كأنهمُ مرضى من الكَرَمِ

فحقَّت الظِّنَّة ، وصدقت المَخِيلَة .

ومن الغد كان الانصراف ، فشَيَّعَ وأبعد ، وتألم للمفارقة وتوجع ، كثَّرَ الله مِثْلَه ، وكافأ قوله وفعله ، وأورث عز تلك البقعة عَقِبَه .

ولم أبرح يوم زيارة محل وفاة السلطان أمير المسلمين أن قلت[1] :

يا حُسْنَها من أربع وديار ... أضحت لباغى الأمن دار قرارِ
وجبال عز لا تَذِلُّ أنوفُها ... إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد وأُسُّ خلافة ... آثارها تُنبى عن الأخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى ... تجرى بها فى جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجى ... تلتاح فى قُنَنٍ وفى أحجار
مُحَّت جوانبها البُرودُ وإن تكن ... شَبَّت بها الأعداء جَذْوَةَ نار
هَدَّتْ بِناها فى سبيل وفائها ... فكأنها صرعى بغير عُقار
لما توعدها على المجد العِدَا ... رضيت بعَيْثِ النار لا بالعار
عَمَرت بِحلَة عامر وأعزها ... عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رِهان أحرزا قَصْبَ الندى ... والبأسَ فى طَلَقٍ وفى مضمار
ورثا عن النَّدْب الكريم[2] أبيهما ... محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهى شبيهة ... بالأصل فى وَرَقٍ وفى إثمار
أزرت وجوه الصِّيدِ من هنتاته ... فى جوها بمطالع الأقمار
لله أى قبيلة تركت لها النُظـ ... ـراء دعوى الفخر يوم فخار

---

(١) أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب (جـ ٨ ص ٣٢٣) ، وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٤ – ٢٩٥) .

(٢) فى نفح الطيب : الكبير .

نصرتْ أمير المسلمين وملكه   قد أسلمته عزائم الأنصار
آوت[1] عليا عند ما ذهب الرَّدَى   والرَّوْعُ بالأسماع والأبصار
وتخاذل الجيش اللُّهام وأصبح الا   (م) أبطال بين تقاعد وفرار
كُفِرت صنائعُه فيمَّمَ دارها   مستظهراً منها بعز جوار
وأقام بين ظهورها لا يتقي   وقع الرَّدَى وقد ارتمى بشَرار
فكأنها الأنصار لما آنست[2]   فيما تقدم غربة المختار
لما غدا لحظا وهم أجفانه   نابت شفارهم عن الأشفار[3]
حتى دعاه الله بين بيوتهم   فأجاب ممتثلا لأمر البارى
لو كان يُمنَع من قضاء الله ما   خَلَصَت إليه نوافذ الأقدار
قد كان يأمل أن يكافئْ بعض ما   أوْلَوْه لولا قاطع الأعمار
ما كان يقنعه لو امتد المدى   إلا القيامُ بحقها من دار
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة   ويعيد ذاك التُّرب ذَوْبَ نُضَار
حتى تفوز على النوى أوطانها   من ملكه بجلائل الأوطار
حتى يلوح على وجوه وجوههم   أثر الرعاية[4] ساطع الأنوار
ويسوِّغ الأمل القصيُّ كرامها   من غير ما ثُنْيا ولا استقصار
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى   عن درهم فيه ولا دينار
أو أن يُتوَّجَ أو يُقلَّدَ هامُها   ونحورها بأهله ودرارى
حقٌّ على المولى ابنِهِ إيثار ما   بذلوه من نصر ومن إيثارِ
فلمثلها ذُخِرَ الجزاء ومثلُه   مَنْ لا يُضيع صنائع الأحرار

---

(١) فى نفح الطيب : وارت .

(٢) فى نفح الطيب : لما أن تَمَّتْ .

(٣) شفارهم : أجفان عيونهم ، والأشفار : أراد بها السيوف .

(٤) فى نفح الطيب : العناية .

وهو الذى يقضى الديون ومثله[1] يرضيه فى علن وفى أسرار
حتى تُحجَّ محلّةٌ رفعوا بها علم الوفاء لأعين النظار
فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفين إليه أى بدار
تُغنى قلوب القوم عن هَدْيٍ به ودموعُهم تكفى لرمى جمار
حُييتِ من دار تكفَّل سعيها الـ (م) محمود بالزُّلفى وعقبى الدار
وضفت عليك من الإله عناية ما كرَّ ليل فيك إثر نهار

فلا تسل عن حسن موقعه لديه ، وسرور نفسه به . وفى الحين طير به إلى أخيه كبيره[2] وهو على سموٍّ قدره وعلوٍّ ذروته ، أشد الناس إيجاباً لحقه ، وانخفاضاً لبأوه، وتطامنا بمجلسه، يقرضه وزان الأب فى إلانَةِ القول ، وانكسار الطرف تتميما لوظائف المجد ، وإقامة لسوق الحرية . فأورى عند لقائنا إياه زنده ، وعَقَّب الصلة الجزيلة عذره، وبلغ قصبات السبق فضله .

وانحدرنا من الغد إلى مدينة أغمات وُريكَةَ[3] عن درج نزلنا لجَرَّاه عن الظَّهر . وقدنا الدواب قوداً ، فجازت ناجية عن صراط بعد سياط ومياط . واجتزنا على ديار هنتاته بذلك السفح على حدود أضدادهم الوريكيين ، وقد أسهلوا وانبسطوا ، ومثلت لهم الديار الُحمْر ، تحف بها البساتين الخضر ، تخترقها المذانب[4] (٧ ط) الزُّرْق . وأرحنا من تلك الجهة بالمسجد البديع الحافل البنية ، السامى المئذنة[5] ، المقام لصق

(١) فى نفح الطيب : وبره .
(٢) يقصد عامر بن محمد الهنتاتى .
(٣) تقع مدينة أغمات فى جنوب مدينة مراكش على سفوح جبال أطلس . وكانت فى ذلك الوقت عبارة عن مدينتين متقابلتين : اغمات إيلان ، وأغمات وريكة . وكان بينهما عداء وقتال دائم ، وكل فريق كان يصلى فى الجامع منفردا . وقد زال هذا العداء فيما بعد كما زالت أغمات وريكة فى القرن السادس عشر الميلادى .
انظر (J. Leon Africano : Descipción de Africa p. 73)
أنظر كذلك (صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ج ١ ص ٩٨)
أنظر كذلك (البكرى ٣٣٩ – ٣٤٠) .
(٤) أى الجداول .
(٥) المأذنه فى الأصل .

دار موسى بن على الهنتاتى ، البادى طللها ، المنبئة عن أخبارها آثارها ، تُوسِعُه ما شاء من ثناء ورحمة .

ثم أتينا مدينة أغمات فى ببسيط سهل مُوَطَّـأٍ لا نَشَزَ فيه ينال جميعه السَّقْى الرَّغد، وتركبه الخلجان وقد تموَّج به العشب ، وعافته الأيدى وغَلَّتْ أيدى فلاحه الفتنة . وهذه المدينة قد اختطت فى الفضاء الأفيَح ، فبلغت الغاية من رحب الساحة وانفساح القورة ، مثّلَت قصبتها منها قبله ، وسورها مُحْمَرُّ التُّرْب ، سَجِـحُ الجِلْدَة ، مُنْدَمِلُ الخندق ، يخترقها واديان اثنان من ذَوْبِ الثلج وسؤر الجبل ، قامت بضفتيها الأرحاء واردة وصادرة ، مرفوعة الأسداد ، منيعة البناء . يمر أحدهما بشرقى المسجد الجامع طامى العباب محكم الجسور ، نظيف الحافة ، نزهة للأبصار وعبرة لأعين النظار . ومسجدها المذكور عتيق عادى كبير الساحة ، رحيب الـكنف متجدد الألقاب . ومئذنته[1] لا نظير لها فى معمور الأرض . أسسها أولوهم مربعة الشكل وما زالوا يَبْخَسُون الذَّرْع ، ويجحدون العرض ، حتى صارت مُجَسَّماً كاد يجتمع فى زاوية المخروط . وأدير عليه فارز من الخشب يطيف بناء[2] لاط ، وقد أطل سامى جامورِها[3] فوقه ، فَقَبُحَتْ حتى مَلُحَتْ واستحقت الشُّهْرة والغرابة .

وأهل هذه (٨و) البلدة ينسب إليهم نُوكٌ[4] وغفلة عِلّتُها ، إن صدقت الأخبار ، سلامة وسذاجة ، فتَعْمُرُ بملحهم الأسمار ، وتتجمل بنوادر حكاياتهم الأخبار . فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة ، استأذنوه فى نقلها إلى بلده على سبيل الهدية ، يجعلونها تحفة قدومه ، وطُرفة وفادته .

وبإزائها المسجد ، بينه وبين النهر المار بإزائه قبة عظيمة القبو ، فخمة البنية ، ترقص

---

(١) ومأذنته فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل ولعل الصواب ببناء .

(٣) جامور ، وجمها جوامير أو جامورات ، معناها عامود فى أعلا البناء . انظر (R Dozy : Supp I. t. I. p. 212 b)

(٤) نوك بمعنى حمق .

فيها فوارة خرقاء فى جُحَّة من الحجر الأدكن مشطوفة الباطن رحيبة القطر ، قد تثلمت بعض حافاتها لماسة الأيدى ، ومباشرة أجرام الخزف والفخار عند الاغتراف بما ينبيء عن قديم عهد وطول مدة .

وللسلطان بهذه المدينة دورٌ حافلة تدل على همم ومعالى أمم ، واحتفال عوالم درجوا وأمم ، قد ركلها العفا وجذب معاطفها الخراب . فما شئت من خُشُبٍ منقوشة وأطُمٍ [1] مرقومة .

وبداخل هذه المدينة بساتين وجنات ، ولم يبلغ الخراب من مدينة ما بلغ من هذه الأيِّم [2] المهتضمة ، فتشعثت محاسنها ، وأخلقت ملابسها وأوحش عمرانها لتتابع الفتن وعيْث الشُّرار الذين لا تُعبِّدهم الطاعة ولا تزعّهم الشريعة . أنقذ الله من لَهَاة التَّبار [3] فريستها واستدرك بمدافعته مسكنَها .

وأطرفنى الخطيب بها بأخبار من اعتقل فيها من مخلوع ملوك الأندلس وأمراء طوائفها كالمعتمد بن عبَّاد ، وأبى محمد عبدالله بن بُلُقِّين بن باديس [4] أمير وطننا (٨ ط) غرناطة . ووقفنى على تاريخ صدر عنه أيام اعتقاله ، يشرح الحادثة على ملكه فى أسلوب بليغ ختمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله [5] .

---

(١) أطم بمعنى حصون .

(٢) الأيم : الرجل الذى فقد زوجته أو المرأة التى فقدت زوجها ، وجمعها أيائم وايامى وأيمون وأيمات .

(٣) التبار يعنى الهلاك .

(٤) الملك المظفر عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى بن مناد الصنهاجى ملك غرناطة وأحد ملوك الطوائف بالأندلس فى القرن الخامس الهجرى . لم يقتله المرابطون حينما ملكوا الأندلس ، كما فعلوا بمعظم ملوك الطوائف ، واكتفوا بنفيه إلى المغرب ، ولعل ذلك راجع إلى أصله البربرى . انظر (ابن الخطيب : الاحاطة لوحة ٢١٣ — ٢١٤) .

(٥) عثر المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال على هذا التاريخ القيم بجامع القرويين بفاس . وقد نشر بعضه تحت عنوان « مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة » وذلك فى مجلة الأندلس بمدريد عامى ١٩٣٥ — ١٩٣٦ =

وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عبّاد ، أمير حِمْص[1] وقرطبة والجزيرة وما إلى ذلك الصقع الغربى رحمه الله ، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد ، قد توَقّل[2] نشزاً غير سام وإلى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد إشراكاً لاسمها فى حروف لقبه ، المنسوبة إلى رُمَيْك مولاها ، المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار إلى أجداث من ولدهما . فترحمنا عليه وأنشدته[3] :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات ... رأيت ذلك من أوْلى المهماتِ

لم لاأزورُك ياأندى الملوك يداً ... ويا سراج الليالى المدْلَهِماتِ

وأنت مولى[4] تخَطّى الدهر مصرعه ... إلى حياتى أجادت[5] فيه أبياتى

أناف قبرك فى هَضْبٍ يميزه ... فتنتحيه حَفِيّات التحيات

كَرُمْتَ حياً وَمَيْتاً واشتهرت علا ... فأنت سلطان أحياء وأموات

مارِيئ مثلك فى ماض ومعتقد[6] ... أن لا يرى الدهر فى حال ولا آت

(Lévi Provençal : Les Memoires de Abd Allah, dernier roi ziride de Grenade = Al Andalus Vol. III 1935, Vol IV 1936 - 1939)

ولقد عاد الاستاذ المذكور فأخرج النص كاملا فى كتاب مستقل من مجموعة ذخائر العرب عام ١٩٥٥ قبل وفاته بقليل .

(١) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيلية Sevilla ، وقد جرت عادة المسلمين فى الأندلس أن يشبهوا بعض مدنها باسماء المدن الشرقية ، فسموا غرناطة دمشق ، ومالقه الأردن ، وتدمير (مرسيه) مصر وهكذا .

(٢) توقل : صعد وارتفع .

(٣) أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابيه أزهار الرياض (ج١ ص٢٩٧) ونفح الطيب (ج٥ ص٢٣٧ ج ٩ ص ١٩٨ — ١٩٩) ، وفى مقدمة هذه القصيدة نقل المقرى عن ابن الخطيب فقرة تختلف عن التى هنا فى المتن . يقول : وقفت على قبر المعتمد بالله فى مدينة أغمات فى حركة حاجة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات فى نشز من الارض وقد حفت به سدرة . وإلى جنبه قبر اعتماد حظية مولاه رميك ، وعليها أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتها فأنشدت ...

(٤) ورد فى المقرى : وأنت من لو تخطى .

(٥) ورد فى المقرى : لجادت .

(٦) ورد فى المقرى : ومعتقدى .

(٨) نفاضة الجراب

وزرت أجداثاً لأولياء وصالحين ختمتها بقبر الولى المتبرك به أبي، عبد الله محمد الهزميرى[1] .

وكان الانصراف عنها من الغد ، وماشينا أدواح الزيتون والأشجار ، تساوقها جَرِيَّاتِ الأنهار ، تتخللها أطلال الحِلَل والديار نَيِّفاً على شطر البريد لاتنال صفح ثراه الشمس (٩ و) ولا ترتاده الحرباء ، تتجاوب أصوات الحمام المطوّق فوق غصونه . وقد اقتطعت ذلك الجناب الخصيب أيدى الوحشة ، وأخيفت من حلل غابه السابلة ، وسكن ربوعه الآهلة البوم ، فيالها من مدينة غَزُر ماؤها وصح هواؤها ، وأينعت أرجاؤها ، وضفى عليها من المحاسن رداؤها .

وانْتَهَبْنَا السهل انتهاباً ، فدخلنا المدينة فى مُتَمَكِّنِ الضحى ، وألفينا محلّة ولد السلطان مولانا قد استعجل الأمر استقدامها ، فخيمتْ على فرسخين ، فشرعنا فى الإياب وانتحينا طريق الساحل لنستدرك بمدينة آسفى[2] زيارة من بها من أولياء الله الصالحين وعباده المقربين .

وكل أخ مفــارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان[3]

قلت نعم والفرقدان ، سبحان من استأثر بالبقاء لا إله إلا هو .

ولقيت بهذه المدينة جملة من أولى الدين والدنيا ، فمن أهل الدنيا الشيــخ الجليل كبير القطر ، ومفزع الرأى ومسيطر خاصة الإمارة ، متصرف وجوه الوجوه أبو ثابت عامر بن محمــد ، وأخوه[4] هضبة الوقار ، ونير الأفق ، وزهرة روض ذلك

---

(١) راجع ترجمة الهزميرى وأخباره فى (Lévi provençal : Le Musnad d,Ipn Marzule Hespéris 1925 t. V fasc : I p. 46 et notes 3'4)

راجع كذلك (Lévi Provençal : Historiens qe Chorfa' p. 223 et uote 3 paris 1922)

(٢) آسفى Safi راجع ما سبق أن قلناه فى تعريف هذه المدينة فى كتابنا (مشاهدات لسان الدين الخطيب ص ١٠٧ حاشية ٢) .

(٣) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى يهتدى به ، وبجانبه آخر أقل منه فهما فرقدان .

(٤) عبد العزيز السابق الذكر .

الحَزْن [1]، ويأقوتة ذلك الجبل ، وقد مر من التعريف بهما مايغنى عن الإعادة . ومنهم نائب الملك وحافظ الرَّسم وجار القصر الشيخ الفقيه على بن العباس بن موسى بن أبى حَمُّو [2] ، المعتام لكفالة أولياء العهد ، المستظهر بأمانته وصدقه على حفظ الأقطار (٩ ط) المستباح الحِمَى فى سبيل الوفاء ، أجمل الشيوخ وَجْنَةً . وأسناهم شيبة ، وأحسنهم صورة ، إلى الخُلُق السهل واللسان البليل الإطراء والبر ، والذرع الفسيح ، والمخاطبة المفصلة بفرائد التسويد ، تكررت على المدى زيارته ، وانصرفت شطر الوجهة عنايته ، واسترخصت فى استجلاب القصور والمعاهد هِشَّته ، وخفت إليها على الكبر والرَّقْبة حركته .

ثم جمعت بين الغُرَّةِ العتيقة والمهنَّدة المحلاة والصامت الدَّثْرِ هديته ، عن خصاصة متقرره ، وحال رقيقه لقصور دخله عن خرّجه ، وما جرَّه كف يده ، ووازع عفته ، وجناه الوفاء من نكبته . أصلح الله حاله ، وزاده من جميل نظر المُلك ما يقيم أوده .

ومنهم والى الوطن ومؤمن السبل وجَمَّاعة مال الجباية ، الشيخ الرئيس الفقيه أبو عبدالله بن حسُّون بن أبى العَلى وقد مر بعض ذكره [3] . وهو فريد العصر بل الدهر فى الخلال المُبِرَّة والخصال الحرة ، من مُذَكِّرٍ بالبرامكة ، مُغَبِّرٍ فى وجوه سُبَّاقِهم انتهازاً لفرص المكارم ، وتهالكا فى هوى المآثر ، ماشئت من مُغْلٍ لبضائع

---

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض وقلما يكون إلا مرتفعا ، وجمعها حزن وحزون .

(٢) لعله من أسرة بنى حمو أو بنى عبد الواد أو بنى يغمراسن ، ملوك تلمسان والمغرب الاوسط (الجزائر) ، راجع تاريخهم فى كتاب (ابو زكريا يحيى بن خلدون : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . (نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل Alfred Bel ، الجزائر ١٩٠٣) أنظر كذلك (J. Bargés : Histoirs de Beni Zeiyan, Rois de Tlemecen نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان — للإمام سيدى ابو عبد الله محمد بن عبد الجليل التنسى Ouvrage traduite de l'arabe, Paris 1852) : J. Bargés : Complement de l' Histoire des Beni Zeiyan Rois de Tlemecen ouvrage du الشيخ محمد عبد العزيز التنسى (Paris 1886)

(٣) لم يرد ذكر هذا الاسم فى الصفحات السابقة من هذا الجزء ، فلعل إشارة ابن الخطيب هنا تعنى الجزء الأول المفقود من نفاضة الجراب . ويؤيد هذا الكلام أن المقرى أورد قصيدة موجهة من ابن الخطيب إلى هذا الوالى لابن حسون ، ولم ترد هذه القصيدة فى النسخة التى لدينا . راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ١ ص ٢٨٩) .

الحمد ، منتقب بورد الخجلة ، مرسل أعنة الاعتذار فى أعقاب ملوكى العطية ، يهب الكتائب غانمات ، والمهى مستردفات، والجياد عِراباً ، يقوم على الأصلين والمنطق ، وهما الفنان المهذبان للعقل المستدعيان لكثير من المواد ، يُعترف له بالتقدم فى ذلك ، مشاركٌ فى غيره ، (١٠ و) حسن الصورة ، مهيب جَزْلٌ وقور حاسر عن الاطلاع والكفاية ، لم يبلغ عندى فى البر مداه ، ولا بل جناحُ شكرى ندى كَنَداه . ولقد أقسم بالغموس بعد أن بان رزُحه من وظائفه الباهظة[١] ، وقعود زمنه عن أمله ، وقصور وُجده عن مرمى هَمّه أن لو ألفى سَعَته التى تعودها ، لنقدنى ممن ما غُصْبته بالأندلس عن يد[٢] ، إبلاغاً فى المكارمة ونزعاً إلى هدف الحرية ، واسترقاقاً لرقبة السؤدد . حفظ الله نعمته ، وحاط حظوته ، وردعنه النوائب صاغرة ، والحوادث ناكصة . وكثيراً ما خاطبته بعد وداعه من محال كرامته بالطريق من عمالته الفسيحة الخطة ، وقد ألزَمَ من نبلاء خُدامه من تم الوظائف وكمل المآرب بمثل قولى :

يا خاتمَ الفضل أو يا حاتم الزمن	ومشترى الحمد بالغالى من الثمن
ومرسل المثل الجارى بكل عُلا	فوق البسيطة من شام إلى يمن
يا من إذا ما حكاه الجِلَّة افتضحوا	إذ التورُّمُ ممتاز من السِمَنِ
يا من تلقيتُ منه الخُلْقَ فى رجل	وقدتُ نافرة الأيام فى رسن
لله ماذا رأت عينى وقد لمحت	ذاك الكمال وماذا قُلِّدت أذنى
دع ذكر قيصر أو كسرى وما جمحت	به الحكاية عن سيف بن ذى يزن
ما الفخر إلا لملك أنت تخدمه	فَحُلَّ[٣] منه محلَّ الروح فى البدن
إن لم يَفُز منه بالغايات مثلك أو	تعلو الكواكب فى آفاقه فمن ؟

(١) رسمت فى الأصل باهضة .

(٢) من المعروف أن ضياع ابن الخطيب بالأندلس وداره الرخامية بمدينة غرناطة قد صودرت واستولى عليها السلطان المغتصب اسماعيل بن يوسف بن نصر . أنظر (نفاضة الجراب لوحة ٣٥) وهذه الاشارة تدل ضمناً على أن هذا الكتاب قد ألفه ابن الخطيب بالمغرب كما سبق أن بينا .

(٣) صحتها تحل منه .

تبأى العلا منك يوم الفخر بابن أب — جمّ السيادة عفّ السر والعلن
ماضى العزيمة ميمونٌ نقيبته — جارٍ من البرِ والتقوى على سَنَن
إلى مضاء كنصل السيف يعْضده — رأى يفرّق بين المـاء واللبن
أفادنى زمنى لقيـاك معتذراً — عما جناه فلا أدعو على زمنى
من بعد لقياك لا آسى على وطر — مهما تعذّر أو أبـكى على وطن
عقدتُ صفقة وُدِّى فيك رابحة — إن حالت الحال لا تخشى من الغَبْنِ
فالبس نسيجة ما قدمت مُعْلمة — من صنعة اليمن تنسى صنعة اليمن
من زار رَبْعَك لم تبرح جوارحه — تروى أحاديث ما أوليت من مِنَنِ
فالعين عن قُرّةٍ والـكف عن صلة — والقلب عن جابر والأذْنُ عن حسن

ومنهم صاحب الأشغال ملك الحضرة الشيـخ الفقيه الموصوف بالسلامة والعفّة ، الـكاسع إلى صف الانقباض ، المتحيز إلى فئة العافية ، المَعْفِى اليد عن غمسها ، فى كيل[1] الجباية ، أبو الحسين بن الرئيس الصدر ، مُوءَّمل الدول الأولى ، المخصوص باليد الطولى ، أبى محمد عبدالله بن أبى مَدْيَن[2] . جالسته فرأيت ذكاءه متواريا

(١) رسمت كيالو .

(٢) ولد بقصر كتامه (القصر الـكبير) ، ونشأ بمكناسة وتعلم بها وتولى الحجابة ورئاسة الـكتاب فى عهد بنى مرين . أنظر ترجمته فى كتاب روضة النسرين لاسماعيل بن الاحمر :
(Ismail Ibn Al Ahmar : Rawdat An - Nisrin‘ p. 71 et note 3‘ èdition et traduction par Gh. Bouali & Georges Marçais‘ paris 1917)
كذلك وردت تراجم له ولأسرته فى كتاب نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان للمؤلف نفسه اسماعيل بن الاحمر (مخطوط بدار الـكتب المصرية رقم ١٨٦٣ أدب لوحة ٧٠ ـ ٧١)
هذا وقد ورد اسمه فى كـتاب المسند للخطيب ابن مرزوق كما يأتى :
« الفقيه السرى الماجد الفاضل الشهير الأوحد أبى محمد عبد الله بن أبى مدين شعيب العثمانى »
راجع (Lévi provencal : Un Noveau Texte D,Histoire Mérenide ... Hespérls 1925 . Tome V p. 30)
هذا ويروى إسماعيل بن الأحمر أن أبا مدين شعيب والد عبد الله ، ليس هو أبا مدين شعيب ابن الحسين الانصارى الإشبيلى ولى الله تعالى الذى دفن بتلمسان وانما اتفق الاسمان .
انظر (نثر الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان لوحة ٧١ و)

فى حجر تغافل ، وسذاجة تَشِفُّ عن ظرف ، وخاطبنى صحبة بَرَنْكَانَه[1] بما نصه :

أيا سيداً حاز سبْقَ العلا ... بفضل النُّهى والسجايا الحِسان
ويا نخبة الوقت والمقتدى ... به فى فنون علوم اللسان
ويا أوحد العصر فى نثره ... وفى نظم شعر كنظم الجُمان
بَنَانٌ تريك بخط اليراع ... بمَهْرِقِها سحرَ علم البيان
لقد حُزت فى العلم أعلامه ... بحفظ النصوص وفهم المعان
وحزت ذُرى كل شأو رفيع ... فلا تسألنْ عن فُلٍ أو فلان
وَفُقْتَ ابنَ أوْس[2] بنظم بديع ... كما فقت نثراً بديع الزمان
أنار بك القطر لمَّا قَدِمتَ ... وظرف الزمان وظرف المكان
وأنَّسْتَ منا نفوساً لها ... بقربك ما تشتهى من أمان
تَقَبَّلْ هدية من لم يزل ... يُحِبُّك بالسمع قبل العِيان
فلما رأى شخصكمُ زاده ... ولوعاً بكم حسنُ تلك المعان
سلامٌ زكىٌ كعرفٍ زكى ... يخُصكمُ ما بدا النيِّران

ومن أهل العلم والدين الشيخ الفقيه القاضى أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله الهرغى[3] الزقندرى ، وزَقَنْدَر معدن الفضة ببعض تلك الجهات ولذلك ما قلت أداعبه :

سألتُك عبد الله إيضاحَ مشكل ... وأنت لكشف المعضلات بمرصَد
زَقَنْدَرُ قالوا عنه معدن فضة ... فما بالُه أبداك نُدرةَ عَسْجَدِ

---

(1) البرنكان : كلمة ليست عربية معناها الكساء الأسود بالفارسية والجمع برانك . وقد تكلمت به العرب ، أنظر (المعرب للجواليقى ص ٥٦ — ٦٩ ، تحقيق أحمد محمد شاكر)
(2) حبيب بن أوس بن الحارث الطائى أبو تمام الشاعر المعروف (١٩٠ — ٢٢٦ هـ)
(3) كتب على الهامش بخط صغير ، هرغة من قبائل السوس .

فاضل متفنن حَسَن الهيئة ، راجح الوزان كثير الوقار بعيد عن الدّخلة ، متساوى الظاهر والطوية ، مُطَّرِح للهوادة ، ما شئت من رجل غزير الحِفْظ ، جيد المعرفة ، مضطلع بفنون ، سديد النظر ، جَمّ المشاركة فى حديث ورواية وتاريخ وخَبَر وكلام وفقه ونظم ونثر ، إلى فضل المجالسة وحسن العشرة والغفلة عن نصيب النفس والاحتساب (١١ ط) فى حبل الرفيق ، وإقطاع ، غبيط السذاجة وفضل الفكاهة ، والجهر بالتلاوة فى سبيل الورد المترتب ناشئةَ الليل ومبادىء الإسحار . رحل وحج ولقى كثيراً من الفضلاء ، وأخذ عن عدد كثير من أهل المغرب دراية ورواية . فمن المراكشيين : أبو العباس الغفائرى ، وأبو الحجاج الدّغوى ، وأبو القاسم بن مُعَنْصِر[١] ، وأبو القاسم ابن القشاش ، وأبو عبدالله بن مسعود[٢] . ومن أهل أغمات : أبو يحيى الجزولى من حفّاظ المذهب . ومن الفاسيين : أبو محمد عبد العزيز القروى[٣] ، والقاضى أبو عبدالله ابن عبدالرزاق[٤] . ومن أهل تازا[٥] : أبو محمد الرَّجّالى . ومن التلمسانيين : الشيخ الفقيه النظّار أبو موسى بن الإمام[٦] والقاضى أبو العباس المديونى ، والشيخ المحقق

---

(١) هناك ترجمات عديدة لعلماء مختلفين تحت اسم « ابن معنصر » ، ولكنى لم أعثر من بينها على ترجمة أبى القاسم الوارد اسمه هنا فى المتن . راجع مثلا (ابن القاضى : جذوة الاقتباس حيث ترد فى صفحة ١٤٠ ترجمة أبى الحسين بن معنصر ، وفى ص ٢٨١ ترجمة عيسى بن معنصر ، وفى ص ٣٥٢ ترجمة أبى العباس بن معنصر) .

(٢) لعله كاتب السلطان أبى الحسن المرينى وإن كان المؤرخون قد اختلفوا فى صيغة اسمه ففى كتاب المسند لابن مرزوق (نفس المرجع ص ٥٩) ورد « أبو الحسن على بن محمد بن مسعود . وفى روضة النسرين لابن الأحمر ص ٨٧ ورد « على بن محمد بن مسعود » .

(٣) راجع ترجمته ونوادره مع السلطان أبى الحسن المرينى فى (ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٦٩) وقد توفى بمدينة فاس سنة ٧٥٠ هـ .

(٤) القاضى الخطيب أبو عبد الله محمد بن على بن عبد الرزاق ، أشار اليه ابن القاضى فى كتابه جذوة الاقتباس ص ١٤٨ ، ص ٣٣٩ .

(٥) تازا Taza : مدينة بالمغرب الأقصى ، تقع فى شرق مدينة فاس بنحو ١٢٧ ك . م . وتمتاز هذه المدينة بموقع استراتيجى ممتاز جعلها منذ أقدم العصور مركزا حربياً له خطورته .

راجع (تاج العروس — ٤ ص ١٢) .

(٦) أبو موسى بن الامام ، أحد علماء المنطق والعلوم العقلية بتلمسان ، درس عليه شيوخ ابن خلدون مثل محمد الآبلى وغيره . راجع (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٣٥ — ٣٦) .

نسيج وحده فى العقليات أبو عبد الله الآبلى[1] . ومن التونسيين : أبو عبدالله بن دمعون ، وابن هرون[2] ، وابن عبد السلام[3] ، والراوية الرَّحال أبو عبد الله بن جابر[4] ومن أهل الاسكندرية :أبو العباس بن فتوح ، وجمال الدين بن سلامه القضاعى، والعدل أبو الحسن بن الفرات ؛ والمشايخ الأربعة محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله[5] ، وإسماعيل الضرير ، وأبو الحسن الاقبالى ، وجمال الدين بن عبد الرزاق الربعى

---

(١) أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى (٦٨١ — ٧٥٧ هـ) أحد أساتذة ابن خلدون وابن الخطيب . أصله أندلسى من مدينة آبلة Avila فى الشمال الغربى لمدينة مدريد ثم انتقلت عائلته إلى تلمسان بالمغرب الأوسط : وهناك عكف على تحصيل العلم وتدريسه مخالفاً فى ذلك اتجاه ابيه واعمامه الذين احترفوا الجندية : رحل إلى المشرق وحج ، ولقى كثيرا من العلماء ثم عاد ثانية إلى تلمسان ثم اندمج فى طبقة العلماء بمجلس السلطان ابى الحسن المرينى بفاس وظل هناك إلى أن مات راجع ترجمته فى (ابن خلدون : التعريف ص ٣٣ ــ ٣٨ ، ابن القاضى جذوة الاقتباس ص ١٤٤ ، ١٩١ ، ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة حـ ٣ ص ٢٨٨ طبعة حيدر أباد بالهند)

(٢) أبو محمد بن هارون الطائى أحد علماء تونس الذين تتلمذ عليهم ابن خلدون . انظر ترجمته فى (ابن خلدون التعريف ص ١٩ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٣٨) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يوسف الهوارى التونسى القاضى (٦٧٦ ــ ٧٤٩ هـ) انظر ترجمته فى (الحسن النباهى : المرقبة العليا ص ١٦ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص٢٤٢ أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٤٢) .

(٤) ابو عبد الله محمد بن جابر بن قاسم بن أحمد ... القيسى (٦٧٣ ــ ٧٤٩ هـ) الوادى آشى الأصل التونسى الاستيطان : رحل إلى المشرق مرتين ولذلك سماه تلميذه ابن خلدون ، صاحب الرحلتين (ابن خلدون : التعريف ص ١٨ وحاشية ٣ ، ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ١٤١ ــ ١٤٢ « اسكوريال » المقرى : نفح الطيب جـ٧ ص ١٢٥ ــ ١٢٧) .

(٥) تاج الدين ابو الفضل احمد بن محمد عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى المالكى الصوفى الشاذلى ، صحب الشيخ أبا العباس المرسى ، وله مصنفات كثيرة فى التصوف ، توفى بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ وقبره لا يزال موجوداً بجبانة سيدى على ابى الوفاء الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الامام الليثى . وقد شرح حكمه الفقيه الاندلسى أبو عبد الله بن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ . راجع (ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٢٨٠ ، المقرى : نفح الطيب حـ ٧ ص ٢٦٦ ، ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٧٠)

وناصر الدين بن المُنَيِّر[1] . ومن أهل مصر قاضى المالكية تقى الدين الاحسانى ، وأبو الحسن الماردينى ، وعز الدين بن جماعه[2] ، وجمال الدين الدلاصى ، وأبو حامد (١٢ و) السَّبوكى . ومن أهل دمشق : شهاب الدين بن فضل الله[3] كاتب الإنشاء ، وشمس الدين بن نباته[4] ، وأبو الخير الحريرى ، وشمس الدين السلاوى آخر أصحاب ابن عبد الكريم ، وتقى الدين بن عبد الكافى ، والعلامة الأديب أبو الفضل ابن صرايا . ومن الصالحية : عز الدين المقدسى ، والمسند عبد الرحيم التنوخى . ومن أهل مكة : شمس الدين النَوْفَرى ، وإمام الموسم خليل بن محمد . ومن أهل المدينة : عفيف الدين المطرى من ذرية سعد بن عُباده .

---

(١) أحمد بن محمد بن منصور : المنعوت ناصر الدين المعروف بابن المنير الجروى الجذامى الاسكندرى . والمنير (بضم الميم وفتح النون وياء مشددة مكسورة) كان علامة الاسكندرية وفاضلها برع فى الفقه والتفسير وله مؤلفات قيمة فى هذا المضمار . توفى أوائل عام ٦٨٣ هـ وقبره لا يزال يزار بالاسكندرية . راجع ترجمته فى (ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٧١ - ٧٣ ، السيوطى: حسن المحاضرة حـ ١ ص ١٤٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ص ٣٦١ ، فوات الوفيات حـ١ص٧٢ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨) .

(٢) عز الدين عبد العزيز بن جماعة (٦٩٤ — ٧٦٧ هـ) قاضى قضاة مصر أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون . راجع ترجمته فى (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ ٢ ص ٣٧٩ ومابعدها)

(٣) شهاب الدين ابو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى . يتصل نسبه بالخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ولذلك عرف بالعمرى . ولد بدمشق عام ٧٠٠ هـ ودرس بمصر والحجاز وتوفى بمسقط رأسه سنة ٧٤٩ هـ . وله مؤلفات كثيرة نذكر منها : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار . وهو عبارة عن دائرة معارف تاريخيه جغرافية أدبية تقع فى عشرين جزءا . وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف وهو مجموعة رسائل ملكية نقل القلقشندى منها كثيراً ، وله كتاب « ممالك عباد الصليب» وصف فيه دول الفرنج ونظامها فى عصره وقد طبعه ميشيل أمارى فى روما سنة ١٨٨٣ . أما كتاب مسالك الأبصار ، فقد نشر الجزء الأول منه المرحوم احمد زكى باشا (دار الكتب المصرية ١٩٢٤) كذلك نشر العالم التونسى حسن حسنى عبد الوهاب الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس (الجزء الثانى عشر) وذلك فى مجلة البدر بجامعة الزيتونة بتونس . انظر ماكتبه Demombynes عن العمرى فى (La Syrie a l'époque de Mamlouks p. III-IV) .

(٤) الشاعر ابن نباته المصرى : جمال الدين أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح ابن يحيى (٦٧٦ — ٧٦٨ هـ) . انظر (الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢١٦ — ٢١٨) .

ولى قضاء مَرَّاكُش(١) فى منتصف رمضان عام ستين بعد ولايته أغمات وسَبتة . ومولده بمراكش فى سابع عشر ربيع الأول عام خمسة وسبعمائة . وابتدأ لهذا العهد تخريج الأحاديث التى أشار إليها الترمذى .

وأنشدنى من نظمه ولها حكاية تدل على ظرفه وحسن عهده :

ولما تجاوزنا زَلولا وشنَّة وطاشت حلوم لم تكن قبل طائشه
تيقنت أن لا منزلا بعد سبتة يَسُرُّ وأن لا إلف من بعد عائشه

توجه مؤانساً لى متحفياً إلى جبل هنتاته ، فأمتع ما شاء حفظه الله وأحسن مجازاته .

ومنهم الشيخ العدل القاضى برباط آسفى عبد الرحمن بن على بن أبى العيش القيسى المعروف بطالب عافيه ، من الصدور الجلة وأعلام الطلبة بتلك البلدة فضلا وعدالة وتفنناً ومشاركة ، يخوض فى كل فن ، ويُلقى دَلْوَه إلى كل حوض ، أصيل الحفظ (١٢ط) جيد البحث ، بعيد عن السآمة ، لا يمر له وقت ضياعاً إلا عن مذاكرة فى فن أو إجراء طُرفة ، غير مُبال بتَهْويم نوم ، وهجوم هاجرة ، أو مخالطة كد إلى حُسن العشرة ودماثة الخُلقُ ، وإيثار التخلى والعزلة والحَوْم على السلوك والتجريد . شارك القاضى أبا محمد فى كثير ممن ذُكرَ أخذه عنه من أعلام بلده .

ومنهم الأستاذ المتفنن النظَّار أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن الفَخَّار(٢) ، أستاذ المدرسة العظمى من أهل العلم والفضل والمشاركة والتفنن ، يقرى بها علم اللسان والأصلين

---

(١) مراكش : بالفتح ثم التشديد وضم الكاف مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى أسسها أبو بكر عمر اللمتونى أمير المرابطين عام ٤٦٢ﻫ (١٠٧٠م) . واستمرت هذه المدينة عاصمة للدولة أيام المرابطين والموحدين ثم قلت مكانتها السياسية فى عهد بنى مرين عندما صارت مدينة فاس عاصمة للدولة . انظر (مراصد الاطلاع ج٣ ص ١٢٥١) انظر كذلك (J.Leon : Op. cit p. 67 - 58) ومقالنا عن كتاب الحلل الموشية فى مجلة تطوان العدد الخامس سنة ١٩٦٠ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن على بن الفخار الأبيرى شيخ النحاة بالأندلس ، درس عليه كثير من علماء ذلك العصر أمثال ابن الخطيب ، وأبى إسحاق الشاطبى صاحب شرح الألفية ، والشاعر الغرناطى المعروف ابن زمرك وغيرهم . راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٧٥ وما بعدها) .

والفروع ، فيُمْتِعُ ويَحْسِبُ على طَرَش كدَّر رحمه الله الانتفاع به ونغّص الأنس بمجلسه نفعه الله[1] ، [2] .

وانتابنى من الظرفاء والأدباء الشيخ الفقيه المكَتِّب أبو عبدالله محمد بن القاسم ابن عمر بن عبدالله الصَّيْرَفى ، من أَهل النبل والظَّرْف علىْ خُلُقٍ زعموا غير سَبْط[3] ، كتب عن الأمراء بمراكش ، وأبى العباس بن حسين الغفائرى ، والخطيب المحدِّث أبى عبدالله بن رُشَيْد[4] ، والقاضى أبى الحجاج الطُّرطوشى ، والمقرئ أبى الحسن ابن برنى ، وأبى العباس الفرقسى ، وأبى العباس بن برنى ، وأبى العباس بن القرّاق ، وأنشدنى من شعره :

مَنْ لَمْ يُفِدْكَ بنفعه أو جاهه ... فلأيما اصْتَصْنَعْتَهَ تَخْدُوما

فَلْتَخْدِمِ الله الذى من أمّهُ ... بضمير صدق يلْفَ منه رحيما

ومن نثره قوله : وأما الكتابة فلفظ نِحْلَةٍ حُذفت تاؤه[5] ، ومعقل خُذْلَةٍ شرع من غير مَحلِّه إيتاؤه ، وهى خطة استغنى الناس بذَيّانها[6] عن سَحْبَانها[7] وعن مُلاك أزمَّة آدابها بجهلة طُلاَّبها ، فمن رأَسها معهم من ذوى المروءات والهمم من سائر الأمم ،

---

(١) كذا فى الأصل ولعل صحة العبارة نفع الله به .

(٢) كتب على الهامش وبخط مختلف غير واضح العبارة التالية : « هذا الأطرش أعلم واحد وأرسخ فى العلوم وأنفذ فى المدارك والظهور ... كان يفتل زجندريك بين أصبعيه ويخططه بفضية للعامة ... والله أعلم . ابن الفخار من أئمة اللسان والأصول » .

(٣) غير سبط أى غير سهل .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهرى السبتى . محدث ورحالة شهير (٦٥٩ — ٧٢١ هـ) . راجع ترجمته فى (ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٨٠ ، ابن الخطيب : الاحاطة (اسكوريال) لوحة ١٣٢ — ١٣٥ ، التعريف بابن خلدون ص ٣٩ حاشية ٤).

(٥) لعله يريد بذلك لفظ الكتابة .

(٦) الذين : العيب ،

(٧) سحبان بن زفر بن إياس الوائلى ، يضرب به المثل فى البيان . أدرك الإسلام ومات عام ٥٤هـ ترجمته فى شرح ابن نباته على رسالة ابن زيدون ص ٧٥

فقد ارتكب الصعاب وثوى مقعداً من المذلة والهُون أنَّى شاء من سائر الأبواب ، فهو ينشد سائليه عن حاله بلسان عذر كليل ، وقلب عليل ، معتذراً فى الضرائر بما قد قيل :

ألا قاتل الله الضرار فإنها[1] تُعَلِّمُ خير الناس شرَّ الطبائع
وتَحْمِلُ ذا الطبع الشريف تكرُّما على ذِلَّةٍ فى عيشه وتصانع

وكان السفر من مراكش يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة وقصدنا باب الرَّخا من أبوابها غَلَساً لنصابح تربة الشيخ ، قصد التزود ببركتها ، فتعذر فتح الباب وطال به الوقوف وأعْيِيَ علاجه ، فانصرفنا عنه وفى أنفس بعض المشيعين حزازة من ذلك ، فأنشدت منهم الشيخ القاضى أبا محمد الزقندرى بديهة :

يا محلاً نُحلَّتى وانتحائى لم يُبِحْ لى الخروجَ بابُ الرخاءِ
دلَّ أن الرخاء مغتبطٌ بى فبحقٍ تَبَجُّحِى وانتخاءِ

فحُفِظ واستُطْرِف ، وتحول المحزون إلى ضده والله الموفق للأقوال والأعمال بفضله.

وحثثنا السير على تَفِيَّةِ[2] ارتحال الجيش وتوقع (١٣ ط) الفساد فى السُّبُل ، صحبة لِمَّةٍ من أشياخ وراء سكان الصقع ، واستقبلنا حى بنى الحارث من عرب العمود ، جَذْوَة شَرار الشِرار أولى الحِرابة والخرابة . فنزلنا بمحلة من حِلَل رِعاء البَهْم وقد أوقع فى طريقنا يومئذ بمحروبين حار أحدهما ونجا ثانيه برأس طِمِرَّة ولجام .

ورحلنا من الغد فى قفر تَنْدُر ببعض مَهامه به أبيات نابية للمُسَمَّيْن ، وبتنا بحِلَّةٍ من حلل بنى جابر أولى إبل وشاء . ورحلنا من الغد فتجاوزنا غَوْلاً[3] ، وتخطينا مَظَنَّة اعتراض ، ومَسْبَعَةَ نُفَّاق فى حَدٍّ بين بلاد بنى الحارث ، وبنى

---

(١) فى الأصل : إنها ولعل الصواب فإنها ليستقيم وزن البيت .

(٢) تفية وتفيئة الشىء : زمانه :

(٣) الغول : بعد المفازة والمشقة .

وراء ، يُولى كلٌّ منهم خُطّة المَلام جاره عند إعداء الرُّفُق المصابة ، وإصراخ السلطان لندائهم .

ودخلنا بلاد بنى ما ِقر ، فكان المبيت بسورها تحت خصبٍ وأَمَنَة ، ومنهاصرفنا مَن صَحِب من أشياخ تلك الأرض عن شكر وإطراء ، وإن كنا فى مَظنَّة الروْع ، نرى منهم اخزرارَ عيون ومخايلَ فتنة .

ومن الغد سلكنا وطن بنى ماقر وهو كثير العمران ، متعدد الديار والأشجار سَقْيُه من نطاف عذبه تَخْتَزِنُ بها بركات الأمطار فيقع بها أَمْنُهم والاجتزاء إلى زمن المطر . وبها كثير من الصالحين وأولى الخير وأرباب التلاوة ، وربما أُلفِيَ بها ضدُّهم ، ولله درُّ القائل :

الناس كالأرض ومنهـا هُمُ　　من خشن فيهـا ومن لَيِّن
مَرْوٌ(١) تَشَكَّى الرِّجلُ منه الأذى　　وإِثْمِدُ يُجْعَل فى الأعـين

ووردْنا مدينة آسفى وقد تمكن النهار ، فلقينا موكب أرباب الخطط بارين مُعدين . ولما شارفنا ، ركب إلينا صردوكها أحمد بن يوسف حفيد الولىّ أبى محمد صالح ، القائم فى ظل صيته ، وأثير الناس من أجله ، رجل أَدَمُ اللون ، قد تَعَجَّل الوَخْطُ منه ، ذقن كث ذو تيقور(٢) ، جالس السلطان ، وقاد ركب الحجاز ، وجرَّ ببلده دنيا عريضة واقتعد غارب غنًي جمّ ، يفد على باب السلطان فى سبيل دالَّةٍ بقديمه ، ويقفل إلى وطنه مجدد الصكوك مستجاد الخِلعة . خاطبته بين يدى قدومى بقولى :

---

(١) كتب على الهامش : المرو صغار الأحجار .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعلها تيفور أو طيفور وهو لفظ كان يدل فى غرناطة الاسلامية على ضرب من الموائد الصغيرة وهذه الكلمة العربية بقيت فى الاسبانية بهذا الشكل Ataifor وكان هذا اللفظ يدل فى العصور الوسطى كذلك على الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام لاسيما اللحم. انظر (لويس سيكودى لوثينا : وثائق عربية غرناطية لم تنشر ، صحيفة المعهد المصرى فى مدريد (١٩٥٦) ص ١٧٧ حاشية ١) .

يا حفيد الوليِّ يا وارثَ الفخــــر الذى نال فى مقام وحالِ

لك يا أحمد بن يوسف جُبنا كل قفر يُعْيِي أكفَّ الرِّحال(1)

أبقاك الله مثابةَ انتفاع ونوراً بأعلى يَفَاع(2) ، ومتضعاً على علو ارتفاع ، ترى الوِتْرَ فى إشفاع ، وتقابل الوهم بطرادٍ من الحقيقة ودفاع . إن حثَّت على لقاء الأعلام شهرتهم فلك الشهرة ، وأنت العلم والشهاب الذى تُجلَى به الظُّلَم . ورباط جُدِّكَ بالمغرب الركن المستلم ، فإلى أين يذهب عن جنابك الذاهب ، وقد وضحت المذاهب ، والله المانع والواهب . وإنى من لدن اجتليت غرّتك التى تلوح عليها سيما الولاية إرثاً واكتساباً (١٤ ط) وانتماء إلى جناب الله وانتساباً جزاء من ربك عطاء حساباً ؛ أؤمل التوسل والتقرب وأخطبُ منك الأنس الذى أنْسى به التغرب إلى أن تَهَيَّأ بفضل الله وتيسر ، وتبين مجمل الشوق وتفسَّر ، وشتان ما بين من أثرى وأعسر ، فأنا الآن والحمد لله قد حططتُ بمثوى الولاية رحلى ، وعثرتْ بأزهار أسرار الأبرار نحلى ، وأخذت من الدهر ذَحْلى ، وحللت من رباط الشيخ أبى محمد بالحرم الأمين ، وظفرت من ودّ حافده بالذخر الثمين فياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين . عرَّفتك أبقاك الله بقصدى وحركة رَصْدى لتعلم أن هذه الوجهة لقاؤك أقوى دواعيها ، وأنجح مساعيها ، وبركة الشيخ نفع الله به تلاحظها وتراعيها ، فما اسْتَبْعَدَ المرام من قَصَدَ الكرام ، وما فقد الإيناس من أمّل الناس ، وتَنَخَّل الأفراد ، وتخطى الأجناس ، وترك للنص القياس ، وتَمَلَّكَ المِنَن لمَّا أحرز الرياس ، وسيدى بعد وما يظهر له من تأنيس غرْبَة وإزاحة كُرْبَة ، ورعْى وسيلة وقُرْبَة ، وإتحاف باجتلاء حمى مَزُورٍ وتُربَة ، والله عز وجل يبقيه مقصوداً على بعد المكان ، مُرَجِّحاً فى الفضل طَرَفَ الإمكان مطمئن القلب بذكر الله رطب اللسان ، مُدْرَجاً فى الوصول لسِنَام الإسلام والإيمان والإحسان .

---

(1) نقل المقرى هذين البيتين فى كتابيه « نفح الطيب جـ ٩ ص ١٩٠ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٩٨ » .

(2) اليفاع كل ما ارتفع من الأرض .

واضطَبَنَ[1] من ابن عمه الخطيب بالبلدة ، شاحباً صامتاً مهمها بذِكْر ، مُنتبذا عند الأكل (١٥ و) اشعاراً بالإمساك ، أومأ[2] مع ذلك ، زعموا ، إلى دنيا عريضة كابن عمه وشُحٍّ مطاع ، فرحب الكل وأطرأ اللقاء . وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة . فضاؤه رَحْبٌ مرصوف بحجر الكذان يدور به ، سقيف نظيف ذو أبواب تفضى إلى زوايا ومدافن ، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ فى بيت عُمِدَ سَمْكُه لانفساح عرضه بقايم من الخشب ، وقبر الشيخ قبليه عن يمين الداخل إليه ، قد اتخذ له حوض من الخشب من الرفيع اكسبته الأيام دُهمة ، فتخاله منحوتاً من الألُوَة قد املَسَّت من الاستلام حافته ، وسوى من نظيف الرمل سَبَجُه[3] ، وبإزائه قبور شبيهة به فى الشكل لولده وحفدته ، تتخللها الحُصر النظيفة ، فقضى الغرض من القراءة والدعاء ، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العباس طائفتين ورتبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مُطْرِياً مؤنساً ، فدعوا وأجملوا ، وعرض علينا طعام الشيخ أبي محمد رحمه الله ، وقرى ضيفه الجارى عليه من بيت المال لنظر حافده المذكور محكماً فى قُلِّه وكُثْره ، فجلب خوان بدى اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لاتتخلف عن طعام ولا شراب .

وانصرفنا إلى المحل المعين للنزول . وهذا البلد فسيح طيب الهواء كريم التربة خصيب الجناب . وأهله أولو خَيْرية وجنوح إلى الصلاح ، وهو (١٥ ظ) لَبِنَةُ التمام للمسوَّرات بالمغرب ، ليس وراءها مدينة جامعة ، ولا محلَّةٌ مسورة ، ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى[4] إلى تخوم الحبشة من وراء الصحراء .

---

(١) يقال فلان فى ضبن فلان أى فى ناحيته وكنفه .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) رسمها سحه ، ولعلها سبخه أى ترابه أو سبجه من السبج وهو الخرز الرفيع .

(٤) السوس إقليم واسع خصب ، يقع فى جنوب مدينة مراكش وراء جبال الأطلس ، ويحده من الغرب المحيط الأطلسى كما يتخلله من الشرق واد عظيم يسمى وادى سوس . وينقسم هذا الإقليم الى قسمين : السوس الأقصى وهو الجزء الممتد من جبال أطلس حتى رمال الصحراء جنوبا . =

ومن ساعة إلمامنا انزوى عنا الشيخ أبو العباس صردوك ، لِلَهْوِه ، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه ، لم يَقْسم الله للضيف من مأدبتها بحظ ، وشحَّ بإيناسه وتردده ، فحَدَسْنا أن ذلك إبقاء على نفسه لما تُكْشِفُ المجالسة من حال يَمُدُّ لها أبو حنيفة رجلَه . وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط افتتحته بأبيات مطلعها :

إذا لم تهذِّبك الأبوةُ والحجى فأنت على فَوْتِ الجَنَي ثمرٌ فَجُّ

ثم تصدقتُ على حِلْمِ الشيخ بجهله ، وحَرَّمت صيد آبِدِهِ في حرم مَحَلِّه ، أصلحنا الله وإياه .

وصلينا بمسجدها الجامع وهو مبنى عتيق ،ومجمع فسيح متعدد الزيادات والصحون والتعاريج ، سبق منه ما بين يَدَى المحراب بعضٌ على أيدى قوم من الصالحين ، رفعوا به عَمَدًا تناهز الأربعين ، بادية ضخمة خشنة على سبيل من الجفاء والسذاجة يباشرها سقف لاطئٌ من غير نقش ولا إحكام عَلَتْها خُشُبٌ بالية ، وقُضُبٌ ناخرة ، بما يدل على قِدَمِ العهد ، ويُنْبِىءُ على اجتناب فضول العمل . فلم تمتد إلى تغييرها يد ، ودارت بها الزيادة النبيهة والبلاطات من جهاته . وبصحن هذا المسجد جِبابٌ للماء ينتابها الناس لسقيهم ووضوئهم فَيَحْسِبُهُمْ[1] . ويقابل (١٦ و) القبلة من جوف الصحن زاوية بها فقراء يدعون ذكراً لله ، فيَعُاطَوْن مقام التوكل ، فلا يُغِبُّ عنهم التفقد .

وبهذه البلدة ، المدرسة والمارستان ، وعليها مسحةٌ من قبول الله . وهواؤها أطيب أهوية البلدان ، يستدعي الدثار في القيظ لبرده ولطيف مسراه . وتردد بها إليَّ صاحب السوق ومقيم رسم المارستان ، الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد

= والسوس الادنى ويقع في شمال السوس الاقصى ولم يتفق الجغرافيون على تحديد مكانه . أنظر (J. Leon Africano : Op. Cit. p.60 Nota 1) انظر كذلك (ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٢٢ حاشية ٣) .

(١) أي يكفيهم .

ابن منير الهاشمى الجزيرى ، من أهل الظَّرف والخيريَّة والتمسك بأذيال أهداب الطَّلب . حَسَنُ الخطّ جميل العشرة ، خفيفٌ فى سبيل المشاركة . نشأ بالخضراء[1] ، وحضر حصارها ، وحج وخدم الصاحب بدمشق فأحظاه . أنشدنى من شعره يخاطب السلطان عند قدومه من الحج قوله :

قدموا عليك عَقِيبَ حَطٍّ حُمُولِ ... زوارُ خيرِ منبيءٍ ورسول

شُعْثاً على حُبٍّ التحية ترتمى ... بهمُ لبابك فى ذُرًى وسهول

ليكون خاتمةَ الكمال ومِسْكَهُ ... تقبيلُ كَفِّكَ فى بساط قَبول

من قصيدة جارية على هذا الأسلوب . مولده بالخضراء عام خمسة وسبعمائة .

وكان الرحيل يوم السبت الخامس والعشرين من الشهر المذكور إلى منزل ينسب لأبى خَدُّو فيه رجل من بنى المنسوب إليه اسمه يعقوب ، طِرْفٌ فى الجود زعموا جرَّ بذلك المرزأة إلى عتاده . فألطف وأجزل ورتب الحرسة وآنس فى الليل وطلبنى بتذكرة تُثْبِتُ (١٦ ط) عندى معرفته فى الآتى ، فكتبت له[2] :

نزلنا على يعقوب نجل أبى خَدُّو ... فعرفنا الفضل الذى ماله حدُّ

وقابلنا بالبشر واحتفل القِرَى ... فلم يبق لحم لم نَنَلْهُ ولا زُبْدُ

يحق علينا أن نقوم بحقه ... ويلقاه منَّا البِرُّ والشكر والحمد

قيل لبشار بن برد ، بينما أنت تقول :

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً ... هتكنا حجاب الشمس أو قَطَرَتْ دماً

ثم تقول :

رَبابة ربةُ البيت ... تصب الخلَّ فى الزيت

---

(١) المقصود هنا الجزيرة الخضراء وهى بلدة صغيرة بجنوب اسبانيا وتعرف اليوم باسم Algeciras

(٢) نقل المقرى هذه الابيات فى كتابه نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٩٠ مع تحريف فى كلمة خدو كتبها حذوا ، بينما أوردها كما فى المتن فى كتابه أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٩٨ . هذا ونلاحظ ان ابن الخطيب كتب هذا الاسم فيما بعد هكذا « حدو » .

لها سبعُ دجاجات وديك حسنُ الصوت

فقال ، قلت ذلك أخاطب امرأة من البادية فى خيمة قرتنى بدجاجة و بيض كانت لديها أحسن من : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

ثم سافرنا منه إلى سور موسى من مجامع دُكالَة[1] ، وهو حَلقٌ ذو شرفات وأبراج ، بادى الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المُصْحِرة بالتحصين ، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة ، الجمّ الماشية ، المُنْبَثّ الحِلَل ، الغاصّ على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة ، البالغ عدد أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث ، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه ، يُتَحَرَّم به عند الغارة الشعواء المُصْمَئِلَّة[2] يطرقهم بها عدوُّهم من بنى الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فَيَسُدُّ عندها . (١٧ و) وعلى ذلك فهم لحم على وَضَم[3] ولقمة بين لَحْيَيْن[4] ، وبخارجه سوق جامعة يُحْشَر إليها الناس ضحى ، ويتقاطرون من كل مَرْمَى يَمْثُلون فى صعيد واحد ، قد خيمت تجارهم وظلوا ، ولا ينفضُّ الجمع إلا مع انقضاء بياض يوم .

وقد كان رُفع إلى السلطان المُغْرَى بالبناء وتخليد الآثار أبى عنان[5] رحمه الله ، خبرُ

---

(١) دكالة اسم لقبيلة بربرية وولاية من ولايات المغرب الاقصى ، يحدها من الشمال والغرب المحيط الاطلنطى ، ومن الشرق نهر أم الربيع ، ومن الجنوب ولاية مراكش . وقد تكلم ليون الافريقى « الوزان » عن أهلها فوصفهم بالجهل وسوء السلوك ، كما أشار إلى حصونها ومدنها القابلة المسورة مثل آسفى .

راجع (Descripcion de Africa p. 78-82) راجع كذلك ما كتبه ليفى بروفنسال عن قبيلة دكالة فى كتابه (Lévi Provençal : Documents Inédits D,Histoire Almohade Paris 1982)

(٢) المصمئلة : الداهية .

(٣) الوضم خشبة القصاب التى يقطع عليها اللحم ، ويقال ، تركهم لحما على وضم أى أوقع بهم فذلهم .

(٤) اللحى ، عظم الحنك الذى عليه الاسنان ، والمقصود هنا ، ولقمة بين فكين .

(٥) هو فارس المكنى بأبى عنان ، وكان يلقب بالمتوكل على الله . ولد عام ٧٢٩ هـ بفاس من جارية مسيحية سميت شمس الضحى . وثار على أبيه أبى الحسن ، بتلمسان عام ٧٤٩ هـ واستولى على المغرب الاقصى . وكان مغرما بالعلوم والبناء وتوفى فى عام ٧٥٩ هـ وقيل مات قتيلا . راجع ترجمته وثورته على ابيه وأسبابها فى (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٢٧٨ – ٢٨٧ ، ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص ٩٣ – ٩٥ ، ابن الاحمر : روضة النسرين ص ٢٣ – ٢٤) .

ماعليه الناس من إخافة عدوهم ، واهتضام عَرْصَتِهم[1] واستهداف عَقْوَتِهم[2] ، فأمر بارتياد مَحَلٍّ لتأسيس مدينة ، فاختير على غَلواتٍ منهم ، محلٌ أرضه صخر منطبق على تراب ، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا ، بعيد المَهْوَى ، يبنى السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء ، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء[3] . فشُرع فى البناء واستُبعد الفضاء ، وَمُثِّلَتْ الأبواب العديدة ، والأبراج المشيدة . وعاق عن إتمامها هجوم حِمامِه وانصرام أيامه ، فرغب أهله فى التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته .

وتلقانا مشرف المَحْبَى بها الشيخ الفقير الخير أبو عبدالله اللَّجَائى[4] ، قريع الأمانة والفضل ، العف اليد ، الحَصُور عن مساس الجباية ، المتَّصلِ الاستعمال باستصحاب الحال الرقيقة ، وسقوط التهمة من أهل الطلب والسذاجة وحسن العهد وكرم العِشْرة ، الجواد على كونه مَنِيناً[5] عدِمَ العتاد فى حال الكِبْرة . تلقانا فى جملة من أتباع (١٧ ط) الخِدْمة ، ثم تلاهم مركب القاضى والعدول ، وقاضيها الحاج أبو عبدالله محمد ابن سعيد بن عثمان بن سعيد الصنهاجي الزَّمُّورى[6] ، رجل مختصر البنية والثوب قد طرقه الوَخْطُ على حداثة ، يحفظ غُثاءً من منقول كتب التفسير وغيرها ، ذاكرٌ لمسائل متعددة ، مسترسل اللسان فى أسلوب يفضحه الإعراب عادةً لاجهلًا بقانون النحو . شموسٌ[7] عند المذاكرة فى المسائل العلمية ، أطرفَ بحديث رحلته . ولما نزلنا خَنَس

---

(١) العرصة : ساحة الدار وجمعها عراص وأعراص وعرصات .

(٢) العقوه : الساحة والمحلة وجمعها عقاء .

(٣) هذه العبارة تدل على سعة دراية اهل المغرب بهندسة البناء فى ذلك العصر .

(٤) لعله من أسرة عبد الرحمن اللجائى (المتوفى ٧٧١ هـ) الذى أدخل مختصر ابن الحاجب المصرى فى الفقه المالكى إلى المغرب . انظر « ابن القاضى : درة الحجال ، جـ٢ ص٣٥٦ رقم ٩٨٦ » .

(٥) المنين : الضعيف وجمعها منن ورسمها في الأصل مينانا

(٦) راجع ترجمته فى (المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ٢٦١ ، أحمد بابا : نيل الابتهاج ص ٢٧٧ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٨ ، انظر كذلك (ابن الاحمر : روضة النسرين ص ٧ من المقدمة) .

(٧) الشموس : الذى يكون عسرا فى عداوته ، شديد الخلاف على من عانده .

فلم نسمع له ذكراً إلى أن شيَّعنا من الغد ، فَسَعَّطْتُهُ بخردل العَتْب ديدنى فى مقصِّرى هذا الصِّنف القَمِنْ[1] بفعل الأغنياء فى البر المستحق لولا رؤية الفضل لنفسه بمزية الفضل ، فَزَلَّة العالِم معروفة بعدم الإقالة ، فاستعتب واعترف ، وسألته الإجازة فيما يحمله ، وا كتتاب شىء من منظومه الكثير ، وقد سَمَّى موضوعات ذكرها من تآليفه فوعد بذلك مُطَيِّراً به إلى محل المبيت ليلتئذ . وتلاحق بى رسوله بنزرٍ يتضمن ذكر أشياخ أكثرهم غير مسمًّى ، وجلب شيئاً من حاله حتى عن القابلة التى التقطته ورؤيتها إياه على هيئة عن المُكَلَّف[2] المخاطَب[3] بوظائف الشريعة من سجود ورفع يد إلى السماء ، إلى أمثال هذا . فخاطبته وأعدت الرسول إليه بقولى :

أليس قليلٌ نظرةً إن نظرتـها ... إليك وكلاَّ ليس منك قليل[4]

وَصَلَتْ أيُّها الفاضل رُقْعَتُكَ التى تضمنت الفوائد ، وَصِلَتُكَ التى استصحبت العائد ، وشاهد فضلك الذى بين تصريفه الأصلى والزايد ، متفننة فى ضروب لاتجنح شمسها لغروب ، هزت ألحانها منى عِطْفَىْ طَروب ، واستقر قِراها بين يدى أكول لمثلها وشروب . فلله ما تضمنت من فوائد رحلة حجازية لَبِسَتْ من حسنُ الحَجى زِيَّه ، وذِكر أعلام وأركان استلام إلا أنها كانت كَلَيْلَةِ الوصل ماعابها إلا القِصَر ، فَلَوَدِدْتُ أن لو أمدها بسواده منى القلبُ أو البصر . بَخَسَ وزنها الاختصار لا بل الاقتصار ، وافتقرت إلى شرحٍ يقع به على مُتَعَاصِى معانيها الانتصار ، ووعد المجلس القاضوى باكتتاب شىء من منظومه بعد اعترافه بأنه كثير ومهاد وثير فما كان إلا الوعد ، والأخلافُ من بعد :

يا لُوَاةَ الدَّيْن عن مَيْسَرَةٍ ... والضنينات وما كُنَّ لثاما .

---

(١) القمن : الخليق الجدير .

(٢) المكلف : البالغ العاقل المسئول .

(٣) المخاطب من الله عز وجل لتأدية فروض الدين .

(٤) هذا البيت للشاعر جميل بثينه .

والظن بسيدى أنه دعا عند شربه من بئر الحَرَم ، بأن تُرفَع عنه مؤنةَ الكرم ، فأُجِيبَتْ الدعوة كما ورد ، واستقام العمل واطرد ، فكان اللقاء على مسافة قصيرة ، وملاحظة البر بُمقْلةٍ غير بصيرة ، والزيارة مُزْوَرَّة ، وأظنه لاحظ بيت شاعر المعرة :

لو اختصرتم من الإحسان زُرْتُكُم والعذب يُهجر لِلإفراط فى الخَصَرِ

والقِرى قد كُفِيَ القاضى والحمد لله مؤنته الثقيلة ، ولم يُحْوَج إلى (١٨ ط) تشويش العقل واستخدام العقيلة ، وهذا القِسْم غير معدود ولاتقع المشاحَّةُ إلا فى مَوْدود. وَهمَّ بتحفة شعره ثم قال بالبداء وناداه الإنجاز فصمَّ عن النداء فاطَّرد باب الشُّحِّ حِسًا ومعنى ، وموحدا ومثنى حتى كأن دُكَّالة ، شرَّابةٌ لَسرْو القضاة أكَّاله ، وبيدها لتحجير أيديهم وكاله . وهذه الحركة كانت لمحبة حركة الفتح ، ووجهة المد والمَنْح ، فلو لم يقع فيها بُخْلُهُ تَمِيمه ، لَقَعَتْهَا[1] العين وعَسُر الهَيْن ، والقاضى أعزه الله كمال ، وعيب الكمال لا يُنكر ، والغالب الفضل ، وغير الغالب لا يذكر ، وهو على التَّافه يُشكر . داعبتُه حفظه الله مداعبة من يعتقد خلاف مقاله ، ويرجِّح القناطر المقنطرة بمثقاله ، ولا يقول فى حال سَرْوه[2] بانتقاله ، ومع اليوم غد ، ولكل شىء أمَد ، ويُرَجَّى أن يمتع الله منه بوقت يقع فيه استدراك ، ويرتفع باختصاص النزول لديه اشتراك إن شاء الله .

وكان المبيت بحصن أَسَايس[3] من حصون دُكَّاله شأنه شأن ما قبلهُ بطلل ، دار عادية ملوكية الوضع ، تنسب لأحد أشياخ الوطن ممن غَمَسَ يده من الجباية فى الدم والفَرْث تدل على انسحاب دنيا كانت سحابة صيف ، والله يتجاوز عما جرت من نكير ، فهو الذى يؤاخذ بما كسبت الأيدى ويعفو عن كثير .

---

(١) لقعة العين أى حسدها .

(٢) السرو : الفضل والسخاء فى المروءة .

(٣) اورد الوزان (Descipción de Africe p. 153) اسم أسايس Aseis ضمن الحصون الجنوبية لمقاطعة فاس . وإن كان هذا لا يتفق مع خط سير الرحلة .

ورحلنا من الغد في سهل اقتحمنا به حدود الصَّنهاجة[1] ، وبتنا بموضع يعرف باسكاون بإزاء رَجُلٍ مُنْتَمٍ للصوفية أعجم اللسان ، قام بالنزول على خصاصة واضطرار ، فأنَبْنَاَ له واحتسبنا كَدْحه .

وعُدنا من الغد (١٩ و) إلى أزَمُّور[2] ، فرأينا صدق المثل في قولهم العود أحمد ، فتلقينا بها أصناف الفضلاء مصحرين ، ولوظائف البر متممين ، وقاهم الله معرَّات السنين ، وكرّم وجوههم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه في يوم العرض والدين .

وبرز إلينا الحسن بن يحيى بن حَسُّون ، فتى الفتيان بالمغرب ، وغاية السَّرو ، وآية المروءة ، والمثل البعيد في الإيثار على الخصاصة ، ومخجل الضيف وريحانة التلطف ، فأربى الخُبْرُ[3] على الخَبَر والحمد لله .

وكان السفر عن تشييع تتعلق بالأهداب أظفاره ، وفضل عَمَّ الخافقين اعتذاره وأوجب ذلك ما خاطبتهم به :

إحسانكم يا بنى يحيى بن حسُّون	أزرَى على كل منثور وموزون
قد جددت زينةَ الدنيا برامكةٌ	منكم مكارمُها لم ترض بالدون
أبناء يحيى وَقَتْهُمْ كلما وُلدُوا	عناية الله من موسى وهارون
بالأحسن الندب زاد الله بيتكم	حُسناً فأهلا بطلْق الوجه ميمون
ما زال يَكْلَفُ بالعَليا ويُمَحضها	هوى يعود على الأموال بالهون
مازلتُ أسمع عنكم كل مكرَمَة	والآنَ كم بين معلوم ومظنون

(١) الصناهجة قبائل كثيرة من البربر في المغرب ، وتعرف أيضا باسم صنهاجه بكسر الصاد وإن كان من المعروف في المغرب فتحها . انظر (تاج العروس جـ ٢ ص ٦٧) انظر كذلك (Ency. af Islm, art Sanhâya)

(٢) أزمور : مدينة على ساحل المحيط بالمغرب الاقصى على الحافة اليسرى لمصب نهر أم الربيع . راجع (القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٧٢ ، ابن خلدون : التعريف ص ٤٤ حاشية ٤ ، الوزان : نفس المصدر ص ٨٣) . وأزمور كلمة بربرية معناها الزيتون البرى .

(٣) الخبر : العلم بالشيء ، يقال « صدق الخبر الخبر » أي أن الاختبار بالمشاهدة أثبت الخبر المسموع .

أثْرَتْ بكم كفٌّ أزمور دياركم فأيُّ دُرٍّ بصون المجد مكنون
أبقاكم الله فى سعدٍ عقائله . تبدى لكم غرر الأبكار والعون[1]
وردَّنى لبلادى شاكراً لكُمُ بأمر ربى بين الكاف والنون[2]

إلى مدينة آنفا[3] ، واستدرك استدعاءنا منهم إلى كل احتفاء واحتفال ، (١٩ ط) أفاضل ذهبوا من البر كلَّ مذهب كالقاضى بها الشيخ الفقيه الحاج البادى القشف والسذاجة أبى بكر عثمان بن صالح المسْراتى المراكشىِّ النشأة ، قرأ بمراكش على أبى الحسن المُرسى وأبى عبد الله العَبْدَرى ؛ وبحاحة[4] ، على أبى زكريا يحيى ابن سعيد ، وأبى زيد بن عبد الله وأخيه أبى بكر . وبأغمات[5] : على أبى العباس المعروف بأيَّزْم . وحج سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، وولىَ القضاء بقصر كتامة[6] ، وحصن القاهرة[7] وأزمور وآنفا . وأقرأ بمدرستها كتاب أبى عمرو بن

---

(١) العوان : المرأة النصف.

(٢) أى كن فيكون .

(٣) آنفا Anfa وهى المعروفة اليوم باسم الدار البيضاء Casablanca ، وهى مدينة كبيرة على ساحل المحيط بالمغرب الأقصى، وتقع على مسافة ستين ميلا شرق أزمور، وهى مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولا سيما أشجار الفاكهة . وكانت هذه المدينة فى الماضى تنافس ثغر قادس الاسباني وقد نتج عن هذا التنافس التجارى أن دمرتها الأساطيل البرتغالية عام ١٤٦٥ ثم أعيد بناؤها سنة 1515 . انظر (J. Leon Africano : Descripcion de Africa p' 107-108)

(٤) حاحة Hea ، مدينة وولاية بمراكش يحدها من الشمال والغرب المحيط الأطلنطى ومن الجنوب جبال أطلس . انظر (J. Leon Africano : Op. Cit. p. 4 y nota) .

(٥) انظر ما سبق صفحة (٥٥) .

(٦) قصر كتامة هو اليوم القصر الكبير ويسمى أيضاً قصر عبد الكريم ، وهى بلدة معروفة بالمغرب الأقصى ، وتبعد عن ساحل المحيط بنحو ٣٦ ك . م . راجع بعض التفاصيل عن تاريخ هذه المدينة فى (Allouche Le Revolte des Banu Askilula contre le sultan Muhammad II . Hespéris, tome XXV, 1938, fasc. I, p. 2 Note 2)

(٧) حصن القاهرة : مدينة اختطها سنة ٧٥٤ هـ السلطان المرينى أبو عنان فارس على سفح جبل الكسيوى بأرض السوس فى أقصى المغرب لتكون قاعدة لجيوشه المكلفة بإخماد ثورة أخيه الأمير أبى الفضل فى هذه المنطقة . راجع (السلاوى الاستقصا حـ ٣ ص ١٩٠)

الحاجب[1] . مولده فى حدود عشرة وسبعمائة . والعدل السَّرى أبى العباس أحمد بن شرف بن على السَّلى من أهل تامسنا[2] ، نبيه المسكن فَعْمْ الخوان ، مُنْجِبِ غلمان . والعدل الفاضل أبى العباس أحمد بن أبى بكر بن موسى البرغَواطى خير منقبض متحلٍّ بسكينة . والشيخ الخطيب الخَيِّر أبو الحسن على بن أبى حَدّوا[3] الأصيل البيت النابه الأبوّة المحمول عليه فى سبيل بغى زعموا . والنجباء السراة أولاد الفقيه القاضى الرائق الخط ، الجَمَّاعة للدفاتر ، الموسوم بالرجاحة أبى على عمر بن محمد الزناتى ، كافأ الله ما بذلوا من رغبة ، وخَطَوْا من إلمام .

---

(١) عثمان بن عمر بن يونس المعروف بابن الحاجب المصرى (٥٧٠ — ٦٤٦ هـ) . له مختصر فى الفقه المالكى يسمى المختصر الفقهى ، والفرعى ، والجامع بين الامهات . ادخله إلى المغرب عبد الرحمن بن سليمان اللجائى (المتوفى سنة ٧٧١ هـ) وعنى بشرحه كثير من المغاربة كالقاضى ابن عبد السلام التونسى شيخ ابن خلدون ، وعيسى بن مسعود بن منصور المنكلاتى . وشرحه من المصريين الشيخ خليل المالكى وسمى شرحه « التوضيح » . وكل هذه الشروح موجودة فى دار الكتب المصريه . ولابن الحاجب مختصر آخر فى أصول الفقه ويعرف عند القدماء بالمختصر الاصلى . أنظر (ابن خلدون : التعريف ص ١٧ حاشية ١ ، ابن القاضى : درة الحجال حـ ٢ ص ٣٥٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٥) .

(٢) تامسنا كلمة بربرية معناها البسيط الخالى وقد أطلقت على البسيط الممتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء والذى يسمى الآن بالشاوية ، وهو الآن تكسوه الزروع والعمارات ولكنه بالأمس كان أرضا من سدرة وعليق ترعى فيها الأغنام .

انظر (J. Leon AJricauo : Ob. Cit' b. II y Nota)

(٣) راجع ما قيل ، حول هذا الاسم فى صفحة (١٤٩) حاشية (٢) .

فصل فى ذكر العودة إلى مدينة سلا

ثم كان الارتحال إلى التربة المولوية المحترمة بشالة — فألقيت بها البَرْك ، وحططت الرَّحْلَ، وفَصَّلْت الخطة، وخاطبت السلطان المنعم المولى بما نصه بعد البسملة[1] : «مولاى، المرجو (٢٠و) المؤمَّل لإتمام الصنيعة ، وصلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تضرب بكم الأمثال فى البر والرضا وعلو الهمة ورعى الوسيلة ، مقبِّل موطئ قدمكم ، المنقطع إلى تربة المولى والدكم ، ابن الخطيب ، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء فى القبة المقدسة وتذمم[2] بالتربة الزكية وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيابه من الوجهة المباركة ،وزيارة الرُّبُط المقصودة والتُرَب المعظمة، وقد عزم ألاّ يبرح طوعا من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى ، حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ، ثم عليكم والتماس شفاعته فى أمر يسهل عليكم[3] لا يجرُّ إنفاذَ مال ، ولا اقتحام خطر ولا التهجم[4] على خطة ، إنما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر . وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس والدكم بلسان المقال ما يَحْضُر مما يفتح الله فيه ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لى صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدى الخطيب

---

(١) نقل المقرى هذا الخطاب فى كتابيه : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٢٨ — ١٣٠، وأزهار الرياض جـ ١ ص ٢٧٧ وما بعدها . ونقله كذلك الناصرى السلاوى فى كتابه الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى جـ ٤ ص ٢٥ وما بعدها . وقد لاحظنا اختلافا فى قراءة بعض الالفاظ سجلناه فيما يلى :

(٢) فى المقرى والناصرى : تيمم

(٣) فى المقرى : سهل عليكم

(٤) زيادة على المقرى .

(يعنى ابن مرزوق) سنّي الله أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : « يا فلان[1] ، أنت والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الغرضين » ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله جزاء المحسنين ، وقد تقدم تعريف مولاى بما كان من قيام العبيد بما نقله إلى التربة الزكية (٢٠ ظ) عنكم حسبما أدّاه من حضر ذلك المشهد من خدامكم ، والعبد يعرض عليكم الجواب وهو : إنى لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملأ الكبير ، والجم الغفير ، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً . وأصغيت بأذنى عند قبره وجعل فؤادى يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله فكأنى به يقول لى : « قل لمولاك يا ولدى وقرة عينى المخصوص برضاى وبرى الذى ستر حريمى وردّ ملكى وصان أهلى وأكرم صنائعى ووصل عملى ، أسلّم عليك وأسأل الله أن يرضى عنك ويُقبل عليك (الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى) . (وما الناس إلا هالك وابن هالك)[2] ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضى العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة . ومثلك من ذُكّر فتذكر وعُرّفَ فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب وقف على قبرى وتهمّم[3] بى ، وسبق الناس إلى رثائى ، وأنشدنى ومجّدنى وبكانى[4] ودعا لى وهنانى بمصير أمرى إليك ، وعفر وجهه فى تُربى[5] ، وأمّلنى لما انقطعت منى آمال الناس ، فلو كنت ياولدى حيا لما وسعنى إلا أن أعمل معه ما يليق بى ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه ، وكلتهُ إليك وأحلتهَ ياحبيب قلبي عليك ، وقد أخبرنى أنه سليبُ المال ، كثيرُ العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر فى عدم نشاطه أثر السن ، وأمّل أن ينقطع بجوارى ويستتر بدخيلى وخِدْمتى ويردّ عليه

---

(١) فى المقرى والناصرى : أنت يا فلان .

(٢) هذه العبارة شطر بيت من الشعر لأبى نواس يقول فيه :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

(٣) تهمم بى أى طلبنى وتحسس مكانى ولجأ إلى واستغاث بى واستصرخنى .

(٤) فى الاستقصا : وبكى لى

(٥) فى الاستقصا : تربتى

حقه بحرمتى ووجهى ووجوه من (٢١ و) ضاجعنى من سَلفى، ويعبد الله تحت حُرَمتك وحرمتى . وقد كنت تشوفت إلى استخدامه فى الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالصُ المحبة ، وخطيبنا العظيم المزية ، القديم القُربة، أبو عبد الله بن مرزوق فاسأله يُذكِّرْك ، واستخبره يخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمى بعد الممات إلى أن نلحق جميعا برضوان الله ورحمته التى وسعت كل شىء . وله ياولدى ولد نجيف[1] يخدم ببابك ، وينوب عنه فى ملازمة بيت كُتَّابك، وقد استقر بدارك قراره ، وتعيَّن بأمرك مرتَّبه ودثاره ، فيكون الشيخ خديم الشيخ ، والشباب خديم الشباب[2] ، هذه رغبتى منك وحاجتى إليك ، واعلم أن هذا الحديث لابد أن يُذكر ويُتحدث به فى الدنيا وبين أيدى الملوك والكبار ، فاعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلَّد ذكره ، وقد أقام مجاوراضريحى تالياً كتاب الله علىَّ ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه علىَّ من السَّعى فى خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة فى جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة ، فاللهَ اللهَ يا إبراهيم ، اعمل ما يُسمع عنى وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ، : انتهى . والعبد يا مولاى مقيم تحت حرمته وحرمة سلفه منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتتحققوا أنى لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف الملوك الأعزة (٢١ط) ممن وراء النهر من التَّطَر[3] ، وخلف البحر من الروم ، ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله منى من غير عهد ، بعد أن بلغهم تذمُّمى بهذا الدخيل ، ومقامى بين هذه القبور الكريمة ، ما وسع أحدا منهم من حيث الحياء والحشمة من الأموات والأحياء وإيجاب الحقوق التى لا يغفلها الكبار للكبار ، إلا الجود الذى لا يتعقبُه البُخل ، والعفو الذى لا تفسده المؤاخذة ، فضلا عن سلطان الأندلس ، أسعده الله بموالاتكم ، فهو فاضل وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياسٌ ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم لاسيما

(١) فى نفح الطيب والاستقصا : نجيب .

(٢) فى نفح الطيب والاستقصاء : والشاب خديم الشاب .

(٣) فى نفح الطيب : الططر . وفى الاستقصا : التتار .

مولاى والدكم الذى أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنّي مولاى أبا الحجاج ويشمله بكنفه[1] ، وصارخه بنفسه ، وأمدّه بأمواله ، ثم صيرَّ الله ملكه إليكم وأنتم من أنتم ذاتاً وقبيلا ، فقد قرَّت يا مولاى عين العبد بما رأت بهذا الوطن المراكشى من وفور حُشودكم وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعُدَدِكم ، زادكم الله من فضله . ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلّت عروة تأميلكم أو أعرضتم عن ذلك الوطن[2] ، استولت عليه يد عدوه ، وقد علم تطارحى بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلق بثوب الملك الصالح والد الملوك مولاى والدكم ، وشهرة حُرْمةِ شالَة معروفة ، حاشَ لله أن يضيعها أهل الأندلس ، وما تُوسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون (٢٢ و) اغتنام[3] هذه الفضيلة الغريبة . وأملى منكم أن يتعين من بين يديكم خديمُ بكتاب كريم يتضمن الشفاعة فى ردِّ ما أُخِذَ لى ، ويخبر بمثواى متراميا على قبر والدكم ويقرر ما لَزِمكم[4] بسبب هذا الترامى من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم ، وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منهم[5] عادة المُكارَمة بحل هذه العقدة . ومن المعلوم أنى لو طلبت بهذه الوسائل من صُلب مالهم ، ما وَسِعَهُمْ بالنظر العقلى إلا حفظُ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا فى كل مِلَّة ونحلة ، وإذا تَمَّ هذا الغرض ، ولا شك فى إتمامه ، تقع صدقتكم على هذا القبر الكريم بى وتعينونى لخدمة هذا المولى وزيارته وتَفَقُّدِه ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المولد فى جواره وبين يديه ، وهو غرض غريب مناسبٌ لبركم به إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم وأعود داعياً مُثنيا مستدعيا للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوض من ذمتى بالأندلس ذمة عند[6] الرباط المبارك ترثها ذريتى.

(١) فى نفح الطيب : بنظره .
(٢) فى الاستقصا : الوطن الاندلسى .
(٣) فى نفح الطيب : إلا اغتنام .
(٤) فى نفح الطيب : ما ألزمكم ــ وفى الاستقصا : ما ألزمتكم .
(٥) فى نفح الطيب : منه .
(٦) فى نفح الطيب والاستقصا : بهذا الرباط .

وقد ساوَمْتُ في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا ، أو تُتوقع فيه وحشة أو جفاء ، والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل . وانقطاعى أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا (٢٢ ط) عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب[1] جوابكم بما لى عندكم من القبول ، وَيسعنى مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاه هذا الغرض والله يطّلع من مولاى على ما يليق به والسلام .

وكتب في الحادى عشر من شهر رجب عام أحد وستين وسبعمائة وفى مُدرج الكتاب بَعْدَ نَثْرٍ اختصرناه[2] :

مَوْلَاىَ هَا أَنَا فِى جِوَارِ أَبِيكَا	فَابذُلْ مِنَ البِرِّ المُقَدَّرِ فِيكَا
أَسْمِعْهُ مَا يُرْضِيهِ مِنْ تَحْتِ الثَّرَى	واللهُ يُسمِعُك الَّذِى يُرْضِيكَا
واجْعَلْ رِضَاهُ إِذَا نَهَدْتَ كَتِيبَةً	تُهْدِى إِلَيْكَ النَّصرَ أو تَهْدِيكَا
واجْبُرْ بِجَبْرِى قَلْبَه تَنَلِ المُنَى	وتُطَالِعِ الفَتْحَ المُبِينَ وشيكا
فهو الذى سَنَّ البُرورَ بأُمِّهِ	وأبيه فاشْرَعِ شَرْعَه لِبَنِيكَا
وابْعَثْ رَسُولَكَ مُنْذِرًا ومُحَذِّرًا	وَبِمَا تُؤَمِّلُ نَيْلَهُ يَأْتِيكَا
قد هَزَّ عَزْمُكَ كُلَّ قطرٍ نَازِحٍ	وأَخَافَ مَمْلُوكاً بِهِ وَمَلِيكَا
فَإِذَا سَمَوْتَ إِلَى مَرَامٍ شَاسِعٍ	فَغُصُونُهُ ثَمَرَ المُنَى تُجْنِيكَا
ضَمِنَتْ رِجَالُ اللهِ مِنْكَ مَطَالِبِي	لَمَّا جَعَلْتُكَ فى الثَّوَابِ شَرِيكَا
فَلَئِنْ كَفَيْتَ وُجُوهَهَا فِى مَقْصِدِى	وَرَعَيْتَهَا بَرَكَاتُهَا تَكْفِيكَا

(١) في الاستقصا : أرقب .

(٢) هذه القصيدة أوردها المقرى فى كتابه أزهار الرياض ج ١ ص ٢٨١ كما أوردها الناصرى فى كتابه الاستقصا ج ٤ ص ٢٨ .

وإذا قَضَيْتَ حَوائِجى وأَرَيْتَنِي	أملاً فَرَبُّكَ ماأَرَدْتَ يُرِيكَا
واشْدُدْ عَلى قَوْلِي يداً فَهُوَ الذى	بُرْهَانُه لاَ يَقْبَلُ التَّشْكِيكَا
مَوْلاَىَ ماا سْتَأْثَرْتُ عَنْكَ بِمُهْجَتِي	أَنَّى[1] وَمُهْجَتِيَ الَّتِي تَفْدِيكَا
لَكِنْ رأيتُ جَنَابَ شَلَّةَ مَغْنَماً	يُضْفِى عَلَىَّ العِزَّ فى نَادِيكَا
وفُرُوضُ حَقِّكَ لاَتفُوتُ فَوَاقُها	باقٍ إذَا اسْتَجْزَيْتَهُ يَجْزِيكَا
وَوَعَدْتَنِي وَتَكَرَّرَ الوَعْدُ الَّذِى	أَبَتِ المَكَارِمُ أَنْ يَكُونَ أَفِيكَا
أَضْفَى عَلَيْكَ اللهُ سِتْرَ عِنَايَةٍ	مِنْ كُلِّ مَحْذُورِالصُّرُوفِ[2] يَقِيكَا
بِبَقَائِكَ الدُّنْيَا تُحَاطُ وَأَهْلُهَا	فاللهُ جَلَّ جَلاَلُهُ يُبْقِيكَا

فوردت المراجعة المولوية بما نصه بعد البسملة والتصلية[3] :

من عبدالله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب بن عبدالحق ، أيّدالله أمره وأعز نصره، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعرف الأكمل أبى عبدالله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأمجد[4] الأصيل الأكمل المبرور المرحوم أبى محمد بن الخطيب ، وصل الله عزته ، ووالى رفعته : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) فى الاستقصا : إنى.

(٢) فى أزهار الرياض والاستقصا : الطريق .

(٣) نقل المقرى هذا الخطاب فى كتابه : نفح الطيب ج ٨ ص ١٢٤ وما بعدها ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٢٨٢ وما بعدها . والخطاب كما هو واضح من السلطان المستعين بالله أبى سالم إبراهيم ابن السلطان أبى الحسن المرينى .

(٤) فى نفح الطيب : الأنجد .

أما بعد حمدِ الله تعالى ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى والرضا عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى العزيز المنصور المستعينى بالنصر الأعز (٢٣ ط) والفتح الأسنى ، فإنّا كتبناه إليكم — كتب الله لكم بلوغ الأمل ، ونجح القول والعمل — من منزلنا الأسعد بضفة[١] وادي ملوية[٢] يمنّ الله ، وصُنع الله جميل ، ومَنُّه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برعى الوسائل[٣] ، ذلكم لِمَا تميزتم به من التمسك بالجناب العلى ، المولوى العلوى ، جدد الله عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيوث رحمته وحنانه . وما أهديتم إلينا من التقرب إلينا بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمطارف حرمته السامية المظاهر ، وإلى هذا ، وصل الله حظوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصدُه المُقابل[٤] — بالإسعاف المستعذب ورده ، فوقفنا على مانصه واستوفينا ما شرحه وقصه ، فآثرنا حسن تلطفكم فى التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ووعينا[٥] أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفى الحين عيَّنا لكمال مطلبكم ، وتمام مأربكم والتوجه بخطابنا فى حقكم والاعتنال بوفقكم ، خديمنا أبا البقاء بن تاسكورت وأبا زكريا بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما . وأمس تاريخه انفصلا مودّعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذى يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسطوا له جملة آمالكم ،

---

(١) فى نفح الطيب : بصفة تازى !

(٢) نهر ملوية من الاودية العظيمة بالمغرب . ينبع من قمم الجبال بين الاطلسين الكبير والمتوسط ويصب فى البحر المتوسط عند مدينة السعيدية قرب الحدود الجزائرية ويبلغ طوله نحوا من ٥٠٠ ك.م ويجرى ماؤه من الجنوب إلى الشمال كما توجد على ضفتيه عدة مراكز فلاحية هامة ، ولهذا حرصت الحكومة المغربية على استغلال مياه هذا النهر فوضعت لذلك عدة مشاريع مثل سد حماده الذى دشنه الملك الراحل محمد الخامس سنة ١٩٥٦ ، ومشروع سد كلولة الذى يبلغ ارتفاعه ٩٠ متراً ويحجز وراءه ٦٣٠ مترا مكعباً من الماء . راجع : عمر محمد الساعى : الجغرافية المصورة للمغرب ص ٥٢ .

(٣) الوسائل جمع وسيلة وهى كل شىء يجعله الإنسان سبباً يوصله إلى ما يريد

(٤) فى نفح الطيب : المقاتل والمتن أصح .

(٥) فى نفح الطيب . ورعينا وهى أصح من المتن .

وإنا لنحتسب[1] ثواب الله فى جبر أحوالكم (٢٤ و) وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه يصل مبرتكم ويوالى[2] تكرمتكم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتب فى الرابع والعشرين لرجب عام أحد وستين وسبعمائة . فراجعنى أيده الله وشكر نعمته بما نصه[3] :

مولاى خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله عالى الدرجة فى المنعمين ، وافر الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراكم ثمرة برِّ أبيكم فى البنين ، وصنع لكم فى عدوكم الصنع الذى لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم من أراد فى مثابتكم بإلحاد ، عبدكم الذى ملكتم رِقَّه ، وأويتم غربته ، وسترتم أهله وولده ، واسنيتم[4] رزقه ، وجبرتم قلبه ، يقبل موطئ الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله لموقف النصر ، الفارعة هضبة العز ، المعملة الخطو فى مجال السعد ، وميسَّر الحظ فلان[5] : من شالة التى تأكد بمُلْكِكُم الرِّضِىِّ احترامها وتجدد برعيكم عهدها واستبشر[6] بمُلْكِكُمُ دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها ، وقد ورد على العبد الجواب المولوى البر الرحيم ، المنعم المحسن بما يليق بالمُلك الأصيل ، والقدر الرفيع ، والهمة السامية ، والعزة القعساء ، من رعى الدخيل والنصرة للذمام ، والاهتزاز لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء ، وانبعث الأمل وقوى القصد ، وزار اللطف (٢٤ ظ) فالحمد لله الذى أجرى الخير على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعى ذمام الصالحين ، المتوسل إليكم أولا بقبورهم ، ومتعبداتهم وتراب أجداثهم ،

---

(١) فى نفح الطيب : وإنا لنرجو .

(٢) فى نفح الطيب : ويتولى .

(٣) نقل المقرى هذا الخطاب أيضاً فى كتابيه : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٢٦ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٨٤ .

(٤) اسنيتم أى أجزلتم .

(٥) فى المقرى : ابن الخطيب .

(٦) هذه العبارة ساقطة فى نفح الطيب .

ثم بقبر مولاى ومولاكم ومولى الخلق أجمعين الذى تسبب فى وجودكم ، واختصكم بحبه ، وغمركم بلطفه وحنانه ، وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهيأتكم دعواته بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء ، وفى علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة فى جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أُهِينَتْ فيه الأنفس وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولا إلى حما كم[1] بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الجرية على بذلها ؟ ثم فيمن حطّ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب دامى القرحة[2] ، يتغطى بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأننى ترامیت عليه فى الحياة أمام الذعر الذى يذهل العقل ، ويحجب عن التمييز ، بقصر داره ومضجع رقاده . ما مِنْ يوم إلا وأجهر بعد التلاوة بلفظ : يا آل يعقوب ، يا آل مرين[3] نسأل الله أن لا يقطع عنى معروفكم ولا يسلبنى عنايتكم ، ويستعملنى ما بقيت فى خدمتكم ، ويتقبل دعائى فيكم .

ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعته (٢٥ و) بإزائه ، وقلت : يا مولاى يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بنى مرين ، صاحب الشهرة والذكر ، فى المشرق والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامى بين يدى قبرك المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعى وجهك والتقرب إلى الله برعيك ، والاشتهار فى شرق الدنيا وغربها ببِرِّك[4] ، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعة كمّلها وإذا بدأ منّةً تممها ، وإذا أسدى[5] يدا أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة ، وأنا بعد ،

---

(١) فى المقرى : رحماكم .
(٢) فى المقرى : واهى القرعة .
(٣) فى نفح الطيب باليعقوب بالمرين
(٤) فى نفح الطيب فى شرق الدنيا ومغربها .
(٥) فى نفح الطيب : أبدى .

تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك ، حتى يتم أملى ، ويخلص قصدى ، وتحف نعمتك بى ، ويطمئن إلى نائلك قلبى ، ثم قلت للطلبة : أيها السادة بينى وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوّة التآلف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمّنوا على دعائى بإخلاصٍ من قلوبكم . واندفعتُ فى الدعاء والتوسل بما نرجو أن يتقبّله الله ولا يضيعه ، وخاطب العبد مولاه شاكرا لنعمته مشيدا بصنيعته مسرورا بقبوله ، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردّده والله المستعان .

تهنئة ابن الخطيب للسلطان أبي سالم المريني بمناسبة فتح تلمسان

وفى يوم الخميس السابع عشر من شعبان من هذا العام ورد كتاب فتح تلمسان فأصدرت إلى بابه العلى مانصه[1] :

مولاى فتاح الأقطار والأمصار ، فائدة الأزمان والأعصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار ، قدوة أولى الأيدى والأبصار ، ناصر (٢٥ط) الحق عند قعود الأنصار ، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار ، مصداق دعاء الأب المولى فى الأصائل والأبكار ، أبقاكم الله لا تقف إيالتكم عند حد ، ولا تحصى فتوحات الله عليكم بعدّ ، ولا تفيق أعداؤكم من كد ، ميسرا على مقامكم ما عسر على كل أب كريم وجد ، عبدكم الذى خلص إبريز عبوديته لملك ملككم المنصور ، المعترف لأدنى رحمة من رحماتكم بالعجز عن شكرها والقصور ، الداعى إلى الله سبحانه أن يقصر عليكم سعادة العصور ، ويذل لعز طاعتكم أنفَ الأسد الهصور ، ويبقى الملك فى عقبكم وعقب عقبكم إلى يوم ينفخ فى الصور .

فلان ، من الضريح المقدس بشالة ، وهو الذى تعددت على المسلمين حقوقه وسطع نوره وتلألأ شروقه ، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ، ووشجت عروقه ، وعظم ببنوتكم[2] فخره ، فما فوق البسيطة فخر يفوقه ، حيث الجلال قد رست هضابه ، والملك

---

(١) نقل المقرى هذا الخطاب فى كتابه (نفح الطيب ج ٦ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ ، أزهار الرياض ص ٢٨٦ ج ١ ، وقد سجلنا الفروقات بينه وبين ما ورد فى المتن فيما يلى :

(٢) فى نفح الطيب : بيوتكم فخرا .

قد كسيت بأستار الكعبة الشريفة قبابه ، والبيت العتيق قد ألحفت الملاحف الامامية أثوابه ، والقرآن العزيز ترتل أحزابه ، والعمل الصالح يرفع[1] إلى الله ثوابه ، والمستجير[2] يخفى بالهيبة سؤاله ، فيجهر بنعرة العز جوابه . وقد تفيأ من أوراق الذكر الحكيم حديقة ، وخميلة أنيقة ، وحط بجُودىّ الجود نفسا فى طوفان الضر غريقه ، والتحف رفرف الهيبة الذى لا تهتدى النفس فيها إلا بهداية الله طريقه ، واعتز بعزة الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقه ، إذ جعل المولى (٢٦ و) المقدس المرحوم أبا الحسن مقدمه وأباه وجده سيقة[3] يرى بركم بهذا اللحد الكريم قد طنب عليه من الرضا فسطاطا ، وأعلى[4] به يد العناية المرينية اهتماما واغتباطا ، وحرر له أحكام الحرمة نصا جليا واستنباطاً[5] ، وضمن له حسن العقبى التزاما واشتراطاً ، وقد عقد البصر بطريق رحمتكم المنتظرة المرتقبة ، ومد اليد إلى لطائف شفاعتكم التى تتكفل بعتق المال كما تكفلت بعتق الرقبة ، وشرع فى المراح بميدان نعمتكم بعد اقتحام هذه العقبة لما شنفت الآذان البشرى التى لم يبق طائر إلا سجع بها وصدح ، ولا شهاب دُجُنّة إلا اقتبس من نورها واقتدح ، ولا صدر إلا انشرح ، ولا غصن عِطْفٍ إلا مرح ، بشرى الفتح القريب ، وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، ونبأ الصنع العجيب ، وهدية السميع المجيب[6] . فتْحُ تلمسان الذى قلد المنابر عقود الابتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غنيةً عن الهياج ، وألحف الخلق ظلا ممدودا ، وفتح باب الحج وكان مسدوداً ، وأقر عيون أولياءِ الله الذين يذكرون الله قياما وقعوداً ، وأضرع بسيف الحق جباهاً أبيّةً وخدوداً ، وملككم حق أبيكم الذى أهان عليه الأموال ، وخاض

---

(١) فى نفح الطيب : يرتفع .

(٢) فى نفح الطيب : المستخبر .

(٣) فى المقرى : وثيقة .

(٤) فى المقرى : وأعلق .

(٥) هذه العبارة : « نصا جليا واستنباطا » ساقطة فى نفح الطيب ج ٦ ص ٣٤٤ .

(٦) هذه العبارة : « وهدية السميع المجيب » ساقطة فى نفح الطيب ج ٦ ص ٣٤٤ .

من دونه الأهوال وأخلص فيها الضراعة والسؤال ، من غير كد يغمز[1] عِطف المسرة ، ولا جهد يكدر صفو النعم الثرَّة ، ولا حَصَر ينفض به المنجنيق ذرابته ، ويظهر بتكرر الركوع إنابته .

فالحمد لله الذى أقال العثار ونظم بدعوتكم الانتثار (٢٦ ط) وجعل ملككم يجدد الآثار ويأخذ الثار ، والعبد يهنىء مولاه بما أنعم الله به عليه ووالاه ، وما أجدره بالشكر وأولاه[2] ، فإذا أجال العبيد قداح السرور فللعبد المُعَلّى والرقيب[3] ، وإذا استهموا حظوظ الجذَل فلىَ القِسْم الوافر والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله فلىَ الحظ والتعصيب ، لتضَاعُف أسباب العبودية قِبَلى وترادف النعم التى عجز عنها قولى وعملى ، وتقاصَر فى ابتغاء مكافأتها وجدى وإن تطاول أملى ، فمقامكم المقام الذى نَفَّس الكُرْبةَ ، وأنَّس الغربة ، ورَعَى الوسيلة والقربة ، وأنعش الأرماق ، وفك الوثاق[4] ، وأخذ على الدهر بالاستقالة العهدَ والميثاق ، وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويَمْثُل بين يدى الخلافة العظيمة السَّنا والسناء ، ويمد بسبب البِدَار[5] إلى تلك السماء ، فقد باشر به اليد التى يحنُّ مولاى لتذكر تقبيلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكميلها .

ووقفت بين يدى ملك الملوك الذى أجال عليها القِداح ، ووصل فى طلب وصالها بالمساء الصباح ، وكان فتحه إياها أبا عُذْرَةِ الافتتاح ، وقلت يَهْنِيكَ يامولاى رَدُّ ضالتك المنشودة ، وحَيْز[6] لقطتِك المُفْردة المشهودة ، ورد أَمَتِك المودودة ، فقد استحقها وارثُك الأرضَى ، وسيفك الأمضى ، وقاضى دَيْنِك وقرة عينك مُستنقِذُ دارِك

---

(١) فى الأصل : يغمر ـ والتصحيح عن المقرى .

(٢) هذه العبارة : « وما أجدره بالشكر وأولاه » ساقطة فى نفح الطيب .

(٣) كان المعلى عند العرب فى الجاهلية : أكبر قداح الميسر حظا ، ويليه الرقيب .

(٤) « وأدر الأرزاق » : زيادة فى نفح الطيب ج ٦ ص ٣٤٤ .

(٥) فى نفح الطيب : اليد .

(٦) فى نفح الطيب : جبر .

من يد غاصبها ، ورادُّ رُتبك إلى مناصبها ، وعامر المثوى الكريم ، (٢٧ و) وستر[1] الأهل والحريم ، مولاى هذه تلمسان قد طاعت وأخبار الفتح على ولدك الحبيب إليك قد شاعت ، والأمم إلى هنائه قد تداعت ، وعدوك وعدوه قد شردته المخافة ، وانضاف إلى عرب الصحراء فخفضته الإضافة ، وعن قريب تتحكم فيه يد أحكامه[2] وتُسْلِمُه السلامةُ إلى حِمامِهِ ، فلتطب يا مولاى نفْسك ، وليستبشر رَمْسُك ، فقد نمت بركتك وزكا غرسُك ، نسأل الله أن يورد على ضريحك من أنباء نصره ما يفتح له أبواب السماء قبولا ، ويترادف إليك مدداً موصولا ، وعَدَداً آخِرتُهُ خير لك من الأولى ، ويُعَرِّفُهُ بركةَ رضاك ، ظَعْناً وحُلولا ، ويُضفى عليه[3] منه ستراً مسدولا .

ولم يقنع العبد بخدمة النثر حتى أجهد القريحة التى ركضها الدهر فأنضاها ، واستشفَّها الحادث الجلل وتقاضاها ، فلقى[4] من خدمة المنظوم ما يتعهد حلمكم تقصيره ، ويكون إغضاؤكم إذا لقى معرة العَتْب وليَّه ونصيره ، وإحالة مولاى على الله فى نفس جَبَرَها ، ووسيلة عرَفها مجدُه فما أنكرها ، وحرمةٍ بضريح مولاى والده شكرها ، ويطلع العبد منه على كمال أمله ونُجْح عمله وتسويغ مقترحه وَتتميم جذله[5] :

أَطاعَ لِسانِى فى مَدِيحِكَ إِحْسانِى ... وقَدْ لَهِجَتْ نَفْسِى بِفَتْحِ تِلِمْسانَ

فَأَطْلَعْتُها تَفْتَرُّ عَنْ شَنَبِ[6] المُنَى ... وتُسْفِرُ عَنْ وَجْهٍ مِنَ السَّعْدِ حَسَّانِ

كَمَا ابْتَسَمَ النُّوارُ عن أَدْمُعِ الحَيَا ... وَحفَّ بِخَدِّ الوَرْدِ عارِضُ نِيسانِ

كَمَا صَفَّقَتْ رِيحُ الشَّمالِ شُمُولَها ... فَبانَ ارْتِياحُ السكر فى غُصُنِ البانِ

---

(١) فى نفح الطيب : ساتر .

(٢) فى نفح الطيب : احتكامه .

(٣) فى المقرى : عليك .

(٤) فى المقرى : لقى .

(٥) أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب ج ٦ ص ٣٣٧ — ٣٤١ .

(٦) يقال ثغر شنيب : أى الثغر ذو الأسنان الحسنة البيضاء الطيب الرائحة ، والمشانب هى الافواه الطيبة .

يُهَنِّيكَ بالفَتْحِ الذى مُعْجِزَاتُه خوارق لم تُذْخر سِوَاكَ لإنْسَانِ

خَفَفْتَ إليها والجُفُونُ ثَقِيلَةٌ كَمَا خَفَّ شَثْنُ الكَفِّ من أُسْدِ خفَّانِ[1]

وقُدْتَ إلى الأَعْدَاءِ فِيهَا مُبَادِرًا لِيُوثَ رِجَالٍ فى مَنَاكِبِ عِقْبانِ

تَمُدُّ بنودُ النَّصرِ [مِنْهُمْ][2] ظِلالَهَا عَلَى كُلِّ مِطْعَامِ العَشِيَّاتِ مِطْعَانِ

جَحاجِحَةٌ غرُّ الوُجُوهِ كَأَنَّمَا عَمَائِمُهُمْ فِيهَا مَعَاقِدُ تِيجَانِ

أمدَّك فِيهَا اللهُ [بالمَلإِ] العُلا فَجَيْشُكَ مِنْهَا[3] حُقِقَ الأَمْرُ جَيْشَانِ

لقد جُلِّيَتْ مِنْكَ البلادُ لخَاطِبٍ لَقَدْ جُنِيتْ[4] مِنْكَ الغُصُونُ إلى جَانِي

لقد كَسَتِ الإسْلاَمَ [بَيْعَتُكَ] الرِّضَا وكَانَت عَلَى أَهْلِيهِ بَيْعَةَ رِضْوَانِ

ولِلهِ مِنْ مُلْكٍ سَعِيدٍ [ونُصْبَةٍ] قَضَى المُشْتَرِى فِيهَا بِعَزْلَةِ كِيوَانِ

وسَجَّلَ حُكْمَ العَدْلِ [بَيْنَ بُيُوتِهَا] وُقُوفًا مَعَ المَشْهُورِ مِنْ رَأْى يُونَانِ

جَلاَ كُلُّ مِصرِىٍّ لَهَا حسـ ن فيها جدّه كل كلدانى[5]

فلم تَخْشَ سهمَ القوس صفحةُ بدرِها ولم تَشْك فيها الشمس من نحْس ميزانِ

ولم يعترض مُبتزَّها قَطْعُ قاطعٍ ولا نَازَعَتْ نَوْبَهرها[6] كفُّ عُدْوانِ

تولَّى اختيارُ الله حُسْنَ اختيارِها فلم تَحْتَجِ الفَرْغَان فيها لِفَرْغَانِى[7]

---

(١) تشبه آسود خفان بقوة كفوفها .

(٢) طمست بعض كلمات الاصل فى أبيات من القصيدة ، فما نضعه بين قوسين عن المقرى .

(٣) المقرى : فيمن .

(٤) المقرى : جنيت .

(٥) لم يرد هذا البيت فى نفح الطيب وقد طمست الفاظ منه ، وربما قرئ المطموس إلى ما يشبه (حسن وجهه .... وحسن) . ولعل الإشارة إلى المصرى (ونحتمل فى الاصل الضاد) والكلدانى للاشتهار بالتنجيم .

(٦) رسمها فى الاصل : قوقهرها ـ والتصحيح عن النفح ـ واللفظ من مصطلحات أصحاب الفلك .

(٧) الفرغان الاولى نجمان وهما من منازل القمر (وقد رسمت فى الاصل الفرعان والتصحيح عن النفح) ويبدو أن (الفرغانى) الثانية اسم احد علماء الفلك والتنجيم .

ولا صُرِفت فيها دَقَائِقُ نِسْبَةٍ ... وَلاَ حُقِّقَتْ[1] فِيهاَ طوالِعُ بُلْدَانِ

وجوهُ القَضَايَاَ فى كَمَالِكَ شأنُها ... وجوبٌ إذَا خَصَّتْ سِوَاكَ بإمكان

ومَن قَاسَ مِنْكَ الجودَ بالبَحْرِ والحياَ ... فَقَدْ قَاسَ تَمْوِيهاً قِياَسَ سُفُسْطَانِى

وطاعَتُك العُظْمَى بِشَارَةُ رَحْمَةٍ ... وعِصْياَنُكَ المَحْذور نَزْغَةُ شَيْطَانِ

وحُبُّكَ عنوانُ السَّعادَةِ والرِّضاَ ... ويُعْرَفُ مِقْدَارُ الكِتَابِ بِعُنْوَانِ

وَدِينُ الهُدَى جِسْمٌ وذَاتُكَ رُوحُهُ ... وكم وَصْلَةٍ ماَ بَيْنَ رُوحٍ وجُثْمَانِ

تَضِنُّ بِكَ الدُّنْياَ وتَحْرُسُكَ العُلَى ... فَلاَ هُدِمَ المَبْنِيُّ ولا عُدِمَ البانِى

وصَاحَتْ بِكَ الدُّنْياَ فَلَمْ تَكُ غَافِلاً ... ونَادَتْ بِكَ العَلْياَ فَلَمْ تَكُ بالوَانِى

ولم تَكُ فِي خَوْضِ البِحاَرِ بِهاَئِبٍ ... وَلَمْ تَكُ فِي رَوْمِ[2] الفخاَرِ بِكَسْلاَنِ

لَقَدْ هَزَّ مِنْكَ العَزْمُ لمَّا انْتَضَيْتَهُ ... ذَوَائبَ رَضْوَى أَوْ مَنَاكِبَ نَهْلاَنَ[3]

ولله عَيْنا مَنْ رَآهاَ مَحَلَّةً ... هِيَ الحَشْرُ لاَ تُحْصَى بِعَدٍّ وحُسْبَانِ

وتَنُّورُ عَزْمٍ فَارَ فى إثْرِ دَعْوَةٍ ... فَعَمَّ الأَقَاصِي وَالأَدَانِى بِطُوفَانِ

عجَائِبُ أَقْطَارٍ وَمَأْلَفُ شَارِدٍ ... وَأَقْلاَذُ[4] آفَاقٍ وَمَوْعِدُ رُكْبَانِ

إِذَا ماَ سَرَّحتَ اللَّحظَ فِي عَرَصَاتِهاَ ... تَبَلَّدَ مِنْكَ الذِّهْنُ فِي العاَلَمِ الثَّانِى

جَنَاحَانِ والنَّصرُ العَزِيزُ اهْتِصاَره ... إذا انْتَظَمَتْ بالقَلْبِ مِنها جَنَاحَانِ

فَمِن سُحُبٍ لاَحَتْ بِهاَ شُهُبُ القنا ... ومنْ كُثُبٍ بِيضٍ بَدَتْ فَوْقَ كُثْبَانِ

مَضَارِب فى البَطْحاَء بِيضٌ قِبَابُها ... كما قُلِّبَتْ للعَيْنِ أَزْهاَرُ سَوْسَانِ

وَماَ إِنْ رَأَى الرَّاؤونَ فِي الدَّهْرِ قَبْلَهاَ ... قرارة عِزٍّ فى مدينة كتَّانِ

---

(١) المقرى : خفقت .

(٢) المقرى : نيل .

(٣) رضوى وثهلان جبلان فى الحجاز .

(٤) المقرى : أفلاذ .

تَفُوتُ التِفَاتَ الطَرْفِ حالَ انْتِقَالِهاَ(١) كَأَنَّكَ قَدْ سَخَّرْتَ جِنَّ سُلَيْمانِ

فَقَدْ أَطْرَقَتْ مِنْ خَوْفِهاَ كُلُّ بِيعَةٍ وَطَأْطَأَ مِنْ إِجْلاَلِهاَ كُلُّ إِيوَانِ

وقد ذُعِرتْ خَوْلاَنُ بَيْنَ بُيُوتِهاَ غَدَاةَ بَدَتْ مِنْهاَ البيوتُ(٢) بِخَوْلاَنِ(٣)

فَلَوْ رُمِيَتْ مِصرُ بِهاَ وَصَعِيدُهاَ لَأَضْحَتْ خَلاَءً بَلْقَعاً بَعْدَ عُمْرَانِ

وَلَوْ يَمَّمَتْ سيفَ بن ذِي يَزَنٍ لَمَاَ تَقَرَّرَ ذَاكَ السيفُ في غِمدِ غِمدانِ

تُرَاعُ بِهاَ الْأَوْثَانُ فِي أَرْضِ رُومَةٍ إذا خَيَّمتْ شرقاً عَلَى طَرْفِ(٤) أَوْثَانِ

وتُجْفِلُ إِجْفَالَ النَّعامِ بِبَرقَةٍ ليوثُ الشَّرَى ماَ بَيْنَ تُرْكٍ وَعُرْبَانِ

وعَرْضاً كَيَوْمِ العَرْضِ أَذْهَلَ هَوْلُهُ عِيانى وأعيانى تَعَدُّدُ أَعْيانِ

وَجَيْشاً كَقِطْعِ اللَّيْلِ للخَيْلِ تَحْتَهُ إِذَا صَهَلَتْ مُفْتَنَّةً رجعُ أَلْحَانِ

فَيُومِضُ مِنْ بِيضِ الظُّباَ بِبَوَارِقٍ وَيَقْذِفُ مِنْ سُمرِ الرِّمَاحِ بِشُهْبَانِ

وَيُمْطِرُ مِنْ وَدْقِ(٥) السِّهَامِ بِحَاصِبٍ سَحاَئِبُهُ مِنْ كُلِّ عَوْجَاءَ مِرْنَانِ

---

(١) المقرى : اقتبالها .

(٢) المقرى : البيوت — وهى فى الاصل غيرمنقوطة .

(٣) المقصود بخولان : عرب قبيلة خولان اليمنية ، وكانوا — كما يقول البكرى — ينزلون قرية كبيرة آهلة ، كثيرة الخير بالقرب من فاس على نهر زلول (لعله نهر سبو Sebou) راجع (البكرى : كتاب المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب ص ١٠٩) . ولقد اشتهرت قرية خولان بينابيعها المعدنية الساخنة . وظلت معروفة بهذا الاسم حتى القرن الثامن عشر الميلادى ثم تغلب عليها اسم ولى الله المدفون بها سيدى أبى عبد الله محمد بن حرازم (القرن السادس الهجرى) أحد تلاميذ أبى مدين وأستاذ أبى الحسن الشاذلى . وينابيع سيدى حرازم تقع على بعد ١٥ ك . م شرق فاس ، ومياهها مفيدة لمرضى الكلى والامعاء .

(راجع ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٨ — ترجمة (السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى) راجع كذلك (جمال الدين الشيال : الصلات الثقافية بين المغرب والاسكندرية (الكتاب الذهبى لجامعة القرويين) .

(٤) المقرى : طرق .

(٥) الودق : أى المطر .

وجُرْدًا إذَا ماَ ضُمِّرَتْ يَوْمَ غَارَةٍ ... تَعَجَّبْتَ مِنْ رِيحٍ تُقَادُ بِأَرْسَانِ[1]

تُسابِقُ ظِلْمَانَ[2] الفَلاَةِ بِمِثْلِهاَ ... وتَذْعَرُ غِزْلاَنُ الرِّمَالِ بِغِزْلاَنِ

وَدُونَ مَهَبٌّ العَزْمِ مِنْكَ قَوَاضِبٌ ... أَبَى النَّصْرُ يَوْماً أن تُلِمَّ بأَجْفَانِ

نَظَرْتُ إلَيْهاَ والنَّجِيعُ[3] لِباَسُهاَ ... فقُلْتُ سيوفٌ أَمْ شَقاَئِقُ نُعْمَانِ[4]

تَفَتَّحَ وَرْدًا خَدُّهاَ حِينَ جُرِّدَتْ ... وَلاَ يُنْكِرُ الْأَقْوَامُ خَجْلَةَ عُرْياَنِ

كَأَنَّ الوَغى نَادَتْ بِهاَ لِوَلِيمَةٍ ... قَدْ احْتَفَلَتْ أَوْضَاعُهاَ مُنْذُ أَزْمَانِ

فَإنْ طَعِمَتْ بالنَّصْرِ كانَ وُضوءهاَ ... نَجِيعٌ وَوَافَاهاَ الغُبَارُ بأَشْنانِ[5]

لَقَدْ خَلُصتْ للهِ مِنْكَ سَجِيَّةٌ ... جَزَاكَ عَلَى الإحْسَانِ مِنهاَ بِإحْسانِ

فَسَيْفُكَ لِلفَتْحِ المُبِينِ مُصاَحِبٌ ... وَعَزْمُكَ والنَّصْرُ المُؤَزَّرُ إلْفَانِ

فَرِحْ واغْدُ للرَّحْمنِ تَحْتَ كلاَءةٍ ... وَسَرْحَانَ، فِي غَابِ العِدَى كُلُّ[6] سِرْحَانِ

ودُمْ والمُنَى تُدْنِي إلَيْكَ قِطاَفَهاَ ... مُيَسَّرَ أَوطارٍ مُمَهَّدَ أَوْطاَنِ

وكُنْ وَاثِقا باللهِ مُسْتَنْصِرًا بِهِ ... فَسُلْطَانُهُ يَعْلُو عَلَى كُلِّ سُلْطَانِ

كَفاكَ العِدَا كَافٍ لِمُلْكِكَ كَافِلٌ ... فَضِدُّكَ نِضْوٌ مَيتٌ بَيْنَ أَكْفَانِ

رِضَى الوَالِدِ المَوْلَى أَبِيكَ عَرَفْتَهُ ... وقد أُنكِرَ المعروفُ من بعد عِرْفَانِ

فَكَمْ دَعْوَةٍ أَوْلاَكَ عِنْدَ انْتِقَالِهِ ... إلى العالِمِ البَاقِي مِنَ العَالَمِ الفَانِي

فعُرِّفْتَ فى السَّرَّاءِ نِعْمَةَ مُنْعِمٍ ... وأُلحِفْتَ فى الضَّرَّاءِ رحمةَ رَحْمانِ

---

(١) أرسان جمع رسن وهو الحبل الذى تقاد به الدابة .

(٢) ظلمان : جمع ظليم وهو ذكر النعامة .

(٣) المراد بالنجيع هنا : الدم المتجمد .

(٤) نوع من الازهار الحمراء .

(٥) الاشنان : شيء ينظف به الفم بعد الأكل ، وهو طيب الرائحة .

(٦) كأن سرحان الاولى مصدر بمعنى سهولة ويسر ، والثانية بمعنى الذئب .

عجبتُ لِمَنْ يَبْغِي الفَخَارَ بِدَعْوَةٍ … مجرَّدَةٍ مِنْ غَيرِ تَحْقِيقِ بُرْهَانِ
وَسُنَّةُ إبراهيمَ فى الفَخْرِ قد أتَتْ … بِكُلِّ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيٍّ وَعُثْمَانِ
وَمَنْ مِثْلُ إبراهيمَ فى ثَبْتِ موقفٍ … إذَا ما التَقَى فى حَوْمَةِ الحرب صَفَّانِ
إذا هَمَّ لم يَلْفِتْ بِلَحْظَةِ هَائِبٍ … وإنْ مَنَّ لم يَنْفُثْ بِلَفْظَةِ مَنَّانِ
فَصَاحَةُ قُسٍّ[1] فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ[2] … وَإقدامُ عَمْرٍو[3] تَحْتَ حِكْمَةِ لُقْمَانِ[4]
شمائل ميمون النَّقِيبَةِ[5] أرْوَعٍ … لَهُ قَصَبَاتُ السَّبْقِ فى كُلِّ مَيْدَانِ
مَحَبَّتُهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ … وَطَاعَتُهُ فى الله عُقْدَةُ إيمَانِ
هَنِيئاً أميرَ المسلمينَ بِمِنَّةٍ … حُبِيتَ بها مِنْ مُطْلَقِ الجودِ مَنَّانِ
لَزَيَّنْتَ أجْيَادَ المَنَابِرِ بالَّتى … أتَاحَ لَكَ الرَّحْمَنُ فى آل زَيَّانِ
قَلائِدُ فَتْحٍ هُنَّ لَكِنَّ قَدْرَهَا … تَرَفَّعَ أنْ تُدْعَى قَلائِدَ عِقْيَانِ

---

(١) يقصد قس بن ساعدة ، وهو خطيب جاهلى يضرب به المثل فى البلاغة والفصاحة والموعظة الحسنة . كان يؤمن بالتوحيد ويدعو العرب إليه وقيل إنه كان أول من خطب واتكأ على سيف أو عصا فى خطابه . ومن أقواله : « البينة على من ادعى واليمين على من انكر » .

(٢) المقصود هنا حاتم الطائى وهو شاعر جاهلى اشتهر بشجاعته وسخائه وكرمه ، وضرب به المثل : اجود من حاتم ، له ديوان مطبوع فى لندن سنة ١٨٧٢ وترجم إلى الالمانية فى ليبزج سنة ١٨٩٧ . وشخصية الطائى معروفة فى القصص الفارسى ثم انتقلت إلى الآداب الشرقية الأخرى كالتركية والهندية .

(٣) يقصد عمرو بن معدى كرب والبيت يذكرنا ببيت الشاعر ابى تمام فى مدح الامير احمد ابن الخليفة المعتصم بالله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم … فى حلم احنف فى ذكاء إياس

(٤) لقمان من الحكماء الذين يتمثل بهم فى كثير من الحكم والامثال قال الله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » (سورة ٣١ آية ٣٤) . ويروى أنه كان عبدا حبشيا لرجل من بنى إسرائيل فاعتقه وأعطاه مالا وذلك فى زمن داود عليه السلام ، وقيل إنه كان خياطا ، وأنه لم يكن نبيا فى قول أكثر الناس ، ولقد جاءت أخباره فى الجاهلية وصدر الاسلام ولقب بالمعمر الطويل — راجع الثعالبى ؛ ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٩٧) .

(٥) المقرى : النقية .

أمولاىَ حُبّى فى عُلاكَ وَسِيلَتِي ... ولطفُكَ بِى دَأْباً بِحَمْدِكَ[1] أغرَا

أيادِيكَ لاَ أنْسَى عَلَى بُعْدِ المَدَا ... نَعُوذُ بِكَ اللّهُمَّ مِنْ شَرِّ نِسْيَانِ

فَلاَ جَحْدُ مَاخَوَّلتَنِي مِنْ سَجِيَّتِي ... وَلاَ كُفْرُ نُعْمَاكَ العَمِيمَةِ من شَانِى

وَمَهْمَا تَعَجَّلْتَ الحقوقَ لِأَهْلِهَا ... فإنَّكَ مَوْلاَىَ الحَقِيقُ وَسُلْطَانِى

ورُكْنِي الذى لَمَّا نَبَا بِىَ مَنْزِلِي ... أجَابَ نِدَائِى بالقَبُولِ وآوانِى

وعالَجَ أَيَّامِى وكانَتْ مَرِيضَةً ... بِحِكْمَةِ مَنْ لَمْ يَنْتَظِرْ يَوْمَ بُحْرَانِ

فَأَمَّنَنِي الدَّهْرَ الذى قَدْ أخَافَنِي ... وَجدَّدَنِى[2] السَّعْدَ الذى كان أبْلاَنِي

وَخَوَّلَنِي الفَضْلَ الذى هو أهْلُهُ ... وَشِيكاً وَأعْطَانِى فَأفْعَمَ أعْطَانِى[3]

تَخَوَّنَنِي صَرْفُ الحوادث فانثَنَي ... يُقَبِّلُ أرْدَانِى وَمِنْ بَعْدُ أرْدَانِى[4]

وَأزْعَجَنِي عَنْ منشأِى وَمُبَوَّئِى ... ومَعْهَدِ أحْبَابِى وَمَأْلَفِ جِيرَانِى

بِلادِى التى فِيهَا عَقَدْتُ تَمَائِمِى ... وجَمَّ بِهَا وَفْرِى وَجَلَّ بِهَا شَأْنِى

تُحَدِّثُنِي عَنْهَا الشَّمالُ فَتَنْثَنِي ... وقد عَرَفَتْ مِنِّي شَمَائِلَ نَشْوَانِ

وآمُلُ[5] ألاَّ أسْتَفِيقَ مِنَ الكَرَى ... إذَا الحُلْمُ أوْطَانِى بِهَا تُرْبَ أوْطَانِى

تَلَوَّنَ إخْوانِى علىَّ وقَدْ جَنَتْ[6] ... لَدَىَّ[7] خطوبٌ جَمَّةٌ ذَاتُ ألْوَانِ

وما كنتُ أدْرِى قَبْلَ أنْ يَتَنَكَّرُوا ... بأنَّ خِوانِى كَانَ مَجْمَعَ إخْوَانِى[8]

---

(١) المقرى : بمدحك .

(٢) النفح : وجددلى .

(٣) أعطان جمع عطن وهو مبرك الإبل ويقصد به هنا سكنه .

(٤) أردانى الأولى بمعنى ثيابى والثانية بمعنى قتلنى .

(٥) رسم الأصل : أمن ــ والتصحيح عن النفح .

(٦) المقرى : جنت .

(٧) المقرى : علىّ .

(٨) المقرى : خوانى (بتشديد الواو) وهى القراءة الأصوب .

وكانت وقد حُمَّ القضاء صنائعى | علىَّ بما لا أرتضى شر أعوان
فلولاكَ بَعْدَ الله يا مالكَ العُلَى | وقد فتَّ ما ألفيْتُ مَنْ يتلافانى
تَدَارَكْتَ منى بالشفاعة مُنْعِماً | برِيًّا رماه الدَّهرُ فى موقف الجَانى
فإنْ عرفَ الأقْوَامُ حَقَّكَ وُفِّقُوا | وإنْ جهلوا باءوا بصفقة خسرانِ
وإن خلطوا عُرْفاً بِنُكْرٍ وقَصَّرُوا | وَزَنْتَ بقسطاس قويم وميزانِ
وحُرْمَةُ هذا اللَّحْدِ يَأْبَى كمالُها | هَضِيمةَ دارٍ أَوْ حَطِيطَةَ نُقْصَانِ
وقد يَمَّتُ عن أمْرِى وَنَبَّهْتُ هِمَّةً | تُحَدِّقُ مِنْ عُلْوٍ إلى صَرْحِ هامَانِ
إذا دانت اللهَ النفوسُ وأَمَّلتْ | إقَالَةَ ذَنْبٍ أو إنَالَةَ غُفْرَانِ
فمولاك يامولاى قِبْلَةُ وجهتى | وَعُهْدَةُ أَسْرَارِى وحُجَّةُ إعْلَانِى
وقفتُ على مثْوَاهُ نَفْسِى قَائِماً | بِتَرْدِيدِ ذِكْرٍ أو تِلاوَةِ قُرْآنِ
ولو كنتُ أدْرِى فَوْقَهَا مِنْ وَسِيلَةٍ | إلى مُلكِكَ الأرْضى لَشَمَّرْتُ أَرْدَانِى
وأبلغتُ نَفْسى جهدها غَيْرَ أنَّنِي | طِلَابِىَ مَا بَعْدَ النِّهايةِ أعْيَانى
قرأتُ كتَابَ الحَمْدِ فِيكَ لِعَاصِمٍ | فَصَحَّ أدَائِى واقْتِدَائِى وَإِتْقَانِى
فَدُونَكَهَا مِنْ بَحْرِ فِكْرِىَ لُؤْلُؤاً | يُفَصَّلَ مِنْ حُسنِ النظام بِمَرْجَانِ
وكَانَ رسولُ الله بالشِّعْرِ يَعْتَنِي | وكَمْ حُجَّةٍ فى شِعْرِ كَعْبٍ وحَسَّانِ
ووالله ماوَفَّيْتُ قَدْرَكَ حَقَّهُ | ولكنَّهُ وُسْعِى ومَبْلَغُ إمْكَانى

فصل في إدالة الدولة بالأندلس ثانية

ولما يكد الرسول يتوسط سفره ، حتى أظلّ ما كان من استلحام سلطان الأندلس إسماعيل بن الأمير أبي الحجاج بن نصر ، الباغي على أخيه أحانه الله لسوء سيرته وشؤم مولده ، من رَبِيٍّ مومسة وحبيس سجن لم يكسبه اعتبارا ولا خشية ، مضفور الوفرة بخيوط الإبريسم إلى عُصْعُصِه ، قد فَضَلَت من لمه ضفيرة جَمَّة ذات عُقَدٍ مموَّهة ، شديد الخِنَّة والتَّنَزُّل ، يعكف وأمُّه العُشبة الناشئة فى المنبت السوء ، والأَرُومة الخبيثة على أسلاب المنكوبين ، وماعون المحرومين يتجاذبان آلة الغزل ، ودقيق الخرط ، ويمسحان بأكامهما ما علاه من الشَّعَث ، ويختبران بألسنتهما قُوَى المُرَكَّبات ، وبرز إلى الجو من قَفَص العُقْلَة ، ملقيا بيده فى مساقط المثجنة[1] والتخلف ، غير مستتر بالقاذورات ، (٣٠ ط) ولا مُوَرّ بأخابث الشهوات . وغصَّ بمكان ابن عمه[2] مولاه لغة وعرفا ، الذى أوطأه السَّنام والذِّروة ، واستخلص له المُلك من لَهاة اللَّيْث ، واستنزله من سُكاكِ الجو ، فتجهَّم له ، وانفرد بالخالص دونه ، وشرع فى القبض عليه لو وفِّق ، فأقصر المذكور مليا مرضيا إياه بانقباضه ، ومتمكنا من استجماعه ، آخذا صفقة سر أخيه[3] .

وفى[4] زوال يوم الأربعاء ثامن شعبان كبس مثواه ، المضاع القَفل ، الخامل المَسْلحة ، فتخطاه بالرجال بعد أن ألزم حفظه ، وانحدر من الدار العليا خَلَل الدَّوْح

(١) المثجنة : الماء الراكد المر الملح .

(٢) يقصد الرئيس أبا سعيد البرميخو .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) كتب على هامش هذا السطر بخط كبير عبارة : « خلع إسماعيل » .

الأشِب ، والمسالك المفروشة إلى الدار السفلى ذات الصرح الهائل ، فاقتحمها ، ولجأ الحائن[1] إلى الذروة فى طائفة من الأحداث الزغب الحواصل ممن لا يُجَلِّى فى الكريهة ، ولا يُغنى فى الجُلَّى ، ولا يعمل بالسلاح ، إلا ما كان من علْج أبيه المسمى عبادا ، المعين على حياته لتهذيبه وتأديبه بحِكَم الفرس وسياسة يونان ومكارم الدولتين ، من خبيث جماعة ، سامرى السجية ، معدن من معادن الجهل ، مثل فى زمانه ذمر المروءة ، على فروسة وثقافة وخفوف إلى العيهات ، يحمل السيف بين يديه مبان السبابة ، ظاهر الطيرة ، احتجن[2] من الصامت[3] ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، لم يفرض الله فيه زكاة ولا عين فيه مواساة .

وصاح صائحهم بالناس ، ورددوا هاء الاستغاثة ، إنك لا تشكو إلى مصمت ، ثم حملوه على الإلقاء باليد ، لما عملت الصواقر[4] فى الأبواب جنوحا إلى الخلع والعودة إلى كسر البيت . فنزل وتقبض عليه (٣١ و) فأوسعه ما شاء من تقريع وخزى ، ومؤلم عتب ، ثم أمر بثقافه بالطبق[5] ، وأوعز إلى تاليه بالإجهاز عليه ، فتعاورت النصال منه مطية امرئ القيس ، وحزّ رأسه معززا برأس صنوه قيس ، وألحق بهما عباد وابنه ، وماردان من أخابث الخراب ، فلم تبك عليهم سماء ولا أرض ولا حق فيهم غير هذا ، ووزيره الحر الأمين محمد بن أبى الفتح المواصل للجشأ من خوانه ، المُفْعَم المعامن سريط جفانه ، المغرى اليد باكتساح ذخيرته ، المحشو الكم بدسائس الرشا الجانية على ماله . وابن عمه العضر فوط[6] ثور النقل وبالوعة النبيذ ، الباكى

(١) حان فلان أى هلك أو وقع فى المحنة وحرم التوفيق .

(٢) احتجن المال أى ضمه إلى نفسه واحتواه .

(٣) الصامت : الذهب والفضة .

(٤) الصاقور : فاس تكسر بها الحجارة .

(٥) الطبق أو المطبق : السجن تحت الارض .

(٦) كذا ، ولعلها العضروط أى اللئيم أو الاجير على طعام بطنه والجمع عضاريط أى صعاليك .

خَزُّ خِلَعِه من روحه المتظلمة بكنف من أنفاس حُشِّه ، وثقة بابه الموروري[1] ، الموطوء العقب بعزه ، والأعصم المؤمر على التيوس بصكه ، والأمير المعتقد كرسى الشرطة العليا[2] بتنويهه . وسكك القلعة تغص بأتباعهم ، وتضيق عن زَرَعتهم[3] ، وطائفة الوثوب بالحائن لا تعادل معشار جملتهم بين كاسع فى كسره ، ناظر من خُرُت[4] غلقه ، مرتقب للاجهاز على سلطانه ، جاعل دبر أذنه مسمع صراخه ، واثق لمكان عهد الخَتْر[5] بانسحاب عزه واتصال جاهه ، من غير إحنة نشأت بينهم وبين ذيالك المحرمان ، ولا تقصير عن رسم ، ولا استئثار بفائدة دونهم . وحسبك من كرم طباعهم ووفاء عهودهم ودسائس عروق أحسابهم ، وطيب مراضعهم ، ولمّا تم الأمر خرجوا من أحجارهم يرون البعد عن الدخلة ، والله يبلو سرائرهم ، إذ يبيتون مالا يرضى من القول ، إلا ما كان من (٣١ ط) التيس الموروى فإنه جاهر بالختر ، وآزر الدائل ، وفتح له باب السلطان المحدود ، وأمكنه من نفسه ، فانطلقوا يجمجمون فى أعقاب الفتكة وينتضحون[6] بالدماء الجامدة ، ويتجملون بالسلاح المخضوب . وأخذوا مراكزهم بين يديه كما تعود قطع الشطرنج إلى بيوتها من صفرته ، ولم يعلموا ما خبأ الله لهم على يده من الأخذة الرابية[7] ، والنكبة القاضية ، فلا بالدنيا استمتعوا ولا بالذمام

---

(١) الموروري نسبة إلى موورور Moron وهى كورة متصلة بأحواز مدينة قرمونة وتسمى الآن تشورا La Churra وهى مشهورة بالسقائين الذين يحملون منها الماء لبيعها فى مدينة غرناطة . راجع (نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٧ ، فرحة الانفس ص ٢٤ ، الروض المعطار ص ١٦٢) راجع كذلك (Simonet : Descripcion del Reino de Granada P. J97)

(٢) يرى المؤرخون أن الشرطة العليا هى التى تتولى النظر فيما يقع من جرائم من رجال الطبقة العليا فى الدولة ، أما الشرطة السفلى فهى التى تختص بجرائم عامة الناس وهناك من يرجع هذا التقسيم إلى مدلول جغرافى يعنى ان الشرطة العليا هى التى تختص بقضايا أعلى المدينة ، والشرطة السفلى هى تنظر فى قضايا اسفل المدينة .

(٣) زرعتهم أى بنيهم ولعلها وزعتهم أى حراسهم .

(٤) الخرت : الثقب وجمعها خروت .

(٥) الختر : الغدر .

(٦) انتضح : اصطبغ وتطيب

(٧) الأخذة الرابية أى العقوبة الشديدة .

تمسكوا ، ولا بحبل الله اعتلقوا ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، فشاهت[1] منهم وجوه الكلاب ، وسبال[2] التيوس ، وهم البغايا .

لاَ بَأْسَ بالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ وَمِنْ عِظَمٍ جِسْمُ البِغَالِ وأَحْلاَمُ العَصَافِيرِ
ألاّ طِعَانَ ولا فِرْسَانَ غَادِيَةٌ . إلاَ بِحَسْوِكُمُ عِنْدَ التَنَانِيرِ

فكان من اجتثاث شجراتهم الخبيثة من فوق الأرض ، وهُوِيّهم فى دركات سخط الجبار جل جلاله ما يأتى به الذكر إن شاء الله .

وأطل صاحب الأمر على الناس من رواحة البهو غابطا إياهم بنفسه ، مقررا رأيهم فى إراحتهم من تخلفه ، وطرح رأسه فاحتمله بعضهم صوباً بكامل مِعْلاقة ، وأخذ البيعة لنفسه فلم يختلف عليه أحد ، وعلك الأمر منه أشد لحس[3] وأشاع الخلع ، وأقرّ أمر البطانة على غرة بوصل استكفاء إبراهيم بن أبى الفتح ، الأصلع الغوى ، وجدد وزارة ابن عمه محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح ، العقرب الردى ، فنكأ ذيالك المشئوم القرح بالقرح ، وسمل فى باب السفق عنده العيون وبقر البطون ، (٣٢ و) وسولت له نفسه غدره إذ كان غير ما جرى ، يعده ويمنيه ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، لمكان ما لقه من مال الجباية ووقوع القحط فى رجال الدولة .

لَقَدْ هَزُلَتْ حَتَّي بَدَا مِنْ هُزَالِهَا سَلاَهَا وَحَتَّي اسْتَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

وما ظَنُّك[4] برجل مجهول الجد ، موصوم الأبوة ، قَلِـعٍ[5] لا يحسن المجاولة ، ولا يلزق بالصهوة ، كثيف الحاشية ، جلده على سوء الطوية ، تنور خبز ، وبركة مرقة ،

---

(١) شاهت أى قبحت .

(٢) السبلة : ما على الشارب من الشعر .

(٣) كذا رسمها فى الاصل .

(٤) نقل المقرى الاسطر الاربعة التالية فى كتابه نفح الطيب ج ٧ ص ٦٦ تحت عنوان : « وصف الوزير الذى استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الثائر على أخيه » والوزير هو إبراهيم بن ابى الفتح الاسلع الغوى .

(٥) القلع : الرجل البليد الذى لا يفهم والذى لا يثبت فى البطش ولا على السرج .

وثمبان حلواء ، وفاكهة معى ، فى شح النفس ، متهالك فى مسترذل الطمع ، يبز عليه العضرفوط ابن عمه بسذاجة زعموا مع كونه قبيح الشكل بشيع الطلعة[١] ، واتصل بى إقراره إياه على رسمه فقلت :

قُمْتَ بِأَمْرٍ أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ   فَلْتَاتِ ذَاكَ الْأَمْرَ مِنْ بابِهِ
لَا تُدْنِ مِنْ مُلْكِكَ شَخْصًا يَرَى   بِأَنَّهُ فِي النَّاسِ أَوْلَى بِهِ
وعنده مال ومن خلفه   أيدٍ تَمَلَّقْنَ بأهدابه
لا سيما من دخَلَتْ استه   وانتفخت من تحت أثوابه
وخاب منه الملكُ فيما مضى   وكان ينوى قطع أسبابه
قد أفسدَتْ أقوال كهانه   فكرتَه اليومَ وحُسَّابه
ينظر فى المرآة من وجهه   بين مواليه وأحزابه
عروس مُلك طالما أُعمِلَت   فى عَقْدِهِ أرجُلُ خطَّابه
فهمّهُ استبدال قواده   وفكره استنخاب كتابه
إن نام كانت حُلْمَ أفكاره   أو قام كانت نصب محرابه
يَنقدُكَ العيبة مهما خلا   ما بين أهليه وأصحابه
ويجذب الناس إلى نفسه   بخادع القول وخلابه
كأنَّ به إذ لم تكن حازما   والوفدُ يبغى إذن حجابه
والآن قد هابك فاحذرْ فما   يبدأ فتكا غيرُ هيابهِ
وقاطع الدولة مستقبلا   فليستعذْ من شر أوصابهِ
والله يكفيك شرور العِدى   لا يستعين العبد إلا بهِ

(١) توجد كلمة « الغبى » على الهامش ويجوز ان يكون وضعها بعد كلمة ابن عمه .

والملك لم يُقصَر على أمة وإنما الملك لغلابهِ
هذا ابنُ هودٍ بعد إرث العلى بانَ بنو نصر بأسلابهِ
لا يستَلِذُّ العيشَ ليثُ الشَّرى حتى يَذُودَ الأسْدَ عن غابه
وإن أضَعْتَ الحزم لم تنفلت مِنْ ظُفُرِ الحَيْنِ ومِنْ نابه
لا تتهمنى إننى مُمْتَلٍ من حِكَمِ المُلك وآدابه
وعقلَكَ الموهوبَ حكِّمْهُ فى الـ أحوالِ واشكُرْ فضل وهَّابه
وكل من أذلّتَهْ قبلها عَلَّمَهُ بالملك وألقابه
لم يُرَ ملكٌ فى زمان خلا قام لـه رسم بأترابه
من قلتَ يا عمٌّ له مرةً ثق بتعاطيه وإعجابه
أو سيدى دام ، يرى سيدى حقاً لَهُ قمت بإيجابه

وفى العشر[1] الأول من رمضان تقبض على الوزير المشوم ، وابن عمه الغوى الغشوم ، فى ولد الغوى[2] ، مرسل الضفيرة ، أبعد الناس فى مهوى الاغترار ، يختال فى السرق[3] والحليه[4] ، سم من سموم القوارير ، وابتلاء (٣٣ و) من الله لذوى الغيرة ، يروح نشوان العشيات ، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف يعاقرون النبيذ فى السكك الغاصة ، وولدى العقرب الردى بضده قماءة وتقطبا ، تنبو عنهما العيون ويبكى منهما الخز ، كأنهما صمتا عند المحاورة ، وإظلاماً عند لألاء[5]

(١) نقل المقرى هذه الفقرة التالية فى نفحه ج ٧ ص ٦٦ ـ ٧٧ .

(٢) فى نفح الطيب : وولد .

(٣) فى نفح الطيب : السرف .

(٤) فى نفح الطيب : والحلية .

(٥) فى نفح الطيب : وأظلما عند اللالاء .

النادرة ، من أذلاء بنى النضير ، ومهتضمى خيبر ، فثقفا مليا ، وبودر بهما إلى ساحل المنكب[1] .

قال المخبر ، فما رأيت منكوبين أقبح شكلا ولا أفقد صبرا من ذينك التيسين الحبَقَيْن[2] ، صلع الرءوس ضخام الكروش ، مبهورى الأنفاس ، متلجلجى الألسنة ، قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية[3] كأنها سنام الحوار[4] ، وافترت بطونهم عن سرر[5] كأسمعة الفرا[6] ، لا يثيرون دمعا ولا يستنزلون رحمة[7] ، ولا يمهدون عذرا ، ولا يتزودون من كتاب الله آية ، فقد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم ببغيهم ، وعجل لهم سوء سعيهم .

وللحين أركبوا هم وجِراؤهم[8] فى جفن غزوى تحف بهم المساعير من الرجال . واقتفى بهم إثر قرقورة تحمل حاجا إلى الإسكندرية تورية بالقصد . فلما لججوا فى البحر[9] قذف بهم فى لجه بعد استخلاص ما خبئوا به[10] ، وتلكأ الأصلع الغوى فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط العقرب الرَّدِى فنال من جناب الله سخطا وضيقا تعالى الله عن نكيره ، فكان فرعون هذا الزمان جبروتا وعتوا وميتة ، عجل الله لهم

(١) المنكب : اسم عربى بمعنى الحصن المرتفع ويسمى اليوم Almunecar وهو تحريف للاسم العربى .. اما الاسم القديم لهذا المكان فهو Sexi وهو مرفأ ساحلى مرتفع فى جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة .

راجع (الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٩ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٦) .

(٢) الحبق : الرجل الجاهل الذى لا خير فيه .

(٣) الاترج والاترنج : نوع من أنواع الفاكهة من جنس الليمون .

(٤) الحوار ولد الناقة .

(٥) السرة : التجويف المعهود فى وسط البطن وجمعه سرات وسرر .

(٦) الفراء والفرأ : حمار الوحش وجمعه أفراء وفراء .

(٧) هذه الجمله السابقة ساقطة فى نفح الطيب .

(٨) الجرو صغير كل شىء وغالب على ولد الكلب والاسد والمقصود هنا أولادهم .

(٩) ساقطة فى نفح الطيب .

(١٠) ما خبئوا به : أى ما تشبثوا به .

العذاب وأغرقهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان من لا تضيع الحقوق مع عدله (٣٣ ط) ولا تنفسخ الآماد مع منازعته رداء كبريائه مرغم الأنوف ، وقاطع دابر الـكافرين . وفى ذلك أقول مستريحا وإن لم يكن — علم الله — من شأنى ، ولا تـكرر فى ديوانى :

وما كنتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَه ... ولـكنَّ مَنْ يُبصِر جُفُونَكَ يَعْشَقِ

ومن أمثالهم : من استغضب فلم يغضب فهو حمار . والله يقول : ومن أصدقُ من الله قيلا[1] ، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، والعفو أقربُ للتقوى ، والقرب والبعد بيده سبحانه .

وصدرت هذه الـكلمة لحين تعرف إجلائهم فى الجَفَن إلى الإسكندرية وبعد ذلك صح هلاكهم :

كُنْ من صروفِ الرَّدَى على حَذَرِ ... لا يقبل الدَّهرُ عُذْرَ مُعْتَذِرِ
وَلاَ تُعَوِّل فِيهِ عَلَى دعَةٍ ... فأنت فى قُلْعَةٍ وفى سَفَرِ
فـكلُّ رِیٍّ يُفْضِى إِلَى ظَمأٍ ... وكلُّ أمْرٍ يَدْعُو إِلَى غَرَرِ
وكلُّ حَیٍّ فالموتُ غَايَتُهُ ... وكُلُّ نَفْعٍ يُدْنِى إلى ضَرَرِ[2]
كم شَامِخ الأنـفِ يَنْثَنِى فَرَحاً ... بالَ عَلَيْه زَمَانُهُ وَخَرِى
قُل للوزيرِ البَلِيدِ قَدْ رَكَضَتْ ... فِى رَبْعِكَ اليوم غارةُ الغِيَرِ
يا ابنَ أبِى الفتح نسبةً عُـكِسَتْ ... فلا بفَتْحٍ أتَتْ وَلاَ ظَفَرِ
وزارة لم يَجِدْ مُقَلَّدُهَا ... عَنْ شُؤْمِهاَ فِى الوجود من وَزَرِ[3]

---

(١) فى نفح الطيب قليلا .
(٢) هذا البيت ساقط فى نفح الطيب .
(٣) الوزر بفتح الواو والزاى : الملجأ .

فى طَالِعِ النَّحْسِ حُزْتَ رُتْبَتَهَا ... وَكُلُّ شَىْءٍ فى قَبْضَةِ القَدَرِ
أى اختيارٍ لم يَألُ نصبتَه ... فى جسدٍ للنحوس أو نظر
بَاتَ لَهُ المُشْتَرِى عَلَى غَبَنٍ ... وَأحدَقَتْ[1] فِيهِ قُرْصَةُ القَمرِ
يا طَللاً ما عليه مِنْ عَمَل ... يا شجراً مَا لَدَيْهِ مِنْ ثَمرِ
يا مُفْرِطَ الجَهْلِ والغباوةِ لاَ ... يُحْسَبُ إلا من جُمْلَةِ البَقَرِ
يَا دَائِمَ الحِقْدِ والفَظَاظَةِ لا ... يَفْرِقُ مَا بَيْنَ ظَالِمٍ وبَرِى
يا كمد اللون ينطفى كمدا ... من حَسَدٍ يستطير بالشَّرَرِ
يا عِدْلَ سَرْجٍ يادن مقتعد ... ملآن من ريبة ومن قذر
يا واصِلاً للجشاء نَاشِيَةَ الـ ... (م) ليل وَرَبَّ الضُّراط فى السحر
من غير لب ولا مراقبة ... لله فى مورد ولا صَدَرِ
يا خاملاً جاهه الفُروج يرى ... صهر أولى الجاه فخر مفتخِرِ
كانوا نَبِيطًا فى الأصل أو حَبَشاً ... ما عنده عبرة بمعتبر
يا ناقص الدين والمروءة والـ ... عقل ومُجْرِى اللسان بالهَذَرِ
يا ولد السحق غير مُكْتَتِمٍ ... حديثه وابن فاسد الدُّبُرِ
يا بغل طاحونة يدُور بها ... مجتهد السَّيْرِ مغمض البصر
فى أشْهُرٍ عشرةٍ طَحَنَتْهُمُ ... فيا رَحَى الشؤم والبوار دُرِى[2]
* والله ما كنتَ يا مشوم ولا ... أنت سوى عُرةٍ من العُرَرِ
ومَنْ أبو الفتح في الكلاب ؟ وهل ... لجاهل فى الأنام من خطر ؟
قد ستر الدهر منك عورته ... وكان لليوم غير مُستتر

---

(١) فى نفح الطيب : وأحرقت
(٢) تحوير لكلمة دورى

حانوت بَزٍّ يمشى على فرس[1]   وثور عُرسٍ يختال في حِبَر[2]

لا مِنَّةٌ تُقتَنَى[3] لِمُعْتَرِكٍ   ولا لسانٌ يُبِينُ عن خَبَرِ

ولا يدٌ تنتمى إلى كَرَمٍ   ولا صَفاءٌ يُرِيحُ مِنْ كَدَرِ

عَهْدِى بِذَاكَ الجَبِينِ قَدْ مُلِئَتْ   غضونُهُ الغُبْرُ بالدم الهدر

عَهْدِى بِذَاكَ القَفَا الغَلِيظِ وقد   مُدَّ لوقع المُهَنَّدِ الذَّكَرِ

أَهْدَتْكَ للبَحْرِ كَفُّ مُنْتَقِمٍ   أَلْقَتْكَ للحوت كفٌّ مُقْتَدِرِ

يَا يُتْمَ أولادِكَ الصغارِ ويا   حَيْرَتَهُم بَعْدَ ذَاكَ فى الكِبَرِ

يَا ثُكْلَ تِلْكَ الصَّمَّاءِ أُمِّهِمُ   وظاعن الموت غير مُنْتَظِرِ

والله لا نال من تخلفه   من أَمَلٍ بعدها ولا وَطَرِ

والله يا مسحقان[4] لا انتقلت   رِجْلُكَ منها إلا إلى سَقَرِ

ألحقك الله بالهوان ولا   رَعَاكَ فيمن تركت من عُزَرِ

ما عوقب الليل بالصباح وما   تقدم البرق عارض المطر

واستوزر من الأحداث محمد بن على بن مسعود عَصَبِية من التيس المورورى لصيده فى مرمى لَبَّتِهِ ، وضربه على الرفق المشيعة في مرضاته ، فقام منه على رأسه ، مجنون أحول العين وحشى النظرة ، يُظَنُّ به الغضب فى حال الرضا ، يهيج به المرار[5] فيمكث[6] زمانا خلف كِلَّةِ[7] مَرْقَدِهِ ، يُدْخَل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصحاره

---

(١) فى نفح الطيب : حانوت بز يمشى على فرش .

(٢) الحبرة ملاءة سوداء يلبسها النساء إذا خرجن من البيوت وجمعها حبرات وحبر .

(٣) فى نفح الطيب : تق .

(٤) فى نفح الطيب : لا مسخقان .

(٥) المرار : هى الصفراء أو السوداء .

(٦) فى نفح الطيب : فيكمن .

(٧) الكلة : الستر الرقيق يتوقى به ، من البعوض

إلى فضاء منزله ، وتوحشه من أهله وولده إلى أنْ تَضعُفَ ثورة[1] المِرّة فيخف أمره قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة ، وتوفر داعية الغبطة لخلف جرّه الوسواس السوداوى ، فنستدفع بالله شر بلائه . فاستعان منه برأى الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالهما[2] ، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه[3] . وأقر كاتب الخائن لانحطاطه فى هواه ومناسبته المجلس الدنىء خلف الخمول وملعب الأوغاد ، معززة بخطابة المنبر (٣٥ و) يخرج إليها من خلوة الاستعداد ،ويراعه دائم من النعَم المعصومة برواق الإسلام ، شَعِث لجوس خلال الديار وانتهاب الأموال ، قد أعمل فى سبيل الشمات التأنق السخيف والسجع الضعيف ، ويردد الإذن فيما يجر تحكم الشر وتمهيد سبيل الظلم أُمتكم شفعاؤكم .

وقدم للقضاء شيخنا القاضى أبا البركات الممتحن بالدنيا على الكَبْرة والغنى ، لطف الله به ونظر إليه بعين رحمته .

وفرَّ يوم الكائنة الأمير عم الخائن وسميّه اسماعيل ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ، المتصل الثقاف مدة أيام أخيه[4] فى خفارة الأجل ، وفراشه نطع ، وظلّه حسام صلت يهم به فى اليوم مرات لحراسته إلى أن ملك[5] ، فصرف إلى شلوبانيه[6] بإشارتى مباحا له التصرف خارجها ، مُبوَّأ منزل السلطان مسوّغا الجمَّ من مستخلصها ،فَصَلُحَتْ حاله ، وعَقَد السلطان بزيجة معه الصِهْر على بنته . فلما أزفت الآزفة وتصيَّر لأخيه[7]

---

(١) فى نفح الطيب : سورة

(٢) يشبه بوزراء المشرق المشهورين على سبيل الفكاهة

(٣) إلى هنا تنتهى الصفحات التى نقلها المقرى فى نفحه ج ٧ ص ٦٦ — ٧٧

(٤) يقصد السلطان ابا الحجاج يوسف بن نصر المتوفى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م)

(٥) اى إلى أن ملك السلطان محمد الخامس الملقب بالغنى بالله .

(٦) شلوبانية أو شلوبينية وهو تحريف للاسم القديم Salambina وتسمى الآن Salubrenia وتقع على ساحل البحر الابيض المتوسط فى جنوب شرق أسبانيا على مسافة قدرها ١٦ ك م شرق المنكب . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٣٦)

(٧) اسماعيل بن يوسف .

الأمر استقدمه فى يوم أغرَّ مُحَجَّلٍ برزت فيه أم السلطان[1] بمن لَفَّ لفَّها من حريمهم وأذيالهم بما لا فوقه من الزينة : مطايا فارِهَة ، وحَكَمَاتٍ[2] مُثْقَلة ، وولايا[3] مُذَهَّبَة ، وقبابا مُدَبَّجَة ، وأُنزل بدارى الرخامية الكائنة بزقاق الرؤساء من المدينة .

وقد روسل السلطان زوج البنت فى طريق انصرافه عن الأندلس مظنة إذعانه في حل عقدة النكاح ، فتماسك ومَطَل الرسول إلى أن تجاوزنا حدود إيالتهم الفاسقة ، وتوفرت داعية المسرة من الدايل على بَتٍّ عصمة أخيه والعَقْد عليها قصد النكاية (٣٥ ط) والشَّمات ، إذ كانت شَهْوةَ قُبلةٍ فاترة فعَسُر ذلك لمكان العَقْدِ وقرب العهد ودُنُوِّ الدار وإمكان النفقة . وانتُدِبَ قاضيهم الشيخُ المتراخى الدين والفَك ، المنحل العَصَب والعقيدة المُعرِق فى العمومية ، المشهور بالرشوة ، الغريب الاسم والولاية ، وشيوخُهم ؛ فلفقوا[4] من خيوط العناكب شُبهاتٍ تقلدوا بها حل العَقد الموثق ، دِيدَنُهم فى معارضة صلب الملة ، بالآراء الخبيثة بتحكم الوقاح منهم فى الحكم الذى نزل به شديد القُوى ، على الذى لا ينطق عن الهوى ، بحسب شُهُوَةٍ تحكُّمه فى عزل أمه إيثاراً للعاجل واسترابةً بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وأحلُّوا محرم البُضع للدَّايل وقد تأذن الله بفسخه وأجرى دمه نَقْدًا قبل دَفْعِ نَقْدِه سبحانه حكَمَ الحكَّام وقاهِر الظُّلَّام ، ومن يلعن الله فلن تجدَ له نصيراً[5] . وأُدْرِكَ فارا بأحواز مالقة فتقبض عليه وأُزعج فى البحر إلى سبتة مظلِّلا بصدَقَةٍ كان يُفْشِيها ، من رجل مُرَزَّأٍ[6] قدسَمَا مزاجُه

---

(١) مريم .

(٢) الحكمة : ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه

(٣) الولية البرذعة وجمعها وليات وولايا .

(٤) نقل المقرى الاسطر التالية فى نفحة ج ٧ ص ٧٠ وزاد عليها الفقرة التالية :

ومفتيهم معدن الرياء والهوارة والبعد عن التخصص والحشمة والمائل فى الباه والطرف فى التهالك على الحطام ، المسخر فى بناء الحفيرة ، المستخدم فى دار ابنه اجيرا ، مختضبا بالطين ، مضايقاً فى رمق العيشة ، وحسبك به دليلا على الحياء وفضل النبوة ، فلفقوا ...

(٥) إلى هنا تنتهى الفقرة التى نقلها المقرى

(٦) المرزأ الكريم السخى

لمطاولة الاعتقال ، دمث بعيد من الشر ، ملازم لـكِسْرِ البيت ،ظاهر المُرُوَّة والحشمة ، أنيق الفرُش والآنية ، فايق الطعام ، من أهل النبل على عدم الحنـكة . فاستقر بالباب السلطاني خِدْنَ[1] عافية ، ومجتنبا فضول القول والعمل (٣٦ و) كان الله له .

وفى هـذه الأيام اتصل الخبر بما كان من عزله عن إمارة الجند المغربى قطب ثفالها[2] ، وربان مركبها يحيى بن عمر بن رحُّوا بن عبد الله بن عبد الحق ، المرهف الجوانب الذلق الحد[3] ، المستولى على مدى الحنـكة ، العريض النعمة ، الحجة فى اللغة الزناتية والأنساب البربرية ، السديد الرأى على الحدَّة . وقدَّم إليها إدريس ابن عثمان ابن أبي العُلى بن عبدالله بن عبد الحق، الـكائنة تحت أبيه قبل أن يتلقَّف يحيى كُرَتَهَا. غَبَطَ به توحُّشه من الجهة المرينية، إذ طرق حضرتهم فارا هاربا إليهم من بلد برجلونه،[4] واستحضر المعزول ،وبسط له القول وأقطعه البر ،وأظهر تَرفُّهَهُ أن صُرِفَ قانعاً بمخيلته مستبقيا لعشرة حياته ، فأَنِفَ قومُهُ من هضمه ، وتوقعوا إيقاع المـكروه به ، فحركوه إلى الفرار ، ولم يمهلوه فأجاب نداءهم ،وبرز ضحوة وقد منطق بالصامت خصور خالصته ، ورفع على الظَّهر خطير حليته ونفيس عُدَّته وأصاغر ولده ،والتف فيمن كدح له وحجه حسن بلائه ، وأصحر مساوقا جهة النهر .

ولما طرق النبأ باب السلطان ، استركب الجيش في أثره ووقع النَّفير ، وقذفت البلدة بأفلاذها ، وتلاحقت سرعان الخيل بأذياله مُحَمْحِمَةً عن شباة[5] ثم كَوْثَرَ فأعمل الطَّعن وصدقهم سِنَّ بكره[6] حسن بلاء (٣٦ ط) وصدق حفيظة ، وانصدع عن

---

(١) الخدن : الصاحب أو المرافق .

(٢) الثفال : (بضم الثاء) حجر الرحى الاسفل والثفال (بكسر الثاء) جلد يبسط تحت الرحى

(٣) الحد منتهى الشيء ، الحد من السيف مقطعه والحد من الانسان لسانه . وما يعتريه من الغضب

(٤) وتسمى حالياً برشلونة Barcelona وهى مدينة على الساحل الشمالى الشرقى الاسبانى وكانت من عواصم مملكة اراجون فى العصور الوسطى .

(٥) الشباة : الفرس التى تقوم على رجليها

(٦) هو مثل، انظر الميداني 1 : 265

القتام[١] خالصا خُلوصَ الزِّبْرِقانَ[٢] عن السرار[٣]، وقد تناصف القوم وأُرجِلَ كثير من أوليائه ، ولم يكد يستقل حتى قطعت به الفرسان من قبل تَحيُّر المُجَدَّرَةِ[٤] بثغر إلبيرة[٥] ممسين بالُخمام[٦] على كلالة ، مستعدين بالرْجل ورُماة الشّعْراء ، فهناك حصحص الحق ،وصَرح عن الزبدة المَخْض، ودسٌ النِّجار[٧] الُحرء ولم يُخْذَل الصبر ، فأقصروا عنه ، وأفرجوا عن طريقه ، وقد أصيب بجراحة رغيبة[٨] ، وجُدِّل[٩] قوم من كفلاء أمانته ، ورُدَّ فتى من ولده ، وزامِلَةٌ من متاعه ، ولحق بقلعة يَحْصُبُ[١٠] من ثغور الروم[١١] في زهاء مائتين من قرابته وفرسانه ، فاهتز ملك الروم[١٢] لقدمه مغتبطا بجواره ، صائلا بحدِّه على عدوه . و نَغَرَ[١٣] جُرحَه ، فأقام بقرطبة مرَفِّها عليه ، قد أُوعِز إلى الأساةِ[١٤] فى العناية به ، وكان من الأمر ما يذكر إن شاء الله .

وقَبض على الشيخ المُنْبَتِّ فى مَتِيهِ الضلال[١٥] ، مخيفِ السابلة وخاتر العهد ، الموروري[١٦] ، المنحط فى مهوَى عَقْدِ الإباحية بسبب الفاجرة زوجه التى أبدلت فصله ،

---

(١) القتام والقتمة : الغبار الأسود ، غبار الحرب وكذلك الظلام

(٢) الزبرقان : البدر .

(٣) السرار : اختفاء القمر فى آخر ليلة من الشهر .

(٤) المجمرة : الحاميات الشبه مقيمة .

(٥) إلبيرة : إحدى قرى غرناطة ، وكانت فى الأصل كورة كبيرة ! وغرناطة من مدنها . (راجع ابن غالب فرحة الانفس ص ١٤) راجع كذلك : (Ency. Islam II P. 186 - 187)

(٦) لعلها اسم مكان إن لم تكن مصحفة عن الجمام بمعنى الراحة .

(٧) النجار : بكسر النون وضمها : الاصل .

(٨) رغيبة : أى واسعة عميقة ،

(٩) وجدل قوم أى صرعوا .

(١٠) مدينة يحصب بضم الصاد أو كسرها وتسمى أيضاً قلعة بنى سعيد وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real .

(١١) يقصد مملكة قشتالة .

(١٢) ملك الروم هو ملك قشتالة بدرو الأول المنعوت بالقاسى أو العادل Pedra I el cruel,o, el Justiciero

(١٣) نغر جرحة : اى انتكس بعد اندماله.

(١٤) الأساة : الأطباء ومفردها الآسى .

(١٥) لعله يقصد وزيره محمد بن على بن مسعود السالف الذكر

(١٦) راجع ماسبق أن قلناه عن موررور .

وقليت عينه ، وصيرته فى الأمد القريب من طور الأمية والتوحش والفظاظة والغيرة ، إلى طور السمح بها لمدّعى الهوى فيها طوعاً من غير خلاف يُزْوَى عليها بعده من غير سبب ولا تقرر ، ويدور فى ذَوْدِ الرقص مقلباً من نَظْرَتِه ، عاضا بأسنانه على شَفَتَيْه ، متدارك الدَّرج ، نعّاراً مشيراً بكُمَّيه ، يعيد ألفاظا من المقول (٣٧ و) الذى حرَّكَ ساكنَهَ مما يجرى فيه لفظُ السر والذات والجمال وأمثالِه . ثم يتصبب عرقا ، ويبرُكُ كالبعير وتبادَرُ عضلاتُه وهدوته[١] وخُصاه بالغَمْز حتى يفيق كالذى يتخبطه [الشيطان] من المس ، مُنْكِراً وجوب التكليف[٢] لا يقف عند حد من حدود الله .

ثم ماتت تلك الموسة على وعدٍ بالرَّجعة[٣] كان يَرْقبُه ولقد كان يقول لى وبين يديه ولدان من تلك الإباحية : هذا — ويعنيه — ولد السِّرّ ، وهذا ولد الطَّيْر لَبِسَ هذا الطَّوْر وسَرَت حُمَيَّاه فى طباعه المتعاصية ، وخفيت من ألفاظه الجهْوَرية ، وطأطأت من حُرْمَةِ الأَيْدِ[٤] البادن ، ودَخَلَتْه من ذلك قوة سحْرِيَّة أثَرت فيه تأثيرات التعليم فى الحيوان من الحمير التى تنام وترقص وتُخرج الخبَّ والدنيَّة التى يصعد على الطيف الخرط وتخرج لعب الإنس ، وما زاده ذلك إلا عُتُوًّا وجرأة على سفك الدماء وانتهاكِ محارم الله ، فَوَغَل عليه ضدّه حذراً من جرأته ، مُنْحِياً عليه الذَّنب ديْدَنَه فى سواه . وعاجله بالقبض عليه موسعاً إياه ما شاء من تقريع ، محملا إياه تحيته إلى ابنى أبى الفتح غرقائه فى قاموس[5] البحر على سبيل التندر والظفر ، والتيس يتبرأ من الجريرة ، ويذكره العهد الذى شأنَه ختره ، ويشمَّتُه نقضه ، فصُفِّد واحتمل على الظهر إلى المريه ، واختلف فى صورة هلاكه بين نَوْشِه بالأسنَّة أو إغراقه ببحر الشامة البيضاء من مرساها ،

---

(١) كذا فى الاصل ولعلها هدرته أى تردد صوته فى حنجرته .

(٢) بعض المتصوفة إلا باحيين يرون أن لهم الحق فى ارتكاب المعاصى لأن الله رفع عنهم الكلفة أو التكليف .

(٣) بعض فرق الشيعة تعتقد فى الرجعة بعد الممات .

(٤) الأيد والآد : القوة .

(5) معظم ماء البحر أو أبعد موضع فيه.

وقد أثقلت رجلاه ببعض الأجرام استعجالا لرسوبه ، فصار (٣٧ ط) إلى خزى الله وسوء المصير .

وفر إلى الروم إبراهيم بن السراج فى خبر طويل ، وكان له من الموروری حلف ، فلما أحان الله ذلك التيس بيد الظالم الذى أسخط الله فى رضاه ، وخذل الإسلام بإعانته ، استراب بمكانه فكان ذلك .

وتُقُبِّضَ بعدَه على أحد مصراعى باب الوفاء للسلطان — جبره الله — أبو بكر ابن زيد زعيم وادى آش ! بعد أن اصطنعه وأسماه رقيا إلى ألفته وخلطه بنفسه فى القلعة، وأنكحه إحدى عتيقات القصر ذات أسباب جمة ومتاع حسن وبُغْية ، ثم أهوى به فى الطَّبق الضَّنك مستَقَر أرباب الجرائم ، وابنه الغض الشبيبة ، الراجح الوزن[1] على الفَتَا ، المَلِيِّ من خلال السؤدد بغير جرم ولا جناية . زعموا أن بلديَّهُما كاتبُه وخطيبُه العلجوم المُنْبَزُ بالجوادى ، عبدالحق بن عطيه ، أغراه بهما ، وما أقرب الدنيا من الآخرة ، بينما الرجل فى إيالة هذا الحلف محمود النعمة ، مرموق المكانة ، مغبوط الحظ ، إذ تطرقته العيوبُ بغتة لهاجس طوَّر أفكاره السبعية[2] أو ألقِيَةٍ كاذبة طرقت أذنَه المستباحة ، بوأنا الله مهاد الأمن فى الدنيا والآخرة ، وعرفنا بَرْدَ العافية ، وفكَّ عن أعناقنا مِلكةَ سواه .

وفى أواسط شهر المحرم من عام اثنين وستين[3] عرَّفنا الله فيه بعارفة الخير ، كان استقدام ولد السلطان الأمير المنصرف عن الأندلس فى سبيل البغى عليه والمكيدة ، المستكمل خلال (٣٨ و) الفضل ، المستولى على أمد الطهارة والعفاف أبى عبدالله بن الأمير أبى الحجاج بن نصر ، أُبرم أمرُ استخلاصه من غير علم عبده ، فبايع المتغلب على الإقرار فى الوقت والمهادنة تحرجا مما تجره المخاشنةُ من صدع يصيب عصا

(١) أى كامل العقد

(٢) اى أفكاره السوداء ، يقال سبع الرجل آى اغتابه وشتمه

(٣) أى سنة ٧٦٢ ﻫ (١٣٦٠ م)

الإسلام مجراه . وقد اشتمل ثقافة من أبناء الملوك اليعاقبة على الجملة مُوعداً بتنفيق سوق الفتنة ببعضهم عند إضاقته ، فَرُوخِيَ رَسَنُهُ مطاولة ، وطُوِيَ أمره على عِدَه ، وسقط فى يدمظلومه لركود ريحه وتقاصر أمره . وجاشت النفوس ممن لديه ثم استكانت لِصَوْلَةِ الأيام مرجئة للوقت ، مرتشفة للبُلالة[1] ، فسبحانَ الملكِ الحق يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا يُسأل عما يفعل .

وأزعج من الأندلس صحبته الشيخ أبو الحسن على بن بدر الدين بن موسى ابن رحّو بن عبدالله بن عبدالحق بجريرة ما تقدم من مظاهرة السلطان صبيحة ليلة نكبته وتمسكه ببيعته ، وذَبِّه فى سبيل الوفاء عنه ، فوصل جميعُهم فى جَفْنٍ غزوى من مالقة إلى سبته ، ومع الولد أمه فى طُوَيْفَةٍ من جواريها بحال حاجة للكثير من الضروريات وقد ضَنَّ ظالمهم على جميعهم بما لم تكن لتضره السماحة به والتهاون بحقيره فى جنب ما رزأهم من متاع الدنيا الذى لانهاية وراءه فى الظَّرف والبهجة . وفى الله خَلَفٌ من كل ذاهب .

وفى الموفِّى عشرين من هذا الشهر ، خرج موسى بن إبراهيم اليرنياني، من مشيخة الخدام ، ومُصْطَفِ الاوداء[2] ، إلى الأندلس (٣٨ ط) بهدية من كراع وآلة على سبيل الملاطفة ، وصدرت المخاطبة فى شأنى بما من بعض فصوله : فإن كنتم تبخلون بماله فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قِبَلِناَ . ولله أمرٌ هو بالغهُ سبحانه وقد جعل لكل شيء قدرا ، نسأله الرضا بقضائه والشكر على السالف والراهن من آلائه .

---

(١) البلالة : اليسير من الشيء او ما يبل به الحلق من ماء او لبن ،

(٢) كذا . ولعلها من الارد اى الانفع

بعض المؤلفات والقصائد والرسائل التى كتبها ابن الخطيب فى المغرب

والى هذا الحد ، صدر عنى من الموضوعات والنظم والنثر ما نُثْبِتُه إحماضاً ومناوبة على حد الصواب فى الأحاديث والأسمار ، فقد قالوا : لا تجعلوا شرابكم غِناءً كلّه ولا حديثاً كلّه ، ولكن انتهبوا الأنس انتهابا .

فمن الموضوعات ، الرَّجز المسمى بِرَقْمِ الحُلَل فى نَظْمِ الدُّوَل[1] ، يشتمل على الدول الإسلامية كلها من غير حشو ولا كُلْفَة إلى زماننا هذا ، ورفعتُه إلى السلطان[2] ،

---

(١) رقم الحلل كتاب مطبوع فى تونس فى جزء واحد (١٣١٦ — ١٣١٧ هـ) كما توجد منه نسختان ، خطيتان فى مكتبة الاسكوريال تحت رقمى ١٧٧١ ، ١٧٧٢ وكذلك فى الخزانة العامة فى الرباط برقمى ٧٦٣ هـ ، ١٢٩٩ هـ ، وهو عبارة عن أرجوزة فى تاريخ الدول الاسلامية ، وقد نشر الغزيرى النص العربى لهذا الكتاب مع ترجمة لاتينية فى فهرسه المعروف عن مكتبة الاسكوريال غير أنه أطلق عليه اسم الحلل المرقومة ، وهو عنوان كتاب آخر لابن الخطيب يتضمن أرجوزة من ألف بيت فى أصول الفقه ، راجع

(Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escurialensis t. II p. 177 — 246)
(Matriti 1760—1770)

ثم جاء المؤرخ الاسبانى بونس بويجس فنقل هذا التحريف فى كتابه الذى كتبه عن المؤرخين والجغرافيين العرب فى أسبانيا راجع

(Pons Boigues : Ensayo Bio — Bibliografico Sobre Los Historiadores Y Geografos Arabigo — Espanoles p' 324)

هذا وينبغى أن نشير فى هذا الصدد إلى خطأ المستشرق الالمانى بروكلمان عند تحديده تاريخ تأليف رقم الحلل بعام ٧٦٥ هـ أى بعد عودة ابن الخطيب من منفاه بالمغرب إلى غرناطة وواضح من المتن ان ابن الخطيب ألفه وأهداه إلى سلطان المغرب فى أثناء اقامته بمدينة سلا أى فى الفترة التى قضاها منفياً بالمغرب فيما بين ٧٦٠ — ٧٦٣ هـ .

راجع (Brock. Gesch. der Arab. Lit. supp. II' p. 372)

(٢) يقصد سلطان المغرب المستعين بالله أبا سالم ابراهيم المرينى .

فورد الأمر بإضعاف الجراية ، فبلغت إلى هذا الحد بستين بيزا [١] من الذهب العَيْن في كل هلال ، وكان من نصه : وقد « وصل الرَّجَزُ المُعْجِبُ المُعْجِز » ، وعرّفني بإعادة الرسالة إلى الأندلس في شأني [٢] والله لا يقطع عنا أسباب لطفه .

ومنها الجزء المسمى : بِمِعْيَارِ الاختبار في أحْوَالِ المعَاهِدِ والدِّيَارِ [٣] ، كتاب غريب مُصَوَّر لم يَسبِق متقدم إلى غَرَضِهِ .

وأظَلَّتْ ليلةُ سبع وعشرين ، إحدى مواسم شالة [٤] المختصة باستجلاب الأمم ، وتخييم الخيم ، واحتفال الأسواق ، ورفع المغارم ، والوليمة لأهل الخير وأولي الهيئات بالضريح ، فاحتفل معتاد الإطعام ، وفُرِّقَتْ غَلَاصِمُ [٥] البَهْم ، وأُهِيلَت قناقش [٦]

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها العملة البيزنطية المعروفة باسم bezant وهي عملة ذهبية كانت متداولة بين المسلمين في العصور الوسطى ، راجع (المقريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٤٩ حاشية ١ ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة) هذا وقد ورد في نفح الطيب ج ٨ ص ١١٧ — ١١٨ أن جراية ابن الخطيب في مدينة سلا بلغت في كل شهر خمسمائة دينار من الفضة العشرية ، والدينار العشري يساوي عشرة دراهم .

راجع (أحمد مختار العبادي النزعات الاقتصادية في حياة ابن الخطيب مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ١٩٥٧) .

(٢) يشير بذلك إلى الرسالة التي بعث بها سلطان المغرب أبو سالم إلى سلطان غرناطة المغتصب محمد البرميخو يتوسط لديه فيها بأن يفرج عن ممتلكات ابن الخطيب وأمواله المصادرة وفيها يقول له : فإن كنتم تبخلون بماله ، فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا »

(٣) هذا الكتاب عبارة عن رسالة في وصف بعض مدن المغرب والاندلس ، مكتوبة باسلوب فن المقامات المعروف في الادب العربي ، نشرها سيمونيت الاسباني ومولر الالماني ، كما نشرتها مطبعة أحمد اليمني بفاس ثم قمت بنشرها من جديد ضمن مجموعة من رسائل ابن الخطيب تحت عنوان « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس » ، (الاسكندرية ١٩٥٨) هذا وتوجد عدة نسخ خطية لهذه الرسالة في خزانة الرباط بالأرقام الآتية: D:١٨٤٠،١٤٢١،١٠٩٢،٩٧٢ .

(٤) لعله يقصد بذلك الاحتفال بليلة القدر المباركة في ٢٧ رمضان ، وإن كان من المعروف إلى وقتنا هذا أن مدينة سلا تعتبر من المدن المغربية القليلة التي تحتفل بمولد الرسول احتفالا خاصاً تخرج فيه مواكب الشموع وطوائف الناس على اختلاف طبقاتهم في عرض حافل بديع وذلك في ١٢ ربيع الأول من كل سنة .

(٥) الغلصمة : اللحم الذي بين الرأس والعنق ، وجمعها غلاصم ، والمقصود هنا أنه ذبحت ذبائح كثيرة .

(٦) كذا في الأصل ، وتستعمل في المغرب الآن كلمة قلاش وجمعها قلاليش عن أوعية السمن .

السَّمن ، واستُدْعِيَتْ أصناف الحلواء ، واستكثر من الوقود ، (٣٩ و) واستُدْعِيَ إلى الإيوان لِصَقِّهَا المعدّ لذلك المغنونِ ، واستُحْضِر القاضى والعدول والخواص والأعيان والأمناء . . .

ببقيةِ جَمَّتُها من الغد فى سبيل الصَّدقة ، وأنشَدَ المُسْمِعُ ليلتئذ من نظمى هذه القصيدة[1] :

إذَا فاَتَنِي ظِلُّ الحِمَى وَنَعِيمُهُ ... كفانى وحسبي أن يَهُبَّ نَسِيمُهُ

ويقنعنى أنِّى به مُتَكيِّفٌ ... فَزَمْزَمُهُ دَمْعِى وجسمى حَطِيمُهُ[2]

يَعُودُ فُؤادِى ذِكرُ مَنْ سَكَنَ الغَضَى ... فَيُقْعِدُهُ فَوْقَ الغَضَى وَيُقِيمُهُ

وما هاَجنى بالغَوْرِ قَدٌّ مُرَنَّحٌ ... ولا شاَقَنى مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُهُ

ولا سَهِرَتْ عَيْنِي لِبَرْقِ ثَنِيَّةٍ ... مِنَ الثَّغْرِ يَبْدُو مَوْهِناً فيشيمُهُ

بَرَانِيَ شَوْقٌ لِلنَّبِيِّ مُحمدٍ ... يسوم فؤادى بَرْحُهُ ما يَسُومُهُ

ألاَ يأرسولَ اللهِ نَادَاكَ ضَارِعٌ ... عَلَى البُعْد محفوظُ الوِدَادِ سَلِيمُهُ

مَشُوقٌ إذا ما اللَّيلُ مدَّ رِوَاقَهُ ... تَهِمٌّ به تَحْتَ الظَّلاَمِ هُمُومُهُ

إذَا ما حَدِيثٌ عَنْكَ جاءتْ به الصَّبَا ... شَجَاهُ مِنَ الشَّوْقِ الحَثِيثِ قَدِيمُهُ

وتُقْرِبُهُ الآمالُ مِنْكَ تَعَلُّلاً ... ويُبْعِدُهُ المِقْدَارُ عَمَّا يَرُومُهُ

بَرَاهُ الأَسَى إلاَّ الرُّكُون إلى عَسَى ... صَحِيحُ الهَوَى مُضْناً الفُؤَادِ سَقِيمُهُ

---

(١) نقل المقرى هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب جـ ٩ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) الحطيم يقع فى شمال الكعبة ـ وهو ما حطم من الكعبة وكسر وهو بناء مستدير على شكل نصف دائرة ارتفاعه ٣٠ و١ سم وعرض جداره حوالى ٥ و١ متر وهو مغلف بالرخام وخلف الحطيم بمسافة أثنى عشر مترا يقع المطاف الذى يحيط بجدر الكعبة الاربعة ـ راجع (رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ١٨٢ (دمشق ١٩٤٤) .

تَدَارَكْهُ يَا غَوْثَ العِبَادِ بِرَحْمَةٍ ... يُقَضِّيهِ دَيْنَ العَفْوِ مِنْهَا غَرِيمُهُ
أَيَجْهَرُ بِالشَّكْوَى وَأَنْتَ سَمِيعُهُ ... أَيُعْلِنُ بِالنَّجْوَى وَأَنْتَ عَلِيمُهُ
أَتُعْوِزُهُ السُّقْيَا وَأَنْتَ غِيَاثُهُ ... أَتُتْلِفُهُ البَلْوَى وَأَنْتَ رَحِيمُهُ
وَقَدْ بَثَّ مِنْكَ اللهُ فِى الخَلْقِ رَحْمَةً ... فَأَنْقِذْ عَانِيهِ وَأَثْرِ عَدِيمُهُ
لَكَ الخُلُقُ الأَرْضَى الَّذِى بَانَ فَضْلُهُ ... ومجدك فى الذِّكْرِ العَظِيمِ عَظِيمُهُ
لَكَ المُعْجِزَاتُ الغُرُّ يَبْهَرُ نُورُهَا ... إِذَا ارْبَدَّ مِنْ جُنْحِ الضَّلَالِ بَهِيمُهُ
وَحَسْبُكَ مِنْ جِذْعٍ تَكَلَّمَ مُفْصِحاً ... وَقَدْ دَمِيَتْ يَوْمَ الفِرَاقِ كُلُومُهُ
وَبَدْرٌ بَدَا قِسْمَيْنِ فَالقِسْمُ ثَابِتٌ ... مُقِيمٌ وقد أَهْوَى إِلَيْكَ قَسِيمُهُ
وذَلَّ لِمَسْرَاكَ البُرَاقُ كَرَامَةً ... وَسَاعَدَ مِنْهُ وَخْدُهُ وَرَسِيمُهُ(1)
وَمِنْ فَوْقِ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ بِكَ اقْتَدَى ... خَلِيلُ الذى أَوْطَاكَهَا وَكَلِيمُهُ
ومُعْجِزَةُ القُرْآنِ أَجْلَى فَإِنَّهُ ... عَجَائِبُهُ لَا تَنْقَضِى وَعُلُومُهُ
تَمَيَّزْتَ قَبْلَ القِيلِ بِالشِّيَمِ العُلَى ... وَآدَمُ لَمْ يَدْرِ الحَيَاةَ أَدِيمُهُ
إِذِ الكَوْنُ لم تَفْتُقْ يَدُ الأَمْرِ رَتْقَهُ ... ولَمْ تَمْتَزِجْ أَرْوَاحُهُ وجُسُومُهُ
وَمِنْ نُورِكَ الوَضَّاحِ فِى العَالَمِ اهْتَدَى ... غَدَاةَ اقْتَدَى صِدِّيقُهُ وَحَكِيمُهُ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... بِهِ بَانَ مِنْ نَهْجِ الرَّشَادِ قَوِيمُهُ
وَيَالَيْتَ أَنِّى فِى ضَرِيحِكَ مُلْحَدِى ... يَرِفُّ بِتَكْرَارِ العِهَادِ(2) جَمِيمُهُ
يُجَاوِرُ عَظْمِى تُرْبَكَ العَطِرَ الشَّذَا ... فَيَمْطُرُ مِنْ مَاءِ الحَيَاةِ رَمِيمُهُ
تَقَضَّى كَرِيمُ العُمْرِ فِى غَيْرِ طَائِلٍ ... كَمَا بَدَّدَ الوَفْرَ الغَزِيرَ كَرِيمُهُ
فَآهٍ عَلَى نَفْسِى أُرَدِّدُهَا أَسًى ... لِوَخْطٍ أَضَاءَتْ لَيْلَ فَوْدِى نُجُومُهُ

---

(1) الوخد والرسيم ضرب من السير السريع .

(2) العهاد والعهادة أول مطر الربيع ، وجيمة اى كثيرة .

وإنْ كَانَ نبْتُ الأَرْضِ مرْتَهنَ الذَّوَا فَلَيْسَ سَوَاءٌ غَضُّهُ وَهَشِيمُهُ

جَفَانِيَ دَهْرِي واسْتَهَانَ بِحُرْمَتِي فَدَهْرِيَ مَمْقُوتُ الذِّمَامِ ذَمِيمُهُ

وَفَرَّقَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحِبَّتِي فَأَنْكَادُهُ تَنْتَابُنِي وَغُمُومُهُ

فَلَوْ كَانَ يُجْدِي العَتْبُ أبْلَغْتُ عَتْبَهُ وَلَوْ كَانَ يُغْنِي اللَّوْمُ كُنْتُ أَلُومُهُ

ولو لَحِظَتْنِي مِنْ جَنَابِكَ لَحْظَةٌ لَمَا رَامَنِي(*) عِنْدَ البَيَاتِ نُجُومُهُ

فَآوِ طَرِيدًا عَائِذًا أَنْتَ كَهْفُهُ وذِكْرُكَ بِالمَدْحِ الصَّرِيحِ رَقِيمُهُ

رَعَى اللهُ عَهْدًا فِي رِضَاكَ وَمَألَفًا مُلُوكُ العُلَى تُعْنَى بِهِ وتُقِيمُهُ

وَحَيَّى بِوَادِي الغِبْطِ(1) دَارًا مَزُورَةً .. تَوَالِي لِجَرَّاكَ النَّدَى وَتُدِيمُهُ

رَحِيبَةُ أَلْطَافٍ إِذَا الوَفْدُ حَلَّهَا تَكَنَّفَهُمْ غَمْرُ النَّوَالِ عَمِيمُهُ

تَوَسَّدَ مِنْهَا التُّرْبَ أَيُّ خَلَائِفٍ بِهِمْ دِينُكَ الأَرْضَى اسْتَقَلَّتْ رُسُومُهُ

(*) لعلها راعنى ..... هجومه

(١) أغلب الظن أن المقصود هنا بوادى الغبط هو وادى أبى الرقراق الحالى الذى يفصل سلا عن الرباط ويصب فى المحيط الاطلسى . وقد أكد ابن الخطيب هذه التسمية فى كتابه اعمال الاعلام عندما تكلم فيه عن دولة يونس البرغواطى فقال : وكانت قاعدة ملكه مدينة شالة على وادى الغبط الآتى من أسمير (راجع القسم الخاص بتاريخ المغرب من كتاب أعمال الاعلام نشر أحمد مختار العبادى ومحمد إبراهيم الكتانى ص ١٨٤ ، دار الكتاب بالدار البيضاء ١٩٦٤) غير أن هذه التسمية التى أوردها ابن الخطيب تتعارض قليلا مع تسمية الادريسى الذى أطلق اسم أسمير (ومعناها الكبش بالبربرية) على وادى أبى الرقراق وذلك عند قوله : « وتقع مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر أسمير الذى يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة وهناك مصبه » راجع (الادريسى : وصف أفريقية الشمالية والصحراوية ، عن كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، نشر هنرى بيريس ص ٤٧ ، (الجزائر ١٩٥٧) .

على أن البكرى (ص ١٠٦) قد أطلق هذا الاسم أسمير على نهر فى شمال المغرب ويصب فى البحر الابيض المتوسط جنوبى سبتة ، ومن الغريب أن هذا الوصف ينطبق على نهر هناك يسمى الآن سمير Smir هذا وقد عرف وادى أبى الرقراق أيضا فى بعض المصادر القديمة باسم وادى سلا ووادى الرمان (عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ٢٥٨) .

ويبدو أن اسم أبى الرقراق تسمية حديثة ، وقد ذكره الحسن الوزان (ليون الافريقى) فى القرن السادس عشر الميلادى فى كتابه المعروف بوصف أفريقيا الذى كتبه بالايطالية وترجم إلى معظم اللغات ما عدا العربية ؟ ! ...

أَئِمَّةُ عَدْلٍ أَوْضَحُوا سُبُلَ الهُدَى وَسُحْبُ نَوَالٍ لاَ تَشِحُّ غُيُومُهُ

وأُسْدُ جِهَادٍ أَذْعَنَتْ لِسُيُوفِهِمْ جَلاَلِقَةُ الثَّغْرِ الغَرِيبِ وَرُومُهُ

فَلَوْلاَهُمُ يَا خَيْرَ مَنْ سَكَنَ الحِمَى لَرِيعَ حِمَاهُ وَاسْتُبِيحَ حَرِيمُهُ

تَغَمَّدَهُمْ مِنْكَ الرِّضَا يَوْمَ تُقْتَضَى دُيُون مَقَامٍ لاَ تُضَامُ خُصُومُهُ

وأَنَّسهم والرَّوْعُ يُوحِشُ هَوْلُه وأَمَّنَهُم والحَشْرُ تُذْكَى جَحِيمُهُ

أبو يُوسُفٍ مفنِي العِدَا نَاصِرُ الهُدَى ويُوسُفُ مِطْعَانُ الهِيَاجِ زَعِيمُهُ

وعُثْمَانُ غَيْثُ الجُودِ أكرم واهبٍ إذَا مَا الغَمَامُ الجَوْنُ ضَنَّتْ سُجُومُهُ

وعُلْيَا عَلِيٍّ كَيْفَ يُجْحَدُ حَقُّهَا أَنَجْحدُ ضَوْءَ الصُّبْحِ رَاقَ وَسِيمُهُ

هُوَ العَلَمُ الأَعْلَى الذى طَالَ فَخْرُهُ هُوَ المَلِكُ الأَرْضَى الذى طاب خِيمُهُ

لَقَدْ فَاءَ ظِلُّ اللهِ مِنْهُ على الوَرَى فَأَيِّمه مَكْفِيَّةٌ وَيَتِيمُهُ

وَجدَّدَ مِنْهَا البِرَّ والفَضْلَ مَجْدُهُ وَلَوْلاَهُ كَانَتْ لاَ تَبِينَ رُسُومُهُ

وَأَوْرَثَ إبراهِيمَ سِرَّ خِلاَفَةٍ نَمَاهُ مِنَ المَجْدِ الصُّرَاحِ صَمِيمُهُ

إِذَا الأَمَلُ اسْتَسْقَى غَمَامَةَ رَحْمَةٍ فَفِي كَفِّ إبْرَاهِيمَ تُكْرَعُ هِيمُهُ[1]

وَكَمْ مِنْ رَجَاءٍ خَابَ ظَن قِيَامِهِ فَأَنْتَجَ بالمَطْلُوبِ مِنْهُ عَقِيمُهُ

أَمَوْلاَىَ لاَحِظْهَا عَلَى البُعْدِ خِدْمَةً لِوَالِدِكَ الأَرْضَى انتَقَاهَا خَدِيمُهُ

تَخَيَّرَهَا فِكْرِي فَرَاقَ نِظَامُهَا كَمَا رَاقَ مِنْ دُرِّ النُّحُورِ نَظِيمُهُ

وَكَلْتُ بِها هَمِّي وأَغْرَيْتُ هِمَّتِي فَسَاعَدَهَا هَاءُ الرَّوِيِّ وَمِيمُهُ

حَلَلْتُ بِه مُسْتَنْصِرًا بِجَنَابِهِ وَعَاهَدْتُ نفسي أنني لَا أَرِيمه

عَلَى قَبْرِهِ الزَّاكِي وَقَفْتُ مَطَامِعِي فمن نَالَنِي بالضَّيْمِ أَنْتَ خَصِيمُهُ

---

(١) يقال إبل هيم : أى عطاش .

ومن المقطوعات قولى فى الرغبة إلى الله[1] :

إلٓهِيَ بالبَيْتِ المُقدَّسِ والمَسْعَى ... وجَمْعٍ إذَا ما الخَلْقُ قَدْ نَزَلُوا جَمْعاَ
وبالموقِفِ المَشْهُودِ يَا رَبِّ فى مِنًى ... إذَا مَا أَسَالَ النَاسُ مِنْ خَوْفِكَ الدَّمْعاَ
وبالمُصْطَفَى والصَّحْبِ عَجِّلْ إقَالَتِي ... وأَنْجِحْ دُعَائِي فِيكَ يَا خَيْرَ مَنْ يُدْعَى
صَدعتُ وأنْتَ المُسْتَغَاثُ حَنانُه[2] ... أَقِلْ عَثْرَتِي يَا مَوْئِلِي[3] واجْبُرِ الصَّدْعاَ

وكلفت في غرض معروف ولها حديث :

رَعَى اللهُ راعى الشَّاء ما شَاءَ إنه ... تعاطى فلما اجتاز فرصته عَقَرْ
أصاب صغيرا منه صقرٌ مكبرٌ ... فصيَّره بعد النعيم إلى سَقَر
تقوم قيام الفرض فِي الأرض بعدها ... بحق رعاة الإبْل والشاءِ والبَقَر

وقلت عقب الإياب من الرحلة المراكشية[4] :

أفَادَتْ وِجْهَتِي بِنَدَاكَ مَالاً ... قَضَى دَيْنِي وَأَصْلَحَ بَعْضَ حَالِي
وَمَتَّعْتُ الخَوَاطِرَ بانْشِرَاحٍ ... وأَطْرَفْتُ النَّوَاظِرَ باكْتِحَالِ
وأُبْتُ خَفِيفَ ظَهْرٍ والمَطَايَا ... بِجَاهِكَ تَشْتَكِي ثِقَلَ الرِّحَالِ
وشَأنى للمَعَالِمِ غَيْرِ شَانٍ ... وحَالِي بالمَكَارِمِ لِجدٍّ حَالِ
فَحُبُّ عُلاَكَ إيمَانِي وعَقْدِي ... وشُكْرُ نَداكِ دِينِي وانْتِحَالِي
كَأَنْ قَدْ صَحَّ للهِ انقِطَاعِي ... بِتَأْمِيلِي جَنَابَكَ وارْتِحَالِي

(١) نقل المقرى هذه الابيات فى كتابيه نفح الطيب (جـ ٩ ص ٢٠٨) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٧١) .
(٢) المقرى : جنابه .
(٣) المقرى : يا بأملى .
(٤) أورد المقرى هذه الابيات فى كتابيه نفح الطيب (جـ ٩ ص ٢١٠ ، جـ ٧ ص ٩٣) وازهار الرياض ص ٢٧١ جـ ١) .

وما يَبْقَى سِوَى فعل جميل ... وحالُ الدَّهْرِ لا تَبْقَى بِحَالِ
وكُلٌّ بِدَايَةٍ فإلَى انْتِهَاءٍ ... وكُلٌّ إقَامَةٍ فإلَى ارْتِحَالِ
وَمَنْ سَامَ الزَّمَانَ دَوَامَ أَمْرٍ ... فَقَدْ وَقَفَ الرَّجَاءَ عَلَى المُحَالِ

وقلت في كتاب الشفاء للقاضي أبي الفضل حسبما طلب مني ذلك[1] :

شفاءُ عِيَاضٍ للقُلُوبِ شِفَاءُ ... فَلَيْسَ بِفَضْلٍ قد حَوَاهُ خَفَاءُ
هَدِيَّةُ بِرٍّ لَمْ يكن لجزيلها[2] ... سِوَى الأجْرِ والذِّكْرِ الجميل كِفَاءُ
وَفَا لنبيِّ اللهِ حقَّ وفائِهِ ... وأَكْرَمُ أَوْصَافِ الكِرَامِ وَفَاءُ
وجاء به بَحْراً يقول بِفَضْلِهِ ... عَلَى البَحْرِ طَعْمٌ طَيِّبٌ وَصَفَاءُ
وحق رسول الله بعد وفاته ... رعاه ، وإغفالُ الحقوق جَفَاءُ
هو الذخر يغنى في الحياة عَتَادُه ... ويُتْرَكُ منه للبنِينَ رَفَاءُ
هو الأَثَرُ المحمودُ ليس ينالُه ... دثور ، ولا يَخْفَى عليه خَفَاءُ[3]
حرصت على الإطناب في نشر فضله ... وتمجيده ، لو سَاعَدَتْنِي فاءُ

وقلت في الضراعة[4] :

مولاي إنْ أذنبت يُنْكَرُ أَنْ يُرَى ... مني الكمال وعنكم النُّقْصَانُ[5]

---

(١) نقل المقرى هذه الابيات في نفحه ج ٧ ص ٣٢٨ مع تعليق حول هذه المناسبة نقله عن كتاب الاحاطة في أخبار غرناطه لابن الخطيب يقول فيه أيضا :

قال ابن الخطيب في الاحاطة : ولما شرح كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى عليه ، واستبحر فيه ، وأكثر التنقل وبذل الجهد ، طلب أهل العدوتين (أي المغرب والاندلس) نظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور (واطراء مؤلفه ، فانثال عليه من ذلك الطم والرم ، بما تعددت منه الاوراق ، واختلفت في الاجادة وغيرها الارزاق إيثارا لغرضه ، ومبادرة من كل الجهات لاسعاف أدبه ، وطلب مني أن ألم في ذلك بشيء فكتبت له في ذلك .

(٢) المقرى : لمديلها .

(٣) المقرى : لا يخشى عليه عفاء .

(٤) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٢١١ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٧٢) .

(٥) المقرى : منك الكمال ومني النقصان .

والعفو عن سَبب الذنوب مُسَبَّبٌ   لولا الجِنَايةُ لم يَكُن غُفْرَانُ

وقلت فى معنى التورية الطبية بالدواء المسمى دم الأخوين (٤١ ط) فى شأن السلطان الحائن وأخيه ، وشأن ذلك الدواء النفع من الجراح[1] :

بإسماعيلَ ثم أخيه قيسٍ   تأذَّنَ ليلُ[2] هَمِّى بانبلاجِ
دَمُ الأَخَوَيْنِ دَاوَى جُرحَ قَلْبِي   وَعَالَجَنِي وَحَسْبُكَ مِنْ عِلَاجِ

وخاطبت السيد الفقيه أبا عبد الله بن مرزوق فى الغرض المعروف موطِّئا على بيت المشارقة فى العِذَار[3] :

أَمَا والَّذِى تُبْلَى لَدَيْهِ السَّرائِرُ   لَمَا كُنتُ أرضَى الخَسْفَ لَوْلاَ الضَّرائِرُ
غَدَوْتُ لِضَيْمِ ابنِ الرَّبِيبِ[4] فريسةً   أما ثَارَ من قومى لِنَصْرِىَ ثَائِرُ
إذا التمسَتْ كَفِّى لَدَيْهِ جِرايتى   كَأَنِّىَ جانٍ أَوْبَقَتْهُ[5] الجرائر
وما كان ظَنِّى أَنْ أَنَالَ جِرايةً   يُحَكَّمُ مِنْ جَرَّائِها فِيَّ جَائِرُ
متى جَادَ بالدِّينَارِ أَخْضَرَ زائفاً   ودَارَتُهُ دَارَتْ عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيتُ كِيسَ مرارتى   ورقَّتْ لِبَلْوَاىَ النُّفُوسُ الأخاير[6]
تَذَكَّرتُ بيتاً فى العِذَار لِبَعْضِهِم   له مَثَلٌ بالحُسْنِ فى الأرض سائر :

---

(١) راجع المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٦٩ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٧٤) .

(٢) المقرى : هلم ليلى .

(٣) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ١٨٧ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٧٤ — ٢٧٥) .

(٤) كان ابن الربيب هذا من خدام السلطان أبى سالم المرينى وكان هو المكلف بصرف جراية ابن الخطيب وغيره ممن قدم إلى المغرب من أعيان الأندلس ويبدو أنه كان لا يوفى بحقوقهم الامر الذى جعل ابن الخطيب يشتكيه إلى الحاجب ابن مرزوق بهذا النظم المذكور فى المتن . راجع (المقرى : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٧٥) .

(٥) أوبقته : أهلكته ، والجرائر جمع جريرة وهى الذنب .

(٦) فى المقرى : الاماثر .

« وما اخضرَّ ذاكَ الخدُّ نَبْتاً وإنما ... لِكَثْرةِ ما شُقَّتْ عَلَيْهِ المَرَائِرُ[1] »

وجاهُ ابن مرزوقٍ لدىَّ ذخيرةٌ ... وللشدَّةِ العُظْمى تُعَدُّ الذَّخَائِرِ

ولو كان يدرِى مادَهَانِى لَسَاءَهُ ... وأَنْكَرَ ما صارت إليه المَصَايِرِ

وخاطبت أحد الشرفاء الكرام بقولى[2] :

أَعْيَا اللِّقَاء عَلَىَّ إلاَّ لَمْحَةً ... فى جُمْلَةٍ لاَ تَقْبَلَ التفصيلا

فجعلت بَابَكَ عن يمينك نائباً ... أُهْدِيهِ عند زيارتى تَقْبيلا

فإذا وَجَدْتُكَ نِلْتُ ما أَمَّلْتُهُ ... أو لم أَجِدْكَ فقد شَفيتُ غَليلا

وفى مخاطبة مولاى السلطان أبى سالم إبراهيم ، أيده الله ، فى سبيل[3] الشكر :

سَمِىَّ خليل الله أَحْيَيْتَ مُهْجَتِى ... وعاجَلْتِنى منك الصَّرِيخُ على بُعْدِ

فإنْ عِشْتُ أُبْلِغْ فيكَ نَفْسِى عُذْرَهَا ... وَإنْ لَمْ أَعِشْ فالله يَجْزِيكَ من بعدى

وقلت فى أسلوب التغزل ، وما أبعده عنى فى الوقت والحمد لله[4] :

أَصْبَحَ الخدُّ منك جَنَّةَ عَدْنٍ ... مُجْتَلَى أَعْيُنٍ وشَمَّ أُنُوفِ

ظَلَّلَتْهَا مِنَ الجُفُونِ سُيُوفٌ ... جَنَّةُ الخُلْدِ تحت ظلِّ السُيوفِ

---

(١) هذا البيت لعيسى بن سنجر المعروف بالحاجرى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ من قصيدة مطلعها :

على دمع عينى فراقك ناظر ... يرقرقه ان لم ترقه المحاجر

راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٧٥ حاشية) .

ويبدو أن هذا البيت هو الذى سار ابن الخطيب على هديه فى بقية قصيدته .

(٢) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٨٧ — ١٨٨ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٧٥) .

(٣) هذا الشكر كان بسبب شفاعة السلطان أبى سالم إبراهيم المغربى لدى سلطان غرناطة بعد إطلاق أموال ابن الخطيب المصادرة . راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٣٥) .

(٤) نقل المقرى (هذين البيتين فى أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٧٦) .

وقلت أيضاً :

يَا مَنْ بِأَكْنَافِ فؤادى رَبَعْ[1] قد ضَاقَ بِى فِى حُبِّكَ المُتَّسَعْ
مَا فِيكَ لِى جَدْوَى وَلاَ أَرْعَوِى شُحٌّ مُطَاعٌ وهَوًى مُتَّبَعْ

ومن النثر ما خاطبت به الفقيه الفاضل صاحب قلم الإنشاء أبا زيد بن خلدون مُدْرَجاً فى طَىِّ كتابِ أهنيه بزيادة ولد تعرفت أنه طَلَع له :

ورد البشير بالإبلال ، مقارناً لخبر الاعتلال ، وتألُّم ذلك الجلال ، فكانت رحمة لقيت عذاباً ، وعُتبي نسخت عتابا ، وذنباً من الدهر أتبعه متابا ، فالحمد لله الذى أقال ، وفكّ من الوَعْك العِقال ، وأدرّ من الرحمة السُّحُبَ الثِّقال ، وأقرّ الحال وقد عَرَفت الانتقال ، وهل أنت — أعزَّك الله — إلا عين تألُّمها عزيز ولها على الجوارح بالفضل تمييز ، فالله عز وجل يُعقب القوة والنشاط ، والتمتعَ والاغتباط ولله دَرُّ الشاعر :

فَإذا مَرِضْتَ — ولا مَرِضْتَ — فإنَّهُ مَرَضُ الرِّيَاحِ يَطِيبُ فِيهِ نثاها

ولحين تعرفى هذا النبأ لم أَطْعَم النومَ هنيا ، ولا اقتطفت الأمل جنيا ، ولا زلت بتحقيق نبأ الإبلال معنيا ،حتى ثَبَتَ سَنَدُه ، واستقام أَوَدُه ، وكَثُرَ من رَاوِيهِ عَدَدُه ، فكتبت أهنىء نفسى بسلامة شُقَّتِها ، ومَظِنَّة مِقَتِها[2] ، وحفظ ثُمالها ، وحراسة رأس مالها ، ولو تمثلت لى القوى الطبيعية فى الخارج لعَرَفْت حقدى ، ورابها فى سوء التصرف نقدى ، أو نسى ...[3] لعَتَبْتُها ، أو النَّصْبَة المباركة لقَرَّرْتُها بنظرى ورتبتها ، لكن أحوالٌ تشذ عن الاستطاعة ، ولا تَدين فى غير سبيل البخت والاتفاق بالطاعة ، فلنسأل الله خير ما لديه ، ونثق به فى حفظ ذلك الجلال ونتوكل عليه . وقد كنت تعرفت أن سيدى زاد عنده مولود مبارك ، فبادرت بما يصله ، فإن كان الخبر حقا ، لم يكن منى إغفال ، وإن كان مُنتظرا فهو فال والسلام .

---

(١) ربع : أى أقام وسكن .
(٢) مقتها : أى حبها يقال ومقه مقة ومقاً أى أحبه .
(٣) بياض فى الأصل .

هَنِيئاً[1] أَبَا الفَضْلِ الرِّضا أو أبا زَيْدِ — وأُمِّنْتَ مِنْ بَغْيٍ تَخَافُ وَمِنْ كَيْدِ

بِطَالِعِ يُمْنٍ طَالَ فِي السَّعْدِ شَأْوُهُ — فَمَا هُوَ مِنْ عَمْرِو الرِّجَالِ ولا زَيْدِ

وَقَيِّدْ بِشُكْرِ اللهِ أَنْعُمَهُ التى — أَوَابِدُهَا تَأْبَى سِوَى الشُّكْرِ مِنْ قَيْدِ

أهلا بِدُرِّىِّ[2] المكاتب ، وصَدْرِىِّ المراتب ، وعُتْبَى الزمان العاتب ، وبكر المُشْتَرى والكاتب[3] ، ومرحبا بالطالع ، فى أسعد المطالع ، والثاقب[4] فى أجلى المراقب ، وسهلا بِغَنِيِّ البشير ، وعزَّةِ الأهل والعشير ، وتاجِ المفخر الذى يقصر عنه تاجُ كسرى وأردشير[5] . الآن اعتَضَدَت الحِلَّةُ[6] الحضرمية بالفارس ، وأَمِنَ (٤٣ و) السَّارح فى حمى الحارس ، وسَعِدَت بالنَّيِّر الكبير أفلاكُ التَّدْوير من حَلَقاتِ المدارس ، وقرَّت بالجَنَي الكريم عينُ الغارس واحتُقِرَت أنظار الآبلى[7]

---

(١) أورد ابن خلدون هذه الأبيات الشعرية وما يلها من نثر إلى نهاية الخطاب فى كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص ٢٠٩ — ٢١٥ — ولقد اعتمدت فى تحقيق مفردات هذه الرسالة على التمليقات القيمة التى كتبها صديق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ناشر كتاب ابن خلدون كذلك اعتمدت على بعض المراجع التى أشار إليها مثل رسالة التقويم للطوسى وعلم الفلك لنللينو ومثل مفاتيح العلوم ... إلخ .

(٢) كوكب درى : ثاقب شديد الإنارة ، عظيم القدر .

(٣) يلاحظ أن ابن الخطيب فى هذا الخطاب قد استخدم على سبيل التورية مصطلحات فلكية كثيرة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ان المرسل إليه وهو ابن خلدون كان أيضا من المهتمين بعلوم الفلك والتنجيم. والاشارة هنا إلى أن القمر إذا اتصل بالمشترى وهو كوكب سعد وبالكاتب —وهو عطارد فى عرف أهل المغرب — دل على أن المولود ذكر وأن حظه من العلوم العقلية والنقلية كبير .

(٤) الثاقب : المرتفع .

(٥) هو أردشير بن بابك ، أول ملوك الدولة الساسانية (٢٢٦ — ٢٤١ م) .

(٦) الحلة : البيت، والجمع حلال، والحضرمية نسبة إلى حضرموت حيث ينتهى نسب ابن خلدون .

(٧) لعله يقصد محمد بن ابراهيم الآبلى وكان من علماء تونس فى القرن الثامن الهجرى ومن أساتذة ابن خلدون ، وقد لقيه واستفاد منه أيضا الرحالة الطنجى ابن بطوطة عندما مر بتونس خلال رحلته ، انظر (رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٣١ طبعة ديفريمرى Defremery) والآبلى هنا نسبة إلى مدينة آبلة Avila فى شمال غرب مدريد وان كان هناك نفر من العلماء الأسبان يرجعون هذه النسبة إلى مدينة الأُبلة (بضم الالف والباء مع فتح اللام وتشديدها التى كانت تقع فى جنوب =

وأبحاث ابن الدارس، وقيل للمشكلات : طالما أَلِفْتِ الخِمْرة[١] وأمْضَيْتِ على الأذهان الإمرة ، فتأهّبي للغارة المبيحة لحماك ، وتحيَّزى إلى فئة البطل المستأثر برشف لَمَاك .
ولله من نَصْبَةٍ[٢] احتفى فيها المُشْتَرِى واحتفل ، وكفى القمر[٣] سِنِيَّ تَربيتها وكَفَل ، واختال عُطَارِدُ فى حُلَلِ الجَذَلِ لها ورَفَلَ ، واتضحت الحدود[٤] وتهلّلت الوجوه[٥] ، وتنافست المثلثات[٦] تؤمل الحظ وترجوه ، ونبّه البيت[٧] على واجبه ، وأشار لحظ الشَّرَف[٨] بحاجبه ، وأسرع نَيِّرُ النَّوْبَة[٩] فى الأَوْبَة ، قائما فى الاعتذار مقام التوبة ، واستأثر بالبروج المُوَلِّدة بيتُ البنين[١٠] ، وتخطت خطا القمر رأس

== شرق البصرة على شط العرب . وحجتهم فى هذا أن مدينة آبلة الأسبانية قد سقطت فى أيدى المسيحيين منذ وقت مبكر وأنه لم يرد فى كتب تراجم علماء الاندلس من ينسب إليها . والواقع أن هذه الحجة ليست دامغة خصوصاً وأن مدينة الأبلة العراقية قد اندرست بعد ازدهار البصرة فى العصور الاسلامية المبكرة أيضاً (حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى راجم (على ظريف الأعظمى : مختصر تاريخ البصرة ص ٥ ، بغداد ١٩٢٧) .

(١) الخمرة : الاستتار والاختفاء .

(٢) النصبة الفلكية : هى نظام شكل الفلك حينما يراد وضعه فى وقت معين للدلالة على الحوادث .

(٣) كلمة القمر ساقطة فى كتاب التعريف لابن خلدون .

(٤) يقصد حدود الكواكب ، فلقد قسم المنجمون درجات كل برج من البروج الاثنى عشر بين الكواكب الخمسة المتحيرة ، قسمة غير متساوية ، وجعلوا كل قسم منها يخص كوكباً من هذه الكواكب الخمسة وسموه حد ذلك الكوكب .

(٥) يقصد وجوه البروج إذ أن المنجمين قسموا كل برج إلى ثلاثة أقسام متساوية وسموا كل قسم منها وجهاً .

(٦) البروج الاثنى عشر تنقسم إلى اربعة أقسام — بعدد الطبائع الأربع — وكل ثلاثة بروج منها تتفق فى طبيعة واحدة من الطبائع الأربع تسمى مثلثة ، فيقال : مثلثة نارية أو ترابية أوهوائية أو مائية ، ويختص بكل مثلثة ثلاثة كواكب من السيارة تسمى أربابها ، ومعنى ذلك أن الكوكب إذا كان فى واحد من هذه البروج التى تكون مثلثته ، قيل إنه فى مثلثته أى أنه فى وضع له فيه حظ وقوة .

(٧) بيت الكوكب : محل أمنه وسلامته .

(٨) شرف الكوكب : محل علوه وسعادته ، فحينما يصل الكوكب إلى درجة معينة من برجه يقال إنه حل فى شرفه .

(٩) نير التوبة يكون فى الغالب الهيلاج (دليل العمر) وهو بالنهار الشمس وبالليل القمر .

(١٠) بيت البنين هو البيت الذى له دلالة على الأولاد ويطلق على البرج الخامس من البروج الاثنى عشر . والابتداء فى العد يكون من البرج الطالع الواقع على الأفق الشرق . ويزعمون أنه طالما كان البرج الخامس أحد البروج الشمالية ، دل ذلك على كثرة النسل .

الجَوْزَهِرِ[1] وذَنَب التِّنِّين ، وساوَق منها حُكْمَ الأصل حَذْوَكَ النَّعلَ بالنَّعل تَحويلُ السِّنين، وحقَّق هذا المولود[2] بين المواليد نسبة عُمُرِ الوالد، فتجاوز درجة المئين، واقترن بعاشرهِ[3] السَّعْدان[4] اقتران الجسد ، وثَبتَ بدقيقة مركزة قلبُ الأسد ، وسرَقَ من بَيْتِ أعدائه[5] خُرْثِيَّ[6] الغِلّ والحسد ، ونَظَّفَت طرق التسيير[7] ، كما يُفعل بين يدى السادة عند المسير ، وسقَطَ الشيخ الهرم من الدرج فى البير ، ودُفع المقاتل[8] إلى وبال كبير[9] .

لِمْ لاَ تنَالُ العُلَى أو يُعْقَدُ التَّاجُ ... والمُشْتَرِى طَالِعُ والشمسُ هِيلاَجُ[10]

والسَّعْدُ يَرْكُضُ فى مَيْدَانِهِ مَرِحاً ... جَذْلاَنَ والفَلَكُ الدَّوَارُ هِمْلاَجُ[11]

كأنْ به — والله يبقيه[12] — قد انتقل من مهد التنويم ، إلى النَّهْجِ القويم ، ومن أريكة الذراع ، إلى تصريف اليراع ، ومن كَتَد[13] الداية[14] ، إلى مقامِ

---

(١) الجوزهر : نقطة التقاطع الشمالية التى تتقاطع عليها فلك البروج مع فلك أى كوكب ، والجوزهر الذى يقصدونه بصفة عامة هو جوزهر القمر .

(٢) فى التعريف : المولد .

(٣) العاشر هو بيت السلطان .

(٤) السعدان : المشترى والزهرة وأكبرها المشترى .

(٥) بيت الاعداء هو البيت الثانى عشر

(٦) الخرثى (بضم الخاء) : اردأ المتاع .

(٧) أى طرف التسيير إلى السعادة أو النحس .

(٨) اهل المغرب يسمون زحل مقاتلا ، والمريخ أحمر ، وعطارد الكاتب .

(٩) فى التعريف : الوبال الكبير ، والوبال هو البرج المقابل لبيت الكوكب وهو البرج السابع من كل بيت ويسمى نظيره ومقابله .

(١٠) الهيلاج : دليل العمر ، والهيالج خمسة : الشمس والقمر ، والطالع ، وسهم السعادة وجزء الاجتماع والاستقبال . وتعرف بأدلة العمر لأنها تسير إلى السعادة أو النحس .

(١١) الهملاج : المركب السريع الحسن السير .

(١٢) فى التعريف : يهديه .

(١٣) الكتد : مجمع الكتفين من الانسان وكاهله .

(١٤) الداية : القابلة ولعله يقصد المرضعة .

الهداية ، والعناية المُخْتَطَفَةِ البداية ، جعل الله وقايته عليه عُوذَه[1] ، وقسم حَدَدته بين عُرَم[2] اللحم من مُنْخَنِقَةٍ[3] ونَطِيحَةٍ[4] ومُتَرَدِّيَة[5] وموقُوذَة[6] ، وحفظ هلاله فى البدار إلى تمِّه وبعد تمِّه ، وأقرَّ به عين أبيه وأمه . غير أننى — والله يغفر لسيدى — بيد أنى راكعٌ فى سبيل الشكر وساجد ، فأنا عاتِبٌ وواجِد ، إذ كان ظنى أن البريد التى بهذا الخبر تُعْمَل ، وأن إتحافى به لا يُهْمَل ، فانعكست القضية ورابَت الحالُ المرضِيَّة ، وفَضَلَت الأُمورَ الذاتية الأمورُ العَرَضية ، والحكم جازم ، وأحد الأمرين لازم : إما عدم السَّوِيَّةِ[7] ويعارِضُه اعتناء سَبَبُه[8] مُغار ، وعُهْدَةُ سَلَم لم تَدْخُلها جِزْيَةٌ ولا صَغار ، أو جهل بمقدار النعمة[9] ويعارِضُه علم بمقدار الحقوق ، ورضى مُنافٍ للعُقُوق ، فوقَع الإشكال وربما لطُف عُذرٌ كان عليه الاتِّكال . وإذا لم يُبَشَّر مثلى بمنيحة الله قِبَلَ تلك الذات السَّرِيَّة الخليقَة بالنعم الحَرِيَّة ، فمن ذا الذى يُبَشَّر ، أو على من يُعرض بزُّها[10] ويُنْشَر ، وهى التى واصلت التَّفَقُّد[11] ، وبَهْرَجَت[12] المعاملة وأبت أن تَنْقُد وأنست الغربةَ وجُرحُها غير مُنْدَمِل ، ونَفَّسَت الكُرْبَةَ وجُنْحُها[13] على الجوانح مشتمل . فمتى فُرِض نِسيانُ (٤٤ و) الحقوق ،

---

(١) العوذة والتعويذ والمعاذة أسماء بمعنى الرقية وهى التى تكتب وتعلق على الانسان لتقيه فى زعمهم من العين أو الحسد .

(٢) فى التعريف : قسمة محرم اللحم .

(٣) المنخنقة : الشاة وغيرها إذا خنقت بحبل أو غيره .

(٤) النطيحة : الشاه التى تنطحها الأخرى بقرونها .

(٥) المتردية : الساقطة من جبل أو فى بئر .

(٦) الموقوذه : المقتولة ضربا بالخشب أو بالحجر ، وكل هذه الأصناف السالفة قد حرم الله أكلها على المسلمين ، انظر الآية رقم ٣ من سورة المائدة .

(٧) السوية : العدل والنصفة .

(٨) فى التعريف : حبله مغار أى محكم الفتل .

(٩) فى التعريف : الهبة .

(١٠) فى الأصل ، برها . والبز : الثياب

(١١) التفقد ، التعرف لأحوال الناس وتمهدها .

(١٢) بهرج : عدل عن الطريق المسلوك أو أهدر .

(١٣) الجنح : الظلام

لم يَنَلْني فرضٌ ، ولا شَهِدت به عليَّ سماء ولا أرض ، وإن قصَّر فيما يجب لسيدى عمل ، لم يُقصِّر رجاء ولا أمل ، ولِي فى شَرْحِ حمدِه ناقةٌ وجَمَل ، ومنه جلَّ جلاله[1] نسأل أن يُرِيَه قُرَّة العَيْن فى نفسه وبنيه ، ويجعل أكبَرَ عطايا الهيَالِج أصغر سِنِيه ، ويُقلِّدَ عواتِق الكواكب البابانية[2] حمائل أمانيه . وإنْ تَشَوَّف سيدى لِحال وَلِيِّه فخَلْوةٌ طيبة ، ورحمةٌ من جانب الله صَيِّبَة ، وبرقٌ يُشام[3] ، فيقالُ حَدِّثْ ما وراءكَ يا عِصام[4] . ولله دَرّ شيخنا إذ يقول :

لاَ بَارَكَ اللهُ فِيَّ إنْ لَمْ ... أُصرِّفِ النَّفْسَ فِي الأَهَمِّ
وكَثَّر اللهُ فِي هُمُومِي ... إنْ كَانَ غَيْرُ الخَلاَصِ هَمِّي

وإن أنعم سيدى بالإلماع بحاله ، وأحوال الولد المُبارك ، فذلك من غُرَر إحسانه ومنزلتُه من لَحْظِ لَحْظِي بمنزلة إنسانه ، والسلام .

وخاطبت[5] صاحب الأشغال العلية الشيخ أبا عبد الله بن أبي القاسم بن أبي مدين أهنيه بتقلد الخُطَّة[6] من رسالة :

تَعُودُ الأَمَانِيُّ بَعْدَ انْصِرَافِ ... وَيَعْتَدِلُ الشَّيْء بَعْدَ انْحِرَافِ
فإنْ كَانَ دَهْرُكَ يَوْمًا جَنَى ... فقد جاء ذَا خَجَلٍ واعْتِرَافِ

طلع البشير ـ أبقاك الله تعالى ـ بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله بنيل[7] الأمنية ، على تلك الذات التي طابت أُرومتها[8] وزكت ، وتأوَّهت العلياء لتذكر

(١) فى التعريف : وعلا .
(٢) الكواكب البابانية هى التى لا تنزل الشمس بها ولا القمر .
(٣) شام البرق : نظر إلى سحابته اين تمطر .
(٤) فى التعريف : يا هشام .
(٥) أورد المقرى هذه الرسالة فى نفحة حـ ٨ ص ٣١١
(٦) فى نفح الطيب : المنصب .
(٧) فى نفح الطيب : ببلوغ .
(٨) الأرومة : الأصل ، وزكاؤها اى طهارتها ونماؤها .

عَهْدها وبكت ، وكاد السّرو يتقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذى تركت (٤٤ ط)
فلولا العذر الذى تأكدت ضرورته ، والمانع الذى ربما تقررت لكم[١] صورته ،
لكنت أولَ مُشافِهٍ بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنفوذ الحمد لله
والثناء ، وهى طويلة .

وخاطبت القاضى ابن بطوطة[٢] بتَامَسْنَا[٣] ، وقد عزمت على إثارة الأرض
بجواره . لتَعْلَمَ سيادةُ القاضى شمس الدين ، مُعَلِّم المواقف الحسبية والميادين ، أبقاها الله

---

(١) فى نفح الطيب : لديكم .

(٢) هو ابو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم اللواتى الطنجى المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين . ولد فى طنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) وعاش مع والديه فى سعة واطمئنان إلى أن دعاه داعى الحج إلى مكة فلباه سنة ٧٢٥ هـ ثم جاب أكثر بلاد العالم المعمور فى ذلك العصر فى ثلاث رحلات كبيرة انتهت سنة ٧٥٥ (١٣٥٤ م) وبعد عودته الى وطنه للمغرب اتصل بسلطانه أبى عنان فارس المرينى بفاس وحدثه عما رآه من العجائب والغرائب ، فطلب السلطان من كاتبه الاديب محمد ابن جزى الكلبى الغرناطى بالعمل على تدوين وصياغة هذه الرحلة ، فامتثل ابن جزى لهذا الأمر وانتهى من كتابة الرحلة فى ثلاثة أشهر فقط (١٣٥٦ م) وسماها تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . ولقد نشرت هذه الرحلة فى عدة طبعات نذكر منها طبعة القاهرة ١٩٣٨م فى جزأين وطبعة الروائع فى بيروت ١٩٥٠م فى ثلاثة أجزاء ، ثم الطبعة الأوربية التى قام بنشرها وترجمتها إلى الفرنسية المستشرقان : C. Defremery & B. R. Sanguinetti فى أربعة أجزاء مع جزء خامس خاص بالفهارس فى باريس ١٩٤٩م .

ولقد توفى ابن بطوطة فى سنة ١٣٧٧ وقبره يزار بطنجة .

(٣) تامسنا Tamasna كلمة بربرية من لهجة زناتة ومعناها البسيط الخالى ، وقد أطلقت على الأراضى الممتدة على ساحل المحيط من الرباط إلى فضالة والدار البيضاء وتنتهى عند أزمورعند مصب وادى أم الربيع . وقد سمى أحد أبواب مدينة الرباط المطل على هذه الجهة باسم باب تامسنا . وقد هدم أخيراً ولكن اسمه ما زال باقيا وكانت هذه المنطقة مركزا لدولة برغواطة التى استقلت بديانة بربرية خاصة منحرفة عن الإسلام منذ أيام الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ واستمرت إلى أن قضى عليها المرابطون فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . ولما تلاشت برغواطة حل محلها بعض قبائل الأعراب القادمين ، من المشرق مثل عرب سويد من رياح الهلالين وذلك على عهد الدولة المرينية وسموا بعرب الشاوية نسبة إلى الشاة لأنهم كانوا يقومون برعاية شياة وماشية الدولة المرينية . ومنذ ذلك الوقت تغير اسم هذه المنطقة من تامسنا إلى الشاوية حتى اليوم . راجع (لاوست : لغويات مجلة المغرب ، عدد سبتمبر واكتوبر ١٩٣٦) راجع كذلك (العبدى : آسفى وما إليه ص ٣٥) ، الناصرى السلاوى : الاستقصا ج ٤ ص ٦٦) .

تحاكى الشمس فى الجولة ، وظهور الصولة ، والحكم على الدولة ، وإصلاح حال العَوْلَة أن موجب حقِّها ، وشائم برقها ، والعائذ بجمعها من فرقها ، لما انتبذ وانقطع ، واقتطع من جانب العزلة والتخلى ما اقتطع ، وقد لاح نور الرضا بقضاء الله وسطع ، آمل أن يكون مخدومه الراحة ، حتى تندمل الجراحة ، وإن أعوز المعاش اجتديتُ الفلاحة ، وتخيرت فى البقع بقعة يؤنس فيها جوار كريم ، ويؤمن حيفُ غُرْمٍ أولىٌّ غريم . فلم يقع الاختيار إلا على البقعة التى لها الفضل بسكنى شمس الدين بين جُرزاتها[1] ، ووقوف ركائب الاستفادة بين تُوضحها ومقراتها[2] ، فالتزمت وارتبطت ، واخترت واغتبطت ، ووجهت تتقى لشراء ما يعين على الدهر ، ويستعد للفلاحة والبذر ، خوفاً أن يخرج يومه ، فيرتفع سَوْمُه ، ويحاول رَوْمُه ، فيضنّ به قومه . وعندى أن القاضى إذا تحقق أن جواره هو المطلوب الأول ، والفضل الذى عليه (٤٥ و) المعول ، يَتَغَمَّدُ هذا الغرض سَرْوُه الذى لا يتأول ، فتقع مشاركته بكل وجه من وجوه الإعانة ، بمقتضى الفضل والديانة ، حتى يحصل ببركته ثمرةُ الفلاحة حسًّا وثمرة الفَلَاح معنى ، وتعتضد الزيادة والحسنى ، ويتأسس بهذه اللبنة من قُرْبِه المبنى ، ويدعو المُعْشِرُ فى جواره إلى العشرة والسكنى ، والتمتع بفضله الأسنى ، ومن نبَّه مثلَه إلى فضل فقد نبَّه كفيلا ، أو جنح إلى بيت مثله أثار مجداً حفياً وقِرًى حفيلا ، وما يصدر عن محله من وَفْق الظن به فمقابَل من الثّناء بأجمل صورة ، ومن الحمد بأعجز سورة والسلام[3] .

وخاطبت الشيخ الشريف الفاضل أبا عبد الله بن نفيس صُحْبَة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهدانى فرساً عتيقاً[4] :

---

(١) أى مرتفعاتها .

(٢) كناية عن الأماكن التى اشار إليها امرؤ القيس :

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ... . (من قصيدة قفا نبك ..) .

(٣) سبق أن نشرت هذه الرسالة كضميمة لمقال تحت عنوان : النزعات الاقتصادية فى حياة ابن الخطيب فى مجلة جامعة الاسكندرية ، وقد تفضل أستاذى المستشرق الاسبانى غرسية جومث فنشر هذه المقال باللغة الاسبانية فى مجلة الأندلس . Los Moviles economicos en la vida de Ibn Al Jatib, Al Andalus 1957 VOI. XX fasc I.

(٤) أورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب ج ٨ ص ١٥١ .

جُزِيتَ يا ابنَ رسولِ اللهِ أفضل ما جَزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجز الشكرُ مِنى منةً[1] ضَعُفَتْ عن بعض حقك شُكرُ اللهِ ماعجزا[2]

سيدى أبقى الله شَرَفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والبقاع[3] ، وتعترف به الأبصار الأسماع ، وإن جحدت عارَضَها الإجماع ، بأى لسان أُثنى ؟ أم أى الأفنان أهصر[4] وأجنى ، أم أى المقاصد الكريمة أعنى ؟ أمطيْت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبى اصطبارك ، وهضمت حقك وبوّأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف فى تعدادها عند حد إلى خير جد ، فإن أعان (٤٥ ط) الدهر على مجازاة ، وإن ترفع كرُمك عن مُوَازاه ، فحاجةَ نَفْسٍ قضيت ، وأحكامَ آمال أمضيت ، وإن اتصل العجز فعين على القذى أغضيت ، ومَنَاصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشترٍ ماأنت بائع ، وقد وجهت من يحاول لسيِّدى ثمن ما أَكسَبَهُ[5] مجدُهُ ، وسَفَرَ عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضى ، وكمال التقاضى ، وحميد الصبر وسعة التغاضى ، وكونه الخصم والقاضى ، أنه هبة سَوَّغَهَا إنعامه وأكلة هنَّاها مِطْعامه ، نسأل الله أن يعلى ذكره ، ويتولى شكره ، ويُنْمِى ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذى برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة ، قد جعلته وديعة فى كرم جواره ، ووضعته فى حِجْر إيثاره ، فإن زاغ فَيَدُهُ العليا فى تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومن نَبَّه مثله نام[6] ،

---

(١) المنة : القوة .

(٢) أخذ هذا من حديث نبوى معناه : من اسدى إليه معروف فليشكر مسديه فإن لم يستطع فليدع له .

(٣) فى نفح الطيب : والرباع .

(٤) هصر الغصن : أى جذبه إليه وأماله ليأخذ ما فيه من ثمر .

(٥) فى نفح الطيب : ما اكتسبه .

(٦) يشير بهذا إلى قول بشار بن برد :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمرا ثم نم

ومن استنام إليه بهمة أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوف سيدى لحال مُحبه فمطلق للدنيا من عقال ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة الله وانتقال ، والسلام .

وخاطبت صدر الفضلاء الفقيه المعظَّم أَبا القاسم بن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه[1] :

مَرِضْتَ فأيَّامِى لِذَاكَ[2] مَرِيضَةٌ وبُرْؤكَ مَقرونٌ بِبُرْءِ اعتِلاَلِهَا

فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غر خلالها

وردت على من فئتى التى إليها فى مَعْرَكِ الدهر أتحيز ، وبفضل فضلها فى الأقدار المشتركة أتميز ، سَحاءة[3] سرت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ، أطلع بها سيدى صنيعة وده من شكواه على كل عابث فى السويداء ، موجب اقتحام البيداء ، مضرم نار الشفقة فى فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من إيضاح[4] لسانه إلا الأنين والأليل ، ونَوًى مدت لغير ضرورة برضاها الخليل فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ، أو آمل ضويق فى فذلكة آماله ، لكننى رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطَّ يبهر والحمد لله ويروق ، واللفظ الحسن تُومِضُ فى حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت :

ارتفع الوَصَب ، ورد من الصحة المغتصب ، وآلة الحس والحركة هى العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سَليطه[5] ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطى إلا الشرح ، ففيه يسكن الظمأ المبرح[6] ، وعذرا عن

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٥٢ — ١٥٣) .
(٢) فى نفح الطيب : لديك .
(٣) أراد بالسحاءة هنا . الرقعة التى يكتب فيها .
(٤) فى نفح الطيب : افصاح .
(٥) السليط : الزيت وكانت توقد به الشموع .
(٦) فى نفح الطيب : البرح .

التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار والإطناب والإكثار، وزَنْدُ القلق فى مثلها أوْرَى، والشفيق بسوء الظن مُغْرَى، وسيدى هو العمدة التى سلمت لى الأيام فيها، وقالت : حسب آمالك ويكفيها، فكيف لا أشفق، ومن أنفق (٤٦ ط) من عينه فأنا من عينى لا أنفق، والله لا يحبط سعيي فى سؤال ولا يخفق، ويرشد إلى شكره على ما وهب منها ويوفق، والسلام الكريم على سيدى البر الوصول، الذى زكت منه الفروع لمّا طابت الأصول، وخلص من وده لابن الخطيب المحصول ورحمة الله.

فراجعنى حفظ الله سيادته بما نصه[1] :

متى شئتُ ألفى من علائك كل ما يُنيلُ من الآمال خَيْرَ مَنَالِها
كَبُرْءِ اعتلال من دعائك زارنى وعاداتُ بِرٍّ لم تَرِمْ[2] عن وِصالِها

أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطولا بتأكيد البر، متفضلا بموجبات الحمد والشكر، وَرَدَتْنى سحاءته المشتملة على معهود تشريفه، وفضله الغنى عن تعريفه متحفيا فى السؤال، عن شرح الحال، ومعلنا بما تحلى به من كرم الخلال، والشرف العال، والمعظم على ما يسر ذلك الجلال الوزارى الرياسى أجراه الله على أفضل ما عوده، كما أعلى فى كل مكرمة يده، ذلك ببركة دعائه الصالح، وحبه المُخيِّم بين الجوانح، والله سبحانه المحمود على نعمه، ومواهب لطفه وكرمه، وهو سبحانه المسئول أن يَنِى[3] لسيدى قرار الخاطر، على ما يسره فى الباطن والظاهر، بمن الله وفضله، والسلام الكريم على جلاله الأعلى ورحمة الله. كتبه المعظم الشاكر الداعى الذاكر المحب ابن رضوان وفقه الله، فى الثلاثين من ذى الحجة خاتم أحد وستين وسبعمائة.

وخاطبت الفقيه السرى أبا عبدالله الكنانى وقد صرف عن خطة الأشغال إلى

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٥٤).
(٢) لم ترم : أى لم تبرح ولم تفارق.
(٣) فى نفح الطيب : يهىء.

الخدمة بسجلماسة فى سبيل إعراض من المقام السلطانى شَعَبَ[1] الله شته ولَمَّ شعثه فهو أهل النعمة، ومحل للتجاوز عن الهفوة.

أصبحتَ سهما من كنانة صائبا يمضى إلى هدف الكمال ونحره

وأبو المكارم جدك الأرضى الذى استولى على سرِّ الجلال وجهره

ما كان يُدعى بالمكارم كنية إلا بكونك ثاوياً في ظهره

سيدى الذى لسانى مُرتَهَنُ حمده وجَنانى مستودع وده، أقسم بمن فضلك على أبناء جنسك، ومنابت غَرْسِك، وجعل يومك فى الفضل مربياً على أمسك، ما مرَّ يوم إلا ولى فيه لعلاك ذكر وحمد وشكر، وهمٌّ بلقائك وفكر، لِما استجليت من جمال يثير الكلف، وجلال يذكر بمن سلف، ولما تعرفت ما كان من الانصراف وتطويق الاقتراف، وتصحيح المثل فى: «الأطراف منازل الأشراف»[2] ارتمضت وما اغتمضتُ ثم شكرتُ الله على نعمه، وتبينت مواقع لطفه بك وكرمه، فإنك والله عرضة لإصابة العين، ووقعها — ونعوذ بالله — ليس بالهين، وكم بين المشوب والمحض وبعض الشر أهون من بعض[3]. ويتفاضل الدهر فى العض، ولله عناية ببقاع الأرض، فإن كانت سجلماسة قبل اليوم يجلب منها التبر إلى دار الملك، فقد رد إليها الذهب (٤٧ ط) الإبريز من بعد السبك، ولا بد أن يصول الحق على الشك، فتعود الأمور إلى معتادها، وتُحِلُّكَ العَلياء محل فؤادها، فإنما هو تَجْمِيم، ووراءه إنعام عميم، ومن الله أسأل أن يصل لك أسباب العز آمنة من الانصرام، ولا يقطع عنك عوارف الإنعام، والسلام.

---

(١) شعب أى رمم: وفى ذلك قيل: «إن الزجاجة كسرها لا يشعب».

(٢) هذا من قول البحترى ...... وفى الأطراف تلقى منازل الأشراف.

(٣) هذا من قول الشاعر.

أبا منذر أهلكت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وخاطبت الوالى بمكناسة أبا محمد عبد الله بن محمد من الجلة أُولى المروءة والحشمة مع شخص من أصحابنا أولى التراتيب الغريبة :

عبدَ الإلَهِ بنَ عُثْمَانَ ابقَ فى دَعَةٍ　　عِنَايَةُ اللهِ تَحْمِيهاَ وَتَكفِيهاَ

لَوْ لَمْ يكنْ لِبِلاَدِ الغَرْبِ مَحْمَدَةٌ　　إلاَّ بِكَوْنِكَ يَا قُطْبَ العُلَى فِيهاَ

لَكَ الحُقُوقُ التى مَهْمَا اعْتَرَفْتُ بِهاَ　　لا يَسْتَطِيعُ لِسَانِى أَنْ يُوَفِّيهاَ

لا زالتَ تَخْتَالُ للنعماء فى حُلَلٍ　　عليك لله يُبْدِيهاَ ويُخْفِيهاَ

كَرُمْتَ ذَاتاً وَمَجْداً واشتهرتَ سَنًى　　فزادك الله تَنْوِيهاً وترفيها

أبقاكم الله ، الواصلُ بهذه إلى رياستكم ، طبقة الدنيا ، وواحدها من غير ثُنيا ، الشهير عند كل غنى وصعلوك ، المجترئْ على بيوت الأشراف ودسوت الملوك ، توجه إلى الباب السلطانى لتقرير وسيلته والتماس فضيلته ، وله من رَعْى السيادة الخطيبية محل ، وفى ندى برها ظَعن وحِلْ ، فأردت إطراف مجلسكم بلُيْلَتِه ليكون ممن يرفع من صيته ، وأنا على ما تعلمون من شكر يطيل ويطيب ، وعلى المحافل منه خطيب وابن خطيب والسلام .

وخاطبت[1] قاضى الجماعة الشيخ الفقيه جملة الوقار وكبير الطلبة وقد نالته مشقة جرَّها غلطُ (٤٨ و) الخدام السُّوءِ واشتراك الأسماء أعتبه[2] عندها السلطان وخلع عليه وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفتُ أمرا ساءنى ثم سرَّنى　　وفى صحة الأيام لابدَّ من مَرَضْ

تعمَّدَكَ المحبوبُ بالذَّاتِ بعدما　　جرى ضدُّه والله يكفيه بالعرض

فى مثلها أبقى الله سيدى يُحْمَدُ الاختصار ، وتقصرا الأنصار ، وتطرق[3] الأبصار ،

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٣١١ — ٣١٢) .

(٢) أعتبه أى أزال سبب عتبه وأرضاه .

(٣) فى نفح الطيب وتصرف .

إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يَقِظ وحالم ، إنما هى هَدية أجر ، وحقيقة وصل عَقبت[1] مَجَاز هجر ، وجرح جُبار[2] ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقيعة لم يكن فيها إلاَّ غبار ، وعَثْرة القدم لا تنكر ، والله سبحانه يُحْمَد فى كل حال ويُشْكَر ، وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يَشُبْهُ شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والمرعى[3] دائب ، والجانى تائب ، فما هو إلا الدهر الحسود، لمن يسود ، خَمَشَ بيد ثم سترها ، ورمى عن قَوْس ما أصلحها — والحمد لله — ولا أوْتَرَها ، إنما باء بِشَيْنِه ، وجنى من مزيد العناية سخنة عَيْنِه ، ولا اعتراض على قَدَر ، أعقب بحط مُبْتَدَر[4] ، وَوِرْد نغصَ بكدر ، ثم أنَّسَ بأكرم[5] صَدَر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من الله والذَّب ، ولا تقول مع الكَظْم إلا ما يُرضى الرب ، وإذا تسابق[6] أولياء سيدى فى مضمار ، وحماية ذِمار ، واستباق إلى برٍّ وابتدار ، بجُهدِ واقتدار ، فأنا لا فَخْرَ[7] متناول القَصَبة ، وصاحب الدين من بين العَصَبة ، لِمَا بلوت من برٍّ أوْجبه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وَضَحَ منه المَذْهب ، وتنفيقٍ (٤٨ ط) ، راق منه الرداء المُذهب ، هذا مُجْمل وبيانُه إلى وقت الحاجة مؤخر[8] ، ونبذة شره لتعجيلها يراع مسخر ، والله يعلم ما أنطوى عليه لسيدى من إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام . .

فراجعنى أعزه الله وأبقاه بما نصه :

وأيْمُ الله إبرازاً لأيْمٍ لقد جلَّى كتابُك كلَّ غمٍّ

---

(١) فى نفح الطيب : أعقبت .

(٢) الجبار : الهدر ، يقال ذهب دمه جباراً أى هدراً ولم يؤخذ بثاره .

(٣) فى نفح الطيب : والرعى .

(٤) فى نفح الطيب : بخط معتذر .

(٥) فى نفح الطيب : بأكرام .

(٦) فى نفح الطيب : سابق .

(٧) فى نفح الطيب : ولا

(٨) يشير إلى قول أهل الأصول ، يجوز تأخير البيان إلى وقت الحاجة .

وساهم في الحوادث مَنْ رَمَتْهُ ففاز من الوفاء بخيرِ سهم

يا سيدى أمدّ الله فى أنوار تلكم الطريقة المُثلى وبارك ، وجزاها جزاء من ساهم على الحقيقة فى الُجلَّى وشارك ؛ وصل كتابكم الصادق الصفاء ، الصادر عمن لم يرض من الوفاء باللَّفَاء فَبَأَى من صدع الأيام ورَأَبْ ، ونَأَى فى دفع الأوهام وقرب ، وهو الدهر أبقاكم الله لا تُثْنِي فَلَتَاتُه ، ولا يُبنى على عَقْدِ صَفَائه يوم لِوَى ولائه ، إلا كَدَّرَه بالنقص مُفْتَاتُه . هذا ولو حاسَبَ الإنسان نفسه لاستحقَرَ ما استعظم ، وعلم أن ما لا يرى مما وقَى الله أعظم ، فأناةً ، ومن جُنِىَ عليه فليستغفر الله فَغَفْراً اللهم غفرًا ، وحمداً على السراء والضراء وشكرا ، وسيدى أعزه الله المشكورةُ أياديه ، المبرورةُ غاياته الجميلة ومباديه ، وهو سبحانه يعين على واجبكم ويشكر فى حسن الإخاء جميل مذاهبكم ، والسلام يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب محمد بن أحمد الفشتالى أَلْهَمَهُ الله تعالى رشده :

وخاطبت بعض الفضلاء بقولى مما يظهر من الجملة غرضه[1] .

تعرفتُ قُرْبَ الدار ممن أحبه فكنتُ أجِدُّ السير لولا ضروره
لأَتْلُوَ من آى المحامد سورةً وأُبْصِرَ من شخص المحاسن صوره

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطى بولائك ، وسرورى بلقائك ، أَوَدُّ أن أطوى إليك هذه المرحلة ، وأجدد العهد بلُقياك المؤملة ، فمنع مانع ، وما ندرى فى الآتى ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأنى قد وضَح منه سبيل مسلوك ، وعَلِمَه مالك ومملوك ، واعتقادى أكثر مما تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ومُوَصِّلُها ينوب عنى فى شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفة بالعفاف والطهر والسلام .

وخاطبت الشيخ أبا الحسن بن بطّان بقية الرعيل وخاتمة الاسرياء أهنيه بولده عبد الواحد حائز قصب السباق فى كثير من الخصال الحميدة بعد اغتراب وشدة

---

(١) راجع (المقرى ، نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٢) .

وانبتات بالبلاد الشرقية عظم لأجله بثُّه الى أن تأتى خلاصه :

يَهْنيكَ مُقْدِمَ عبدِالواحدِ ابنكَ عن مَطْلٍ بوعدٍ مِنَ الأيامِ مَرْقُوبِ
كيوسُفٍ كان فى مِطْلِ الزمان به وكنتَ فى البَثِّ والشكوى كيعقوب

قد علم الله ، وهو الذى يعلم السرَّ الخفى ويميز الماذِقَ[1] والوفى ، أننى أيها الفاضل الذى إليه فى المجد الإشارة ، وباجتماع شمله ذاعت البشارة ، من يوم وقع عليك بصرى ووجب عن حصر كرمك حَصَرى[2] ، ورأيت منك كوكب السَّحرِ الذى أخذ أعقاب النجوم ، والصبح مرتقب الهجوم ، وبقية الغيث السَّجوم ، والزمان كثير (٤٩ ط) النيازك والرُّجوم ، وأَسِيتُ لفراق ابنك إذ جوانحى بالفراق جِدُّ مكلومة ، وأسوارُ صبرى بمنازلة الوَدَاع أىُّ مثلومة ، ونفسى بالرقة المسترقة معلومة ، وفى الجزع للبَيْن غير ملومة . لم أزل أضنُّ على الحوادث بذاتك ، وأُوسعُ الأيامَ ذمًّا فى أذاتك ، وأرغب فى بقاء رسم المروءة ببقاء حياتك ، وآمل جمعَ شملك بعين أهلك ، وأحتقر فى جنبه ما أملِك وما عسى اليوم أن أملك ، وأما ما يرجع إلى تخليد ذكرٍ جميل ، وتنفيقٍ فى محل تأميل ، وهز الخلافة إلى رعيك وإحمادِ سعيك ، فأمر لم آلُ فيه جَهْدًا ، فقد أوسعته حرصا لا زُهدا ، و نشرتُ لك بأبوابهم منه بندا ، وجنَّدت جندا ، وكنت عينت الشكرانَ من أجلك إذا جَمع الله شملَكَ بنجلِك ، فلمَّا تعرفتُ خلاص بدره من سِرَارِه ودنُوِّ داره ، ورجوعه بعد الميل إلى مَدَاره ، ثم نظرت إلى محاسنه بعين نابتة عن عينك ، وسرنى حسنُ القضاء بعد أن مَطَلَ الدهر بدَيْنك ، شاهدت فاضلا فى فراق مثله يحسنُ الجزعَ ويرفض الصبر المنتزع ، وابنا مزيته على البنين ، مزيةُ سنةِ الهجرة على السنين ، حفظ الله كمالَه ، وبلَّغ كلاًّ منكم آمالَه ، وأعانه على تأدية حقك الذى لا يوسع الشرع ولا الطبع إهماله ، وحمدتُ الله وشكرتُ ، ورحت فى طلق المسرة وابتكرت ، ورحمت وعذرت ، ووفيتُ بما نذرت ، ولم يقنعنى إلا بعث

---

(١) مذق اللبن أى مزجه بالماء ، وماذق فلانا فى الود أى لم يخلص له الود .
(٢) الحصر : أى العى فى الكلام .

من يشافه بهنائك فى أحب أبنائك ، ولولا أننى ملازم حرمة لا أبرَحُها (٥٠ و) ومغمور جراية لا أرفضُ حقوقَها ولا أطرَحُها ، ومؤملُ آمالٍ لا أشرحها ، لم يقنعنى إلا إعمال الركاب بدَلَ إعمال الكتاب ، فمثلى إذا عرف مثلك التزم ، وقطع بموجب الوفاء وجَزَم ، وفى وضع الأيادى مواضعها حَزْمُ من خَدَم ، والله اسأل أن يجعل شملكم شملاً محفوظا ، وبعين الجمع على الأيام ملحوظا ، ومقدماً مجدوداً محظوظا ، ويمتع الفروعَ بالأصل ، والأصول بالفروع ، ويجعله رُبعاً بالبَيْن غير مَروع ، ويعين من البر على الحق المشروع . والسلام .

وخاطبت السلطان أبا عبدالله بن نصر جبره على اللهعند وصول ولده من الأندلس[1] :

الدَّهرُ أضيَقُ فُسحةًمن أن يُرى بالحُزْنِ والكَمَدِ المُضَاعَفِ يَقطَعُ
وإذا قَطَعْتَ زمانَه فى كُرْبَةٍ ضَيَّعْتَ فى الأوهام ما لا يرجع
فاقنَعْ بِمَا أعْطَاكَ دَهرُكَ[2] واغتَنِمْ منه السرورَ وخَلِّ من لا يقنع[3]

مولاى الذى له المِنَن ، والخَلْقُ الجميلُ والخُلُق الحسن ، والمجد الذى وضح منه السَّنَن[4] ، كتبه عبدُكَ مهنئاً بنِعَمِ الله التى أفاضها عليك ، وجلبها إليك ، من اجتماع شملك ، بنجلك ، وقضاء دَيْنِك ، من قرَّةِ عينك ، إلى ما تقدَّمَ من إفلاتِك ، وسلامة ذاتك ، وتمزُّق أعدائك ، وانفرادك بأَوِدَّائك ، والزمن ساعةٌ أو أقصَر ، لا بل كَلَمحِ البصر ، وكأنى بالبساط قد طُوِى ، والتراب على الكل قد سُوِّى ، فلا تَبْقَى غبطةٌ ولا حسرة ، ولا كُربة ولا مَسَرَّة[5] ، وإذا نظرتَ ما كنتَ فيه (٥٠ ط) ، تجدُكَ لا تنالُ منه إلا أُكلةً وفراشا ، وكِنّاً[6] ورياشا ، مع توَقُّعِ الوقائع ،

(١) راجع (المقرى ، نفح الطيب جـ ٨ ص ٣١٢) .
(٢) فى نفح الطيب : ربك .
(٣) فى نفح الطيب : ما لا ينفع .
(٤) السنن أى الطريقة ، يقال استقام فلان على سنن واحد اى على طريقة واحدة .
(٥) فى نفح الطيب : يسره .
(٦) الكن (بكسر الكاف) أى المأوى

وارتقاب الفجائع ، ودعاء المظلوم ، وصداع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح للأجر[1] المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية راقية[2] ، وما ندرى ما تحكم به الأقدار ، ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال ، واجتنبت المحال ، لم يخف عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لبس ، وكان من أملى التوجه الى رؤية ولدكم لكن عارضتنى موانع ، ولا ندرى فى الآتى ما الله صانع ، فاستنبت هذه فى تقبيل قدمه ، والهناء بمقدمه . والسلام .

وخاطبت الشيخ الجليل الوفى أبا الحسن على بن بدر الدين بن موسى بن رحو ابن عبد الله بن عبد الحق وقد وصل مزعجاً عن الأندلس بسبب ما تقدم من وفائه واستقر بمدينة فاس ، وبينى وبينه صداقة توجب النصح ، وتقتضى الشفقة[3] :

يا جملة الفضل والوفاء ما بمعاليك من خفاء

عندى بالود فيك عقد صححه[4] الدهر باكتفاء

ما كنت أقضى علاك[5] حقاً لو جئت مدحاً بكل فاء

فأول وجه القبول عذرى وجنب[6] الشك فى صفاء

سيدى الذى هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أبيه[7] ببدره ، افتخر منه[8] بشمسه ، رحلت عن المنشأ والقرارة[9] ، (٥١ و) ومحل

(١) فى نفح الطيب : الأمر والمذهب .

(٢) فى نفح الطيب : واقية .

(٣) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ٢٧٦) .

(٤) فى نفح الطيب : صحفه .

(٥) فى نفح الطيب : حلاك .

(٦) فى نفح الطيب : وحسبك .

(٧) فى نفح الطيب : أبيك .

(٨) فى نفح الطيب : منك .

(٩) فى نفح الطيب : الفرارة بمعنى الكشف عن أحواله والمتن اصوب .

الصَّبْوةِ والغَرَارة ، فلم تتعلق نفسى بذخيرة ، ولا عَهْدِ جيرةٍ خيره ، كتعلقها بتلك الذات التى لطُفَتْ لطافَةَ الرَّاح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معوةٌ والله يَقِيها ، ويحفظها ويُبْقِيها ، إذ الفضائلُ فى الأزمان الرذْلَةِ غوافل ، والضدُّ عن ضده منحرفٌ بالطبع ومائل ، فلما تعرفتُ خلاصَ سيدى من ذلك الوطن وإلقاءه وراء الفُرضة بالعَطَن ، لم يبق لى تَعِلَّة ، ولا أحرضتنى له علة ، ولا أُورِىَ جمعى من قلة ، فكتبت أهنىء نفسى الثانية بعد هناء نفسى الأولى ، واعترف للزمن باليد الطولى ، فالحمد لله الذى جمع الشملَ بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ، سبحانه لا مُبَدِّلَ لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمةَ حظَّ سيدى ونصيبه ، فلا يستطيعُ حادثٌ أن يصيبه وأنا أخرج له عن بثٍّ كمين ، ونُصْحٍ أنا به قَمِين ، بعد أن أسْبُرَ غَوْرَه وأَخْبُرَ طَوْرَه وأرصد دوره ، فإن كان له فى التشريق أمل ، وفى ركب الحجاز ناقةٌ وجَمَل ، والرأى فيه قد نجحت منه نيةٌ وعمل ، فقد غَنِيَ عن عوفٍ والبقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفأ[1] الجَمرات ، رَمْىُ الجَمرات ، وتأنَّسَ بوصل السُّرى ووِصاَل السَّراة ، وأَنَا[2] لَهُ إن رضينى أرضى مُرَافق ، ولواء عزى به خافق ، وإن كان على السكون بقاؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمرٌ له ما بعده ، والله يحفظ من الغِيَرِ سَعْدَه ، والحق أن تحذفَ الأبهةُ وتُخْتَصَر ، ويُحْفَظَ اللسانُ ويغضَّ البصر ، وينخرطَ فى الغِمار ، ويُخَلَّى عن المضمار ، ويجعل من المحظور مداخلةَ من لا خَلَاق له ، ممن لا يقبل الله (٥١ ط) قولَه ولا عَمَلَه ، فلا يكتم سرا ولا يتطوَّقُ من الرجولة زِرًّا ، ورفْضُ الصحبة زمامُ السلامة ، وترك الملامة على النجاة علامة ، وأما حالى فما[3] علمتم مُلازمَ كِنْ ، ومَبْهُوظَ[4] تجربةوسن ، أُرجِّي الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام ، خالى اليد ، ملء القلب والخَلَد ، بفضل الواحد الصَّمد ، عاملٌ على الرحلة الحجازية[5] التى أختارها

(١) فى نفح الطيب : واطفأ هذه الجمرات يرمى ... ...
(٢) فى نفح الطيب : وأنا به .
(٣) فى نفح الطيب : فكما .
(٤) فى نفح الطيب : ومهبط .
(٥) هذه العبارة تدل على أنه كان فى نية ابن الخطيب تادية فريضة الحج .

لكم ولنفسى ، وأصِلُ فى التماس الإعانة عليها يومى بأمسى ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوصُ المشهور ، وما أطلتُ فى شىء عند قدومى على هذا الباب الكريم إطالتى فيما يختص بكم من موالاته وبذلُ مجهودِ القول والعمل فى مَرْضَاته ، وأما ذكركم فى هذه الأوضاع فهو مما يُقِرُّ عين المَجادَة ، والوظيفة التى ينافس فيها أولو السيادة ، والله يَصِلُ بقاءكم ، وييسر لقاءكم ، والسلام .

وخاطبت أبا الحسن القرمونى من خدام السيادة الخطيبية ، ولما وقعت إليه الإشارة حكاية بتونس أيام استيلاء الملك المرينى عليها :

حملنى أعزك الله على قصدك ، وتحقيق رصدك ، ما حدَّثوا بتونس عن يوم فَصْدك ، وأن العاقل ودَّ يومئذ أن يكون حجّاما ، ولا يعرف أسراجا فى ابتغاء الفضائل ولا لجاماً ، ومصّاصا ، ولا يعرف امتيازا بالمعارف ولا اختصاصا ، إلى ليلاتك التى فضحت الظُّلَم ، وأمست ليالىَ فى سَلَم ، وأضحت لشهرتها نارا فوق علم ، إذ باتت العيدان مصطفةً اصطفافَ الهدْى ، آخذةً ما بين رأس (٥٢ و) السرطان إلى رأس الجدْى ، وقلتُ نفسٌ لا تدينُ بالإمساك ولا تلين لوعظ النساك ، لا بد تحت هذه السفرة من نفاضة ، وحول هذه الزرة من قراضة ، فلما رأيتك رأيت مخيلةَ رجولة ، فى طلعة مقبولة ، وعلمت أن اختصاص سيدنا باستعمالك ، وعدم إهمالك ، قبول لشهادة مُزكِّيك ، وبيانٌ يرفعُ التشكيك ، فاستعنتُ بعزك وطعنك وضربك ، وقد بلغنى جميل بلائك وإن كان ضعيفاً ، لكنَّ الله سبحانه وله المثل الأعلى يقبل رغيفاً والشكر واجب ، والعمل الصالح لا يحجبه عن الرُّقىِّ حاجب ، فخاطبتك شاكرا ، وبفضل ما صدر عنك ذاكرا . والسلام .

وقلت أخاطب صاحبه محمد بن نوّار من الخدّام وقد أعْرَسَ ببنت مِزْوَار[1]

---

(١) يقال إن كلمة مزوار ، كلمة بربرية معناها الابن البكر ، غير أنها لم تلبث أن تطورت واستعملت بمعنى رئيس لجماعة أو طائفة مثل نقيب الأشراف أو الحاجب أو رئيس المؤذنين ورئيس الدخلة وأحيانا رئيس الجند

الدار السلطانية وهو معروف الوسامة وحسن الصورة[1] :

إنْ كُنْتُ فِي العُرْسِ ذَا قُصُورٍ فَلَا حُضُورٌ ولا دِخَالَهْ
يَنُوبُ نَظْمِـي مَنَابَ كَبْشٍ[2] والنَّثْرُ عَنْ قُفَّةِ النُّخَالَهْ

هنَّاكم الله دعاء وخَبَرا ، وألبَسَكم من السرور حَبَرا[3] ، وعوَّذَكم بالخَمس ، حتى من عين الشمس ، فَلَعمرى لقد حصلت النسبة ، ورضيتْ بهذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوارُ ذَوَاقَه ، كيف لا يَشُقُّ البدرُ أطواقَه ، وينشىء[4] القَبولُ عليه رُوَاقَه ، وأنتم أيضاً بركانُ[5] جمال ، وبقيةُ رَسْمَال[6] ، ويمينٌ فى الانطباع وشِمَال ، بمنزلكم اليومَ بدرٌ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله استقلال ، فأنا (٥٢ ط) أهنيكم بتَسَنِّي أمانيكم . والسلام .

ومن المنثور رسالةٌ سميتُها قَطْعَ الفَلَاةِ ، بأخبار الولاة :

بات عندى أحد الشرفاء ممن شأنهُ انتيابُهم ، فأجرى ذكر جميعهم وميَّزَ بين أدناهُم ورفيعِهم ، فَضَمَّنْتُ ذلك الكلام [المُحَبَّر][7] وسميته بما ذكر ، ونصها :

حدَّثَ مَنْ يَنْظِمُ فوائدَ[8] الأخبار فى سِلْكِ قَصَصِه ، ويدوس حيَّاتِ الطُّرُق بأخمصه ، ويطارد شوارد المكارم فَتُصْبِحُ من قنصه . فقال :

= راجع (محمد بن جعفر الكتانى : كتاب سلوة الأنفاس ج ١ ص ٩٣) راجع كذلك :
J: Hopkins: Medieva Muslim Government In Barbary P. 94 — 96 (London 1958)

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٤) .

(٢) فى نفح الطيب : تيس — والشين فى الأصل غير منقوطة .

(٣) فى الأصل : جبرا والتصويب عن النفح

(٤) فى نفح الطيب : وينشر .

(٥) رسمها فى الأصل : أركان — بغير نقط للباء — والنفح بركان — وبركان بفتح الباء وتشديد الراء المفتوحة نوع من الأكسية — وربما كان هو المعنى المراد .

(٦) فى نفح الطيب : رأس مال .

(٧) وردت فى الأصل هكذا : المحد ، ولعلها المحبر .

(٨) ربما تكون كلمة فرائد هنا أحسن استعمالا .

فبينما أنا فى بعض الطرق وقد وَصَلَتْ الهاجرة ، وتبرجت المفازةُ الفاجرة ، وسَوْرَةُ القيظ ، تكاد تَمَيَّزُ من الغيظ ، وشَهْرُ ناجر[1] ، قد أخذ بالحناجر ، والشمس قد ركبت سَنام خط الزوال ، ومُدْرَجَةُ الصَّبا قد ضنَّت بالنوال ، وصمتت عند السؤال وقد تشاجرت الجنادب ، واحتفلت لِغَنَائِها تلك الولائمُ والمآدب ، وتباعدت من الفضاء الأخرقِ المناكب ، ومدَّت نسيجَ الآل[2] العناكب ، والطِّيَّة تُطَفِّفُ فى المسير ، والمطيةُ قد سئمت الذَّرْعَ والتكسير ، والظل مرامهُ من العسير ، والماء بمنزلة الأكسير ، إذ رُفعت لى على البُعد سَرْحَةٌ[3] فريدةٌ عن اللِّدات[4] ، والوشائج[5] المولَّدات ، فهى فى المجهل شامة ، وللركائب رُكْنٌ مُسْتَلَمٌ بشامة ، كأنها فى جلد اليباب[6] شامة ، فَمِلْتُ إلى سَمْتِها وانحرفت ، وثنيتُ العِنَانَ نحوها وصَرَفت ، فما كان إلا فُوَاقُ[7] حَرْف[8] ، لا بل ارتدادُ طَرْف ، حتى غشيتُ منها عَقِيلةَ فَلَاة ، وخِدْرَ سِعْلاة[9] ، ذات عمودٍ سام ، وطُنُب تكنف بنى حامٍ وسام ، ظَلَّلت (٥٣ و) من الأرض حجراً مدحوّاً[10] ، ومُهْرَقاً[11] من حروف المرو مَمْحُوّا ، ودَمْثاً سهلا ، ورحبا

---

(١) الناجر : كل شهر من شهور الصيف لان الإبل تنجر أى تعطش فيه .

(٢) الآل : السراب .

(٣) السرحة : كل شجرة طالت وجمعها سروح .

(٤) يريد أن يقول : إنها طويلة عن زميلاتها

(٥) الوشيج والوشائج : الاشجار المتشابكة الاغصان .

(٦) اليباب ، الخراب ، يقال يبب المنزل أى جعله يبابا أو خرابا .

(٧) الفواق (بضم الفاء أو فتحها) ما بين الحلبتين من الوقت ، وقيل ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع وقيل تجشأ الناقة بعد الشرب ، وتكنى الكلمة بسرعة الزمن ومثال ذلك قولهم « أمهلنى قدر فواق حالب » .

(٨) الحرف : الناقة الصلبة الجسم .

(٩) السعلاة والسعلاء والسعلى ، أنثى الغول وجمعها سعالى وسعليات ، يقال استسعلت المرأة صارت كالسعلاة خبثاً وصخباً ، حول كلمتى غول وسعلاة ، راجع (المسعودى ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ — ١٦٤)

(١٠) مدحواً أى منبسطاً يقال دحا الله الأرض أى بسطها

(١١) المهرق ، إسم مفعول من أهرق ومعناه الصحيفة أو ثوب من الحرير الأبيض يسقى بالصمغ ويصقل ثم يكتب فيه ، أو الصحراء الملساء تشبيها لها بالصحيفة . والجمع مهارق .

وأهلا ، وشيخاً وكهلا ، وعلماً وجهلا ، هَرِمَةً مسنةً ، تتخلل سماءَها الخصراء شُهْبانُ أَسِنَّة ، وتتشبث بأهدابها أرسانٌ وأَعِنَّة ، وتموج فى ظلها إنْسٌ وَجِنَّة ، كأنما ضربت الصخرةَ الصَّمَّاء بعصاها ، فأطاعها العذبُ الفُراتُ وما عصاها ، فانساب بين يديها ثعبانٌ يُرَاعُ له وهادٌ وكُثبان ، يشف حشاه عن حصًى تُغَلِّطُ العارفَ من الصيارف ، وتوهم الأمْلِيَاء[1] انتهابَ نقودها والغوانى انتثارَ عقودِها ، لاتستطيع الجوارحُ مُصابَرَةَ خَصَرِه ، ولا يماثله الشهدُ بمُجاج معتصِره ، فحَيَّيْتُ الجمعَ بأحسنَ تحياته ، وأتحفت الروح من ذلك العذب البَرُود بحياته ، وتَلَوْتُ « كذلك يُحْيِي اللهُ الموتى ويُرِيكم آياتِه »[2] ، وقلت حَيَّاكِ اللهُ من خميلة ، وفاتنة جميلة ، وتمثلت بقول ابن قاضى ميلة[3]:

وَقَانَا وَقْدَةَ الرَّمْضَاءِ روْضٌ . . وقاهُ مضاعفُ الظِّلِّ العَمِيمِ
قَصَدْنَا نَحْوَهُ فَحَنَا علينا حُنُوَّ الوَالِدَاتِ عَلَى اليَتِيمِ
يُرَاعِي الشَّمْسَ أنَّى قَابَلَتْنَا فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذَنُ للنسيمِ
وسقَّانا على ظَمَإٍ زُلالاً . . أَلَذَّ مِنَ الشَّرَابِ مَعَ الكَرِيمِ

---

(١) الأمليا : جمع ملىٍ أى الذى طال عمره واستمتع به ووسع له فى رزقه والمقصود هنا الأغنياء .

(٢) آية رقم ٧٣ سورة البقرة .

(٣) ابن قاضى ميلة ، هو أبو عبد الله محمد بن قاضى ميلة . أحد شعراء المائة الخامسة ومن شعراء الذخيرة ورايات المبرزين . وكان يسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات وقد اعتبره ابن سعيد المغربى فى عداد شعراء صقلية . أما ميلة (بالكسر) التى نسب إليها فهى مدينة صغيرة بالقرب من بجاية بالجزائر ، ومن شعره الذى تمثل به ابن الخطيب بهذه الأبيات التى فى المتن :

وحل الركب والمشوق مقيم . كيف يسرى مع الصحاح السقيم

ومن أقواله الجميلة أيضاً :

إذا اهتزت نهود فى قدود فقل للحلم قد ذهب الوقار
وتعجبنى الغصون إذا تثنت ولا سيما وفيهن الثمار

راجع (ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ٤٨ — ٤٩ ، نشر ابراهيم الابيارى وحامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥٤) راجع كذلك (رايات المبرزين لابن سعيد المغربى ، نشره وعلق عليه وترجمه إلى الأسبانية المستشرق الأسبانى غرسيه هومز تحت عنوان : .

Garcia Gomez : El libro de las Banderas de los Campeones de Ibn Said El — Magribi p. 111,(Madrid 1942)

يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ العَذَارَى فَتَلْمَسُ جَانِبَ العِقْدِ النَّظِيمِ

وكان في جملة من اغتنم المقيل ، واستنصر على عدو الظمأ ذلك العَضْب الصَّقيل ، وألمّ بالنوم الخفيف على الرَّحْلِ الثقيل لأَئث[1] (٥٣ ظ) عمَّة على همَّة ، ومستظهر بِوَفرٍ وَذِمَّة ، وَرَعْيِ ذمة ، قد عبث الوَخْطُ منه بِلِمَّة ، وجلَتْ منه الخلَّةُ عن كاشِف مُلِمَّة ، بين يديه عِتَاق قُود ، وعبيد «تَحْسَبُهُمْ أَيقَاظاً وَهُمْ رُقُود»، فاشرأبَّ عند سماع إنشادي ، كما يشرئبُّ الرِّيمُ[2] ، وهزت حُمَيَّا الأدب منه عِطْف كريم ، وصاح بصوتٍ جهير ينبيء عن منصبٍ شهير : من هذا الطارق ؟ ومتى أَوْمض هذا البارق ؟ إني لآنسُ مخيلة ، غير بخيلة ، وأنظرُ إلى مَظِنة ، غيرِ ذاتِ عنة ليَدْنُ مِنّي جُؤارك ، ويُرْعَ جوارك ، ويفتّح نوّارُك ، وتتألق أنوارُك ، ولم يزل يحَاجِيهِ ويُبَسْمِل ، ويُيَسِّرُ ويُجَمِّل ويرعى ولا يهمل ، فلما دَنَوْتُ من مِهَادِه ، وركضتُ في رُبَى الحديث ووهاده، وأَصَبْتُ من زاد طريقه ، وانخرطت في فريقه ، وأطرفتني[3] بأحاديث تغريبه وتشريقه ، سفرمنه الاختبارعن نِجَارٍ هاشمي ، وكَرَم حاتمي ، ودارٍ فاسي ، ومنصبٍ رياسي . ولمّا انخفض قرنُ الغزالة ، ولآنَ طبعُ الهواء من بَعْد الجزالة ، ولم يبق من عمر اليوم إلا القليل ، وَرُقْيَةُ النسيم تتردد على الأصيل العليل ، وهو يجود بنفسه ، ويسلك مسلكَ أمسه ، والغرب يبتلع قرصَةَ شمسه ، فَهُنَا نَقْضِي الدَّيْن ، ونُقلِّدُ رَقْمَ العِذَارِ كلَّ أَسِيل الخدَّيْن، ونغتنم ثاني الأبردين ، فرفعت الرحال من فوق الظهور ، وسرنا بنَصِّ[4] السير على المذهب المشهور ، وتركنا البينات[5] إلى جادة الجمهور ، وقلت أيها الرفيقُ البَرُّ الصحابة ، الأغرُّ السحابة ، إن الشُقَّة بعيدة ، والمَشَقَّةَ مُبْدِيَةٌ مُعيدة ، ولا (٥٤ و) يُستعان على المراحل إذا سطت واستطالت ، وليالى السُّرى إذا تَمطَّتْ وطالت ،

---

(١) في الأصل لابث ، وصحتها لائث من لاث العامة أى لفها .

(٢) الريم والرئم : الظبي الابيض وجمعه أرآم وآرام .

(٣) كذا ولعل صحتها . واطرفني أو اطربني .

(٤) النص : ضرب من السير السريع .

(٥) كذا ولعل صحتها البنيات (بضم الباء وفتح النون وتشديد الياء) أى الطرق الفرعية .

إلا بتقارب الأخبار المنقولة ، والآداب المهذبة المصقولة . فقال : أثرِ الكامن ، وازجُرِ الميامن ، وابغ الفَلَك الثامن ، واطلبْ غريم الغرائب ، وأنا الضامن . قلت : أفسح لي مجالَ غرضك ، واشرح لي معنى جَوْهَرِك وعَرَضك ، وَطِيَّةَ سفرك وعَوْدكَ بظَفَرِكَ إلى نَفَرِك . فقال أنا كالشمس أَجُوبُ هذه المنازل مرة في كل سنة ، وأُحصِي كلَّ سَيئَةٍ وحسنة ، أطوى الفلاة ، وأُبَهْرِجُ الوُلاة ، فهم يرقبون النَوْبَةَ ويتوقعون الأَوْبَة ويستعدون لخروج دابتي التي تُكلِّمُهم بالإقلاع والتوبة ، فأُسعِطُ الأنوف ، وأنتزع حتى الشنوف[1] ، وأُحكِّمُ لساني فيمن ينساني ، وأجود بظلِّ نيساني مَنْ يُقرِئُ إنساني ، وأداول بين إساءتي وإحساني . وأتصدى للهدية الوِدِّية ، وآنفُ من العطية البَطِيَّة ، وأُوسِعُ البخيلَ هَجْرًا وأُسمِعُه هُجْرًا[2] . وأُقَرِّظُ مَنْ كَرُمَ نَجْرًا[3] ، وَوَضح فجرا ، « قُلْ لاَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا »[4] . فلاأزال أطلق عنانَ الصولة في جوالجولة ، مُستظهراً بوسيلة البيت ومنشور الدولة ، أَسْلُو الخاملَ في تَرَفُّهِ النبيه ، وأحكُم للشبيه بحكم الشبيه ولا أقبل عذراً لبطيء ولو شغلته خِفَارَةُ أبيه ، أهجم هجوم السيل بالليل ، وأُجرُّ على البيوت فضلَ الذَّيل ، وأَتقَلَّبُ تَقلُّبَ الفَلَكِ بين الاستقامة والمَيْل ، وأَزِنُ كل بضاعة فأبْخَسُ في الوزن أو أُطففُ في الكيل ، وأُغررُ غرة (٥٤ ط) الصباح بغرر الخيل ، ولو على حي عامر بن الطفيل[5] ، وأرحل عن الحلة وقد هَمَدَتْ بعد

---

(١) الشنف : ما علق في الأذن أو علاها من الحلي ، وجمعها شنوف وأشناف .

(٢) الهجر (بضم الهاء) القبيح من الكلام .

(٣) النجر : الحسب والأصل .

(٤) الآية رقم ٢٣ سورة الشورى رقم ٤٢ .

(٥) عامر بن الطفيل بن مالك من شعراء الجاهلية وأشهر فرسانها ،وكان يلقب بملاعب الأسنة . وفد في أواخر أيامه على النبي ولكنه لم يسلم ، وله ديوان في الفخر والحماسة جمعه أبو بكر الانباري وطبعه شارل لايل Layall (لندن ١٩١٣)

وكان حي عامر بن الطفيل من أقوى الأحياء منعة في أيام الجاهلية .

راجع أخباره في (أبو منصور الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٧٨ — ٧٩ ، القاهرة ١٩٠٨) .

ارتجاجها، وَسَكَنَتْ قَساطِلُ عَجَاجِها[1] ، وَصَمتَ أذينُ دَجاجِها . وَفَلِيَتْ[2] على الحرس رءوسُ مَحاجّها . وأعودُ والصُّرة لا يجتمع مِغْلاقُها ، والبِدْرَةُ لا يُقِلُّها مِغلاقُها ، والعِيَابُ[3] ، يَصْعُبُ معها الإياب ، وتبرز من خلال أستارها الثياب ، والخيل تمرح فى الأرْسَان ، وتختال فى السُّروج المحلاة والجِلاَلِ[4] الحسان . قلتُ لَعَمْرى لقد اتصل نطاق الكلام ، وطال مدى التلاوة بين هذه الإقامة والسلام ، فأعرِضْ لِى القوم عرضاً ، وصِف الموارد عَمْداً وفرضاً ، وميز الهمم سماءً وأرضاً ، وأخبِط العُصاةَ بعصاك حتى ترضى . فقهقه قهقهة الشقشاق ، وتأوه تأوه العشاق ، وكأنما كانت حاجةً فى نفسه فقضاها ، وعزيمةً يتجاذ بها الكسل فأمضاها ، فشام نصاله وانتضاها وقال خذهم بالتلابيب واجتثهم[5] بِحُجَزِ الجلابيب ، وَعِثْ عَيْثَ الغزالة[6] وَشَبِيب فى كل عرف وسيب[7] ، وابدأ بمن تريد . وارسل شهابَ فكرك خلف كل شيطان مَريد ، وَمَنْ غاب عنك فخيل البريد . قلت : الحضرة وجُباتها ، والمزرعة العظمى ونباتها وأفْتَتِحُ الصرائمَ بمحمد بن أبى القاسم . فقال : شيخٌ موقَّرٌ ، والمنصب مالم يصُنه مُحقَّر ، مُرْعٍ على رُتب الخدمة . قديمُ الاصطناع والنعمة ، مؤتمنٌ على الحساب منتبسٌ للأمانة أتمَّ الانتساب ، نبيهُ العَقَار والاكتساب، مُوجِبُ حقَّ أُولِى الأحْسَاب (٥٥ و) قلت (بياض) قال فارسُ زِمام ، ومتمسك بذمام ، ومُصَلٍّ خلف إمام .

---

(١) القسطل والعجاج : غبار الحرب .

(٢) فلى (بكسر اللام) يفلى أى انقطع .

(٣) العياب بكسر العين أى الزنابيل أو الحقائب ومفردها عيبة .

(٤) الجلال جمع جل وهو الثوب الذى يكسى به الفرس .

(٥) كذا ، ولعل المعنى يستقيم إذا كانت : واختنقهم .

(٦) الغزالة : امرأة خارجية ظهرت فى العراق أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكذلك كان شبيب ابن زيد من زعماء الخوارج وله حروب كثيرة مع أمراء بنى أمية ومات غريقاً عند جسر دجيل الاهواز .

(٧) لعله يقصد بلاد السيبة وهى البلاد التى كانت لا تخضع لنفوذ الحكومة أو المخزن فى بلاد المغرب .

يناقش ويدقق ويعاود ويحقق ، وهو عن الصَّبوح يَرقَق[1] . فغريمه مُتعَب . مهما عسَّر وصَعَّب ، واستوفى واستوعب :

كَعُصْفُورَةٍ فى كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا تَرودُ حِيَاضَ المَوْتِ والطِّفْلُ يَلْعَبُ

وعلى الرتبة الشماء . والخُلُق اللطيفة كالماء ، فبينه وبين ابن عمّه ريحانة الكرماء وشهاب الظلماء ما بين الحروف والأسماء ، لا بل بين الأرض والسماء :

وَقَدْ يُسَمَّى سَمَاءً كُلُّ مُرْتَفِعٍ وإِنَّمَا الفَضْلُ حَيْثُ الشَّمْسُ والقَمَرُ

قلت (بياض) قال : خدوم ، وقاضى سَدوم[2] ، وموجود معدوم ، مَخِيلُ بالنُّبْل ، ومحيد عن السُّبُل ، ويخلط أرضا وسماء ، ومُسَمّياتٍ وأسماء ، يحسَبه الظمآن ماء . قلت : فابن القوار ؟ فقال : شختور يسبح ، وقصاب يذبح ، وتاجر فى كل نفس يربح ، انسحب عليه القبول من لَدُن صباه ، وصاح به الجَدُّ فلبَّاه ، شأنه الدهر غمزٌ وإشارة ، ونِذارة وبشارة ، محظوظ مجدود ، عِقْدُ حرصِه مشدود ، وهو فى الكفاةِ معدود . قلت (بياض) ؟ قال : فارة ، وقضاء وكفَّارة ، « وبَقِيَّةٌ مما ترك آلُ موسى وآلُ هرون » تحت غفارة ، وبعوضة فى الآذان ، تغنى عن الاستئذان ، وتطرُق حتى سُباتِ الإقامة والأذان ، قادرٌ على تلفيق الثبوت ، (٥٥ ط) وحملِ اليهود على نسيان السُّبوت ، يرى الحكمة خَبِيئَةَ جَيْبِه ، ويشتغل بعيُوب الناس عن عيبه . قلت : فابن جَدار ؟ قال : ألوفٌ ودود ، أنوف عن الخُبْث صَدود ، محسوبٌ من الأسرياء معدود ، كثير الهشاشة والأريحية ، مبذول المشاركة شائع التحية ، بادى النُّبلِ والظَّرفِ ، مُؤْتَمِرٌ لوَحْيِ الطَّرف ، عدةٌ للعدل والصَّرف ، يَنظِمُ الأبيات ويُوَضِّح من الفضل الغُرَرَ والشيات[3] :

---

(٢) لعل الكلمة تحريف لسدم يقال رحل سدم أى الكثير الغيظ والحزن والهم ، أو لعلها مدينة سدوم Sadoum التى كانت مدينة لوط بفلسطين والتى أمطرها الله ناراً قصاصاً على خطايا أهلها .

(٣) الشيات : جمع شية أى الزينة والحلية .

عَلَيكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ ذَكِيٍّ   أديبٍ فى شَمَائِلِهِ حَرَارَة
تُشِيرُ لَهُ بِلَحْظِكَ مِنْ بَعِيدٍ   فَيَفْهَمُ طَرْفُهُ عَنْكَ الإشَارَة

قلت : فالوالى ابن الربيب[1] ؟ فشد خَيْشُومه ، واستدفع بيمن الله شُومَه ، ثم قال : الروض الأُنُف ، محتاجٌ إلى الكُنُف[2] . إعلم أننى على طول تجربتى ، وتكرر تشريقى وتغريبى ، لم أعثر له على شبيه ، فلعنة الله عليه وعلى أبيه ، الجَهْلُ والرُّعُونة ، والطلّعة الملعونة ، والخيانة التى يَعرِفُها الوجود ، واليد التى فى غير الخَنَا[3] لا تجود ، نار الخيانة التى تأكل فى اللحظة الواحدَة بحطامها ، وخنجر الأمانة الذى يقد حبالها ، المارنُ على النكال والعقاب ، المخلُّ بالألقاب ، الخاملُ البيت والهمة ، الكثيرُ الذّام القليل الذمة ، ولله درُّ أبى محمد العلكوم ذى العارض المركوم حيث يقول :

لِأَبِى الفَضْلِ بنِ الرَّبِيبِ خِلاَلٌ   شَهِدَتْ بالوَفَاءِ والفَضْلِ فِيهِ
سَاقِطُ الأَصْلِ عَاهِرُ الفَرْجِ مُذْ كَا   نَ سَفِيهاً قد بَذَّ كُلَّ سَفِيهِ
ذِى مُحَيًّا مِنَ الحَيَاءِ عَدِيمٍ   وَقَفًا ممتلٍ وشَكلٍ كَرِيهِ
سُلْحُفَاةٌ قد عُمِّمَتْ وجراز[4]   فى رداءٍ مُوَشَّعٍ يَلْوِيهِ
يَحْمِلُ السَّرْجُ منه دَنَّ رَجِيعٍ[5]   يَعرِفُ النَّاسُ ذَوْقَهُ مِنْ فِيهِ
حَجَّرَ اللهُ جُودَهُ ونَدَا كَفَّيْــهِ إلاَّ عن أسْوَدٍ يَشْفِيهِ
فهو لا يَسْتَكِفُّهُ مِنْ بَلاءٍ   ومجابى البلاد لا تَكْفِيهِ
قلتُ للنَاسِ والسُّؤَالُ شِفَاءٌ   وَهُوَ قِدْماً شأنُ النبيلِ النَّبِيهِ

(١) راجع الحاشية السابقة ص١٢٩ حاشية ٣ عن ابن الربيب .
(٢) الكنف : جمع كنيف أى المرحاض .
(٣) الخنا : الفساد .
(٤) الابل الأكول
(٥) الدن : هو زق الخمر والرجيع هو القىء او الروث .

لِمَ يُدعى بابنِ الرَّبيبِ فقالوا كَانَ يَزْنِي بِأُمِّهِ ابنُ أَبِيهِ
أَبْعَدَ اللهُ ذَلِكَ الوَجْهَ مِنْ كُلِّ مَقَامٍ بَرٍّ وَقَدْرٍ وَجِيهِ
وكأنى به وقد بَتَرَت[1] منـــه يَدُ الذُّلِّ غَلْطَةَ التنويهِ
تنزع السِّتْرَ عنه سَخْطَةُ رَبٍّ لم يَدِنْهُ يَوْماً بِمَا يُرْضِيهِ
قَدْ أَهَالَتْ منه السِّيَاطُ كَثِيباً وأَلَمَّتْ رَمْلَهُ رِيَاحُ التِّيهِ
وَرَسَتْ مِنْهُ فِي الأَدَاهِمِ رِجْلٌ ودَّعَتْهَا نَضَارَةُ التَّرْفِيهِ
كَانَ عَاراً عَلَى الوُجُودِ ومَنْ يُبْـــلَى بِعَارٍ وَكَيْفَ لاَ يَخْفِيهِ ؟
عَادَةُ اللهِ كُلَّمَا اعْتَزَّ بَاغٍ بِضَلاَلٍ فإنه يُكْبِيــهِ

قلت (بياض) قال شُعْلَةٌ منْ ضِرَام ، ودُمَّلٌ من أَوْرَام ، ولا بد لـكل شىء من انصرام :

سَعِيدُ الدَّارِ خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ وَطَرْحُ[2] الـكَلْبِ خَيْرٌ مِنْ سَعِيدِ

قلت فوالى مكناسه عبد الله بن محمد ؟ فقال : صاحب هَدْى وسَمْت[3] وطريقةٍ غير ذاتِ عِوجٍ ولا أَمْت[4] ، متصفٌ بعفافٍ ، واشتمالٍ (٥٦ ط) بالطهارة والتفاف ، مع عدل وإنصاف ، وامتياز بالخير واتصاف ، مُعْتَدُّ الجود ، واضعٌ إياه فى ضرورات الوجود ، كثيرُ الضيف ، مُطْعِمٌ فى الشتاء والصيف ، أَمِنَ جارُه من الحيف ، يرعى الوسيلةَ ولا ينساها ، ويصل مَغْدَى الصنيعة بِمُمْسَاها ، فإذا ذكرتَ الخيار فاذْكُرْهُ فيها ، وحَسْبُ الولاية به فخرا ويكفيها ، لا تسمع النجوى مجالسُه ، ولا تَضُمُّ الخنَا سقائفه . قلت (بياض) فقال : إِنْهَدْ ، وفى غير الـكبار لاتجْهَدْ ، ودَعْنَا من الحضيض الأَوْهَد ، فالأمر أَزْهَد ، ولا تَعُد إلى مثلها والله يشهد . قلت : (بياض) وهو لعمرى

(١) بترت : أى قطعت .
(٢) الطرح : الجنين الذى طرحته أمه قبل التمام .
(٣) السمت : الطريق المستقيم ، والمراد هنا أنه لزم طريق الاستقامة والهدى .
(٤) الأمت : الضعف .

مسلس القياد ، وجنيب جياد ، فلم يَفُهْ بِبِنْتِ شفه ، لا أدرى ، أ بِرِضًى أم أنَفَه .
قلت : فزكريا بن يحيى ؟ قال : مُقيمُ رَسْم ، وممتازٌ من الشهرة بوسم ، ورجلٌ عاقل ، وجَالِي صفحات البرّ وصاقل ، ومتماسك عن الغاية متثاقل ، لا بفصاحة سَحْبَانَ ولا بِعِيٍّ باقل ، يروقك لقاؤه ، ويُعْجِبُك خوانه وسقاؤه ، ويُثنى على خُلُقِه أصدقاؤه .
قلت : فأخوه الأحسن بأزمور؟ قال : دُرَّةُ بيتهم ، وغُرَّةُ كُمَيْتِهِم ، ومشكاةُ زيتهم ، منزلُهُ مُتْرَعُ جِفَان ، ومحطُّ ضيفان ، يركب المطية ، ويمهد الأريكة الوطيّة ، ويُتبع بالعذر اثر العطية غير البطية ، ويجدد العهد بالعصابة البَرْمَـكِيَّة ، وأخبارهم المَحْكِيّة .
قلت فوالى تيط[1] ، ابن بطان ؟ قال : كوكب سَحَر ، وكريم قرى ونَحَر ، وأَبْهَتَ وسَحَر ، ماشئت من ترتيب وتقدير ، وخليق بالبر جدير ، وروض وغدير ، وخَوَرْنق (٥٧ و) وسَدِير ، هذّب الأدبُ خُدَّامه ، وأطاب الاحتفال خبزه وأدامه ، إلى عطاء يحسب الأمل ، ويثقل الناقة والجمل ، عَضَّه الدهر فما عضَّ من طباعه ، واستأثر بماله ورباعه ، وتركه فريسة بين سباعه ، فما حطَّ من همته ولا قصَّر من باعه :

وطَالَمَا أُصْلِيَ اليَاقُوتُ جَمْرَ غَضًى ثُمَّ انْطَفَى الجَمْرُ واليَاقوتُ يا قوتُ

قلت ، فمشرف دُكَّالة[2] اللحائى[3] ؟ قال : أمين ، وذخر ثمين ،وشمال للنصيحة

---

(١) تيط Tit ومعناها بالبربرية عين ، وتطلق على عدة أماكن فى المغرب نذكر منها تيطوان أى العيون السبعة ، وتيط مليل ، وتيط نطفر وهى المقصودةهنا وهى مرمى مغربى قديم على ساحل المحيط الأطلسى فى إقليم دكالة جنوبى مدينة الجديدة «مازيغان» بنحو عشرة كيلو مترات ، ولا أهمية لها اليوم .

راجع « العبدى : آسفى وما إليه ص ٤٤ وما بعدها » ...

(٢) دكالة اسم قبيلة وولاية من ولايات المغرب الأقصى فى منطقةالحوز الخصبة التى يحدها المحيط الأطلسى غربا ونهر أم الربيع شرقا واقليم مراكش جنوبا ويشقها نهر تانسيفت والأودية المتفرعة منه ، وكانت دكالة فى القديم تشمل ما يسمى الآن بدكالة وعبده . وقد أعطانا ليون الأفريقى «الحسن الوزان» معلومات مفصلة عن مدن هذه المنطقة وحصونها وعادات أهلها . راجع كتابه (Descripcion de Africa p' 78—82)

كذلك « العبدى : آسفى وما إليه ص ٤٥ »

(٣) كذا فى الأصل ولعلها اللجائى أو الجائى أو اللحيانى وهى أسماء معروفة بالمغرب

ويمين ، أى صدر سليم ، وتفويض وتسليم ، وسَرْوٌ[1] عميم ، ومَرْعى للفضل جميم ، يَقْنَعُ بالمُصَاصة ويؤثر على الخصاصة ، ويحافظ على القُلامة والقُصاصة ، قلت (بياض) قال : لفظ بلا معنى ، وشجر بلا مَجْنَى ، مُرُوَّتُهُ سقيمة ، وسَرَوَاتُه عقيمة ، مدين ، الحرمان له خدين[2] ، لا يُحمد قِراه ، ولا تُمسكُ البُلالة ثراه ، وإن تسمع بالمُعَيْدىّ[3] لا أن تراه . قلت : فالغفارى بمرّاكش . قال : حمُول الكلفة ، كثير الألفة ، أخلاقه وَطِيَّة ، وهو قَعود ذَلولٌ ومطية . قلت فالوالى الكبير محمد بن أبى العلى ؟ قال: سورة الفضل والكمال ، ومعنى الجلال والجمال ، وسيف الجباية والمال ، وحجُّ العفاة[4] وكعبة الآمال ، العفّ الإزار ، ذو المواهب الغزار ، ماشئت من حياء ووقار ، واهتضام للعرَض الأدنى واحتقار ، يَهبُ الجزيل ، ويكرم النزيل ، ويحكِّم السنة والتنزيل ، اسم لو سبق الزمانَ زمانُه ، وانتظم فى سلك العهد المتقادم جُمانه ، لَمَا كان لكعب[5] من عُلُوٍّ كعب ، ولا ساعد ابن سُعدى[6] ذكر ، ولا أُعمِلَ فى (٥٧ ط) مدح هرم بن سنان فكر ، ولَطُوِىَ حاتم[7] طى فلم تأخذه يد النشر إلى الحشر ، ولا عُمِلَت فى أخباره يد الإضراب والبَشْر ، فهو العامل العالم ، والعادل الذى تُكَفُّ به المظالم ، والبحر

---

(١) السرو : الفضل والسخاء فى المروءة .

(٢) الخدن والخدين : الحبيب والصاحب للمذكر والمؤنث . والجمع أخدان .

(٣) المعيدى ، شاعر مشهور أيام النعمان بن المنذر ، كان شكله قبيحاً جداً فلما زاره النعمان قال فيه هذه العبارة التى صارت مثلا .

(٤) العافى : كل طالب فضل أو رزق ، وجمعه عفاة وعافية ، يقال : كثرت على الكريم عافيته .

(٥) لعله يقصد كعب بن مامه الايادى الذى يضرب به المثل فى جوده لأنه فى ساعة العطش فى القتال سقى صاحبه ما لديه من الماء ومات عطشاً

(٦) لعله يشير بذلك إلى كعب بن سعدى وهو من الشخصيات التى ضرب بها المثل فى الجود والكرم ، وقد ورد ذكره فى قصيدة لجرير يمدح فيها الخليفة عمر بن عبد العزيز :

فما كعب بن مامة وابن سعدى   باجود منك يا عمر الجوادا

(٧) حاتم طيء جواد العرب المضروب به المثل فى الجود والكرم . وهو أيضا شاعر جاهلى له ديوان طبعه فى لندن رزق الله حسون (١٨٧٢) وطبع فيما بعد مع ترجمة ألمانية سنة ١٨٩٧ . (راجع أخباره فى الثعالبى : كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ص ٧٥ ــ ٧٦) .

الذى ما دونه بُلاله، والكفاية التى ما سواها عُلالة :

مَدَحْتُ الوَرَى قَبْلَهُ كَاذِباً ... وماَ صدَقَ الفجرُ حتى كَذَب

فإن طرقتَ منزله هشَّ ورحب، وتبسط جالبا للأنس وتسحب، وحكَّم كماله، وألقى قبل الوسادة ماله، فهو حسنة الدولة الغراء، وطِرَاز حُلّتها السِّيَرَاء، وحديثها المنقول، وصفيحها المصقول، ولله درُّ الذى يقول :

سَلِينِي عَنِ النَّدْبِ وَالِي الوُلاَةِ ... فإِنِّي عَلَى وَصْفِهِ قَادِرُ

مُخَدَّرَةٌ فى سَبِيلِ الحَيَاءِ ... ويَوْمَ الوَغَى أسدٌ خَادِرُ

ولما بلغ هذا الحد كأنما كان ثوب الحديث على جسد الرحلة ممدودا، وعدده مع أميالها المحسوبة معدودا، أتى السير منه على القواعد والفروق، وانتهب عمر الليل إلى الشروق وكان آخره بباب المحروق، وجعل كلٌّ وَجْهَه إلى داره، وعاد إلى مركزه عَقب مداره، وعَلِق بقلبى كلامُه، فاستقر فى اختزانه، فأنا أزن القوم بميزانه، والله يتغمد ما يُوَاقعُه العبد من هفوة لسانه، ويغطّى الإساءة بإحسانه.

ومن المنظوم الصادر لهذا العهد، ما خاطبت به المقام السلطانى المستعينى فى غرضى المعروف[1] :

عَنْ بَابِ وَالِدِكَ الرِّضَا لاَ أَبْرَحُ ... يَأْسُو الزَّمَانُ لأَجْلِ ذَا أَوْ[2] يَجْرَحُ

ضُرِبَتْ خِيَامِي فِي حِمَاهُ فَصِبْيَتِي ... تَجْنِي الجَمِيمَ[3] بِهِ وَبَهْمِي تَسْرَحُ

حَتَّى يُرَاعَى وَجْهُهُ فِي وِجْهَتِي ... بِعِنَايَةٍ تَشْفِي الصُّدُورَ وتَشْرَحُ

أَيَسُوغُ عَنْ مَثْوَاهُ سَيْرِى خَائِباً ... ومَنَابِرُ الدُّنْيَا بِذِكْرِكَ تَصْدَحُ

---

(١) أورد المقرى هذه الأبيات (أزهار الرياض ج ١ ص ٢٧٦) معلقا عليها بالعبارة الآتية : وقال ابن الخطيب يخاطب السلطان أبا سالم عند انقطاعه بضريح والده بشالة سلا حيث مدفن ملوك بنى مرين.

(٢) فى أزهار الرياض : لأجل ذاك ويجرح.

(٣) الجميم : هو النبات الكثير، يريد أنهم فى بسطة من العيش.

أنا في حِماهُ وأنتَ أبصرُ بالذي	يُرْضيهِ مِنْكَ فوزْنُ عقلِكَ أرْجحُ
في مِثْلِها سَيْفُ الحميَّةِ يُنْتضى	في مِثْلِها زَنْدُ الحفيظةِ يُقْدَحُ
وعَسَى الذي بدأ الجميلَ يُعيدُهُ	وعَسَى الَّذي سَدَّ المذاهِبَ يَفْتَحُ

وخاطبت السيادة الخطيبية[1] في الغرض المذكور بما نصه[2] :

برئتُ للهِ مِنْ حَوْلِي[3] ومِنْ حِيَلِي[4]	إنْ نامَ عَنّي وَلِيٌّ فهوَ خَيْرُ وَلِي
أصبحت مالِيَ مِنْ عطفٍ أؤمله	مِنْ غَيْرِهِ في مُهِمَّاتٍ ولا بَدَلِ
ما كنتُ أحْسِبُ أنْ أُرْمَى بقاصية	للهجر أقْطَعُ فيها جانِبَ المَلَلِ[5]
من بعد ما خَلَصَتْ نحوى الشفاعة ما	بين الفلا[6] والدُّجى والبيضِ والأَسَلِ
إنْ كنتُ لستُ بأهلٍ للذي طَمَحَتْ	إليه نفسى وأهْوَى نَحْوَهُ أمَلِي
فكيف يُلغَى ولا تُرْعَى وسيلتُه	دَخِيلُ قبرِ أميرِ المسلمين عَلِي
من بعد ما اشتهرت حالى به وسَرَتْ	بها الركائبُ في سهل وفي جبلِ
والرُّسْلُ تَتْرَى ولا تخفَى نتائجُها	عند التأمُّلِ من قَوْلٍ ولا عمل
ولا لليلِيَ مِنْ صُبح أطالِعُهُ	كأنَّ همِّيَ قد مدَّ الدُّجُنَّةَ[7] لِي

(١) يريد بالسيادة الخطيبية ، محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسى التلمسانى المعروف بابن مرزوق الخطيب والحاجب والرئيس ، أكبر محدثى المغرب فى القرن الثامن الهجرى . ولد بتلمسان سنة ٧١٠ هـ وتوفى بالقاهرة سنة ٧٨١ هـ وكتب تاريخا لمخدومه السلطان أبى الحسن المرينى سماه : « المسند الصحيح الحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن » نشر جزءا منه المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال فى مجلة هسبريس Hesperis V 1925 Trimestre I

(٢) أورد المقرى هذه الأبيات فى كتابيه (نفح الطيب جـ ٩ ص ٢٠٠ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٣٠٢) .

(٣) الحول : القوة .

(٤) الحيل : جمع حيلة .

(٥) فى المقرى : الأصل .

(٦) فى المقرى : العلا .

(٧) الدجنة : الظلام .

لو أنني بابن مرزوقٍ عقدتُ يدى وكان مُحْتَكِماً فى خيرة الدُّوَلِ
لكان كَرْبِىَ قد أفضَى إلى فرج وكان حُزْنِىَ قد أوْفَى على جَذَلِ
ألْمَمْتُ[1] بالعتْبِ لم أحْذَرْ مَوَاقِعَهُ « أنا الغَرِيقُ فما خَوْفِى منَ البَلَلِ »
ولَسْتُ أجحد ما خُوِّلْتُ من نِعَمٍ لكنها النفسُ لا تَنْفَكُّ عن أمَلِ
واستُ أيأس من وَعْدٍ وُعِدْتُ بِهِ وإنما « خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلِ »

وخاطبت المقام المولوى السلطانى وقد بذل نصفة وعدلا من جملة تشتمل على نظم ونثر[2] :

أنْتَ للمسلمينَ خَيْرُ عِمَادٍ وملاذٍ وأى حِرْزٍ حرِيزِ
لَوْ رَأى ماَ شَرَعْتَ للخَلْقِ فيهِ عُمَرُ الفَاضِلُ ابنُ عَبْدِ العَزِيزِ
لجَزَى مُلْكَكَ المُبَارَكَ خَيْراً وَقَضَى بالشُّفُوفِ[3] والتَّبْرِيزِ
فَاشْكُرِ اللهَ ما اسْتَطَعْتَ بِفِعْلٍ وبِقَوْلٍ مُطَوَّلٍ أوْ وَجِيزِ
كُلُّ مَلْكٍ يُرَى بِصُحْبَةِ أهْلِ العِــلْمِ قَدْ بَاءَ بالمَحَلِّ العَزِيزِ
فإذَا مَا ظَفِرْتَ مِنْهُم بإكْسِيرٍ مَلأْتَ البِلادَ مِنْ إبْرِيزِ
والبَرَايَا تَبِيدُ والمُلْكُ يَفْنَي أيْنَ كِسْرَى المُلُوكِ مع أبْرَوِيزِ

وأنشدتُ ابنى عبد الله ، وقد وصل لزيارتى من الباب السلطانى ، حيث جرايته ووظيفته ، وانجرَّ حديثُ ما فُقِد بغرناطة فى شجون الكلام[4] :

يَا بُنَىَّ عَبْدَ الإلَهِ احْتِسَاباً عَنْ أثَاثٍ ومَنْزِلٍ وعَقَارِ

---

(١) فى المقرى : ألحت .
(٢) أورد المقرى هذه الابيات فى كتابيه (نفح الطيب ج ٩ ص ١٩١ ، أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٨ إلى ص ٢٩٩) .
(٣) الشفوف هنا بمعنى الزيادة .
(٤) راجع (المقرى : أزهار الرياض ج ١ ص ٢٩٩) .

كَيْفَ يَأْسَى عَلَى خَسَارَةِ جُزْءٍ مَنْ يَرَى الكُلَّ فِي سَبِيلِ الخَسَارِ
هَدَفٌ لا تَنِي سِهَامُ اللَّيَالِي عَنْ سِبَاقٍ تِجَاهَهُ وَبِدَارِ
وَاحِدٌ طَائِشٌ وثَانٍ مُصِيبٌ ليس يُنجى منها اشتمالُ حِذَارِ
غير ذى الدار صَرِّفَ الهَمَّ فيها فمناخ الرحيل ليس بدار

وأنشدته وأمرته بحفظه والتأدب به ، واللَّهَجِ بحكمته[1] :

إذَا ذَهَبَتْ يَمِينُكَ لا تُضَيِّعِ زمانَكَ فى البكاء على المُصِيبَهْ
ويُسْرَاهَا[2] اغتنم فالقوس تَرْمِي وما تدرى أرشقتُها قريبه
وما بغريبةٍ نُوَبُ الليالى ولكنَّ النَّجَاةَ هى الغريبة

ومن المنظوم فى قريبٍ من هذا :

أيا أَهْلَ[3] هذا القُطْرِ ساعده القَطْرُ دُهِيتُ[4] فَدُلُّونى لمن يُرْفَعُ الأمرُ
تَشَاغَلْتُ بالدنيا ونِمْتُ مُفَرِّطاً وفي شُغُلِي أو نَوْمَتِي سُرِقَ العُمْرُ

وقلت وقد انصرف عني الولد إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجاني انصرافُه لوقوع قَرحة على قرح والله المستعان[5] :

بَانَ يَوْمَ الخَمِيسِ قُرَّةُ عَيْنِي حَسْبِيَ اللهُ أيُّ مَوْقِفِ بَيْنِ !
لَوْ جَنَي مَوْقِفُ النَّوى حَيْنَ حَيٍّ كَانَ[6] يومَ الوداعِ واللهِ حَيْنِي
ضَايَقَتْنِي صروفُ هَذِى اللَّيَالِي وأَطَالَتْ هَمِّي وأَلْوَتْ بِدَيْنِي
وَطَنٌ نَازِحٌ وشَمْلٌ شَتِيتٌ كَيْفَ يَبْقَى مُعَذَّبٌ بَيْنَ ذَيْنِ ؟؟

(١) راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٢٩٩) .
(٢) فى أزهار الرياض : يسراك .
(٣) فى أزهار الرياض : أهل .
(٤) فى أزهار الرياض : بليت .
(٥) راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٣٠٢) .
(٦) فى أزهار الرياض : حان .

يَا إلَهِي أَدْرِك بِلُطْفِكَ ضَعْفِي إنَّ ما أَشْتَكِيهِ لَيْسَ بِهَيْن

ومن أبيات فى المدح وتضمنت معنى غريبا :

كأنما قِرنُهُ فى صَفْحِ مُرْهَفِهِ قُرْبَان هِنْدٍ أَتَى يَسْعَى عَلَى قَدَمِه
تبدو به فى مبادى الأمر صورتُه وتغلِب النارُ إذ يكسو شعاع دمه
ما زال قربانُ نارِ الهند معتقَداً فى الدَّهْر أن الوجود الحقَّ فى عدمه

ومن المقطوعات فى النسيب[1] :

أرسلت عينى[2] فى حلاك بنظرة هى كانت السببَ الغريبَ لما بى
وأراك بالعَبَرات قد عاقبتها ليس الرسولُ بموضع لعِقاب

ومن الأغراض الغريبة[3] :

كأنما الغَيْثُ[4] مَلْكٌ يَبْأَى[5] به جُلَسَاهُ
يُرْضِى النديمَ فهما سقى الرياضَ كساه

وخاطبت السيادة الخطيبية[6] مع طَيْفُور[7] طَعام :

تعَلَّمَ طيفورى خِلالَ سَمِيِّه[8] وإنْ كان منسوباً إلى غير بِسطَامِ

---

(١) راجع (المقرى نفح الطيب جـ ٩ ص ١٧٧) .

(٢) فى نفح الطيب : طرفى .

(٣) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٧٦) .

(٤) فى نفح الطيب : الروض .

(٥) فى نفح الطيب : باهى .

(٦) يقصد الخطيب ابن مرزوق السالف الذكر . راجع (المقرى / نفح الطيب جـ ٩ ص ١٩٩ ، أزهار الرياض . جـ ١ ص ٣٠١) .

(٧) الطيفور أو التيفور : هو الصحن الكبير العميق الذى يقدم فيه الطعام ولا سيما اللحم وقد انتقل هذا اللفظ العربى إلى اللغة الإسبانية بهذه الكلمة Ataifor .

راجع (سيكودى لوثينا : وثائق عربية غرناطية ، صحيفة المعهد المصرى فى مدريد ، ١٩٥٦ ، ص ١٧٧) .

(٨) يريد بسمية القطب الغوث طيفور بن عيسى بن سروشان المكنى بأبى يزيد البسطامى شيخ الصوفية وصاحب الأحوال المشهورة توفى سنة ٢٦١ هـ ، راجع (ابن خلكان جـ ٢ ص ٢١٣ نشر محيى الدين عبد الحميد) .

وجاء فقير الوقت لابِسَ خِرْقةٍ فليس براض غير صحبة صوّامِ
فَدَيْتُكَ لا تَرْدُدْهُ عنك مُخَيَّباً ودَرِّسْهُ يا مولاى قِصَّةَ بِلْعَامِ[1]

ونظمت فى هذه الأيام موشحتين استطردت فيهما إلى مدح السلطان تنويعا فى الوسائل وسَبْرًا للقريحة ، إحداهما :

قد قامت الحُجة فليعذر العاذر فالعذل لا يُجدى
شيئا سوى الكرب وشِقْوة الخاطر وشدة الوجد

* * *

حدِّثْ عن السُلوانْ أو شئتَ يا صاحِ حدث عن العنقا[2]
إنهما سِيَّان فليُقصِرِ اللاحِ عمن شكا العِشقا
قد عزنى الكتمان فبان إفصاحِ ببعض ما ألقا
من صادقِ اللهجة وسْنَان عن ساهر لِمْ يُبْلَ بالصدّ
مُنَزَّه القلب مُبَرَّأ الناظر عن حالةِ السُهد

* * *

عُذِّب بالتيه[3] قلبى وبالبَيْن[4] فلم أطق صبرا
ظبيٌ تجنِّيه ما كان بالهَيْن قد واصل الهجرا
مُكَمَّلٌ فيه مسْرحَةُ العين قد أخجل البدرا
فى طرفه حجَّة للفاتن الساحر ونافث العَقْدِ
يَذهب باللُّب محكِّمٌ السادر[5] فى الحُرِّ والعبد

---

(1) لعله يقصد بلعام بن بأعوراء من بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ ١ ص ٣٠١ حاشية) .
(2) العنقاء : طائر خيالى مجهول طويل العنق ، مذكره أعنق وجمعه عنق (بسكون النون) .
(3) التيه : الصلف والكبر والصد .
(4) البين : الفرقة والهجر والبعد .
(5) السادر : الذى لا يبالى بما يصنع .

ناديت في الظلمة | يا مالك الملك | يا دافعَ البلوى
فرِّجْ لِيَ الغمة | أنت الذى تُشْكِى | مَنْ أعلَنَ الشكوى
بمن طوى الهمَّة | لِطِيَّةٍ يبكى | ويعلن النجوى
في عشر ذى الحجة | من راكض سائر | للعلَم الفرد
مغتفر الذَّنب | معتمرٌ زائر | مُبَلَّغ القصد

* * *

منجال في سمعى | فراقه حقا | ظَلِلْتُ كالهائم
كأنما دمعى | يهمى فلا يَرْقا(١) | جودُ أبى سالم
معالِجُ الصَّدع | والعروة الوثقى | وقامع الظالم
ومُصْمِتُ الضَّجة | ومُطفِىء النَّائر(٢) | ومُوضِحُ الرُّشْد
خليفة الرَّب | والباذخ الفاخر | بالأب والجدِ

* * *

الواهب الألْفِ | تأتى معاليه | من رجْعِهِ الطرفا
وخارق الصف | إلى أعاديه | إن شاهد الزَّحفا
ومُرْسِلُ الحتف | فمن يناويه | يصادم الحتفا
والأرض مرتجة | بالعسكر الزاخر | قد ماج بالجُرد
وغُصَّ بالقُضْبِ | والصارم الباتر | والحَلَقِ السَّردِ

* * *

من فاز بالسَّبق | في رفعة القَدْرِ | والمنصب الأسمى
وفاق في الخَلْقِ | والخُلقِ البَرِّ | والسيرة الرُّحْمَى
ذو منظرٍ طَلْقِ | مؤيَّدُ الأمر | مُسَدَّدُ المرمَى
إذا امتطى سرجه | فالقمرُ الراصد | لعين مستهد

(١) رقأ الدمع أو الدم : جف وانقطع .
(٢) النائر : الملقى الشرور بين الناس . ولعلها تكون الثائر .

ومخجـلُ السُّحب في العارض[1] الماطر إن جاد بالرِّفْدِ[2]

* * *

عُلاهُ لا تُحْصَى والشرطُ والثُّنْيا دَأْباً ينافيهـا

لو مُثِّلَتْ شخصا لقـالت الدنيـا بالحق تُعيهـا

دولتـه اختصَّـا تأنـق العليـا بـكل ما فيها

بدائـع البهجـة ونزهة الخـاطر وجنَّـة الخـلد

وراحـة القلـب وبغيـة النـاظـر في ذلك الخـدِّ

والأخرى :

يا حادىَ الجمال عرج على سلا[3] قد هام بالجـال قلبى وما سلا

عرج على الخليج والرمل والحِمَى

في المنظر البهيج بالبِيض كالدُّمى

والأبطح النَسِيجِ من صَنْعَةِ السَّما

لله من جـلال تختـال في حُلا لم تُلف في اعتدال عنهنَّ مَعْدِلا

وطف من الرباطِ بركن طآئفِ

بمـنزل اغتبـاط دار الخـلائف

مُقدَّسِ المواطِ جم العـوارف

كم من سنا هلال بأفقهِ انجـلى أنحى على الضلال فانجاب وانجلى

---

(1) العارض : السحاب .

(2) الرفد : العطاء والمعونة .

(3) المقصود هنا مدينة سلا Salé وهى مدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلسى بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة الرباط نهر أبو الرقراق . وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن الخطيب أقام في هذه المدينة عندما نفى مع سلطانه محمد الخامس عام ١٣٦٠ م وظل بها حتى عام ١٣٦٢ حينما عاد ثانية إلى غرناطة مع سلطانه المذكور بفضل مساعدة ملك قشتالة وسلطان بنى مرين .

جَنَي النعيم دانٍ والبحر والغدير
أَهِلَّةُ الشَّـوانِى فى أفقـه تسير
وقهوة الدنان يديرها مـدير
أغرُّ كالغزال مُقَلَّد الـطُّلا[1] يسطو ولا يبـالى بالأسْدِ فى الفلا
أَوْلَى إليك أَوْلاَ من ذكر معهد
أكثرت فيه قولا فى كل مشهد
خذْ فى امتداح مولا نَدْبٍ مؤيَّدِ
مُمَجَّد الجـلال مشهَّرُ العُـلا قد فاق فى كمال وراق مُجْتَلَا
موافق الخليـل فى الاسم والسمات
ذى المنظرِ الجميلِ الرايق الصفات
مُـكرَّمُ الدخيل ومُجزل الهبـات
ومُحْسِبِ النوال لمن توسـلا ورافع المعـالى سحبا مظللا
يا من عُلاهُ دَرَّتْ بـكل نائل
خذها إليك جرَّت ذَيْلَ الخمـائل
وفى حُلاك أزرت بِقَـوْلِ قائـل
يا منزل الغزالِ حُييتَ مـنزلا فـما أُرَى بسال عنه وإن سلا

وكتبت إلى السيادة الخطيبية ، وقد وصل ولدها إلى سلا ، ومنعنى عن لقائه عذر من مرض ، وكان نزوله بزاوية النساك[2] :

---

(١) الطلا والطلة : العنق وجمعها طلل .
(٢) ما زالت أطلال زاوية النساك قائمة خارج سلا وهى من جلة الزوايا العديدة الجميلة التى بناها السلطان أبو عنان فارس المرينى فى خارج المدن المغربية لتكون بمثابة دور للضيافة ، ينزل فيها الرحالة والمسافرون على اختلاف طبقاتهم ، وزاوية سلا أو زاوية النساك – كما يسميها ابن الخطيب – =

صَدَّنى عن لقاء نجلك عذر   يمنع الجسم عن تمام العبادَه

واختصرت القِرَى لأنْ حَطَّ رحلا   فى محل الغِنى ودار الزَّهاده

ولو انى احتفلتُ لم يُعِنِ الدَّهْـ   ـرُ ولا نِلْتُ بعضَ بعضٍ أراده

وعلى كلِّ حالةٍ فقصُورِى   عادةٌ إذ قَبُولك العُذْرَ عاده

لا عدمتَ الرضا من الله والحُسْـ   ـنَي كما نص وحيُه والزياده

وخاطبت من قَصَّر فى حاجتى :

من لا نصيبَ لصحبه فى خَيْرِه   وإذا سَعَى لم يَقْضِ حاجةَ غيره

فاقصد أباهُ متى أردتَ وقُلْ لَهُ   اللهُ يُلهِمُهُ العزاءَ بأيْرِه

وقلت فى غرض التورية أرثى أحد الفضلاء بالعدوة واسمه الحسن :

أشكو إلى الله من بَثِّى ومن شَجَنِي   لم أجْنِ مِنْ مِنَحِى شيئاً سِوَى مِحَنِ

أصابَتْ الحَسنَ العَيْنُ التى رَشَقَتْ   وعادةُ العَيْنِ لا تُصْمِى سِوَى الحَسَنِ

= قد تم بناؤها فى ٢٧ شعبان سنة ٧٥٧ (٢٥ أغسطس١٣٥٦) وكانت تشتمل على حديقة جميلة وغرف عديدة وقاعة للصلاة وميضأة فى الجهة القبلية منها مزودة بالمياه الجارية من بئر هناك .

وكان للزاوية بابان كبيران ، أحدهما يتجه نحو مدينة سلا ،والآخر يتجه نحو مدينة شالة — الجبانة الملكية لبنى مرين ـ ويقع فى مواجهة مقام العابد المتصوف أبى العباس بن عاشر الأندلسى . ولقد تهدمت هذه الزاوية عقب حريق شب فيها ولا يعرف تاريخه بالضبط وما زالت أطلالها باقية إلى الآن، ولقد أعطانا الفقيه محمد بن على الدكالى السلاوى معلومات هامة عن هذه الزاوية فى كتابه المعروف باسم « الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولاى عبدالعزيز » (مخطوط بخزانة الرباط رقم D.1320) ولقد ترجم منه المستشرق الفرنسى جاستون دى فردان G.Deverdun الجزء الخاص بوصف هذه الزاوية إلى اللغة الفرنسية (كما قام الأستاذ جاك مونييه) بعمل دراسة معمارية مفصلة عن هذه الزاوية نشرها بمناسبة ذكرى العالم الاثرى جورج مارسيه بعنوان :

(**Jacques Meuniè : La Zaouiat En Noussak' une Fondation merenite aux abords de Salé — Mélanges d,Histoire Et d. Archéologie de L,occident Musulmsn pp' 129 — 145: Tome II Hommage à Georges Marçais (Alger 1957)** ·

ومما راجعتُ به أحد الفضلاء عن مكاتبةٍ وردت منه[1] :

يا من تقلد للعلاءِ مُلوكاً ... والمجدُ صيَّر[2] نهجَهُ مسْلوكاَ

كاتبته متفضلاً فملكتني ... لا زلتُ منك مُكاتَباً مملوكا

وأطلَّت ليلة الميلاد المعظم بوقع العمل على رسم ما قبله ، ونظمت قصيدة وجهت نظيرها إلى الباب السلطانى ، تولَّى الولد النيابة فى عرضها مُعطفة — والفضل لله — جانبَ التقديم مُحْصبَة ببنان التنفيق ، معقبة بسَنِي الخلعة وهى[3] :

تألَّقَ نجْدِيًّا فأذْكَرَني نجْدَا ... وهاجَ بى الشوقَ المُبَرِّحَ والوَجْدَا

وَمِيضٌ رأى بُرْد الغمامة مُغْفَلا ... فمدَّ يداً بالتبر أعلمت البُرْدَا

تبسَّمَ فى بحرية قد تجهمت ... فما بذلت وصلا ولا ضربت وعدا

وراودَ منها فاركاً قد تمنَّعت[4] ... فأهوى لها نصلا وهددها رعدا

وأغرى بها كفَّ الغلابِ فأصبحَتْ ... ذَلُولاً ولم تسطِعْ لإمرته ردا

فحلَّتها الحمراء من شَفَق الضحى ... نَضاها وحلَّ المُزْن من جيدها عقدا

لك الله من برقٍ كأنَّ وميضَهُ ... يد الساهر المقرور قَدْ قَدَحَتْ زندا

تعلَّم من سكانه شيمَ النـدى ... فغادَرَ أجراع الحمى روضةً تَنْدَى

وتوَّج من نوَّارها قُنَن الرُّبا ... وختَّم من أزهارها القُضُبَ المُلْدَا[5]

لسرعان ما كانت مناسفَ للَّصبا ... فقد ضحكت زهرا وقد خجلتْ وردا

---

(1) راجع (المقرى : أزهار الرياض جـ 1 ص ٣٠٦) .

(2) فى أزهار الرياض : والفضل أضحى .

(3) نقل المقرى هذه القصيدة فى كتابه (نفح الطيب جـ ٩ ص ١٥٥ — ١٦٠) مع عبارة لابن الخطيب يقول فيها : وأنشدت السلطان ملك المغرب ليلة عيد الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة .

(4) فى نفح الطيب : تنعمت .

(5) القضب : الغصون ، والملد جمع املد وهو الناعم الغض .

بلادٌ عهدنا في قرارتها الصِّبا ... يقلُّ لذاك العهد أن يألف العهدا

إذا ما النسيم اعتلَّ في عرَصاتها ... تناول فيها البانَ والشِّيحَ والرندا

فكم في مجاني وردها من علاقة ... إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وَجْدَا

أو[1] استشعرتْها النفسُ عاهدتِ الجوى ... أو[2] التمحَتْها العينُ عاقرت[3] السُّهْدَا

ومن عاشقٍ حرٍ إذا ما استماله ... حديثُ الهوى العُذريِّ صيَّرَهُ عبدا

ومن ذابلٍ يحكى المحبين رقة ... فيثنى إذا ما هبَّ عَرْفُ الصَّبا قَدَّا

سقى الله نجداً ما نَضَحْتُ بذكرها ... على كبدى إلا وجدت لها بردا

وآنسَ قلبي فهو للعهد حافظٌ ... وقلَّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا

صبورٌ وإن لم يبق إلا ذبالةٌ ... إذا استقبلت مَسْرَى الصبا اشتعلت وقدا

خفوقٌ[4] إذا الشوقُ استجارَ كتيبةً ... تجُوسُ ديارَ[5] الصبر كان لها بَنْدَا

وقد كنتُ جَلْداً قبل أنْ يُذْهِبَ النَّوى ... ذَمائى وأن يستأصل العَظْمَ والجلدا

أأجْحَدُ حقَّ الُحبِّ والدمعُ شاهدٌ ... وقد وقَع التسجيلُ من بعد ما أدى

تناثر في إثر الُحمُول[6] فريده ... فلله عيناً مَنْ رأى الجوهر الفردا

جرَى يَقَقاً[7] في ملعب الخدِّ أشْهَباً ... وأجهده رَكْضُ الأسى فجرى وَرْدَا

ومرتحلٌ أزْمَلْتُ[8] دَمْعِىَ خلفَه ... ليُرْجِعَهُ فاستَنَّ في إثره قصدا

---

(١) في نفح الطيب : إذا .

(٢) في نفح الطيب : إذا .

(٣) في نفح الطيب : عاقدت .

(٤) في نفح الطيب : حبور .

(٥) في نفح الطيب : خلال .

(٦) أراد بالحمول أحباءه الذين شدوا رحالهم للظعن ، والفريد أصله الدر ، استعارة لدمعه .

(٧) يقال أبيض يقق (بفتح القاف أو كسرها) أي شديد البياض والجمع يقائق .

(٨) في نفح الطيب : أجريت .

وقلتُ لقلبي طِرْ إليه بِرُقْعَتِي ... فكان حَمَاماً في المسير بها هُدًّا
سرقتُ صُوَاع العزم يوم فراقه ... فلجَّ ولم يرقب سُوَاعا ، ولا وُدَّا
وكحلتُ جفني[1] من غبار طريقه ... فأعقبها دمعا وأورثها سُهْدَا
لِيَ[2] الله كَمْ أَهْذِي بِنَجْدٍ وحاجر ... وأُكْنِي بدَعْدٍ في غرامي أو سُعْدَى
وما هو إلا الشوقُ ثار كمينُهُ ... فأذهلَ نفسا لم تُبِنْ عنده قصدا
وما بِيَ إلا أن سَرَى الركبُ مَوْهِناً ... وأعمل في رملِ الحمى النصَّ والوَخْدَا
وجاشت جنودُ الصبر والبَيْن والأسى ... لَدَيَّ فكان الصبرُ أضعفَهَا جُندا
ورُمْتُ نهوضاً واعتزمت مودّعا ... فَصَدَّنِي المقدارُ[3] عن وِجْهتي صَدَّا
رقيقٌ بدت للمشترين عيُوبُه ... ولم تلتفت دعواه فاستوجَبَ الرَّدَّا
تخلف مني ركب طيبة عانيا ... أما آن للعاني المُعَنَّي بأن يُفْدَى
مخلَّفُ سِرْبٍ قد أُصيب جناحهُ ... وطِرْنَ فلم يسطِع مَرَاحاً ولا مَغْدَا
نشدتك يا ركبَ الحجاز تضاءلتْ ... لك الأرضُ مهما استعرض السَّهْبُ وامتدا
وَجَمَّ لك المرعى وأذعنت الصُّوَى ... ولم تفتقد ظلاًّ ظليلاً ولا وِردا
إذا أنت شافهتَ الديار بطيبةٍ ... وجِئْتَ بها القَبْرَ المُقَدَّسَ واللَّحْدَا
وآنستَ نوراً من جنابِ محمدٍ ... يداوي[4] القلوب الغُلْفَ والأَعْيُنَ الرُّمْدَا
فَنُبْ عن بعيد الدار في ذلك الحمى ... وأَذْرِ به دَمْعاً وعَفِّرْ به خَدَّا
وقلْ يا رسولَ اللهِ عبدٌ تقاصَرَتْ ... خُطَاهُ وأضحَى من أَحِبَّتِهِ فَرْدَا
ولم يستطع من بعدِ ما بَعُدَ المَدَى ... سوى لَوعةٍ تعتاد أو مدحة تُهْدَى

(١) في نفح الطيب : عيني .
(٢) في نفح الطيب : إلى .
(٣) في نفح الطيب : المقدور .
(٤) في نفح الطيب : يجلي .

تَدَارَكْهُ يا غَوْثَ العِبادِ برحمةٍ فجودُك ما أجدى وكفُّك ما أندى

أجار بك الله العباد من الرَّدَى وبوَّأهم ظِلاًّ من الأمن مُمْتَدَّا

حَمَى دِينُكَ الدنيا وأقطعك الرضا وتَوَّجَكَ العَلْيَا وألبَسَكَ الحمدا

وطَهَّر منك القلبَ لما استخصه فَجَلَّاهُ نوراً وأَوْسَعَهُ رُشْدَا

دَعاه فما ولَّى ، هَدَاهُ فما غَوَى سقاه فما يَظْمأ ، جَلاَهُ فما يَصْدَا

تَقَدَّمْتَ مُخْتَاراً تأخَّرْتَ مَبْعَثاً فقد شملت علياؤك القَبْلَ والبَعْدَا

وعلةُ هذا الكَوْنِ أنت ، وكلما أعاد فأنت القصدُ فيه وما أبدا

وهل هو إلا مظهرٌ أنت سرُّه ليمتاز فى الخلق المكبُّ من الأهْدَى

ففى عالمِ الأسرار ذاتُك تَجتلِى ملامحَ نور لاح للطور فانهدَّا

وفى عالَم الحِسِّ اغتديْتَ مُبوَّأً لتُشفى من استشفى وتَهدى من استهدى

فما كنت لولا أن نبتَّ هدايةً من الله مثل الخلق رسما ولا حدَّا

فماذا عسى يثنى عليك مُقصِّرٌ ولم يألُ فيك الوحىُ مدحا ولا حمدا

بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شَفىً من النار قد أسكنته[1] بعدها الخلدا

عليك صلاةُ الله يا خيْرَ مُرْسَلٍ وأكرمَ هادٍ أوضح الحقَّ والرُّشدا[2]

عليك صلاةُ الله يا خيرَ راحمٍ وأشفقَ من يَثنى على رأفةٍ كبدا[3]

عليك صلاةُ الله يا كاشفَ العمَى ومُذْهِبَ ليلِ الشكِ[4] وهو قد ارْبَدَّا

إلى كم أُرانى فى البِطالة كانعا[5] وعمرىَ قد وَلَّى ، وَوِزْرِىَ قد عُدَّا

---

(١) فى نفح الطيب : أوردته .

(٢) لم يرد هذا البيت فى نفح الطيب .

(٣) لم يرد هذا البيت فى نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : الروع .

(٥) الكانع الذى تدانى وتصاغر : يقال رجل كانع أى نزل بك بنفسه وبأهله طمعا فى فضلك .

تقضّى زمانى فى لعلّ وفى عسى | فلا عزمةٌ تمضى ولا لوعة تهْدَا
حسامُ جبان كلما شِيمَ نَصْله | تراجع بعد العزم والتزم الغِمدا
ألا ليت شعرى هل أرانى ناهداً | أقودُ القِلاَصَ البُدْنَ والضّامرَ النّهْدا
رضيع لبانِ الصدقِ فوقَ شِمِلّةٍ[1] | مُضَمّرةٍ وُسِّدتُ من كورها مهدا
فَتُهْدَى بأشواق السُّراةُ إذَا سَرَتْ | وتُحْدَى بأشعارى الركاب إذا تُحْدَى
إلى أن أُحطَّ الرحلَ فى تُربك الذى | تضوّع نَدًّا ما رأيتُ[2] له نِدّا
وأُطفِئ فى تلك الموارِدِ غُلّتِى | وأُحسِبَ[3] قربا مهجةً شَكَتِ البُعدا
بمولدك[4] اهتز الوجودُ فأشرقت | قصورٌ بِبُصْرَى ضاءت الهُضْبَ والوَهْدَ
وَمِنْ رُعْبِهِ الأوثانُ خَرّت مهابةً | ومن هوله إيوانُ فارسَ قد[5] هُدّا
وغاضَ له الوادى وصبّح عزّه | بيوتاً لنار الفرس أعدمها الوَقْدَا
رعى الله منها ليلةً أطلعَ الهدى | على الأرض من آفاقها القمرَ السّعدا
وأقرض ملكا قام فينا بحقّها | لقد أحرز الفخرَ المُؤَثّلَ والمجدا
وَحيًّا على شط الخليج محلّةً | يُحالف من يُلفى[6] بها العيشةَ الرغدا
وجاد الغَمَام العَدُّ فيها خلائفا | مآثرهم لا تعرف الحصر والعَدّا

---

(١) الشملة : الناقة السريعة ، والكور : الرحل ، أى أنه جعل كورها مهدا ، ينام عليه يعنى أنه دائم السفر .

(٢) فى نفح الطيب : ما رأينا .

(٣) يقال احسب فلان ماله أى زاده وكثره ، يريد أن يقول أزيد مهجتى التى تشكو البعاد قربا منك .

(٤) فى نفح الطيب : لمولدك .

(٥) فى نفح الطيب : إيوان كسرا قد انهدا .

(٦) فى نفح الطيب : ينتابها — ورسم الأصل تلفى .

عليٌّ وعثمانُ[1] ويعقوبُ لا عدَا رضا الله ذاك النجلَ والأبَ والجدَّا

حَوَوْا وهُمُ فى حومة البأسِ والندى فكانوا الغيوثَ المستهلةَ والأُسدا

ولله ماذا[2] خلّفوا من خليفة حوى الإرثَ عنهم والوصيةَ والعهدا

وقام بأمر الله يحمى حمى الهُدى فيكفى من استكفى ويعدى من استعدا[3]

إذا ما أراد الصعبَ أغرى بِنَيْلِهِ صُدُورَ العوالى والمُطَهَّمَةَ الجُردا

وكم معتدٍ أردى وكم تائه هدَى وكم حكمةٍ أضفى وكم نعمةٍ أبدى

أبا سالمٍ دينُ الإله بك اعتلى أبا سالم ظِلُّ الأمان[4] بك امتدا

فَدُمْ من دفاع الله تحت وقايةٍ كفاك بها أن تسحب الحلَقَ السَّرْدَا

ودونكها مِنّي نتيجةَ فكرةٍ إذا استرشحت للنظم كانت صَفاً صلداً

ولو تَرَكَتْ منّي الليالى صُبَابَةً لأجهدتُها رَكْضاً وارهقتُها شدا

ولكنها جَهْدُ المُقِلِّ بذلتُه[5] وقد أوضح الأعذارَ مَنْ بذل[6] الجَهْدَا

(١) فى نفح الطيب : عليَّ وعثماناً .
(٢) فى نفح الطيب : ما قد
(٣) هذا البيت زيادة عن نفح الطيب
(٤) فى نفح الطيب : الإله .
(٥) فى نفح الطيب : بلغته
(٦) فى نفح الطيب : بلغ

رجع التاريخ

ذكر أسماء بعض القادة الفارين من غرناطة إلى المغرب

وفى شهر ربيع الأول من عام اثنين وستين وسبعمائة لحق بالباب السلطانى يحيى بن عمر بن رحو[1] النازع إلى إيالة الطاغية[2] حذرا على نفسه، الشهير المحلة الثَّبْت الموقف، بقية رجال بيته حنكة واضطلاعا ورجاحة ومعرفة باللسان الزناتى وأنساب القبيل المرينى، بعد أن اقتضى من عهد السلطان المستعين بالله أمير المسلمين، ما طابت به نفسه، وانصرف عن مستقره بأرض الروم عن مراضات، فأجمل السلطان — أيده الله — تلقيه، ونوّه به، ورفع مجلسه، وأدنى جواره، واستدعى فى المهمات رأيه، وقد لبس طور الاختصار، وتبرأ من الأتباع واختلط بالغُمار، وأصيب باحدى عينيه، فهو يحمل فوقها قطعة من رقيق الأديم الداجى، يمسك أعلاها فى عمامته وحسبك بها شَيْنًا، انتفع به لاتهامه الغَضّ من الترشيح، وغمزه من ذيل الأبّهة (٦٤ ط) المرْدية. وتَفوّقَ أتباعُه وأهل بيته، فآثر ولده عثمان بن يحيى، الحمى الأنف لنفسه مزية الفضل بكثير من الخِصْل من خط وفروسيةٍ ووقار، فأقام مظاهرا سلطان الروم فى حروب له على أهل ملته. وفرّ من أهل بيته، إلى غرناطة جُملةٌ كأخيه العباس بن عمر، وجملةٌ من بنى عمه كانوا وافِدَ البَراجم[3] على عدو الله المُغْتَرّى بها،

---

(١) هو يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق الذى كان شيخاً للغزاة بغرناطة أيام السلطنة الأولى لمحمد الخامس الغنى بالله ثم فر وقت الانقلاب إلى قشتالة ومنها إلى المغرب.

(٢) يقصد هنا ملك قشتالة بدرو الأول الملقب بالقاسى

(٣) هذا مثل يضرب فى الشؤم « أن الشقى وافد البراجم » قاله عمرو بن هند ملك الحيرة عندما أحرق رجلا من البراجم. راجع (الميدانى : مجمع الأمثال ج ١ ص ١٢)

فأ كبلهم للحين ، وأنزلهم بعض الأساطيل ، فغربهم إلى بجاية بعد أن استوثق ممن كان له فتية أو كفلاء بالرجوع على ذلك لأول تعرّف تغريبهم . فاستقبلوا البيت الحرام قسراً تذودهم عصاه ، وتأخذ أعقابهم نقمته من غير قصد ولا نيّة ، هاضَ بذلك جناح عميدهم ، وأعدم ملك المغرب مكان الاستظهار بهم ، وشمر لأول دولة الغدر عن ساعده فى إحكام المدنة وإفساد ما بين السلطان الذى جرّ عليه النكبة ، وبين سلطان الروم أيام استمساكه بوادى آش . فاتصل له سبب الحظوة وساء ظنه فاعمل الامتناع بباب ملك قشتاله ، وقد توجه فى شأن الخدمة بعد أن استخلص صامت ماله ونبيه سلاحه وخطير ذخيرته ، فولى من القبول حظوة مثله .

ولحق لهذا العهد فى سبيل الفرار جملة من القرابة النصريين كأحمد بن محمد بن نصر المُنْبَز عُبيد ابن المولى ، رجل حسن الشكل خلوب اللفظ خريج الحنكة ، قذف به الاغتراب فاكتسب مراناً ، وأخيه على بن محمد ، وقد مرّ ذكره ، وإبراهيم بن محمد ابن إسماعيل بن نصر يقع من المتغلب ابن ابن عم جده ، صبى دسّ له عرق كفاية ، غرسه أبوه فى آثر البقع (٦٥ و) بيت بنى سهل ، فأبرّ على قومه بجؤولة كريمة وَلَقبْل ما نقدم تغريبه ، ثم قفل لأول هذه الكائنة ثم نبا جنبه فعاد أدراجه .

وممن لحق بالباب السلطانى الشيخ الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله ابن الحسن النباهى المخصوص كان على عهد الدولة المكيدة برسم الوزارة ، المفوّض له فى الأمور ، من رجلٍ بعيد المدى فى ميدان الأصالة، سابغ ذيل العفاف ، مكفوف اليد ، أوعز إليه مخبر ألمم بالقبض عليه ، فاتخذ الليل جملا من بعض ضياعه ولحق بالإيالة المرينية . وخاطبنى من سبتة بما نصه مما يدل على خصْله[1] :

يا أيتها الآية البالغة ، وقد طمست الأعلام ، والغرّة الواضحة . وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء الجميل ، وبلّغكم[2]

(١) أورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب (ج ٨ ص ٢٢٥) وتبدأ هكذا :
« وخاطبنى من سبتة وأنا يومئذ بسلا » ...
(٢) فى نفح الطيب : أبلغكم

غاية المراد ومنتهى التأميل ، أبَى الله أن يتمكن المقام فى الأندلس[1] بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سر من السكون الغريب ، ومَغْنَى فى التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام : تفاقمت الحوادث ، وتعاطت[2] الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ، ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح عابث ، ويا ليت شعرى من الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهى للفاطر الباعث ، ونجوت بنفسى ولكن مَنْجى الحارث ، وقد عبرت البحر كَسيرَ الجناح ، دامى الجراح ، وإنى لأرجو الله سبحانه بحسن (٦٥ ط) نيتكم أن يكون الفرج قريباً ، والصنع عجيباً ، فمهادى أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذى مازلت أميل على جوانبه ، ولا تزيدنى الأيام إلا بصيرة فى الإقرار بفضله والاعتداد به ، وقد وصلنى إلى المحروسة سبتة[3] خطاب سيدى الأوحد[4] الذى جَلَى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصح اللائق بعلمه ودينه ، وكأنه نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به على سارية عمر بن الخطاب[5] ، ومن العجب أنى عملت بمقتضى إشارته ، قبل بلوغ إضْبارته ، فلله ماتضمنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرره من الكلام الحر ، وايم الله لو تجسم لكان مَلَكا ، ولو تنسم لكان مسكا ، ولو قبس لكان شهابا ، ولو لبس لكان شبابا ، فحل منى علم الله تعالى محل البُرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمنه من التعريض ، والكلم المزرى[6] بِقِضَم الروض الأريض فقبلته عن راحتكم ، وتخيلت أنه مُقيم بساحتكم ،

---

(١) فى نفح الطيب : بالاندلس

(٢) فى نفح الطيب : وتعاظمت

(٣) إلى المحروسة سبته ، زيادة على المقرى

(٤) الاوحد زيادة على المقرى

(٥) يشير إلى ما روى عن عمر بن الخطاب وهو بالمدينة أنه نادى سارية بن زنيم وهو يقاتل بالعراق أو عند جبل بنهاوند فى فارس قائلا يا سارية ! الجبل ! الجبل ! راجع (السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٨٥) راجع كذلك (ابن الجوزى : سيرة عمر بن الخطاب ص ١٢٤ طبعة محمد صبيح)

(٦) فى نفح الطيب : المزرية

ثم وردتُ مَعِينه الأصفى ، وكلت من بركات مواعظة بالمكيال الأوفي ، وليست بأولى أياديكم ، وإحالتكم على الله فهو الذى يجازيكم . وأما وصل كتابكم[1] وهو صاحبنا أبو فلان فعزلني فى الارتحال وكأنه لم يقرأ باب الحال فراجعته منشدا :

أيا راكبَ البحر الأجاجِ مُخاطِراً تقدم باسم الله مرساك والمجرا
وبلغ أمانات المشوق ولا تقل ترحَّل مختارا لعل له عذرا

وبالجملة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار :

وما كلُّ ماترجو النفوسُ بنافعٍ ولا كلُّ ماتَخْشَى النفوسُ بضَرَّار

والله يقربُ المزار ويُدنى الدار من الدار وهو سبحانه يمتع ببقائكم ويعيد الأنس بتيسير لقائكم بمنه وكرمه .

(١) هذه العبارة والأبيات الشعرية التى تليها لم ترد فى نفح الطيب

حالة غرناطة
فى عهد السلطان أبى سعيد البرميخو المغتصب

وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر واختلال السيرة وتشذيب(*) الحامية التى لا فوقها ، فخضر مدعى ولمية الدائل بها لأول ولايته ، رِجْل الدَّبا[1] ، فالتهم الخلا والكلا ، وأعدم بإعدام الغلة أسباب الرخا ، وفتح أبواب البلا ، وموَّه لأول أمره ببث النَّهْى عن المنكر الذى هو جُرثومته العظمى ، وتصاريفه غايته القصوى ، وسمح ببعض المكوس فأعطى قليلا ثم أكدى ، ولم تمر الأيام إلا وقد عاد فى قيئه وأضاق الرعايا بشؤمه وكلفهم ارتباط الأفراس بعد اغرامهم أرزاق جنده ، وإنزال دورهم بغرباء ديوانه ، وانحطَّ فى مهاوى الشَّمات برتبة الأمر ، وأنقص من منصب المُلك فقعد للعرض وقد حُشِر الناسُ ضُحىً فى موقف أجلس معه بسريره بعض السُّوَقِ عارى الرأس ، مُثلةً من مُثَلِ الخلْق ، غير مقصر فى مخاطبة من مرَّ به عن غاية الإفحاش والتبجح بمعرفة الهنات . فلقد حدَّث صاحب شرطته ، وهو لا بأس به ، قال أطريته باجتناب الناسِ الخمر فى أيامه ، وتحت استداده ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لى فى الملأ المشهود ، والحشيش كيف حالها ؟ قلت ما عثرت (٦٦ ط) على شىء منه . فقال هيهات ، انزل إلى بيت فلان وفلان وفلان ، وعدَّ كثيرا من السافلة والأوغاد والصفاعين[2] ، رسم مكارِمَهُم وينسبهم نسبة الأصمعى أفخاذ العرب وبطونها ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفته ، وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة . قال وانصرفت إلى ما ذكر فوالله ما أخطأت شيئا مما رسمه ، ولا فقدت شيئا مما ذكره لغشيانه بيوتهم وانخراطه فى جملة منتابيهم ، يقول فهو والله أستاذى فى الشرطة !

(*) كذا ولعلها تشغيب

(١) الدبا : صغار الجراد أو النمل

(٢) الصفاعين : جمع صفعان ومصفعانى وهو المهرج الذى يصفع كثيراً .

وساءت محاولته طاغية الروم فتمرّس به وآثر الجرّان فى معتاد أغراضه لفساد ما بينه وبين عدو برشلونة[1] وأعطاه الضمة . فعند فراغه من صلاح ذات بينهما ، فغر عليه فاه ، وشمّر لمطالبته . وخَشُنَ ما بينه وبين الملك[2] المرينى فئة الإسلام التى إليها تحيز لاغتراره بمن فى اعتقاله من قرابته المُغْرِى بهم لسان الإرجاف . فرجَعَت الرُّسل من قِبَلِه خُيِّبَ اللُّبَانَات من بابه ، مودعةً من نجوى المسلمين واستعداد الصالحين ما يوجب الاهتزاز ويحرك الامتعاض ، ناقلةً من غريب شكله فى كثرة التفاته ، وجفاف ريقه ، وعُرْىِ رأسه ، وتشمير ذراعه ، وسخافة عقله ، غرائبَ تُؤْنَسُ بها الأسمار وتُوَشَّحُ الفكاهات .

وألَحَّ سلطان قشتالة فى تسليم السلطان أبى عبد الله إليه ليتولى شد أزره ويجتهد فى جبر حاله ، وألقيت إليه المعاذير فنبا عنها سمعه ، ورقّق (٦٧ و) — عن غرضه — فى رفع السَّلم عند إخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من ضروب ملاطفته ، فترجح الرأى على توجيهه إلى الأندلس .

وقد كان الاسطول[3] تألف بفرضة المجاز من سبتة مُوَرِّياً بجهاد من ظَهَر به من عدو برشلونة . ووصلت أساطيل الروم[4] المسخرة فى غرض إجازته قد أركبها مَلِكُ النصارى وجوه خدامه ، فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب فى قبة العرض المُتَّخَذَة بجنَّة المصارة[5] ، ووقع البريح ببروز الناس إلى الفضاء الأفْيَح ، واستُحْضِرَتُ البنود والطبول وأوعية المال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ[6] .

واستُحضر السلطان[7] فصعد إلى القبة ثم نزل وقد أُلْبِس خلعةَ الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطَهَّمَة ، حليها ذهبٌ بحت ، ونشرت حوله الألوية ، وقرعت الطبول

---

(١) يقصد ملك أراجون بدرو الرابع

(٢) يقصد ملك المغرب السلطان أبا سالم إبراهيم بن أبى الحسن المرينى (٧٥٩ — ٧٦٢ هـ)

(٣) الاسطول المغربى بطبيعة الحال

(٤) أى الأسطول القشتالى

(٥) تعرف أيضا بروض المصارة . راجع (الناصرى : الاستقصا ج ٣ ص ١٢٠ ، ١٥١)

(٦) أى عام ٧٦٢ هـ .

(٧) يعنى السلطان أبو عبد الله محمد الخامس سلطان غرناطة الشرعى المنفى بالمغرب .

وركب السلطان مُشَيِّعاً إياه غَلْوَة ، ثم انصرف عنه وقد التفَّ عليه كلٌّ من جلى عن الأندلس من لَدُنِ الـكائنة الواقعة بها فى جملة كثيفة ، وبُلِيَ من رقة الناس وإجهاشهم وعُلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد منتزع الحق[1] ، فتبعته الخواطر ، وحميت له الأنفاس والله يُعَرِّفُه عوارف عنايته ، ويلحظه بعين رحمته .

واسْتُدعِي عقب انصرافه الأمير المعين (٦٧ ط) شجاً فى نحر عدو الدولة المرينية على هذا العهد أبو زيان محمد بن عثمان[2] بن عبيد الرحمان بن يحيي بن يغمراسن ابن زيان ، فأجرى على الرسم من البنود والطبول والخلع وأتبع من بالباب السلطانى من قبيله ، فاضطرب المحلة بخولان[3] من شط وادى سبو[4] ، ورفل الملك المرينى فى هذا اليوم الأغر فى حلة عز تندى جِدَّةً وفخرا مذخورا ليومه طار شُهرة ، والله المسئول فى تمام النِعَم وتحسين العواقب لا إله إلا هو .

(١) يلاحظ أن عبارة « العهد منتزع » كتبت فى الهامش واضفناها إلى المتن .

(٢) كتب بجوار هذا الاسم على الهامش كلمة « موسى » .

(٣) هو الموضع المعروف اليوم بسيدى حرازم على بعد ١٥ ك.م شرق فاس . راجع ماسبق أن قلناه عن خولان فى ص ٩٧ حاشية ٣ .

(٤) وادى سبو من أعظم الأنهار المغربية ، ينبع من جبال الأطلس المتوسط ويصب فى المحيط الأطلسى عند ثغر المهدية قرب مدينة القنيطرة ، ويبلغ طوله حوالى ٦٠٠ ك م ، وتصب فيه عدةأودية مثل وادى أيناون ووادى ورغة ، ويمر نهر سبو بالقرب من مدينة فاس وتسقى مياهه سهول الغرب الشاسعة ، وكثيراً ما تتعرض هذه السهول لفيضانات هذا النهر المتكررة .

بعض مؤلفات ابن الخطيب فى المغرب

وصدر عنى إلى هذا العهد من التواليف والنَّظْم والنثر على سكون النفس وعدم التطلع لما يفتق القريحة ويشحذ الفكرة ما يُرسم[1] .

فمن ذلك من التواليف : كُنَّاشٌ من منظوم فى عروض الرَّجَز محذوف الفضول لاغاية فوقه فى الأراجز ، ولله دَرُّ القائل حمد الله وأثنى على نفسه ، فى فن أصول الفقه عدة أبياته ألف بيت . وآخر سميته « الحُلَل المَرْقُومَة فى اللُّمع المَنْظُومة[2] » ، وأرجوزة أخرى فى فن العلاج من صَنْعَةِ الطب عدد أبياتها نحو ألف وستمائة بيت تضمن ذكر جميع الأمراض الكلية والجزئية وذكر أسبابها وعلاماتها وتدبيرها وجلب العلاج بحسب أحوالها[3] .

---

(١) حول مؤلفات ابن الخطب ، راجع (المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ٣٠٣ وما بعدها) راجع كذلك (أحمد مختار العبادى : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب — مجلة هسبريس Hespéris ١٩٥٩) .

(٢) أشار المقرى إلى هذا الكتاب بقوله : « وهو الفية من ألف بيت فى أصول الفقه » . (نفح الطيب ج ٩ ص ٢٠٤) كذلك توجد بعض الشروح التى كتبت حول هذه الأرجوزة مثل « الطرز المرسومة على الحلل المرقومة لابن الخطيب ، لأبى سعيد بن لب (مخطوط بالزاوية العياشية أو الحزاوية ، قسم الأصول) . كذلك يوجد لابن خلدون شرح على هذه الألفية . ويلاحظ أن بعض المؤرخين قد خلطوا بين هذا الكتاب وكتاب رقم الحلل فى نظم الدول للمؤلف نفسه ، بل لقد ذهب بعضهم إلى الترجيح بأنهما كتاب واحد مع أنهما فى الواقع كتابان منفصلان باعتراف ابن الخطيب نفسه ، أحدهما يتناول تاريخ الدول الاسلامية وهو رقم الحلل والثانى يتناول أصول الفقه وهو الحلل المرقومة .

(راجع الحاشية السابقة رقم ١ ص ١٢١) .

(٣) أخبرنى الفقيه الأستاذ العابد الفاسى مدير خزانة القرويين بفاس أن هذه الرسالة موجودة بخزانة القرويين ضمن رسائل ابن الخطيب الطبية .

واستوفى بعده كتاب الرتبة وعلاج السموم سميتها « بالأرجوزة المعلومة[1] » إذ تقدم قبلي من نظم في مثل هذا الغرض وسماها الأرجوزة المجهولة[2] ، ونظمت أرجوزة ثالثة في فن السياسة من أجزاء العلم القديم في نحو ستمائة بيت (٦٨ و) سميتها : « تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة[3] » ، استوفى الكلام في القوى الثلاث النفسية وعلاج الأخلاق والمعاش . وصدر عني كناش سميته « مُثْلَى الطريقة في ذَمِّ الوثيقة[4] » ، أَوْجَبَتْهُ محاورةٌ صدرت في ذلك بيني وبين بعض شيوخها تضمنت نظما ونثراً وفقها وحكاية .

---

(١) عثر المستشرق الفرنسي رينو Renaud على هذه الأرجوزة ضمن مخطوطات خزانة القرويين وكانت صفحاتها الأولى تشير إلى أنها المجهولة لابن طفيل ، ولكن اتضح بعد ذلك أنها المعلومة لابن الخطيب ، وقد رجح رينو أن ابن الخطيب كتب هذه الأرجوزة في غرناطة وأنه جلبها معه إلى المغرب في أواخر حياته ، ولكن من الثابت الآن — كما هو واضح من النص أن ابن الخطيب ألف هذه الأرجوزة في بلاد المغرب ومن المرجح أنه تركها ضمن متاعه عند رجوعه إلى غرناطة على أمل العودة إلى المغرب مرة أخرى والاستقرار فيه نهائيا .

راجع (P' J' Renaud : Deux Ouvrages perdus d' Ibn al Jatib Hesperis 1946'3-4 trimestres .

(٢) المجهولة أرجوزة طبية في العلاج من الرأس إلى القدم ، كتبها ابن سينا وعرفت في العصور الوسطى باسم Canticum كذلك ينسب لابن طفيل أرجوزة بهذا الاسم .

راجع (Renaud : op ' cit' 1946) ، وانظر المقري : نفح الطيب ج ٩ ص ٣٠٤) .

(٣) توجد لابن الخطيب عدة رسائل في السياسة مخطوطة في خزانة الرباط مثل :

١ — الاشارة إلى أدب السياسة في الوزارة (د . ١٠٩٢ ، د . ١٤٠٥)

٢ — رسالة في غرض السياسة (مقامة) (د ٠ ١٠٩٢ ، د . ١٤٢١) .

٣ — قصيدة في السياسة (د ٧٧٤) .

٤ — رسالة في أحوال خدمة الدولة ومصائرهم وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيوب بصائرهم ، وهي موجهة للخطيب ابن مرزوق (د ٩٧٢ ، د ١٤٢١) .

٥ — ولابن الخطيب رسالة في السياسة أيضا مكتوبة باللغة القشتالية (الأسبانية) وموجهة إلى ملك قشتالة بدرو القاسي ، وقد نقلها المؤرخ الأسباني المعاصر لوبث دي أيالا في حولياته لملوك قشتالة .

راجع : (Lopez de Ayala : Cronicas de los Reyes de Castilla. tomo I. pp' 493-493' Madrid 1776)

(٤) أشار المقري إلى هذه الرسالة في كتابه أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ ، كما نقل بعض أجزائها في كتابه الآخر نفح الطيب ج ٤ ص ٦٢ وما بعدها . هذا وتوجد نسخة خاصة من هذا المخطوط لدى الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني مدير القسم العربي للمخطوطات والوثائق بخزانة الرباط .

وصدر عني مجموعٌ يشتمل على الأناشيد التي تحصلت لي متلقاة ومنتزعة لم يعثر على مثله في حسن الاختيار تضمن ضَرْبَي المُطْرِب والمُرْقِص[1] وتَقَدَّمَهُ كلامٌ علميٌّ في الشعر وسميته : « السحر[2] والشعر » ، مرتبا على الأغراض .

ومن المنظوم قولي على لسان السلطان مولاي أبي عبد الله وقد اشتد وجده لذكر معاهده الملكية بغرناطة ، وكافني ذلك[3]

أيامُ قُرْبِكِ عِنْدِي مَالَهَا ثَمَنُ ... لَكِنَّنِي صدَّنِي عَنْ قُرْبِكِ الزَّمَنُ

حَطَطْتُ بَعْدَكِ يا أَهْلِي وَيَا وَطَنِي ... رَحْلَ الغَرِيبِ فَلاَ أَهْلٌ وَلاَ وَطَنُ

قَدْ حَلَّ حُبُّكِ مِنْ قَلْبِي بِمَنْزِلَةٍ ... لاَ الماءُ يَجْرِي مَجَارِيهَا وَلا اللَّبَنُ

لَمَّا تحمل عَنْكِ الرَّكْبُ مُرْتَحِلاً ... والقَلْبُ فِيكِ غَدَاةَ البَيْنِ مُرْتَهَنُ

واللهِ مَا سَكَنَتْ نَفْسِي إِلَى أَحَدٍ ... يَوْمًا ولا رَاقَ عَيْنِي مَنْظَرٌ حَسَنُ

كَمْ لي بربعك من أنس ومن طرب ... كأنما كان حُلْمًا جَرَّهُ الوَسَن

والأمر أمري والدنيا مُسَخَّرَةٌ ... وكلُّ قَصْدٍ به الإسْعَادُ مُقْتَرِنُ

حتى تنبه جَفْنُ الدَّهْرِ مِنْ سِنَةٍ ... والدهر مضطرب والحرُّ مُمتحن

حمامةَ البَانِ ما هذا البكاءُ عَلَى ... مَرِّ الزمان وهذا الشَّجْوُ والشَّجَنُ

لا مسكن بنتَ عنه أنتَ تندبه ... ولا حبيبٌ ولا خلٌّ ولا سَكَن

كفٌّ خضيبٌ وأطواقٌ مُلوَّنَةٌ ... ما هكذا البث يا ورقاء والشجن[4]

---

(١) لعله يريد الاشارة هنا إلى كتاب المطرب والمرقص لابن سعيد المغربى الذى طبع فى القاهرة تحت عنوان « المرقصات والمطربات » (جمعية المعارف ١٢٨٦ هـ) .

(٢) توجد نسخة من هذا الكتاب فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د ١٢٩٥) وهو بعنوان سحر وشعر .

(٣) هذه القصيدة وإن كانت على لسان السلطان محمد الخامس إلا أنها فى الوقت نفسه تعبر عن حب ابن الخطيب لوطنه وبلاده غرناطة .

(٤) فى الهامش بخط آخر ذكر الايطاء فى البيت وأن الصواب (الحزن)

لو كنتَ تنفث عن شوق منيت به ... يوماً لصار رمادا تحتك الغصَن

يا نَسْمَةَ الريح كيف الدار هل عمرت ... كلاَّ وهل أخصبت من بعدها الدِّمَنُ

لعل من قد قضى يوما بفُرقَتِناَ ... تحلّ منه برفع الفُرقة المِنَنُ

نستغفر الله كم لله من منح ... لُذْناَ بها بعد أن لاذت بنا مِحَنُ

ونسأل الله فى عُقْبيِ نُسَرُّ بها ... فقد تساوى لديه السر والعلن

ولما شَرَحَ كتابَ الشفاء العياضى[1] ، خطيب الخلافة وكبير أوليائها السيد الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق[2] ، طلب أهل العدوتين بالنظم فى كتاب الشفا فطما من ذلك البحر ما بين مجيد ومقصر . فقلت فى ذلك وقد عُرض عليّ الجميع وأنا بمدينة سلا حرسها الله ، ووجهتُ بها إليْه[3] :

حييت يا مختط سبت بن نوحْ ... بكل مُزْن يغتدى أو يَرُوحْ

وحمل الريحان ريح الصبا ... أمانة فيك إلى كل روح

دار أبى الفضل عياضٍ الذى ... أضحت برَيَّاهُ رياضا تفوح

يا ناقل الآثار يعنى بها ... وواصلا فى العلم جَرْىَ الجَموح

طِرْفُكَ[4] فى الفخر بعيد المدى ... طَرْفُكَ[5] للمجد شديد الطموح

---

(١) الاشارة هنا إلى القاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتى ، عالم المغرب المحدث الفقيه الشاعر اللغوى ولد بسبتة سنة ٤٧٦ ﻫ (١٠٨٣) وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ ﻫ (١١١٩) وقبره بها شهير . راجع ترجمته فى (ابن خلكان : وفيات الأعيان ﺟ١ ص٣٩٢) ، الفتح ابن خاقان : قلائد العقيان ص ٢٢٢ ، الضبي : بغية الملتمس ص ٤٢٥ ، ابن الأبار : معجم أصحاب الصدفى ص ٩٢٤ ، المقرى : أزهار الرياض فى أخبار عياض ﺟ ١ ص ٣٧ ، محمد ولد القاضى عياض قد ألف كتابا فى ترجمة والده وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (ك ٥٥٣) .

(٢) راجع التعريف بابن مرزوق فى حاشية سابقة .

(٣) أورد ابن الخطيب هذه القصيدة فى كتابه الاحاطة بأخبار غرناطة (نسخة الاسكوريال لوحة ١٣٠) وهى مطابقة لما وردفى المتن هنا ، كذلك أورد المقرى هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب ﺟ ٧ ص ٣٣٠ — ٣٣١ مع وجود بعض الفروقات نسجلها فيما يلى .

(٤) الطرف : (بكسر الطاء الكريم الطرفين أى الأب والأم من الناس ، والكريمهما من غير الناس والجميع أطراف وطروف .

(٥) الطرف : (بفتح الطاء) العين الباصرة ، ومنتهى كل شىء ، الجميع أطراف .

كفاك إعجازا كتابَ الشفا — والصبح لا يُنْكَرُ عند الوضوح

لله ما أجزلتَ فينا به — من منحة تقصر عنها المُنُوح

روض من العلم هَمَى فوقَه — من صَيِّبِ الفكر الغمامُ السَّفوح

فمن بيان الحق زهر ندٍ[1] — ومن لسان الصدق طير صدوح

تأرَّجَ العَرْفُ وطاب الجَنَي — وكيف لا يطعم[2] أولا يفوح

وحلة من طيب خير الورى — فى الجيب والأعطاف منها نضوح

ومَعْلَم فى الدين شَيَّدْتَه — فهذه الأعلام منه[3] تلوح

فَقُلْ لهامان كذا أو فلا — يا من أضل الرشد تبنى الصروح

فى أحسن التقويم أنشأته — خلقا جديدا بين جسم وروح

فعمره المكتوب لا ينقضى — إذا تقضى عمر سام ونوح

كأنه فى الحفل ريح الصَّبا — وكلُّ عطفٍ فهو غصن مَرُوح[4]

ما عذر مشغوف بخير الورى — إن هاج منه الذكر أن لا يبوح

عجبت من أكباد أهل الهوى — وقد سطا البعد وطال النزوح

إن ذكر المحبوب سالت دما — ما هُنَّ أكباد ولكن جروح

يا سيد الأوضاع يا من له — بسيد الأرسال فضل الرجوح

يا من له الفخر[5] على غيره — والشهب[6] تخفى عند إشراق[7] يوح

(١) فى نفح الطيب : بدا .

(٢) فى نفح الطيب : يثمر .

(٣) فى نفح الطيب : منها .

(٤) غصن مروح أى مهتز .

(٥) فى نفح الطيب : الفضل .

(٦) فى نفح الطيب : الشمس .

(٧) يوح اسم من أسماء الشمس وهذا فعبارة المقرى لا تستقيم .

يا خير مشروح وَفى وا كتفى من ابن مرزوق بخير الشروح
فتحٌ من الله حَباَه به ومن جناب الله تأتى الفتوح

وفى الغرض المذكور[1] :

أأزاهــير رياض أم شفـاء لعياض
جدَّل البـاطل للحـــق بأسيـافٍ مواضِ
وجلا الأنوار[2] برهانا بخلْف[3] وافتراض
وسَقى[4] من يشتكى الغلـــة فى زُرْق الحيـاض
أى بنيانٍ معال[5] آمنٍ خوفَ انقضاض
أى عهد ليس يرمى بانتــكاث وانتقـاض
ومعانٍ فى سطور كأسود فى غيـاض
وشفـاء لنفوس[6] من ضنى الجهل مراض
حرَّر القصد فما شِـــينَ بنقـد واعتراض
يا أبا الفضل أدرِ أنّ الله عن سعيك راض
فاز عبد أقرض الله برجحان القِرَاض[7]
وجبت غرُّ المزايا من طوال أو عراض
لك يا أصدق راو لك يا أعدل قاضِ

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الاحاطة (الاسكوريال لوحة ١٣٠) وفى نفح الطيب ج ٧ ص ٣٢٩ .
(٢) فى نفح الطيب : الأنواء .
(٣) فى نفح الطيب : بحق .
(٤) فى نفح الطيب وفى الاحاطة : وشفى .
(٥) فى نفح الطيب : مقال ، وفى الاحاطة : معان .
(٦) فى نفح الطيب والاحاطة : لصدور .
(٧) يشير إلى قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له » .

لرسول الله وفيت بجهد[1] وانتهاض

خير خلق الله فى حال وفى آت وماض

سدَّد الله ابن مرزوق إلى تلك المَراضى

زبدة العرفان مَعْنَي كل نسك وارتياض

فتولى بسط ما أجملتَ من غير انقباض

ساهرا لم يدر فى استخلاصه طعم اغتماض

إن يكن دَيْنا على الأيام قد حان التقاضى

دام فى علو ومن عاداه يَهْوِى فى انخفاض

ما وشى الصبح الدَّياجى فى سَوادٍ ببياض[2]

وقلت أهنىء قائد الأسطول أبا القاسم بن بنج بطلوع ولد :

أبقاك الله أيها القائد الذى بأسه ضَرم ، وشأنه شجاعة وكرم ، ومحل ولايته من العدوِّ حَرَم ، لا تسأل عن شوقى إلى قربك ، وعكوفى على حبك ، وضراعتى فى صلة سعادتك ، إلى الله ربى وربك . وبلغنى الطالع لديك ، والوارد من حضرة المواهب الإلهية عليك ، جعله الله أسعد مولودٍ على والد ، ووفقك لما يرضيه من مقام الشاكر الحامد ، وأقر عينك منه بالقائد ابن القائد ابن القائد . وقد كنت أعدك به تفاؤلا واستفتاحا ، وسؤالا من الله واستمناحا ، فالحمد لله الذى صَدَق الزَّجْرُ ، ووضح الفجر . وقد نظمت له أبياتا إن أدركته بعدها حياتى بر وشكر ، أو كانت الأخرى رحم وذكر هى :

ارْفَعْ قِبِىَّ المُنْشَآتِ بِسَعْدِهِ   واسْتَنْجِزِ النَّصْرَ العزيزَ لِوَعْدِهِ

وانظر إليه تَلُحْ إليك بوجهه   سمة الشجاعة من أبيه وجده

---

(١) فى الاحاطة : بجد .

(٢) فى نفح الطيب . بسواد فى بياض .

لله من سيف لنصرك صارمٍ ينساب ماء الحسن فوق فرنده
صدرت إليك بشارتى وتفاؤلى بالأمر قبل بروزه من غمده
يستبشر الأسطول منه بقائد كالبدر تحت شراعه أو بنده
والبحر يفخر منه يوم ولادة بمِلَنْدِهِ ابن ملنده ابن مِلَنْدِهِ

وكتبت لما صدر الرسول موسى بن إبراهيم من الأندلس ولم تقض حاجتى :

يا بنى السادة الكرام نداء يبتغى الجبر للمهيض الكسير
أنا بالحى مُسْتَجِيرٌ وبالميـ ـت أما فى كليهما من مُجير
ليس موسى هذا بصاحب فرعو نَ ولا فى عصاه من تأثير
فانصرونى وعيِّنوا لى رسولا صارم الحد محكم التدبير
أو أريحو باليأس قلبى فإنى قد تخبطت فى عذاب كبير

وقلت أخاطب عميد الدولة :

يا عمادى صح عنى أننى لك مملوكٌ وتلميذٌ وصاحبْ
فإذا مالم تصدق دعوتى قيل عنى ومعاذ الله كاذب
فأعد عزِّى وشرِّف منزلى وادعُنى للحفل مهما كنت غائب
هذه عندك لا خطْر لها وهى عندى من سَنِيَّات المواهب

وقلت أخاطب مَنْ أصابه داء الجذام من أصحابنا ويدعوه الأطباء بداء الأسد :

أصابتك يا عينُ عينُ الحسد فتَجْرُ النَّدا والنَّدَامَى[1] كَمَدْ
وَوُلِّيتَ كل شهير خطير فقمت به وسَدَدتَ المَسَدّ
ولما عَلَوْتَ وقُدْتَ الزمان بحبل فأوهقته[2] من مَسَدْ[3]

---

(١) الندامى جمع ندمان وهو النادم على الشرب أو الرفيق والصاحب .

(٢) وهق الدابة : جعل الوهق فى عنقها . والوهق (بسكون الهاء أو فتحها) حبل فى طرفه الشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ والجمع أوهاق .

(٣) المسد : حبل من الليف أو حبل محكم الفتل .

رأى أسدا من أسود الرجال لذاك رماك بداء الأسد
تَعَزَّ فما ثَمَّ مِنْ كائِنٍ يصاحبه الكون إلا فَسَد
وقد يتأتى صلاح النفوس وتطهيرها بفساد الجسد

وخاطبت عميد الدولة :

مهما جَرَتْ فى أذنى لفظة وددتُ لو كانت ثناء عليك
أو ذُكِرَتْ عن شَفَةٍ قبلةٌ لم أرضها يوما سوى فى يديك
أو كان لى فى نعم الله من تحكم حُطَّت جميعا لَدَيْك

سيدى ومالكى ، الصَّنائع شجرٌ تُغرس ، وبسياج العناية تصان وتُحرس ، فمنها ما يُعدم ، ويحط سياجه ويهدم ، ومنها ما يُمِرُّ[1] جَنَاه ، إذا نُظِر إناه[2] ، ومنها ما يسمح بإنعامه ، ويرمى أُكُله لِعامِه ، وتقر بصلاحه عين فلاحه ، والصنيعة فى خديمكم فلان اللبيب النبيل الجارى من توفية خدمتكم وشكر نعمتكم على سواء السبيل من هذا القبيل . فأقسم لو شكر رياض الحَزْن[3] صنيعة المُزْن كشكره ، لتأوَّد[4] الغُصن من سُكره ، ورد وشأنه الدعاء وشأننا التأمين ، والله الكفيل بالإجابة الضمين :

إذا ما غرستَ الخيرَ فى ابن جدار ظفرت بكنز منه تحتَ جِدارِ
فشُدَّ عليه الكف ذخر مَضَنَّةٍ[5] واسْكِن به الأسرار دار قرار

ومن دلائل عناية الله بالرئيس وإعانته خلوص بطانته ، فالحمد لله الذى جعل

---

(١) أى جناه مر لم ينضج بعد .
(٢) الإناه : النضج .
(٣) الحزن (بفتح الحاء وسكون الزاى) ما غلظ من الأرض ، وقلما يكون إلا مرتفعا وجمعه حزون وحزن (بضم الحاء والزاى) .
(٤) أوَّد (بتشديد الواو) العود . أى حناه . وتأود أى اعوج وانحنى فهو أود وهى أوداء .
(٥) فى الأصل مظنة . والمضنة ما يضن به ويتنافس فيه .

القلوب والأيدى نوائل رِفده[1] ووده ، والألسنةَ والطَرِوسَ[2] تراجم مجده ، والمملوك يرتقب نُعْرةَ المواضع الحرة ويُمْنَ الشِّيات[3] وسعادة الغُرَّة ، قد نهكته المواعِد والأمل المباعد ، ورجاؤه قوى فى الجَناَب (٧١ ط) الذى إذا وعد وَفَى ، ومَحَلُّهُ من أميرى العدوتين ما احتجب عن الأعين ولا اختفى ، وبقى أمل الله الذى لا تتحرك ذرة إلا بإرادته ، ومنه نسأل صلة عادته ، ودوام أيامه ، واتصال سعادته .

وكتبت إليه فى غرض الشفاعة .

يا سيدى أبقاكم الله محطّ الآمال ، وقِبلة الوجوه ، وبلّغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله وترجوه ، وكلأ بعين حفظه ذاتكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلا لكم بعز الآخرة . بعد تقبيل يدكم التى لا تزال يدها تشكر ، وحسنتها عند الله تذكر ، أنهى إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان ، مع كونه مستحق التجلة بهجرة إلى أبوابكم الكريمة قَدُمَتْ ، ووسائلَ من أصالةٍ وحشمةٍ كَرُمَتْ ، وفضلٍ وقار ، وتنويهٍ للولاية إن كانت ذات احتقار ، ومن اقتضى الفضلُ بِرَّه ، وأدَّبَ شكرُ الاختبار علنَه وسرَّه ، له بمعرفته بسلفكم الأرضَى وسيلةٌ مرعية ، وفى الاعتراف بنعمتكم مقاماتٌ مَرْضية ، وتَوَجُّهٌ إلى بابكم ، والتمسكُ بأسبابكم ، والمؤَّملُ من سيدى سَتْرُه بجناح رعيه فى حال الكَبْرَه[4] ، ولحظه بطرف المَبَرَّه ، إما فى استعمال يليق بذوى الاحتشام أو سُكونٍ تحت رَعْيٍ واهتمام ، وإعانةٍ على عمل صالحٍ يكون مسكَ ختام ، وهو أحق الغرضَيْن بالتزام . وإحالة سيدى فى حفظ رسمِ مثله ، على الله الذى يجزى المحسنين بفضله ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العلى محروسا من النوائب ، مُبَلَّغ الآمال والمآرب . والمملوك قد قرر شأنه فى إسعاف المقاصد (٧٢ و) المأمولة من الشفاعة إليكم ،

---

(١) الرفد : العطاء المعونة .

(٢) الطرس (بكسر الطاء) : الصحيفة ، والجمع أطراس وطروس .

(٣) الشية : العلامة أو كل لون يخالف معظم لون الشىء والجمع شيات .

(٤) الكبرة (بفتح الكاف أو كسرها) : الكبر فى السن ومن معانيها أيضا الإثم الكبير .

والتَّسَحُّبِ في هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله الذى يُعطى ويمنع ويملك الأمر أجمع . والسلام . .

وخاطبت الوالى الكبير بمراكش :

والى الولاة الذى بمكارمه يُضرَبُ المَثَل ، وشرف الُجباة الذى جمع له العلم والعمل ، أبقاكم الله والسعادة لكم مركب ، ونصبة ولايتكم لا يخالف سعدَها كوكب ، كتبتُه ولساني طليق ، وشأنى بالاقتصار على تلك الذات خليق ، وقد كانت عندى مكارمكم التى وقفت على أعيانها ، وبحثت فى سمع كيانها[1] ، واجْتَزَأْتُ[2] بأثَرِهاَ عن عِياَنِهاَ ، وتخطيتُ إجمالَها إلى بيانها ، مما يُقْضَى منه العجب ، ويُجْلِي من غرة الجود ما احتجب ، وأظن ذلك احتفالا استنفد القوة ، وحذقا ختم آيَ الكَرَمِ المتلُوَّة ، فأنتج لى استخبارُ الطارئين فى الأرض والواردين على الغَمْر[3] والبَرْض[4] ، ومتحملى العنايات والشفاعات ، والوسائل النفَّاعات كأبى عبد الله بن جَدار والشرفاء أُولى المُؤَنِ الكبار ، وسواهم على تباين الأطوار ، أنّ قضية مكارمكم مطلقة ، وأعْدَادَ جودكم بالثناء مُنْطِقَة ، فلَعمرى لقد وجدت لذلك خِفَّة على كبدى ، إذ لم أر الصنيعة البعيدة مختصة بيدى ، إنما أنت بحر المواهب الزاخر ، والواحدُ الذى افتخر به الزمان الآخر ، ومتحملُه فلان من ذوى الفضل ذاتا وصحبه ، ووسيلة وقربه ، وله بصاحب رياسة الإنشاء تخصصٌ وتميز ، وفئة وتحيز ، والمراد أن يكون من رعى (٧٢ ط) والى الولاة بمكان مكين ، ومبوّأً من مجده إلى رُبوةٍ ذاتِ قرارٍ وَمعِين ، يكون ذلك من جملة ماله من الأيادى البِرة ، والفواضل المتألقة الغُره ، والله يديم سَعْدَه ، ويحرسُ مجده . والسلام . .

---

(١) يشير ابن الخطيب هنا من باب التلاعب بالألفاظ إلى كتاب سمع الكيان لأرسطو .

(٢) تجزأ او اجتزا بالشى : اكتفى .

(٣) المقصود بالغمر هنا الماء الكثير .

(٤) البرض : (بفتح الباء وسكون الراء) : القليل وجمعه براض : يقال هذا برض من رِعدٌ ، أي هذ قليل من كثير .

وكتبت إلى عميد الدولة فى غرض التحريك والشفاعة :

سيدى الأعظم ، وملاذى الأعصم ، وعروة عزى الوثقى التى لا تُفصم ، أبقاك الله بقاء آثارك ، وأنه للعُمر ، تأمرُ الدهرَ فيأتمر ، ويلبى بثنائك الطائفُ والمعتمر ، بأى لسان أُثْنِي على فواضلك وهى أمهاتُ المِنَن ، وطُرَفُ الشام واليمن ، ومقاماتُ بديع الزمن ، والتحف المرتفعة عن الثمن . فحسبي دُعاء أردده وأواليه ، وأرتقب مطلوبَ الإجابة عن مَقْدَمِه وتاليه ، وان تَشَوَّفَ المنعمُ للحال الموقوف جبرُه بمشيئة الله على جميل سعيه ، الموسدة على وِطاء لطفه ، المُغشَّاة بغطاء رعيه ، فقلبٌ خافق ، وقلب مؤمن يجاريه[1] وَسْوَاسٌ منافق . وقد تجاوز موسى مجمع البحرين ، وأصبح سُرَى إيابه سرى القَيْن[2] . ولقد كانت مراحل الرسُل قصيرة قبل أن يكسبها زُحَلِي ثِقَلَ الحركة ، ويخلط خاصّى فى وظائفها المشتركة ، وليت أمرى برز إلى طرف ، وأفضى الى منصَرَف ، وربما ظفر آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله لا يفضح جاه الكتاب الذى أحيا وأنشر ، وحيَّا وبشَّر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت رسالتكم المحشر ، وموصل كتابى ، ينوبُ فى تقبيل اليد العلمية منابى ، وليعلم (٧٣ و) سيدى أن هذا القطر على شهرته وتألق مشتريه وزهرته ، إذا نُمْخِلَ كِرَامُه ، وعهدُ الفضل لم يَبِنِ انصرامُه ، فهو لُبابُه المُتَخَيَّر وزلاله الذى لا يتغير : أصالةً معروفة ، وهمةٌ الى الآثار مصروفة ونُبلا على السن والكَبْرة ، ورجولةٌ خليقة بصلة الحرمة والمَبَرَّة ، والوسيلةَ لا تُطْرَحْ ، والمعنى الذى لا يُفسر لوضوحه ولا يُشرح ، هو انتماؤه الى جناب سيدى حديثا وقديما ، واعترافُه بنعمه مدبرا لها ومُديما . والله يُوفر من آثار سيدى حظه ، ويجدد لديه وعيه ولحظه ، حتى يعود خافقا عَلَمُ إقباله ، مُعلما بردَ اهتباله ، مسرورا ببلوغ آماله . فلعمرى إن محل ولايته لكَفِيٌّ ، وإن عهد أمانته لوَفِيّ ، وان عامل جده لَظَاهِرٌ وخَفِى ، وما يفعله سيدى من رعيه وإنجاح سعيه كسوبٌ فى مَنَاقبه ، ومعدودٌ فى فضل مَذاهبه والسلام .

---

(١) كذا ، ولعلها يجاذبه .

(٢) القين : العبد والجمع قيان .

وخاطبت الوالى الفاضل أبا محمد بن بطان فيما يظهر من الغرض :

لا ناقة لِيَ فى صَبْرِى ولا جَمَلُ ... مِنْ بَعْدِ ما ظَعَنَ الأحبابُ واحْتَمَلُوا

قالوا استَقَلُّوا بِعَيْنِ الفِطْرِ قلتُ لهم ... ما عَرَّسُوا[1] بِسِوى قَلْبِي وَلاَ نَزَلُوا

ما هذا الاستدعاء الذى نَقَدَ وبَهْرَج وعطف على من اتصف بالسعادة وعَرَّج ، ومرَّ على الخليط المناشب ، كما مرت على الطحن سبَّابة الحاسب ، يُقْدِمُ ويُجْفِل ، ويُعلى ويُسفل ، ويُعلم ويُغفل ، ومنزلتى صفر من هذا التعيين ، وحظى الظمأ (٧٣ ط) من المورد المعين ، إن كانت الوسيلة المعتبرة وسيلة الحب ، فما لوسيلتى تُحبط ، ولركائب استقدامى لا تُربط ، وفى مثلها يُحسد أو يُغبط ، الصَّحب والمحل الرحب ، بحيث يُفعم الوَطْب[2] ، ويدرأ الخطب ، وتُرفع للطارق نارُ القِرَى ، مادَّتها المَنْدَل الرَّطب . نستغفر الله من الاسترابة بالود اللباب ، ونتوب فى الاعتذار عن الأحباب ، ولو علموا بارتفاع التقية ، والمطالبة بالبقية ، لما حجبوا بروقهم ، ولا أغفلوا مَشُوقهم ، ولا منعوا عنه صَبُوحَهم ولا غَبُوقَهم[3] :

وعَسَى الذى قَدَّرَ البِعَاد يُزِيله ... وعسى الذى كتب الفراق يُجَمِّعُ

ولما وقفتُ على استدعاء صاحبنا أبى القاسم وصل الله حفظه ، وأجزل من الخير حظه ، آثرت اعتزامه ، واقتضيت بالعهد التزامه ، وكافحت جيش اعتذاره حتى رأيت انهزامه ، فى أن يشاهد ذلك الجمع المبارك بعينى ، ويكون غريم الدهر فى اقتضاء دينى ، وحركت له الشوق الذى يَذْهَبُ معه الوَسَن[4] ، ويُخْلَعُ فى طاعته الرَّسَن[5] ، وكنت فى رحلته كما قال الحسن[6] :

(١) عرس القوم : نزلوا من السفر للاستراحة ثم يرتحلون .

(٢) الوطب : وعاء اللبن والجمع أوطب ووطاب وأوطاب وأواطب .

(٣) الصبوح شراب الخمر فى الصباح والغبوق شرابها فى المساء .

(٤) الوسن : النعاس من وسن يوسن وسنا وسنة : أخذه ثقل النوم أو اشتد نعاسه .

(٥) الرسن : الحبل الذى تشد به الدابة ، ويقال رمى برسنة على غاربه أى خلى سبيله ولم يمنعه مما يريد .

(٦) يقصد الشاعر المشهور الحسن ابن هانى المعروف بابى نواس . وقد قال هذه القصيدة حينما حرم عليه الخليفة الأمين العباسى شرب الخمر ووصفها . راجع (أحمد أمين : ضحى الاسلام ج٣ ص٣٥٣) .

أيهـا الرائحان باللوم لُوما   لا أذوق المُدامَ إلا شمـيما
جُلُّ حَظِّى منها إذا هى دارتْ   أن أراها وأن أشُمَّ النَّسِيما
نالنى يالملام فيهـا إمامٌ   لا أرى فى خـلافه مستقيما
فـكأنى وما أُزَيِّن منهـا   قَعَدِىٌّ[1] يُزَيِّنُ التحـكيما
كَلَّ عن حَمْلِهِ السلاحَ إلى الحر   بِ فأوصى المطيقَ أن لا يُقيما

والله يَسُرُّ براحة الشيخ النفوس ، ويذهب البُوس ، ويضفى من الوقاية اللُّبوس ، والسلام .

وخاطبت عميد الدولة ، وقد بلغنى إيابُه من زيارة الصَّلَحا بريف بادس ، ضَجِرا بحِمْل الدولة متراوغا عنها :

هَنِيئاً بالقُدُوم مِنَ الزيارة   ولُقِّيتَ السـعادة والبشـارة
وقاد لك الإله خفىَّ لطف   يُبَلِّغ مجدك الأعلى اختيـاره

سيدى أبقاك الله تُعَرِّجُ على البقع المزُورة ركابَ الجلالة ، وتورث مَراقِىَ المنابر لا عن كلالة ، وتنجح فى صميم العمل الصالح بين السلف والسُّلالة ، كانت لىَ آمال أرى بقاءك أَجَلَّها ، وعمدةً لها ، لاشتها الأيام وأدْرَجَتْهَا ، وعَفَى رسمها لما نَسَجَتْهَا ، والدنيا حلوب خلوب ، ومُغالب القدر مغلوب ، وبيد الله أفئدة وقلوب ، وإن ساءت ظنون ، فَثَمَّ الـكاف والنون ومؤلف الضَّب والنون ، وما الدهر الا مَنْجَنُون[2] ، أرضانا الله بمصارف القدر ، وعوضنا منه بالحظ المبتدر ، وفَرَّغَناَ للوِرْدِ[3] البعيد الصَّدَر[4]،

---

(١) القعدة (بفتح القاف والعين) فئة من الخوارج الذين يرون القعود وعدم الخروج إلى الحرب ، ومن زعمائهم عمران بن حطان الخارجي .

(٢) لعل المقصود بالمنجنون هنا آلة كالرحى .

(٣) الورد : الاشراف على الماء وغيره ، من ورد يرد ورودا الماء ، أى صار إليه ودانا، وبلغه والوارد هو الآتى إلى الماء .

(٤) الصدر : الرجوع عن الماء ، والصادر هو الراجع عن الماء وفى ذلك يقال « ماله صادر ولا وارد أى ماله شىء ويقال كذلك » طريق وارد صادر أى يرد فيه الناس ويصدرون ، وفى ذلك يقول الشاعر النجاشى مصورا ضعف قبيلة بنى العجلان أيام عمر بن الخطاب .

ولا يردون المـاء إلا عشية   إذا صدر الوارد عن كل منهل !

فأنا اليوم لا أَمل لى إلا لقاؤك الذى هو الحظ ، وإنْ فَتكَ الزمن الفَظ ، والنَّصير لمَّا ساء المصير ، والكهف لمَّا عَظُم اللهف ، وكيف لا ورعْيُكَ استخرج من الرَّكيَّة[1] ، وسمع على البعد صوت الشكية ، وجودك (٧٤ ط) أعطى وأمطا[2] ، وجاهك فَرَشَ وغَطَّى ، فإن ذوت أغصان الصنائع بلفح جحود ، أو أصبحت الأيادى البيض من الغَمط[3] فى لحود ، فأغصان صنائعك قِبَلى قد زهت بِحَبِّها وأَبِّهَا[4] ، وحَيَّتْهَا نَواسِمُ القبول من مهبِّها ، وأياديك لدىَّ أحياء عند ربِّها ، تسأله جلَّت قدرته القديمة ، ووسعت كلَّ شىء رحمتُه التى هَمَت منها الدِّيمة[5] ، أن يجعل جاهك فى الشمول جنس الأجناس ، وَرَبْعَكَ مَيْدَانَ جياد السرور والإيناس ، ويعصمك يا محمد الحمد من الناس ، ويجعل سعيَك مشكورا ، وفخرك مذكورا ، وقصدَك مأجورا ، وبابَك لا غُفلا ولا مهجورا ، ومقامك حِجْرا عن النوايب محجورا ، وإنى لمَّا طرق النبأ بوجهتك فى سبيل البر والفضائل الغر ، تُجَدِّدُ عهدَكَ بزيارة أولى الفضائل الباهرة الآية ، والمشايخ أنسباء سلفك فى قُعْدُدِ الولاية ، قلت هذا حنين لفصيله ، وجذبٌ عن أسباب أصيله ، وتحويمٌ على شريعه ، ومقدمةُ أوبةٍ سريعة ، مهلا مهلا فلم يَدَع العلم جهلا ، وأهلا بمقامك الذى أقامك الله فيه وسهلا ، ولو زرت طيفورا أو سهلا[6] ، كفٌّ الأكفٌ العادية ، وبثّ المراشد الرائحة الغادية وهداية الخلافة الهادية ، وهو معكم أينما كنتم

(١) الركية : البئر ذات الماء وجمعها ركايا وركى .

(٢) كذا ، وصحتها أمطى ، يقال أمطى الدابة أى ركبها واتخذها مطية ولعله يقصد هنا أنه مسرع فى سيره .

(٣) غمط النعمة لم يشكرها .

(٤) الأبّ : العشب رطبة ويابسة .

(٥) الديمة : مطر يدوم فى سكون بلا رعد ولا برق ، والجمع ديم (بفتح الياء) يقال : أمطرتهم السماء بديمة وبديم .

(٦) لعله يشير بذلك إلى الحسن بن سهل وأبى الطاهر طيفور صاحب كتاب تاريخ بغداد وهما من كتاب ووزراء الدولة العباسية .

حجة بادية ، ومن دَافع فَلْيَدْعُ ناديه . ولله دَرّ رابعة[1] وقد شُغِلَتْ بالحى عن المَيْتِ ، وبالمِشْكَاةِ عن الزيت ، فقالت الناس يطوفون بالبيت ، وإن شوّق (٧٥ و) ارتياضٌ ومران ، وكاد يُلْقَى بِمَعْطِن[2] التجريد جران[3] ، فليس يُحمَد قبيل النُّضْج بُحران ، وعالِم السياسة قُلَّب ، وود إخوان الخُوان بارق خُلَّب ، وفرع دوحتك الذى فى هَضْبة المنبرِ الأمامى قد غرسته ، وديوان النشأة الطاهرة قد درسته ، فعاهده بالكفالة حتى يسح ، ويرف دومه وسح ، ولا تُوحشْ مَنْبِتَه المبارك بإغبابِ[4] شمسك ، ومتّعه واخوته بنعيم يومك ، إذ لا قُدرةَ لنفسك على ردّ أمسك ، وإذا ذُكر القدر فأمسك ، وهوَى مماليك سيدى أن لا يقع تفويض ، ولا يُعدم للمدبر الحكيم تسليمٌ وتفويض ، فالذى دبَّره فى الأحشاء ، وحكَّم فى صورته الحسنة يدَ الإنشاء ، حيث لا سببٌ يُعمل ، ولا فكر فيما يُلغى ولا فيما يعمل ، ولا حيلةٌ تُحْكَم ، القوة العاجزة واللسان الأبكم ، هو الكفيل لك بحفظ المنِصب ، وصون الجناب المخصِب ، حتى تستوفى عمر النهاية حِلْسَ[5] وسادك ، فائزا بنعيم الدارين على رغم حسادك ، وتَطْرَبُ إذا قَرَعَتْ المنابرَ المفضلةَ عُصَيّاتُ حفدتك وأولادك ، تحت كفالتك وبإرفادك ، وسيدى شيخ زاوية الخلافة . فلا أَقْفَرَ منه محرابها ،

---

(١) الاشارة هنا إلى أم الخير رابعة بنت اسماعيل العدوية ، المتصوفة المشهورة التى عاشت فى البصرة فى القرن الثانى الهجرى على عهد العباسيين ، وتوفيت ودفنت بظاهر القدس سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) حيث استمر قبرها يزار ويتبرك به مدة طويلة . راجع (ابو القاسم القشيرى : الرسالة القشيرية ص ٨٦ ، ٦٧٣ ، ١٩٢ بولاق ١٨٦٧) ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٨ راجع كذلك (دائرة المعارف الاسلامية مادة : رابعة العدوية التى كتبتها مارجريت سميث) ويلاحظ أن هذه الكاتبة الانجليزية قد ألفت أيضا كتابا خاصا حول هذه الشخصية الدينية العظيمة تحت عنوان :
Margaret Smith : Rabia the Mystic her her Fellow - Saints in Islam - (Cambridge) 1928 .

(٢) المعطن : مبرك الإبل والغنم حول الماء والجمع معاطن .

(٣) الجران : من البعير مقدم عنقه ، ويقال القى البعير جرانه أى برك ، والقى الليل جرانه اى امتد وانتشر ، والقى فلان على هذا الأمر جرانه أى وطن نفسه عليه ، والقى عليه جرانه اى أثقاله والمعنى هنا فلسفى صوفى أى أنه تجرد وتصوف وكاد أن يستقر على ذلك .

(٤) إغباب المطر : نزوله شيئا فشيئا وكذلك فى حالة الشمس .

(٥) يقال فلان حلس بيته أى لازمه لايبرحه ويقال كذلك : أحلاس الخيل أى الملازمون ركوبها.

ولا أغفلت من غرر صنائعه البيض عُرابُها[1] ، ولا استوحش من حسام رأيه السديد قرابها ، وعندما ورد البشير برجوع نَيِّرِكَ الأعظم إلى بيت شرفه ، واستحثاث بريد الخلافة ركاب منصرفه ، قلت (٧٥ ط) اللهم اكتب خُطاه وأجْرَه ، وارْعَ فى معاملة أوليائك تَجْرَه[2] ، وغَبِّطهُ بعد بالمُقام فى المَقَام الذى فيه أقمته ، وأرغمت الباطل ووَقَمْتَه[3] ، وهَنِّهِ الإيابَ الذى أزحت به الارتياب ، والقفول الذى كفيت به آمالنا الأفول — والسلام .

وخاطبت فى سبيل الدعابة من تزوج قَينة[4] :

كنتُ أغبطُك ، أعزك الله ، بتسويغ اللذات ، وتهنى طيب الحياة ، ولباس خِلَع الخلاعة ولو قامت الساعة ، فإنما الإنسان بيومه لا بقومه ، وبوقته لا بالمبالات بمقته ، وأدعو الله أن يُجزل أجرتك ، ويتقبلَ هجرتك ، ويُؤَمِّنَ من الشرط حجرتك ، ويعطف على محلِّكَ قلوبَ الفتيان ، ويقربهم للإتيان ، ويقطع بشهرة قينتك حظوظ القيان ، ويسلبك الغيْرة التى تفسد العشرة ، وتكشف القشرة ، وكأننى بك أعزك الله وقد ظهرت بوجهك سعفة[5] النبيذ ، وتَفطَّر[6] لها جلد وجهك تفطُّر جلد الجَدى الحنيذ[7] ، وأصاب أسنانك الحَفَر ، وريحك البَخَر ، وعينك الشَّتَر[8] ، وشعرك الحَزَاز[9] ويدك الكُزَاز[10] ، وأصبحت مخمورا ، مَنْهياً من عيالك مأمورا ، وقد

---

(١) يقال خيل أو إبل عراب : أى كرائم سالمة من الهجنة .
(٢) أى تجارته .
(٣) وقم الباطل أى قهره وقضى عليه .
(٤) القينة الأمة أو المغنية .
(٥) السعفة : خروج تخرج فى الرأس والوجه .
(٦) تفطر وانفطر : انشق وتصدع .
(٧) حنذ اللحم : شواه وأنضجه ، فاللحم حنيذ .
(٨) شتر العين : قلب جفنها ، والشتر (بفتح الشين والتاء) انقلاب جفن العين . والأشتر من كان جفن عينه منقلبا أو منشقا أو مسترخيا أسفله وكذلك من كانت شفته السفلى منشقة .
(٩) الحزاز والحزازة : القشرة التى تتساقط من الراس كالنخالة .
(١٠) الكزاز : الرعدة والرعشة والاهتزاز .

أعلفت عمامتك بسروالك ، وسدلت القشرة البيضاء على أسمالك ، وقعدت بدُكة بابك تتلقف العيَّارة[1] ، وتعترض السيارة ، وتُعيِّنُ للوقت الزيارة ، فإذا اقتضيت النقد من الخرْج ، ودَلَّلتَ الفحول على المرج ، وخطبتَ لمشاهدة الرقص والدَّرج ، نهضت لشراء (٧٦ و) مُرِنٍّ حجولك[2] ، وما يتكفل بسولك ، من طراوةٍ تصقُل البشرة وتنقيها ، ونخلخة[3] تستر رائحةَ الإبْط وتخفيها ، وسَنونٌ[4] يطيب الفم ، ويوافق الشم ، وضمادٌ يشد الندى إذا ذَبُل ، وفَرْزَجة[5] تمنع الحبل ، وحَشَوْت جنبيك أوتارا ، وأعددت دُستانا[6] ثانيا وحمَّارا ، وشاركت على المرابحة خمّارا ، وبسطت نِطع[7] القعود ، وأعددت لإيداع الفتوح غشاء العود ، وترددت إلى الباب توقعا لإخلاف الأخلاف الوعود ، فأقسم عليك يا سيدى أن لا تُغْفِلَناَ من بالك ، ولا تنسنا من تَحرامِك المصحَّفِ أو حلالك ، وأسهمنا فى فضل تجارتك ، وعيْن

(١) العيار : الكثير التجول والطواف والذى يتردد بلا عمل ويخلى نفسه وهواها . وقيل هو الذكى النشيط الكثير التطواف . وقد تطلق كلة العيارة أيضا على الحارين لأن — كلة العير (بفتح العين وسكون الياء) معناها الحمار . هذا وقد وجد فى بغداد خلال العصر العباسى جماعة من مختلف الأوساط الشعبية أطلق عليهم اسم العيارين ، وكانوا عادة من الفقراء واللصوص وقطاع الطرق . إلا أنهم يحملون مبادىء إنسانية مثالية لا توجد عند اللصوص العاديين . فالعيارون لا يعتدون على النساء ، ولا يسرقون الفقراء وإنما يسرقون أموال الأغنياء الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، وهم أبطال عند الشدائد ولهم مواقف مشهورة فى الدفاع عن مدينتهم بغداد . ويرى الدكتور عبد العزيز الدورى أن حركة الفتوة التى ظهرت بعد ذلك ما هى إلا سليلة حركتهم .

راجع : (الدكتور حسين امين : العيارون ونشاطهم الشعبى فى بغداد — مجلة التراث الشعبى بغدا ، العدد الثانى ١٩٦٣) راجع : كذلك (الدكتورالدورى : دراسات فى العصور العباسية المتاخرة ص ٢٨٣ — بغداد ١٩٤٥) .

(٢) الحجول والأحجال : معناها الخلاخيل .

(٣) لعله نوع من الطيب ؛ يقال لخة او لخاة بالطيب بمعنى طلاه به .

(٤) السنون نوع من المساويك يستاك به أو هو المسحوق الذى تدلك به الأسنان لتنجلى .

(٥) انظر معجم دوزى ج ٢ ص ٢٥٢ حيث يقول : فرزجة هى قطعة من الدواء تتخذ أمثال البلاليط وتتحمل من قُبُل أو دُبُر وهى غير عربية .

(٦) لعلها من الدست بمعنى المرجل أو الاناء الكبير ، والدستان فى اصطلاح أصحاب الموسيقى الوتر من العود أو ما يقابله فى سائر الآلات ، والجمع دساتين .

(٧) النطع (بكسر النون أو فتحها وسكون الطاء) : بساط من الجلد يفرش عادة تحت المحكوم عليهم بالاعدام أو العذاب والجمع انطاع ونطوع .

جُمالتك[1] وإجارتك ، واضرب لنا بحظ في قسم ما في طنجهارتك[2] — والسلام .

وفاة زوجة ابن الخطيب :

وفي السادس لذي قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة المذكور ، طرقني ما كدَّر شُربي ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغرَ زُغْبِ الحواصل بين ذكران وإناث في بلد الغربة وتحت سرادق الوحشة ، ودون أذيال النكبة ، فَجَلَّت عليها حسرتي واشتد جزعي ، وأشفيت لعظم حزني ، إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة وصبرا ومكارم أخلاق ، حازت بذلك مزية الشهرة حيث حلَّت من القطرين ، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة سلا ، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولى القراءة دائما عليها ، وصدر عني مما كتب على ضريحها وقد أغرى به التنويه والاحتفال :

رُوِّعَ بالِي وهاجَ بَلْبالي ... وسامني الثُّكْلُ بَعْدَ إقبالِ

ذخيرتي حين خانني زمني ... وعُدَّتي في اشتداد أهوال

حفرت في داريَ الضريح لها ... تعللا بالمُحال في الحال

وغبطةٌ توهم المقامَ معي ... وكيف لي بعدها بإمْهال

سقى الحيا قَبْرَكِ الغريب ولا ... زال مُناخاً لكل هَطَّالِ

قد كنتِ مالي لما اقتَضَى زَمَني ... ذهابَ مالي وكنت آمالي

أمَّا وقد غاب في تراب سلا ... وجهُكِ عني فلست بالصالي

واللهِ حزني لا كان بعد على ... ذاك الشبابِ الجديد بالبالي

فانتظريني فالشوق يقلقني ... ويقتضي سُرعتي واعجالي

ومهدي لي لديك مضطجعا ... فعَنْ قريبٍ يكون ترحالي

واسمُكِ مقلوبُهُ يُبيِّنُ لي ... مآلَ أمري في معرض الفال

---

(1) الجملة : ما يؤدى ، ويقال وضع له جملا أى أجرا على شيء يفعله .

(2) الطنجير والطنجرة : قدر من نحاس أو وعاء يعمل فيه الخبيص ونحوه .

وقلت فى هذا الغرض وهو معنى صوفى :

يا قلبُ كم هذا الجوى والخفوتْ ذماءك استبْقِ لئلَّا يَفُوتْ

فقال لا حول ولا قول لى قد كان ما كان فحسبى السكوت

باينني الرشـــد وباينته لما تعشقتُ بشيء يموت

وخاطبت الرئيس الثَّبْت بقية الأشراف بهذا الموطن ، عامر بن محمد بن على الهنتاتى[1] معَزِّياً عن أخيه السِهر الفاضل عبد العزيز رحمه الله[2] :

أبا ثابت كن فى الشدائد ثابتا أعيذك أن يُلْفَى حسودك شامتا

عزاؤك عن عبد العزيز هو الذى يليق بعز منك أعجز ناعتا

فدوحتك الغناء طالت ذوائبا وسَرْحَتُكَ الشماء طابت نوابتا[3]

لقد هدّ أركانَ الوجود مصابُه وأنطق منه الشجوُ من كان صامتا

فمِنْ نَفْسِ حرٍ أوثق الحزنُ كظمها ومن نَفَسٍ بالوجد أصبح خافتا

هو الموت فى الإنسان[4] فصل لحده فكيف نرجِّى أن نصاحب مائتا

وللصبر أولى أن يكون رجوعنا إذا لم نكن بالحزن نُرْجِعُ فائتا

اتصل بى أيها الهمام ، وبدرُ المجد الذى لا يفارقه التَّمام ، ما جنته على عليائك الأيام ، واقتنصه مُحَلِق الردى بعد أن طال الحيام ، وما استأثر به الحِمَام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذِّمام ، من وفاة صِنْوِكَ الكريمِ الصفات ، وهَلاكِ وُسْطَى الأسلاك ،

---

(١) نسبة إلى قبيلة هنتانه احدى بطون مصمودة بجبال أطلس الكبير أو درن ، وقد لعبت هذه القبيلة دورا كبيرا فى تشييد سلطان الموحدين فى المغرب والأندلس وينتمى اليها مؤسسو الدولة الحفصية بتونس (نسبة إلى الشيخ أبى حفص الهنتانى) ولقد سبق أن تكلمنا فى شيء من التفصيل عن جبل وقبيلة هنتانه وعن الشيخ عامر بن محمد شيخ هنتانة فى حواشى صفحتى ٤٣ ، ٤٤ من هذا الكتاب .

(٢) أورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب (ج ٩ ص ١١٧ — ١٢٠) .

(٣) فى نفح الطيب : منابتا .

(٤) فى نفح الطيب : للانسان .

وبدرِ الأحلاك ، ومجبر الأملاك ، وذهاب السَّمْحِ الوهاب ، وأنا لديغ صِلِّ الفراق ، الذى لا يفيق بألف راق ، وجريح سهم البَيْن ، ومجارى العيون الجارية بدمع الغين ، لفقد أنيس سَهَّل علىَّ مضَضَ النكبة ، ونَحَّى ليث الخطب عن فريستى بعد صدق الوثبة ، وانسّنى فى الاغتراب ، وصحبنى إلى منقطع التراب ، وكَفَل أصاغرى خير الكفالة ، وعاملنى من حسن العشرة بما سَجَّل عقد الوكالة ، وانتزعه الدهر من يدى حيث لا أهل ولا وطن ، والاغتراب قد ألقى بِعَطَن ، وذات اليد يعلم حالها مَنْ يعلم ما ظهر وما بطن (٧٧ ط) ورأيت من تطارح الأصاغر على شِلْوه[1] الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ، ما حملنى على أن جعلت البيت له ضريحا ، ومدفنا صريحا ، لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيما لديه ، وأنَّ ظلَّ شفقته منسحبٌ عليه ، فأعيا مصابى عند ذلك الشرح[2] ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ القرح القرح ، إذ كان ركنا قد بنته لى يد معرفتك ، ومتصفا فى البر بى والرَّعى لصاغيتى بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من حسام ، وعزٍّ سام ، وأيادى جسام وشهرة بين بنى حامٍ وسام ، أى جمال خَلْق ، ووجه للقاصد طَلْق ، وشيم تطمح للمعالى بحق ؟ وأى عضد لك يا سيدى الأعلى[3] لا يَهِنُ إذا سطا ، ولا يقهقر[4] إذا خطا ، يوجبُ لك على تحليه بالشَّيْبة ، ما توجبه البُنُوَّة من الهيبة ، ويردّ ضيفك آمنا من الخيبة ، ويسد ثغرك عند الغيبة — وكما قال[5] عليه السلام للأنصار : « أنتم الكرش والعيبة » — ذهبت إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولى وأدبر ، واستنجدت الدمع فنضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأى حزن يُلقى[6] فقد عبد العزيز ، العزيز على المجد فقده ، أو يُطْفأ لاعجه وقد عَظُم وَقْدُه ، اللهم لو بكى بِنَدَى أياديه ،

---

(١) فى نفح الطيب : شلو .

(٢) فى نفح الطيب : الفرح .

(٣) كلمة الأعلى ، ساقطة فى نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : ولا يقهر إذ حظى .

(٥) هذه العبارة التى بين شرطتين ساقطة فى نفح الطيب .

(٦) فى نفح الطيب : يلقى عبد العزيز وقد حل فقده أو يطفى ...

أو بغمام[1] غواديه ، أو بِعُباب[2] واديه ، وهى الأيامُ أى شامخ لم تَهُدَّه ، أو جديد لم تُبْلِهِ وإن طالت المُدَّة ؟ فرَّقَتْ بين التيجان والمفارق ، والخدود والنمارق[3] ، والطُّلَى والعقود ، والكأسِ وابنة العنقود ، فما التعلل بالفَان ، وإنما هى إغفاءة أجفان ، والتشبث (٧٨ و) بالحبائل ، وإنما هى ظل زائل ؟ والصبر على المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طِلابا ، ورجع إليه طوعا أو غِلابا ، فأنا يا سيدى أقيم رسم التعزيه ، وإن بوّئت بمضاعف المرزية ، ولا عَتْبَ على القَدَر ، فى الوِردِ من الأمر والصَّدَر ، ولولا أن هذا الواقع مما لا يجدى فيه الخُلصان[4] ، ولا يغنى فيه اليراع ولا الخِرْصان[5] ، لأتى جُهْدَه[6] من أقرضتموه معروفا ، أو كان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفا ، لكنها سوقٌ لا ينفق فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطىّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمرى لقد خلدت لهذا الفقيد ، وإن طمس الحِمَام محاسنه الوضاحة ، لما كَبَس منه الساحة ، صُحُفا مُنْشَرَة ، وثغورا بالحمد مُوشَرة ، يَفْخر بها بَنُوه ، ويستكثر منها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوه ، وأنتم عمادُ الفازه[7] ، وعلم المفازه ، وقطب المَدَار ، وعامرُ الدار ، وأسد الأَجَمَة ، وبطل الكتيبة المُلْجمة ، وكافل البيت ، والستر على الحى والميت ، ومثلك لا يُهْدَى إلى نهجٍ لاحب[8] ، ولا تُرشد أنوارُه بنار الحُباحِب[9] ، ولا يُنَبَّهُ على سُنَن نبى كريم أو صاحب ؛

---

(١) فى نفح الطيب : بغمائم .

(٢) العباب : أمواج البحر أو معظم مائه .

(٣) النمارق جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها .

(٤) الخلصان : الخدن او الصديق الخالص ، ويستوى فى هذه الكلمة المفرد والجمع .

(٥) الخرصان جمع خرص وهو الرمح القصير السنان ، والخرص أيضا معناه الجراب والدن والزنبيل وحلقة الذهب أوالفضة وجريدة النخل والعود الذى يخرج به العسل .

(٦) فى نفح الطيب : لا بلى جده .

(٧) فى نفح الطيب : البازة ، والفازة مظلة من نسيج أو غيره تمد على عمود أو عمودين .

(٨) النهج : الطريق ، واللاحب : المستقيم الواضح .

(٩) فى نفح الطيب : ولا ترشده نار الحباحب ، والحباحب ذباب يطير فى الليل فى ذنبه شعاع كأنه نار ، وتطلق نار الحباحب أيضا على ما تقدحه حوافر الخيل .

قدرُك أعلى ، وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير مُعْلٍ لأعلام الفضل ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خَصَّنى من المصاب ، ونالنى من الأوصاب[1] ، ونزل بى من جوْر الزمان الغَصَّاب ، ممن يقبل عُذْرَهُ الكرم (٧٨ ط) ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدى وعمادى ببقاءٍ يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلى لقومه رتب العز سامية البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وُجوده ولا يحس بعطّ[2] زمان مع جوده ، ويقر عينه فى ولده وولد ولده . ويجعل أيدى مُناوِيه تحت يده . والسلام .

وخاطبت صاحب القصبة بمراكش على هذا العهد مسعود بن يوسف بن فتح الله بما نصه :

أمسعود بن يوسف طيرُ قلبي ... على شجر الكرام له وقوعُ
وفى علياك لى كنز اعتقادٍ ... على أمثاله تطوى الضلوع
إذا نَفْسُ امرىءٍ ولعت بمغنى ... فما بسوى كمالك لى ولوع

سيدى أبقاك اللهُ عالى القدر ، منشرحَ الصدر ، حالاً من منازل السعادة منزلة البدر ، تَنَخَّلْتُ الأماجدَ فوقف على تفضيلك اختيارى ، وإن لم يُتَح لقائى ولا قُرب جوارى ، لكن السماع ، ومتى يُرَدُّ حكم أصله الإجماع والأخبار والاعتبار . فلما أتاح الدهر تلك اللمحة على ظهر طريق ، وانحياز فريق ، هممت أن أَبُثَّك بعض اعتقادى ، وأَنْفُثَ بعُقَد ودادى ، فضاقت الوقفة ، ولم تكمل الصفقة . وانصرفت انصراف الظمآن شارف العذب الزلال فلم يشرب ، والمُحبِّ مُنى ساعة اللقاء فما أبان ولا أعرب ، وخفت أن يُجْرِيَه سيدى مُجرى الهذر الذى هو صَرْفُ (٧٩ و) الأسواق ، والمعاملة به على الاطلاق ، حيث لا خلاق ، بل هو والله الحق الذى وضح مُحَيَّاه ، والبارق

(١) أوصاب : جمع وصب وهو المرض والوجع الدائم ونحول الجسم ، وقد يطلق ايضا على التعب والفتور فى البدن .

(٢) عطة الزمان : أى صرعه وغلبه ، وفى نفح الطيب : بعض .

الذى أغدق سُقياه ، والحديث الذى اخجل المسك رَيّاه ، لم تحمل عليه المطامع ، ولا السراب اللامع ، فليثق سيدى من المعتدِّ به بموجب حقِّه ، العليم بسبقه ، والقائل بأنه واحدُ عصره ، وحسنة دهره ، إلى أن يَمُنَّ الله بلقاءٍ يشرح المُضْمَرَ ويُبينُه ، حتى تَخْفِقَ رايته وينتشرَ كمينه ، والله يديم سعد سيدى وعلاه ، ويحفظه ويتولاه .

وخاطبت الوالى بدرعة ، وبلاد القبلة ، السرى الماجد أبا محمد عبد الله بن محمد حفظه الله وأعزه :

والى الولاة وواحدَ الزمن الذى ... تبـآى الملوكُ بمثله وتُفاخرُ

صيَّرت حاتمَ طَيٍّ يزرى به ... زار ويسخر إن تذوكر ساخر

إنْ كان طلاً انت جودٌ ساجمٌ ... أو كان نهرا أنت بحرٌ زاخر[1]

وإذا الزمان الأول استعلى بأهـــليه أناف بك الزمانُ الآخر

كتبت إلى سيدى والخجل قد صبَغَ وجه يراعى ، وعقم ميلادَ إنشائى واختراعى ، لمكارمه التى أعيت بِمَنِّهِ ذراعى ، وعجز فى خوض بحرها سفينتى وشراعى ، فلو كان فضله فناًّ محصورا ، لكنتُ على الشكر مُعانا منصورا ، أو على غرضٍ مقصورا ، لزأرتُ أسدا هصورا ، ولم يُرَ فكرى عن عقائل البيان حَصُورا[2] ، لكنه مجدٌ تألق بكل (٧٩ ط) ثنيَّة ، ومكارم رمت عن كل حنيَّة ، ومجدٍ سبق إلى كل أمنية ، وأيادٍ ببلوغ غايات الكمال معنية ، فحسبى الإلقاء باليد لغلبة تلك الأيادى ، وإسلام قيادى ، إلى ذلك المجد السيادى ، وإعفاء يراعى ومدادى ، فإذا القول من باب الخبر إلى باب[3] الدعاء وقد وصلنى كتابُ سيدى مختصرَ الحجم ، جامعا بين النجم[4]

---

(١) الطل : المطر الضعيف أوالرذاذ او الندى ، والجمع طلال اوطلل (بكسر الطاء) أما الساجم من الماء أو الجود . فهو المستمر المنهمر ، يقال أسجمت السحابة ، أى طال مطرها . والشاعر يريد فى هذا البيت أن يقول لممدوحه ان كان حاتم طيء رذاذا فى جوده فأنت غيث منهمر مستمر .

(٢) الحصر هنا بمعنى العى فى النطق .

(٣) أبواب من البلاغة .

(٤) النجم تأتى بمعنى ما نجم أى طلع من نبات ضعيف على غير ساق خلاف الشجر ، وتأتى أيضاً بمعنى الكوكب أو الثرى فى السماء ، والكاتب يريد الجمع بين أصغر شىء وأعلى شىء على سبيل المدح .

والنجم ، قريب عهد من يمينه بمجاورة المطر السَّجم ، فقلت اللهم كافِ سيدى واجزه ، ومُرِيدَهُ بالضر فأخزِه ، ولله دَرُّ المثل : أشبَهَ امرأ بعضُ بَزِّه[1] ، كمال واختصار وريحانُ أنوفٍ وإثمِدُ[2] أبصار ، أعلَنَ بالرَّعْى الذى لا يُغيِّر بعدُ الدار من شيمته ، ولا يقدح اختلاف العروض والأقطار فى ديمته ، إنما نفسه الكريمة والله يقيها ، وإلى معارج السعادة يُرْقيها ، قانونٌ يُلحق أدنى الفضائلِ بأقصاها ، وكتابُ « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا[3] أحصاها » ، وإنى وإن عجزت عما خصنى من عُمومها ، وأحسبنى من جُمومها[4] لمخلِّدٌ ذكرٍ يبقى ، وتذهبُ اللَّهى[5] ، ويعلى مبانى المجدِ تُجاوز ذوائبُها السُّهَى[6] ، ويذيع بمحافل الملك فما دونها ، تمَادِحَ يَهْوَى المسكُ أن يكونها ، وتعطف له الرياضُ العِينُ[7] غصونَها ، وتُكحل به الحور العِينُ[8] عيونَها ، (٨٠ و) وتؤدى منه الأيام المتربة دُيونَهاَ ، وإن تشوَّفَ سيدى بعدَ علو حمده وشكره ، واستنفادِ الوسع فى إطالة مدحه وإطابة ذكره إلى الحال ، ففلان حفظه الله يشرح المجمل ويبين من عواملها الملغى والمعمل[9] . وأما اعتناء سيدى بالولد المكنى بجرمته ، فليس ببدْعٍ فى بعد صيته وعلو همته ، على من تمسك بأذمته ، وفضله أكبر من أن يقيد بقِصَّة ، وبدر كماله أجل من أن يعدّل بوسَط أو حِصَّة ، والله تعالى يحفظ منه فى الولاة والى القبلة ، وولى المكارم بالكَسْبِ والجِبِلَّة[10] ، ويجعل جيش تمامه لا يؤتى من القلة بفضله وكرمه .

(١) البز : الثياب . يريد أن يقول أن الإنسان يشبه نوع الثياب التى يلبسها .

(٢) الإثمد : حجر يكتحل به .

(٣) الآية رقم ٤٩ من سورة الكهف .

(٤) يقصد بالجموم هنا : الراحة يقال جم القوم أى استراحوا وكثروا .

(٥) اللهى : جمع لهية وهى العطية .

(٦) السهى أو السها : كوكب خفى ومنه المثل : « أريها السهى وترينى القمر » يضرب للذى يسال عن شىء فيجيب جوابا بعيداً .

(٧) العين : جمع عيناء وتأتى هنا بمعنى الخضراء : يقال أرض عيناء أى خضراء .

(٨) والعين هنا جمع عيناء ومعناها الحسناء التى اتسع سواد عينها .

(٩) يشير هنا إلى بعض نظريات النحو من باب التلاعب بالألفاظ .

(١٠) الجبلى أى الطبيعى والفطرى ويقصد بهذه العبارة : المكارم المكتسبة والفطرية .

وخاطبت أبا سعيد بن حبوس الوالى بمكناسة فى بعض الأغراض ، وهو ممن يثنى عليه الأحلاف من صحابته إخوان النبيذ ، استكشف ما موَّهوا به من زيفه فكان بهرجا زائفا شيمة مثله :

شاع أعزك الله على ألسنِ أصحابك ممن عرف نبله وعقله ، وصحَّ فى الأخبار نقله ، أنك جواد الوقت ، الآمن من المقت ، وإنك محلى التخت ، ومعيد البخت ، ومأوى الضيف ، فى الشتاء والصيف ، وأنا ما علمتَ ضيفُ الكرام حيث حللت ، ونزيلُ (٨٠ ط) الأجواد متى نزلت ، أرحلُ عنهم والثياب تضيق بها العِيَاب[1] ، والجياد يَجْنُبُها[2] القياد ، والصُّرر ، قد أشرقت منها الغرر ، حرصا على ثناء يخلّد ومعنى يولّد ، ودولة تحلى بالمكارم ، ومُروة يهون عليها ضرب المغارم ، فبِتُّ بجوارك ليلتين أكلت فيهما من زادى ، وشربت من ماء الوادى ، وجعلتُ الأرض مِهادى ، وطال لأجل البراغيث سُهادى ، ولقد سألنى الوزير أبقاه الله عن طريقى ورفيقى وفريقى ، فأجملت المُفَسَّر ، وألممت من الكذب بما تيسر ، وقلتُ عُلم استدعاؤك إياى ، واستقدامى من مثواى ، فآثر الناس بجملتهم هواى ، وأما فى الإياب بعد أن بوأت البيت ، وأوليتَ ما أوليت ، فالأمر أكبر ، والخبر لا يفى به المَخْبَر ، فخاطبتك أعزك الله مخاطبة من يَغار على شُهرةِ جودك ، والحكم لك بالثناء قبل وجودك ، فإما أن يقع الصلح على ضريبةٍ قريبة ، ويرتفع عن وجه المُحادَّةِ نقابُ الريبة ، أو يكذِبَ النقل ، ويكون قِرى ضيفك الماء والبقل ، اللهم إلا إن كان قبولُك خاصا بمن راق خدُّه ، وحسن قدُّه ، وتبلات طُرَّتُه[3] ، وأخجلت البدرَ غرته[4] ،

---

(١) العياب والعيبات : والعيب (بكسر العين وفتح الباء) جمع عيبة وهى كيس من جلد كالصندوق توضع فيه الثياب .

(٢) جانبه يعنى سار إلى جنبه ويقال أيضاً فرس طوع الجناب أى سهل الانقياد .

(٣) الطرة : هنا بمعنى الجبهة .

(٤) الغرة : من الرجل وجهه .

لحظنا لديك الخيبة ، ولو قصدناك من مكة وطَيْبة ، وموصلُه يقرر المطلب ، ويخبر منك البارقَ الخُلَّب ، والقصد المشاركةَ فيما أمر بشرائه ، ومحاولة (٨١ و) نقله بما يستحقه من كرائه وأنا ارتقب وصولَه وأنتظر حصولَه ، وعلى كل حال فشكرى لشكر الخلق فيك تَبَع ، وإن لم يقع فى جوارك رىٌّ ولا شِبَع ؛ وثنائى جميل وإن لم يُقضَ من برك تأميل ، وما ألممت به إنما هو دعابة تخف على أهل النُّبْل ، ومن يسلك من التظرف أوضحَ السُّبْل ، والله يمتع بعدُ بلقائك ، ويجلى غررَ الفضل من تلقائك . والسلام .

رجع التاريخ

تولية السلطان أبي سالم ابراهيم المريني ونهايته

وفي ليلة التاسع عشر من شهر ذى قعدة عام اثنين وستين وسبعمائة وقعت بأمير المغرب ابراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن ، الدَّبرة وأخذته فى مَجْثَمه[1] الصيحة لتوفر أسباب البِغضَة ، وتكاثر دواعى الخلعان ، إذ كان هذا الصبي ذاهلا عن الحزم ، مثلا في البلادة وكَلاًّ[2] ، مؤثرا للحجبة ، معوضا[3] للبطالة ، مسلوب الغَيْرة على المال ، قنوعا من الإمرة بالاسم ، مجتزئا من انفساح الخطة بالكسر ، كاسدَ سوقِ العطاء ، معطيا لِعِداه الضمَّة ، معطلا رسم المشورة ، استقر لأول تصيُّر الأمر لاخيه أمير المؤمنين[4] ، الحية الذَّكَرْ مغرَّبا بغرناطة دار ملك الأندلس ، وهو صبي ذو وسامة ، فى جملة من إخوة وبنى عم ، ثم حركه القدر بطلب الملك ، وهاجته دعوات سماسرة الفتن على نبأة هلاك أخيه ، وأخذ البيعة بعده لولده الصبى الصغير بعد قتل كبيره (٨١ ط) ولى العهد بتدبير الوزير الحسن بن عمر بن يخلف العدودى[5] فى خبر طويل ، فرقَّقَ هذا الأمير المستدعَى عن صبوح مغزاه لسلطانها ،

---

(١) المجثم محل الجثوم أى المأوى والجمع مجاثم يقال جثم الرجل أى تلوذ بالأرض فهو جاثم .

(٢) الكل (بفتح الكاف) الضعيف .

(٣) كذا ولعلها معودا

(٤) الاشارة هنا إلى السلطان أبي عنان فارس المريني الذى حكم المغرب فى الفترة ٧٤٩ ـ ٧٥٩ هـ (١٣٤٨ ـ ١٣٥٨ م) ويلاحظ أنه اتخذ لقب أميرالمؤمنين أى لقب الخلافة فى حين أن معظم ملوك بنى مرين اكتفوا بلقب أمير المسلمين .

(٥) العدودى كذا فى الأصل ، وفى مراجع أخرى : الفودودى . انظر (اسماعيل بن الأحمر روضة النسرين ص ٢٨ ، ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن فى Hesperis 1925, 1er. trimestre.

فلم يَشْكُ بثه ولا راش عزمه توقعا أن يُخفِق مسعاه فيبوء من وطن المغرب بإحنة تُطَوِّقُ الأندلس طوق خِزْيةٍ وتجر عليها ذيل نكيرةٍ ومعْتبةٍ مع الافتقار لمن علا هضْبتَها وتملك ناصيتَها . فلما يئس من الإنجاح، وتشكَّى إلى غير المنصت[1] عوَّل على نفسه ، واقتصر على عزمه، وركب الخطر طوع همه ، فخرج عن الحضرة ليلا ، على بعض مجارى الرُّحَضاء[2] من أسوارها في زُعْنُفَة[3] يسرت له ذلك إشالةً واستظهارا وانتشالا وقَوْدا ثم وضوءاونضحا،حتى استقلَّ را كبابظاهر البلد ولحق بقلعة يَحْصِب[4]ثغر العدو المطل ذى الجوار المُكَتَّب[5]،والعادية المشافهة ، فأراح هنيهة ثم انصرف مُصحبا إلى إشبيلة[6]

---

(١) الرسم أقرب إلى المصمت .   (٢) لعله يقصد مجارى المراحيض أو المغتسل .

(٣) الزعنفة : الطائفة من كل شىء أو كل جماعة ليس لهم أصل واحد ، والجمع زعانف .

(٤) راجع الاشارة السابقة إلى هذه القلعة فى صفحة رقم ١١٦ حاشية ١٠ .

(٥) لعلها فى الأصل بمعنى المحصن ومن الجائز أن تكون أيضاً المكتب اى القريب .

(٦) كذا ، وصحتها اشبيليه Seville وهى من أم المدن الأندلسية وتقع على نهر الوادى الكبير ويطل عليها جبل الشرف Ajarafe المشهور بتربته الخصبة ومزروعاته المتنوعة ، ولقدأطلق المسلمون الأوائل على مدينة اشبيليه اسم حمص تشبيها لها بمدينة حمص الشامية ، واستمرت هذه التسمية ترد كثيرا فى الأشعار الأندلسية من باب التورية. هذا وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموى (فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى) تعرضت اشبيلية لهجمات النورماندين الذين وصلوا اليها فى سفنهم ذات الأشرعة السوداء عن طريق مصب الوادى الكبير واحدثوا بها الكثير من الخسائر والتخريب ، غير أن الأمير عبد الرحمن تمكن من الانتصار عليهم وطردهم إلى المحيط الاطلسى نهائياً وقد ترتب عن هذا الحادث أن اهتم الأمير عبد الرحمن بتحصين المدينة بالأسوار العالية . ولقد ازدهرت اشبيلية بصفة خاصة فى أيام ملوكها بنى عباد وكذلك فى أيام الموحدين الذين ما زالت مآثرهم باقية إلى الآن ونخص بالذكر منها صومعة المسجد التى تعرف الآن باسم الخيرالدا أى الدوارة .

ولقد سقطت اشبيلية فى يد الأسبان على يد ملكهم فرناندو الثالث سنة ٦٤٦هـ (١٢٤٨) ثم صارت قاعدة لبعض خلفائه من بعده مثل الفونسو الحكيم وبدرو القاسى الذى عاصر أحداث هذا الكتاب ، ولا تزال اشبيلية كما كانت أيام المسلمين مركزا للموسيقى والفن والجمال . راجع (الحميرى : الروض المعطار ص ١٨ – ٢٢ ، نشر بروفنسال – القاهرة ١٩٣٢) ، عبد السلام أحمد الطود : بنو عباد باشبيلية (معهد مولاى الحسن تطوان ١٩٤٧) حسين مؤنس : غارات النورماندين على الأندلس ، مجلة جمعية الدراسات التاريخية المجلد الثانى ، العدد الأول ، القاهرة ١٩٤٩ ، ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالامامة على المستضعفين (نشر عبد الهادى التازى بيروت ١٩٦٤) راجع كذا M. Antuna: Sevilla y Sus monumentos árabes, Escorial 1930 ; Ency. of Islam art : Seville, par Henri Basef; Levi Provençal : un document sur la vie urbaine et les corps de metiers a Seville au début du XII siècle : le traité de Ibn Abdun, dans le Journal asiatique r. CCXXIV, avril — Juin 1934; Amador de Los Rios : Inacripciones árabes de Sevilla, Madrid 1875; Antonio Ballesteros : Sevilla en siglo XIII Mabrib 1913 .

وبها ملك قشتالة[1] يقدح زناد حرب له على عدوه من روم برشلونه[2]، فطرح عليه نفسه، وتذمم به، وعرض عليه خطاب استدعائه ودس له المطامع المرتبطة بحصول غايته فقبَل[3] صاغيته، وعَصَى نصحاء دينه المشيرين بتثبيطه والتثاقل عن إعانته، إذ غرّتهم المخيلة[4]، وظنوا به المَضاءَ كمينا فى لِفْق[5] الوسامة، ولَىّ الأبهة، وآثروا الرضا بمكان الوليد الذى مُوِّهَ به للمسلمين، وكونه غير مظنة (٨٢ و) للدفاع، ولا أهلٍ لاجتماع[6] الكلمة، وجهّز له جَفْناً من أساطيله سُكَّيتاً[7] من عَرَضها بعد أن عرَضه على جبل الفتح متعلق طمعه، وحذْقِ شرْطه، وقد دسَّ الأمير المذكور زعموا إلى من به دسيسا فى الاستبصار، فنبا عودهم عن غمزه، وانصرف الطاغية مشرقا إلى طِيَّتِه، وقصد الفُلكُ المشحون بالأمير ويمن لف لفَّه إلى بحر المغرب يلوذ بساحله لياذ الماء بأقطار الزجاجة، ويستنجز وعود خطّابه، فانتهى إلى مرمى مازيغان[8]

---

(١) يقصد بملك قشتالة بدرو الأول المنعوت بالقاسى Elcruel .

(٢) أى مملكة ارغونة Aragon .

(٣) أى أن الملك بدرو قبل دعوته .

(٤) أى غرتهم المظنة، يقال سحابة مخيلة اى التى تحسبها ماطرة ومنذرة بالخير.

(٥) اللفق: الشقة من شقتى الملاءة وهما لفقان ماداما متضامين، والمقصود هنا أنه هو والوسامة لفقان .

(٦) يفهم من هذا النص ان ملك قشتالة بدرو الأول قرر مساعدة أبى سالم ابراهيم المرينى فى تحقيق أطماعه فى ملك المغرب على الرغم من معارضة مستشاريه وكبار رجال دولته الذين كانوا يرون أن من مصلحة قشتالة أن يكون سلطان المغرب طفلا قاصرا مثل السعيد أبى بكر بن أبى عنان، إذ أنه سوف يترتب على ذلك أن يكون المغرب ضعيفا متفرق الكلمة .

(٧) السكيت: آخر خيل الحلبة، فلعل المقصود هنا سفينة متأخرة من أسطوله، أو لعل الكلمة تحريف كلمة سوقية التى تطلق على السفينة التجارية لاشتقاقها من كلمة سوق. راجع Ali Mohamed Fahmy : Muslim Sea - Power in the Eastern Mediterranean p. 162, London 1950 .

(٨) مازيغان: مدينة مغربية قديمة فى اقليم دكالة على ساحل المحيط الأطلسى بين مدينة أزمور ورباط تيط. وواضح أن التسمية بربرية قديمة وقد أوردها الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق (طبعة دوزى ص ٨٤) أما البكرى فقد ذكرها باسم ماريفن الذى يبدو أن يكون تحريفا لمايغن (كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٨٧ طبعة دى سلان، الجزائر ١٩١١) ولقد احتل=

من أحواز أزمور[1]، وأقام به شاهرا أمره، وعارضا وجهه، ومستنجزا وعده، وقد كان الناس حَطَبُوا فى حَبْلِ سواه، ونقروا عن غيره، وجهروا بسآمتهم من مِلْكة آل السلطان أبى الحسن، والتأم خاصتهم وعامتهم على منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق[2]، نجذمٌ من قبيلهم عَلِق به من تصيّر الأمر إليه، دربٌ منذ زمن(*) شبيبته إلى توسطه الاكتهال، دمثٌ مُتَنَزِّلٌ[3]، مظنة ترشيح ومرمى أمل، لمكانه من البيت سيما بعد إقفاره وتداعى عمده، ولفضل شهامة كانت فيه يعارضها الجانب السّهل والتقارب، وسبب ذلك الوزير كافل الولد المموه منه بخيال، والمُهَلِّل بآل، والمُعَيِّد بما غامر به لولا القدر الذى يُنْمِي كُلاًّ إلى حدِّه، وغايته، ويَقِفُه رغم (٨٢ ط) أنفه عند نهايته

ولقد كان الولد[4] أهلا لما رشح إليه نبلا وإدراكا ورواء، فقد أتقن الخطَّ، وحَفظَ المُنَزَّلَ، وشدا شيئا من العربية على انحطاطه فى دركات الحداثة وخفاء مكانه

=البرتغاليون هذه المدينة فى أواخر القرن الخامس عشر واطلقوا عليها اسم مازاجان mazagan، وكتبوا عنها كتبا كثيرة وظلوا بها مدة طويلة إلى أن طردهم منها المولى محمد بن عبد الله العلوى فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى (١١٨٢ هـ)، ويؤثر عن هذا الملك أنه هو الذى أطلق على هذه المدينة اسمها المعروفة به حتى الآن وهو «الجديدة» وذلك بعد أن عمرها وأعاد بناءها من جديد.

راجع De Castries : Les soures Inédites de L'Histoire du Maroc. Tome I ' Portugal P. 103 (Madrid — Paris 1921 & Juan Leon Africano : Descripcion de Africa P. 80 - 83 (Tetuan 1952)

راجع كذلك (محمد بن عبود : تاريخ المغرب ج ٢ ص ٦١).

(١) ازمور : مدينة مغربية قديمة على ساحل المحيط الأطلسى عند مصب نهر أم الربيع وكلمة آزمور كلمة بربرية معناها شجرة الزيتون. راجع (J. Leon Africano : op. cit p. 83)

(*) ذرأ ومعناه الشيء ويحتمل النص منذر من شبهته.

(٢) من المعروف أن يعقوب بن عبد الحق هو مؤسس دولة بنى مرين أو بنى عبد الحق، بالمغرب الأقصى.

(٣) لعله يعنى بكلمة متنزل أنه متواضع أو متساهل.

(٤) هو السلطان الطفل عبد الله أبو بكر السعيد بن أبى عنان.

للضئولة — أسمع صوتا ولا أرى أحداً — عهدى به يتدحرج بين يدى الوزير إلى مصلّى الجُمُعة ، أو يجلس للعرض كفرخ الحمام المطوّق مخضوب الرُّجيلة ، مُشَمَّرٌ الذيل ، حسن القبض على المنديل والمُدْية ، قد دارت العمامة منه على قمر ، لا يزال فى الأريكة يتوقد كالذُّبال فى مشكاته نُبْلاً وهِشَّة سآَّلاً عن أعيان الوافدين مشيرا بالأخذ لرقاع المتظلمين ، ناهضا إلى غاية النُّبل والسداد لو أن الليالى أمهلته ، ورام لعظم مُنَّته[1] وشدة أسره وقوة شكيمته واغتراره بمن لديه أن يُجرى أمر خليفته الماضى الشَّبا[2] ، السامى العلى ، البالغ بمجده وجدوده أسباب السَّما ، أبى عنان رحمه الله على سبيله فيحوط البيضة ويملك القلوب بالرَّهبة ، ويتمسك بالأطراف النائية ، والعِمالة القاصية ، ويخيف من يجاوره من الملوك المضطهدين بخليفته المصنوع له ، فبادر إلى تثبيت من أسندوا إليه أمر بجاية[3] ،

---

(١) المنة (بضم الميم) معناها هنا القوة وجمعها منن (بضم الميم) أما المنة (بكسر الميم) فمعناها الاحسان والجمع منن (بكسر الميم) .

(٢) الشبا جمع شباة أى حد السيف أو إبرة العقرب ، كذلك تطلق على الرجل السفيه فيقال هذا رجل شباة .

(٣) بجاية Bougie مدينة بالجزائر من عمل قسنطينة وتقع على ساحل البحر المتوسط فى خليج مفتوح تكتنفه جبال بابور . أسس الفنيقيون هذه المدينة من قديم ودعوها صلدة ثم أصبحت رومانية تحت اسم صلداى ثم خربت بعد ذلك على أيدى الوندال والبربر وبقيت على هذا الحال حتى بناها من جديد الناصر بن علناس بن حماد بن زيرى الصنهاجى فى حدود سنة ٤٥٧ هـ (١٠٧٦ م) وسماها الناصرية ثم سميت بجاية على اسم القبيلة البربريه التى تخيم حولها . وفى عهد المنصور بن الناصر الحمادى صارت بجاية عاصمة لدولة بنى حماد بدلا من قلعة حماد ، فكثر عمرانها وهاجر اليها عدد كبير من أهل الأندلس وعقدت معها الدول الأوربية معاهدات تجارية وقنصلية حتى صارت من أكبر مدن افريقية ، وما زال سورها العربى الباق يشهد بذلك الاتساع . وفى سنة ١١٥٢ م استولى عليها الخليفة عبد المؤمن الموحدى وقضى على ملك بنى حماد بها . وظلت بجاية تحت حكم الموحدين ثم أقربائهم الحفصيين إلى أن احتلها الأسبان وخربوها ثم استعادها منهم أتراك الجزائر سنة ١٥٥٥ م وظلت كذلك إلى أن احتلها الفرنسيون بعد حرب عنيفة سنة ١٨٣٣ . راجع (احمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ١٩٦ — ١٩٧) انظر كذلك (البكرى ص ٨٢ ، الادريسى ص ٦٢ — ٦٣) انظر كذلك عن الحركة العلمية ببجاية (الغبرينى : عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ، نشر محمد بن أبى شنب ، الجزائر ١٣٢٨) .

ووعده إياه بالمدد ، وخاف على مملكة تلمسان[1] لِدَةِ[2] عقيلةِ الملك الذى بيده المبرّة بخلال عظيمة الجدوى من الماء الرَّوى ، ودرور (٨٣ و) رسل المَحْيَا[3] ، وكثف العمارة ، وعائد الإثارة . فجهز إليها الجيش الخشن المناهز خمسة الآلاف إلى من كان بها من حاميته ، وأمر عليها ابنَ عم له وزيرَ الولد قبل عموم وزارته وفى نفسه ضَرَم ، ولديه بث لكبحه إياه عن الطماح ، وحمله على التطامُن له . ولما حلّ الجميع تلمسان وقد كان أهلها غلبوا عليها واستخلصوها لذهاب حرمتها ، وما أوقعه رأى الخليفة الهالك من هدم سورها ومحو منعتها ، فأجفلوا عنها وكان الجيش أملك بها ، فحسنت المخيله وَيَمُنَتْ النقيبه ، وصدرت مخاطبته بذلك إلى الأندلس بما نصه :

---

(١) تلمسان Tlemcen : مدينة جزائرية فى عمالة وهران Oran وتنطق تلمسان بكسر التاء واللام وسكون الميم وبعضهم يقول تلمسين او تلمسان بكسر التاء وسكون اللام وفتح الميم ، وهى فى جميع الحالات صيغة جمع للكلمة البربرية تلماس Tilmas بمعنى الغدير أو النبع . ومن الطريف أن أصل مدينة تلمسان هو قرية أوغادير التى أسسها المولى ادريس الأول على انقاض معسكر رومانى . وعندما ضعفت دولة الادارسة استقلت بالمدينة بعض قبائل البربر ودعت لخلفاء بنى أمية فى الأندلس . وفى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى استولى عليها يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين واسس بجوارها مدينة عسكرية اسماها تاكرارت وهى كلمة بربرية بمعنى المعسكر ثم لم تلبث المدينتان أن اندمجتا واصبحتا تلمسان .

ولقد نمت تلمسان أثناء حكم المرابطين والموحدين ثم ازدهرت وتألقت حضارتها عندما صارت قاعدة لدولة بنى زيان من سنة ٦٣٢ إلى ٩٣٢ هـ فاتصلت حضارتها بالحضارة الأندلسية وصارت تضاهى اجل مدن المشرق والمغرب وما زالت توجد بالمدينة آثار هذه الحضارة الإسلامية العابرة مثل قصر المشور الذى بناه يوسف بن تاشفين ، وقبر الولى الصالح سيدى شعيب بن حسين الاندلسى الملقب بابى مدين (ت سنة ٥٩٤ هـ) وقد شيده الخليفة الناصر بن المنصور الموحدى وألحق به مسجداً ومدرسة . ثم هناك الصهريج المعظم الذى بناه السلطان أبو تاشفين أحد ملوك بنى زيان . وكانت مياهه ترد من الجبال المجاورة وتسقى البساتين المحيطة بتلمسان وهو اليوم جاف . راجع (أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص ٢٠١ - ٢٠٣ (الجزائر) سنة ١٣٥٠) راجع كذلك (البكرى : ص ٧٦ الادريسى ص ٨٠ ، كتاب الاستبصار ص ١٧٦) راجع كذلك (Georges Marçais Tlemcen (Paris 1950) Ency. of Islam art. Tlemcen d.y A. Bel

(٢) اللدة : الترب (بكسر التاء وسكون الراء) وهو الذى ولد أو تربى معك . يقال هو لدتى أى تربى ، والجمع لدات ولدن ، ويقصد هنا أن تلمسان كانت بمثابة العاصمة الثانية .

(٣) المحيا والمحوة : المطر التى تمحو جدب الأرض .

من عبدالله أبى بكر السعيد أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى عنان بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وصل الله له نصرا موثق الخمائل ، وفتحا صادق المخائل ، ومنحا ثابت الدلائل ، وعضدا كريم المقاصد والوسائل ، إلى محل أخينا الذى أهلّ وداده من ميقات الإخلاص ، وراق اعتقاده فى مشاهد الاختصاص ، وطلعت بدور محبته (٨٣ط) آمنة من الانتقاص ، السلطان الأجل الأعز الأسنى الأودّ الأفضل الأخلص الأصفى الأكمل أبى عبد الله[1] بن السلطان الأجل الأعز الأسنى الماجد الأرفع الأسمى الأسعد الأصعد الأرقى الهمام الأحفل المجاهد الأمضى الأكمل المقدس المرحوم أبى الحجاج بن السلطان الأجل الأعز الأسنى الماجد الأرفع الأسمى الأسعد الأصعد الأرقى المجاهد الأمضى الأطول المبرور الأحفل الأكمل المقدس المرحوم أبى الوليد بن نصر ، وصل الله له سعادة تُستجلى أنوارها وعادة تستملى أخبارها وإفادة يروق زهواً أزهارها . سلام يروى النسيم حديثَ طيبه ، ويعبق إلا[2] بسراه وتأويبه ، ويخص ذلكم الإخاء الباهرة إياته[3] المحكمة آياته ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد حمد الله منجز وعده ، ومجزل رفده الذى أمدنا بنصره ، وما النصر إلا من عنده ، والصلاة التامة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى اختصه بحمده ، وأمده بجنده ، وأنزل عليه سبحان الذى أسرى بعبده ، والرضا عن آله وصحبه حفظة عهده ولحظة رشده وقوَمَةِ الدين من بعده ، والدعاء لهذا المقام العلى المؤيد الكريم الإمامى المجاهدى (٨٤ و) السعيد السعيدى بدوام سعده ، واتصال عضده ، والفتح الذى تُحَـلِّى أجياد الزمان بعقده ، فإنا كتبناه كتب الله لإخائكم سرورا يبوئكم سرره ، وحبورا يلبسكم حِبَرَه ، وظهورا يعطيكم مظهره ، من حضرتنا العلية المرينية البيضاء ، كلأها

---

(١) هو سلطان غرناطة محمد الخامس الملقب بالغنى بالله .

(٢) كذا فى الأصل . ولا بد من سقط .

(٣) إياة الشمس : نورها وحسنها .

الله تعالى ، ونعم الله تعالى منسكبة الغمايم ، وصنائعه الجميلة مفترة المباسم ، ومُكيَّفاته البديعة عاطرة النواسم ، والحمد لله على ذلكم حمدا يعرِّف يمن الفواتح والخواتم ، وودكم الود الذى له فى ديوان المحافظة رسوخ وثبوت ، وشكركم على الإخاء كتاب موقوت ، وثناؤكم على ترائب الولاء درٌّ وياقوت ، ومحبتكم أفضل ما تهادته أحيانٌ ووقوت .
وأما الذى لكم عندنا من حسن المعاضدة وجميل المساعفة والمساعدة ، فذلكم مما لا تزال سُوَره متلوَّة ، وصوره مجلوة ، ومُسمياته بأحب الأسماء مَدْعُوَّة ، فالله يصل ذلكم فى ذاته ، ويمده بمقتضياته وموجباته ، وإلى هذا وصل الله لكم نعما لا تبلى رُسومها ، وسعودا لا تغور نجومها ، فإنكم قد علمتم ما كان من اغترار الشقى
الذى خيب الله مسعاه وقرب منعاه ، وأنه امتدت بعد وفاة مولانا المرحوم مطامعه ، وظن أنه قد صفت بعد الكدر موارده ومشارعه ، وانضم (٨٤ ط) إلى العرب المفسدين من بنى عامر[1] ، وأتوا محرومين لا مُحْرِمين رجالا وعلى كل ضامر ، فلما وصلوا تلمسان وجدوا الجيش الذى كان بها قد تفرق ، وتطرق من الاختلال إلى قضائه ما تطرق فاختلسها اختلاس السارق ، وظن أنه بنجوة من الخطوب الطوارق ، واجتمع إليه أوباش من قومه إسار الردى ، وجهلة الهدى ، وبقية السيف الذى خبث معتقدا ،

---

(١) م بنو عامر بن زغبة من عرب هلال ، وكانوا خارجين على السلطان أبى عنان المرينى منذ استيلائه على مدينة تلمسان ، وقد قامت بينهم وبين عرب سويد حلفاء بنى مرين معارك حامية جنوبى تلمسان انتصر فيها بنو عامر وقتلوا زعيم عرب سويد عثمان بن ونزمار ؛ ولما توفى السلطان أبو عنان انتهز بنو عامر هذه الفرصة واقتحموا مدينة تلمسان وتغلبوا على حامية بنى مرين واستولوا على المدينة واسلموها إلى حليفهم أبى حمو موسى بن يغمر اسن ملك بنى عبد الواد سنة ٧٦٠ هـ هذا ويروى المؤرخون أنه كان يوجد بالمدينة من متاع بنى مرين شىء كثير من جملته هدية كان السلطان أبو عنان قد أعدها هنالك ليبعث بها إلى حليفه بدرو الرابع ملك أراجون ببرشلونة . وفيها فرس ادم من مقرباته بمركب ولجام مذهبين ثقيلين . فاتخذ الملك أبو حمو الفرس لركوبه وصرف باقى الهدية فى وجوه مقاصده . هذا ومن المعروف كما هو واضح من المتن أن المرينيين قد تمكنوا من استعادة تلمسان مرة اخرى وفر أبو حمو إلى الصحراء . راجع (ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٤) راجع كذلك ما كتبه اخوه (يحيى بن خلدون بغية الرواد فى ذكر ملوك بنى عبد الواد ج ٢ ص ٣٧ ، نشره وترجمه إلى الفرنسية الفرد بل (A . Bel) انظر أيضاً (الناصرى السلاوى : الاستقصاء ج ٤ ص ٤) .

ولم تكن أنمى عددا ولا أنجب ولدا ، فلم يكن إلا أن جهزنا إليهم جيوشا ضاق عنها الفضاء ، وكتائب شعارها البأس والمضاء ، فلم يشك الأشقياء أنها تحل قريباً من دارهم ، ولا ارتابوا فى أنها تقدم بتبابهم وتبارهم ، ونهدوا للمبارزة ، وأجمعوا على المناجزة ، وخرجوا عن البلد بجموعهم محامين على ما يزعمون عن منازلهم وربوعهم ، فلما طلعت جيوشنا مشرفة الهوادى ، وحققت الحقائق الرائعة قلوب الأعادى ، وقرب حزب بنى عبدالحق من حزب بنى عبدالوادى[1] ، سُقط فى أيدى الأشقياء ولا ذوا بالفرار والجلاء ، فولوا على أدبارهم نفورا ، وصحب منهم الشؤم والخسار قوما بورا ، وتقطعت بهم الأسباب ، والتَقَمَهُم القفر اليباب ، وألقت تلمسان إلى ناسنا بمقاليدها ، ووجهت إلى أولياء أمرنا العزيز بأقاليدها ، وعاد روحها إلى جسدها ، ولم تلق إلى التهلكة بيدها ، وكادت تمشى (٨٥ و) على استحياء ، وتشكو بما كان أصابها من داء عياء ، حتى نَفَتْ خبثها ، ورفعت بالطهارة حدثها ، ووقفت موقف العائذ ، وعضت على طاعتها بالنواجذ ، وعند فتحها اعتزم شيوخ بنى مرين أعزهم الله ومن معهم من العربان وأهل تلكم الأوطان ، وبادروا لاتباع الفل الخاسر ورأوا فى الموارد حسن المصادر ، وأمر الأحلاف بأن يتقدموا فى الصحراء ، ويكونوا بالمرصاد لجموع الأعداء وكأنكم بدابرهم إن شاء الله قد قطع ، وبشملهم الجميع قد شت وصدع ، وحديث النصر المتجدد قد أسند ورفع ، وأعلمنا كم بذلكم لما نتيقنه من حبكم الفائق ، وخلوصكم المطور الحدائق ، وسروركم بما يسنيه الله عز وجل من الصنع الرائق ، والفتوحات التى تهوى إليها أفئدة الخلائق ، ولم يبق والحمد لله إلا أن نستعد للجهاد ، ونصرف نظرنا الجميل إلى تلكم البلاد ، حتى ينعم ناظر الدين بناضر الفتح ، وتجول حدقته فى حديقة المنح ، ونعمل إن شاء الله فى مناصرتكم ومظاهرتكم ما يعود بالنجح ، والله المستعان وعليه التكلان ، وهو سبحانه يصل سراءكم ، ويضاعف نعماءكم وآلاءكم ، ويحقق فى حياطة

---

(٢) بنو عبد الواد : هم ملوك تلمسان والمغرب الأوسط ويسمون أيضا بنوزيان وبنو حمو وبنو يغمراسن .

تلك الأرجاء رجاءكم بمنه ، والسلام الكريم ، الطيب العميم ، يعتمد إخاءكم المشكور ورحمة الله تعالى وبركاته (٨٥ ط) كتب فى اليوم العاشر لجمادى الأولى من عام ستين وسبعمائة ، وكتب فى التاريخ المؤرخ أعلاه .

وصدر الجواب عنه بما نصه :

المقام الذى تبرع سعده برد المغصوب ، وتولت يد العناية الإلهية عقد تاج عزه المعصوب ، وحكمت عوامله فى سبيل الله بخفض الصليب المنصوب ، مقام محل أخينا الذى « أتاه الله الحكم صبيا »[1] ، وأخلص الملك فيه لله نداء خفيا ، فقال مشيرا إلى إلى مكانه قبل تأتى الأمر وإمكانه ، « ربِّ هبْ لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب ، واجعله رب رضيا[2] » ، السلطان الكذا ابن محل والدنا الذى نعظمه ونجله ونوجب له الحق الذى هو أهله السلطان الكذا أمير المسلمين أبى عنان بن السلطان الكذا أمير المسلمين أبى الحسن بن السلطان الكذا أمير المسلمين أبى سعيد بن السلطان الكذا أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب ، بن عبد الحق ، أبقاه الله يرمى بسهام عزماته أغراض السداد فيصيبها ، ويشير بيده الكريمة إلى مواهب الله العميمة، يستوفر لديه نصيبها ، ويطلب ميراث سلفه فى الأقطار بالحسام الماضى والقنا الخطار ، فيفوز بأقصى الآمال والأوطار من الانفراد بتعصيبها ، معظّمُ قدر إخائه ومرفع جانب علائه ، وموجب فرض هنائه بنعم الله وآلائه (٨٦ و) ومؤملُ عزمه المعتد بمضائه الداعى إلى الله بدوام نصره وصلة بقائه حتى تربى مآثره فى سبيل الله على مآثر آبائه ، فلان سلام كريم ، طيب بر عميم ، يخص به مقامكم الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ورحمة الله، أما بعدَ حمْدِ الله الذى حفظ مركز العز منكم على من اختاره ، وأظهر عنايته بالدين الحنيف ، على يد سلطانكم المنيف ، فمهد أوطانه ، ويسر أوطاره فمتى شب ضرام فتنة أطفأت جداول سيوفكم ناره ، ومتى خبا قبس هداية رفعت أيدى ملككم

(١) اقتباس من الآية رقم ١٢ سورة رقم ١٩ : « وآتيناه الحكم صبيا » .

(٢) فى الآية رقم ٤ ، ٥ من سورة مريم رقم ١٩ « فهب لى من لدنك وليا ... »

مناره ، ومتى استأثر منازع من إيالتـكم بلباس ، فى سبيل اختلاس ، استرجعت ما استعاره ، وصرحت عاره ، فملـكـكم بفضل الله مستدرك ثاره ، ويتقبل آثاره ، والدهر بين يديكم مستقيل عثاره ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى رفع شأنه فى الأنبياء الـكرام ، وعظم مقداره ، وجعل فى أشرف الخلق قومه ، وفى أشرف الأرض داره ، وأعطاه لواء الشفاعة ليجير من أجاره ، فى اليوم الذى يسلم فيه الولىُّ وليه والجار جاره ، فمن انتصر بجاهه فى الملمات ، وعول عليه فى الشدائد المدلهمات ، رضى انتصافه وحمد انتصاره ، ومن توسل به فضلا عمن زاره ، أمن برحمة الله أوزاره ، والرضا عن آله وأصحابه ، وأسرته وأحزابه (٨٦ ط) الذين ورثوا فخاره ، واختاروا من سبل الحق ما اختاره ، ومنعوا عن دينه أيدى العدى ، وزينوه بحُلى البأس والندى ، وكانوا سوره وسواره ، وكاد بناؤه ينقض ، وكنز الحق تحته يُفَض ، فأقاموا ببيض المعالى وسمر العوالى جداره ، والدعاء لمقامكم السعيد السعيدى بالعز الذى تؤيد قدرة الله اقتداره ، والصنع الذى يجرى على قطب التوفيق مداره ، والنصر الذى يعمل فى سبيل الله سنته وشعاره ، والفتح الذى تسبح فى بحره الأقلام ، فلا يبلغ منها الإعلام، وإن جاش الـكلام ، وجادت الأحلام معشاره ، فإنا كتبناه إليـكم كتب الله لأيامكم الجديدة السعد السعيدة الجد من مواهبه الخارجة عن الحد ، أفضل ما كتب ، وخولـكم من مقاسم النصر الشاذة عن الحصر أجزل ما وهب ، وجعل ملـكـكم يستعتبه الدهر إذا عتب ، ويقضى من فروض طاعته معلنا بضراعته إذا حمَّله القدر على تفريطه وإضاعته ، ما رتَّب ووجب ، من حمراء غرناطة حرسها الله ، واليد بعلو يدكم عالية والنعم بتوالى سعادتـكم متوالية ، والآمال باستقامة الأحـوال لإخوتـكم الرفيعة الجلال حالية ، والارتياح الذى تؤذى بشارة الرياح لا تخلو منه عالية ، والمسرات لا تفد منها وافدة إلا تبعتها تالية ، وإلى هذا وصل الله لملـكـكم أسباب الانتظام والاتساق ، وأهدى أنباءكم (٨٧ و) طيبة العرف حسنه المساق ، وأطلع بدر سعادتـكم فى أسعد الآفاق ، وأقام الدهر بين يديـكم مهما تاب من ذنبه ، أو أعتب بعد عتبه ، مقام الحيا والإطراق ، حتى تخفق أحشاء الـكفر رعبا من لوائكم الخفاق ،

ويتفق على عقيدة طاعتكم فيما لكم من الأقطار والأصقاع ، ألسنة الاجماع والإصفاق .
فقد وصل كتابكم البر الوفادة ، الجم الإفادة ، السافرة غمامته البيضاء عن بدر السعادة، المُنْحف بصنع الله الذى خرق حجاب العادة ، فاجتلينا البيان من خلل سطوره، وقرطنا الآذان بشذوره ، وصَدَعنا فى الحفل المشهود بمنشوره ، عرفتمونا فيه بالفتح الذى فُتحت لكم أبوابه ، والنصر الذى يُسرت لكم أسبابُه ، والسعد الذى ضفى عليكم جلبابُه ، والصُنع الذى ناسب دولتكم المقتبلة الشباب فَراقَ شبابه ، وشرحتم بما آل إليه حال تلمسان تقبل الله توبتها ، وأسعد أوبتها ، وحال من كان قد تسور جدارها ، واقتحم دارها ، ومزق بالإكراه صدارَها ، لما دلفت إليه الليوث ، واستقبلته فاستقبلته الكتائب والبعوث ، وأخذت عليه بعرف الطاعة ، بغتة كقيام الساعة ، السهولُ من الأرض والوعُوث ، وما أبداه لما تغشاه رداه من التمويه بالاقاء ، والعمل على الثبوت والبقاء ، وتَظَاهر به من (٨٧ ط) صيد العنقاء ، والأخبار التى يستريب منها لسان الإلقاء ، وما نشب لما نشب أن ركب الليل جملا ، وترك سائمته هملا ، ولم يصرف إلى غير طلب النجاة بإفلاته ولات حين نجاته أملا ، وإن أولياء الدعوة السعيدية استولوا على المدينة فاستخلصوا حقها وأوضحوا طُرقها ، وسكّنوا واجِفَها ، وأمنوا خائفها ، ورفعوا عن رعيتها المرزّأة كل تثريب ، ولم يأخذوا بريئا بمريب ولا بعيدا بقريب ، وقبلوا الأعذار حلما ، ووهبوا ذنوب جُهّالها وعلمائها وسفهائها وحُلمائها لمن وسع كل شىء رحمةً وعلما . سجية من ملك فأنجح ، وأبت له الهمّة العلياء أن يتنحنح أو يتبجح ، ورأى المزية بين الخطّتَيْن فكان إلى التى هى أقرب إلى الله أجنح ، فعاد الحلى إلى الجيد ، بفضل ذى العرش المجيد ، وعوجل الشعث بالتنجيد ، وأصبحت الصهوة مركب البطل النَّجيد، وردّ سيف الطاعة بعد الاجهاد فى جدال البلاد من الاجتهاد إلى التقليد ، وشملت الكافة واقية كواقية الوليد ، وتحلت المنابر بعد العطل ، وانخطأ المتعمد والخطل ، بدعوة من الإمام السعيد ، ورأى من اعتزال الهرج رجحان القول بإخلاف الوعيد ، فكأنما كانت فلتة تلك الإيالة، الطامعة فى الإدالة ، وارتشاف البِلاَلَة ، سهوا فى عِبادَه، وتقصيرا فى (٨٨ و) إجادَه ، ولحنا فى وجادة ، وغلطا فى استغفار ، وقذى بين أشفار ،

ودخيلا فى قطار ، ولحقا عيبا بين أسطار ، وحلما تحت اليقظةُ خيال غروره ، وتمويها ذهب الحق بنوره ، وقلما أدبر شيء فأقبل ، وهل عند رسم دارس من معول ، ومكابر الحق موكوس القسم ، وضدُّ السعيد معروف الاسم ، وما كان الله جل جلالُه ، وتقدست أسماؤه وصفاتُه وأفعاله ، لينثر قلادة الدين بعد نظامها ، وينسخ ثابت أحكامها بعد إحكامها ، بل هو نورٌ وعد بإتمامه ، والوعد حق ، وقاعدة لا يدخلها فرق ، ومُلك تعلق بأذياله غرب وشرق ، ومزن أومض فى برده للغيث برق ، فإن أذنب الدهر فقد استقال ، وإن ضَحىَ الملك بها فقد قال ، ووجد لسانُ الصارم القولْ فقال ، والحمد لله حمدا يدر من النعم السحب الثقال ، ويقر أحوال السعادة فلا يعرف الانتقال ، وقد كنا على علم قطعى ، فى سبيل شرعى ، نرى أن الذى اختاركم لحمل هذه القلادة ، من بين من يشارك فى نسب أو ولادة ، وألبسكم ملابس المجادة ، وحلاكم لمَّا تولاكم قبل أن ولاّكم بحُلىٍّ السيادة ، وجعل جبل الفتح أفق بدركم ، وصدفة دركم ، وبدأ بفاتحته الجهاد ، وهى أم ذلك الكتاب ، كتاب أمركم ، لا يُهمل سلطانكم ، ولا تذعر بالخلاف أوطانكم ، وأن له فيكم (٨٨ ط) خبيئة نصر يرتقب أوانه ، وينتجز وعده ويقتضى ضمانه ، حتى تُبلغ الآمال ، وتنجح فى مرضاة الله الأعمال ، ففى التماس ما عنده سبحانه يجب أن تجمع الرجال وتفرق الأموال ، وفضله تعالى لا يَخيبُ معه السؤل ، ولا يخيب فيه السؤال ، فلما وردت الأخبار بما منحكم الله من الفتوحات التى أبلغت البلاد والعباد أملها ، ووفرت سرورها وجذلها ، وما يفتحُ الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، خاطبنا كم نهنيكم بما وهب الله ومنح ، ونرى أن ما فتح الله به عليكم فعلينا به فتح ، فمقامكم العدة التى نباهى بها ونباهر ، ونضاهى ونظاهر ، ونكافىء ونكاثر ، ونصادم ونصادر ، أبقاكم الله لآمال كريمة تُقتضَى ، وخلال شريفة ترتضى ، ومقاصد مبرورة تُنسِى ما سلف للسلف ومَضَى ، ونحن أيضا نعدُّ إيثاركم إيانا بالتعريف بهذا التكييف هدية ودية تقل لها المكافآت وإن جلَّت ، وفضلُ عميم أشرقت أنواره وتجلّت ، وتستدعى القيام بحق مقامكم وهو المرام البعيد ، وتجهد طرف اللسان فى ميدان الشكر وأين يقع جهده مما تريد ، فإلى الله

نكل ما ننطوى لكم عليه من ود كريم ، وحب صميم ، فهو بالبواطن عليم ، ولا ينفع لديه مال ولا بنون إلا مَنْ أتاه بقلب سليم[1] ، وهو سبحانه يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، ويوالى نصركم وعضدكم ، ويبلغكم من خير الدنيا والآخرة قصدكم . والسلام الكريم الطيب البر العميم يخص مقامكم (٨٩و) الأعلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

(١) اقتباس من الآية رقم ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء رقم ٢٦ : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

رَجْعُ التَّارِيخْ

ولم يكن إلا كَلاَ[1] وَلاَ ، حتى تداعى الدَّبا[2] من عربان القبلة[3] ، منجدة اللمة العاصية لملك الآفاق ، وقصدوا البلدة وبرز الجيش للدفاع عنها وقد تخاذل وأحجم عن المعادل لبعض أجزائه لوحشة الانقطاع وخبث الطوية ، والركون إلى الدعة ، فأبلى المحمس منهم ثم أعطوا الضُّمَّة وانحازوا إلى البلد ، واتفق فائل رأيهم على الاعتزاز بدائل يجمع الكلمة وينظم الشَّت ، ويرأب الثَّأى[4] ، فالتف قوم منهم على أحد القرابة[5] وأصحروا مستدعين إلى بيعته ، فتسايل الناس . ونمى الخبر إلى أمير الجيش[6] فحذر معرة ذلك على نفسه ، وخاف بادرة الدائل أن تحيق به فقاوض رُجُحَ القوم ، وصارف المنتبذين ماذهبوا إليه ، وعمد إلى منصور بن[7] سليمان ،

(١) أي ما هي إلا لحظة .

(٢) الدبا : صغار الجراد أو النمل والواحدة دباة ، والمعنى هنا كناية عن الزحام .

(٣) المقصود بكلمة القبلة هو الجنوب ، وتقابلها كلمة الجوف بمعنى الشمال والمراد هنا العرب المقيمون بجنوب تلمسان .

(٤) يقال فلان يرأب الثأى أى يصلح الفساد .

(٥) هو الأمير يعيش بن على بن أبى زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى . راجع (الناصرى : الاستقصا ج ٤ ص ٦) .

(٦) هو قائد الجيش المرينى مسعود بن عبد الرحمن بن رحو بن ماساى الفودودى الذى استعاد تلمسان من أيدى بنى عبد الواد وحلفائهم عرب بنى عامر الهلاليين (نفس المصدر) .

(٧) هو الأمير منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ، وهو الذى أشاع عنه الناس بان ملك المغرب سائر إليه بعد وفاة أبى عنان ، وحينما علم هذا الأمير بتلك الإشاعات ، خشى على نفسه من ذلك وذهب إلى الوزير المستبد بالحكم الحسن بن عمر وشكى إليه ذلك : فنهاه الوزير أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهارا خلا عن وجه السياسة ، فانزجر واستكان . قال ابن خلدون ، ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره . راجع (الناصرى : الاستقصا ج ٤ ص ٦) .

مقدمه يومئذ من تربة الشيخ تاج العارفين أبى[1] مدين متذمما بها ، فأعلق به البيعة ، وسامه مَدَّ اليد لها عن تثاقل ، وأخذ له عهد الناس بالوفاء له ، وأروه على ذلك زعيم الروم[2] يتولى السيقة ورده التعبئة . وقرعت الطبول فاستراب المنتبذون ونمى لهم الخبر وقد استأثروا ببكارة تلك البيعة المبتورة ، والدعوة المُخْدَجَة[3] ، فطار صاحبهم فارا على وجهه[4] ، فدخلوا مدخل الجماعة وصرف الجميع وجوههم إلى المغرب لا يصدقون خبر النجاة ، واعترضهم العرب (٨٩ ط) فى طريقهم فأبلوا أحسن البلاء مستميتين

---

(١) يقع ضريح سيدى أبى مدين فى قرية العباد على بعد ٢ ك . م من تلمسان وقد شيده على شكل هندسى عربى بديع الخليفة محمد الخامس بن المنصور الموحدى . أما دفين هذا الضريح فهو القطب الغوث والولى الصالح سيدى شعيب بن حسين الأندلسى الملقب بأبى مدين ، ولد بأشبيلية سنة ٥٢٠ هـ ثم انتقل إلى المغرب حيث أخذ عن الشيخ أبى الحسن بن حرزم وعن الشيخ ابى يعزى يلنور ثم حج إلى بيت الله الحرام وقفل إلى المغرب حيث استوطن مدينة بجاية وظهرت على يده كرامات وكثرت عليه الناس ويقال إن بعض علماء الظاهر وشوا به عنـد الخليفة يعقوب المنصور الموحدى وشبهوه بالمهدى بن تومرت ، فاستقدمه الخليفة المنصور إلى مراكش ، فسار إليها إلا أنه توفى فى الطريق قرب تلمسان ودفن هناك برابطة العباد سنة ٥٩٤ هـ ، وملحق بضريح أبى مدين مسجد ومدرسة راجع (الناصرى السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٨٩ — ١٩١ ، أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص ٢٠٤) راجع كذلك (G. Marcais : Tlemcen p. 70 - 71)

راجع كذلك (أبو يعقوب التادلى : التشوف إلى رجال التصوف ص ٣١٦ — ٣٢٥ : نشر — أدولف فور ، الرباط ١٩٥٨) .

(٢) هو قائد النصارى الأسبان المسمى القهردور (الاستقصا جـ ٤ ص ٦) .

(٣) الدعوة المخدجة : أى الناقصة : يقال خدجت الدابة خداجا ، وأخدجت أى ألقت ولدها ناقص الخلق أو قبل تمام الأيام فهى خادج ومخدج ، وولدها خدوج وخديج ومخدج .

(٤) يشير بذلك إلى الأمير يعيش بن على بن عبد الحق الذى بايعه شيوخ بنى مرين بتلمسان سنة ٧٦٠ هـ ليكون سلطاناً على المغرب بدلا من الملك الطفل السعيد أبى بكر ، ولما علم قائد الجيش المرينى بتلمسان هناك مسعود بن رحو بن ما ساى بأخبار هذه البيعة خشى على نفسه من نتائجها وعمد إلى الأمير المرينى منصور بن سليمان الذى كان يرافقه ، وبايعه بالسلطنة كما بايعه أيضاً قائد الفرقة الأسبانية التى فى خدمة بنى مرين . ولما تسامع شيوخ بنى مرين بأخبار هذه البيعة هرعوا إلى الأمير منصور بن سليمان وبايعوه وتخلوا عن مبايعة صاحبهم يعيش بن على الذى لم يجد وسيلة أمامه سوى الهرب إلى الأندلس ، أما منصور بن سليمان فإنه لما استتب له الأمر واجتمع بنو مرين على كلمته ارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب فاعترضته جموع العرب فى طريقه ولكنه تمكن هو وأصحابه من شيوخ بنى مرين من الانتصار عليهم والإفلات منهم ومواصلة السير نحو عاصمة ملكهم فاس — راجع (الناصرى : الاستقصا جـ ٤ ص ٦) .

دون قصدهم حتى خلصوا بعد لأى ، واتصل الخبر بالوزير كافل الولد فعظم الأمر ، وسفر الخطب ، وجرى على رسله ثابت الجأش رابط الحزم ، فأشاع البروز إلى المدافعة وجهاد الخارج على سلطانه ، وشرع فى العطاء واستركب واستلحق ، وأفاض العدة وأركب الرجل وانتقى الآلة وحصن البلد الجديد[1] خلفه ، وأوعز إلى ثقاته ما يعمل بحسب حَدِّه ، والوقوف عند رسمه ، واضطرب[2] المحلة مُضْطَرَبها المعروف من الفحص الأفيح ،وفوق الهضب المطل على البلد المعروف بالرمكة[3] وقد اقتضى اليمين واستوثق من الحاشية ، وبذل التى لا فوقها من السداد والإصابة . ولما جن ليل خروجه بالولد سلطانه ، وقد انتظم الجمع واحتفلت المحلة ، وراقت للسلطان الآلة ، وقد اقترب عدوه ، وكادت تبدو ناره ، ويكنف جواره ، أسلمه الناس ، شأنهم فى هذا العهد ، وديدنهم فى هذا الزمن ، وطاروا عنه لا يلتفتون ولا يلوون ، فأفاق واستجمع ، وأركب السلطان ، واشتمل عليه ، وأمر بتقويض المضارب ، ورفع الآلة والعدة ، وكر إلى البلد الجديد ، فاستقر به فى خِفٍّ من الحاشية وأفذاذ[4] من الخالصة .

ولما استوى ما أمر بإشالته ورفعه من العدة والآنية والفرش والماعون والفساطيط والآلة وأبهة الإمرة وعتاد الخزائن ، قصده بحريمه (٩٠ و) الأسود الماجن سليمان بن ونزار[5] تلقاء العدو ، فما أمسى إلا وأروقة الخلافة ترف فوقه وآلاتها تُصَرِّفُ بين يديه ، وأرائكها تنضد لجلسته ، وظهرها وحمولتها مرتبطة بإزاء رستاقه ، وقصد ظاهر البلد الجديد فنازله وأحاط به وكاتب الجهات فلم يختلف عليه اثنان . فقدم العمال والقضاة وأجرى العوائد وجدد الصكوك ، وأخلى بينه وبين الناس ، وأفرط فى التنزل والضعة

---

(١) البلد الجديد والمدينة البيضاء وفاس العليا وفاس الجديد هى مدينة فاس المرينية التى بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى سنة ٧٦٤ هـ .

(٢) يجوز التذكير والتأنيث فى الجمادات فيقال اضطربت المحلة أو اضطرب المحلة .

(٣) كذا فى الأصل ولعلها الرميلة وهى إسم لحى من أحياء فاس الشمالية .

Roger le Tourneau : Fès avant le Paotectorat Pp. 118, 133, 143 Casablanca 1949.

(٤) الفذ : الفرد والجمع أفذاذ وفذوذ أى أفراد .

(٥) فى هامش الأصل بخط آخر : الصحيح أن الذى قصد ... الحاج محمد بن واشبح .

والتمنى ، وحط الأبهة استئلافا للنفوس . ووالى حصار البلد المذكور فرتب عليه المقاتلة ونصب المجانيق والعرَّادات ، وقاد الستائر والأكبش والدبابات ، وأدار عليه البناء من الجهات وسكن بشرقيه فى الهضب أبغران ، وَأمر الخاصة بالسكنى واستدعى من البلاد البحرية عُدد الأساطيل من التِرْسة والمجانيق والحديد لاتخاذ الآلة والمعاون وأمراس[1] الكتان والشهدانج[2] لحل الأقفال ، واستنفد الوسع فلم يحل بطائل .وقد اضطلع محصوره وأفاق من الطخية[3] ، ومَرَن على الحصار واعتز بالمال فأجاب داعيه الكثير من ذؤبان الرجل أولى النجدة ومساعير الحرب وأرباب العنا والصبر واقتحمت إليه بالمضغ والأدم راكبو أعناق الأخطار ومرخصوا أثمان النفوس بين يدى[4] ما يرومون من الربح ، وناهزت الحال شهرين كابد من شجا[5] البلد المحصور (٩٠ ط) خطبا ، ولم يتهنأ معه ملكا واحتاج إلى المال فلم تنجده البلاد التى شحت ينابع أرفادها للهب الفتنة ، وأمسكت أكف غارميها دواعى الهرج ، وقرب عهد ولاتها بالدفع لما يحصى من الخَرْج ، إلا ما كان من أوقاف وأموال صدقات وودائع لا تقع مما يريد فى نسبة عددية ، وأباح الدسيعة[6] للقبيل ، ولم يستأثر عنه بفلذه ، وأطلق الأيدى على كل طلبه ولم يسمع عنه لا فى مسألة[7] حتى جرى فى ذلك غير ما ضحكه . ووصل ولده اللاحق بجبل هنتاته ، المستقر فى جُوار رئيسها المِدْرَه[8] فى الدّهى[9] والحزَامة ، وأحد الآحاد فى إقامة الرسوم الحسنة والإرعاء على الرتبة والتزين بالوقار والسكينة ، عامر بن محمد بن على الهنتاتى حسنة هذه المُدَد

---

(١) المرسة : الحبل وجمعها مَرَس وجمع الجمع أمراس أى الحبال .

(٢) الشهدانج هو القنب أو نبات الكتان الذى يعمل منه الحبال والدوبار والخيوط (دائرة المعارف لمحمد فريد وجدى) .

(٣) الطخية : (بضم الطاء وفتحها أو كسرها) : الظلمة .

(٤) أى فى سبيل الربح .

(٥) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه ، ومعناه أيضاً الهم والحزن .

(٦) الدسيعة : العطية الجزيلة او الجفنة الكبيرة (القصعة) أو المائدة الكريمة والجمع دسائع

(٧) رمها : مسله .

(٨) المدرة : السيد ، زعيم القوم المتكلم باسمهم ، والجمع مداره .

(٩) الدهى أى الدهاء والحذق .

المتأخرة ، والمغبر في وجوه الوجوه السابقة ، مصحبا بزينة الملك وآلات السلطان ، مُتعَدِّيا طوره ، لابسا للناس غير لِبْسة أبيه، من الأنَفِ والتجبر وتعاطى خطة الفراعنة ، من غير أن تشج العروق أو يملك البيضة ، صبي اسمه على ، أشوس[1] اللحظ ، شامخ المارن[2] ، رأى لنفسه قصوى المزية ، أنكر على الشيخ فضل التَّنزل وعَبَس وبَسَر في الأوجه وتوعد على التقصير فكان أدعى الدواعي إلى هلاكه وهلاك أبيه ، ولله أمر هو بالغه سبحانه .

ولما طال على الأمير أبي سالم عَرْضُ نفسه إلى (٩١ و) مَنْ حرّكه إلى طلب حقه ، وسِمُ التردد واقتضى أجوبة مستدعيه مراجِعَةً بخروج الوقت ، ناعيةً إبطاءه ، إلى تنوع الحال وإخفاق السعى واجتماع الكلمة على الغير ، انصرف بخفى حنين ، وقد وصلت أحواز مرساه الحصةُ مانعة إياه من النزول آخذةً على أيدى من أقرضه الصنيعة وأبدى له صفحة القبول . ولما وازى وجهة الصَّفيحة من أحواز أصيلا[3] تبادرته قومٌ من غُمَارَة[4] سكان ذلك الجو وعقبان ذلك الدّو[5] ، فانحدرت إليه ووعدته بالوفاء له ، فنزل وربما نالته في الصحصاح شدة تخلص منها بعد الكَيْت ،

---

(١) الأشوس : الذى ينظر بمؤخرة عينه تكبرا أو تغيظا .

(٢) طرف الأنف والجمع موارن .

(٣) أصيلا Argila ومعناها بالبربرية الجميلة ، مدينة صغيرة قديمة على ساحل المحيط الأطلسى بين طنجة والعرائش . كانت من أم مراكز الأدارسة بعد أن انحسر ملكهم إلى شمال المغرب ، راجع ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٢٣٥) .

(٤) قبائل غمارة كانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر الأبيض المتوسط من نواحى سبتة وطنجة غربا إلى وادى نكور بالقرب من المزمة أو الحسيمة الحالية شرقا . وكانت غمارة فرعا من مصمودة لا يكاد يحصرها عدد لكثرتها وتدخل بلادها فى أعمال سبتة وهذه القبائل كانت مصدر قلق ومتاعب للحكومات التى تعاقبت على حكم المغرب .

راجع (عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥١ ، ٢٥٥ ، نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى (القاهرة ١٩٤٩) راجع كذلك (ابن خلدون ، العبر ج ٦ ص ٢١٦ ، البكرى : نفس المرجع ص ١٠٠ – ١٠٢ ، كتاب الاستبصار ص ١٩٠ – ١٩٢) .

(٥) الدو أو الدوية : أى البرية .

واحتملوه فوق أكتادهم ثم اعتاموا[1] له هجينا[2] من مراكب سَراتهم المستهلين إلى مجامع التباعات ، أمطوه صهوته ، وأحدقوا به فى سفح الأدنى من جبالهم ، وأخذتهم الحَمِيَّة فتنافس فى الذبّ عنه والقيام بدعوتهم شعوبهم وقبائلهم ثم كبسوا مدينة أصيلا حاضرة بلدهم فتغلبوا عليها وضيقوا خارج مدينة طنجة[3] وتوعدوا أهلها بإفساد أموالهم المُضْحِرة[4] ، فدخلوا فى أمره ، وقد تسامع من بجبل الفتح[5] من قبيل

(١) اعتام اعتياما : اختار .

(٢) الهجين : الفرس المولد الذى ولدته برذونة (التركى من الخيل) من حصان عربى .

(٣) طنجة Tanger : مدينة قديمة معروفة بالمغرب الأقصى وتقع عند الطرف الغربى لمضيق جبل طارق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسى ، ولا يفصلها عن الشاطىء الأسبانى المقابل سوى مسافة قدرها ١٨ ك . م ، وقد عرفت فى القديم أيام الفنيقيين والرومان باسم Tingi ولما فتح المسلمون بلاد المغرب ، كانت طنجة قاعدة المجاز الكبرى إلى الأندلس ثم خضعت للادارسة العلويين فى فاس وللأمويين فى الأندلس ثم سيطر عليها فى القرن الخامس الهجرى حكام دولة برغواطة فى تامسنا وجعلوا منها ومن نفرسبتة قواعد بحرية لأعمال القرصنة والاغارة على السفن التجارية المارة فى مضيق جبل طارق . واستطاع زعيم الدولة المرابطية الناشئة يوسف بن تاشفين أن يقضى على هذه الدولة برا وبحرا ويحتل سبتة وطنجة . وقد شارك معه فى هذه العمليات الحربية بعض وحدات الأسطول الأندلسى التى بعث بها إليه المعتمد بن عباد ملك أشبيلية . وظلت طنجة بعد ذلك تابعة للدول المغربية التى تداولت حكم المغرب كالمرابطين والموحدين وبنى مرين .

ومنذ بداية العصور الحديثة تعرضت طنجة لهجوم الاستعمار الأوربى فى مختلف دوله كالبرتغال ، أسبانيا ، إنجلترا وفرنسا .

ولما فرضت الحماية الأجنبية على المغرب ١٩١٢ واحتلت الجيوش الفرنسية قسمه الجنوبى واحتلت الجيوش الأسبانية قسمه الشمالى ، صار لمنطقة طنجة نظام دولى خاص .

واستمر الوضع كذلك إلى أن استقل المغرب سنة ١٩٥٥ فصارت طنجة جزءاً لا يتجزأ من التراب المغربى وأصبحت الآن المصيف الرسمى للمملكة المغربية .

(٤) يقصد بالأموال المصحرة : الأراضى الصحراء التى فى خارج المدينة وهى عبارة عن أراضى زراعية وماشية .

(٥) جبل الفتح : هو جبل طارق بن زياد ويسمى اليوم Gibraltar وهذا الجبل كان يطلق عليه قبل الفتح الإسلامى الاسم الفنيقى Mons Calpe ومعناه تجويف إذ كان هذا الإسم يطلق أصلا على مغارة كبيرة فى هذا الجبل عرفت فيما بعد باسم مغارة القديس ميخائيل San Miguel . وبعد الفتح الإسلامى عرف هذا الجبل باسم الصخرة ، وجبل طارق كما عرف أيضا بجبل الفتح نسبة إلى مدينة الفتح التى بناها الموحدون على سفحه لتكون مركزا لفتوحاتهم فى الأندلس ولا تزال آثار هذه المدينة المغربية باقية هناك إلى اليوم .

ومضيق جبل طارق أو بحر الزقاق ، ذراع ضيق من الماء يبلغ عرضه فى أضيق جهاته ، حوالى ١٥ ك . م وهى مسافة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكرى والثقافى بين الشاطئين المغربى والأسبانى ، ومن هنا نشأ صراع مستمر بين العدوتين حول السيطرة على هذا المضيق .

راجع (Carlos de Luna : Histoire de Gibraltar)

غماره بالأمر فسلكوا سبيل قومهم فى الانقياد له فقبضوا على واليهم الوزير البقية ، الحسن الرؤوا ، العذب الـكلمة ، على بن العباس بن موسى ، وقد أغفل الحزم واختلط بسوادهم اختلاط الثقة بهم ، فكانوا أملك به . ولم يسع من بسبتة[1] جارهم المصاقبة[2] (٩١ ط) الامتناع ، فوجهوا من مشيختهم من قرر الأمر وضمن الطاعة .

واتفق على تَفِئَةِ ذلك أن وصل سبتة الغراب الموجه إلى الإسكندرية أخريات الأمير أبى عنان ، راكب عنق البحر والبر ، بما حدّ له شراؤه من متاع المشرق وطيبه وطرفه ، فحط بسبتة ، وكانت بضاعته مما جملت[3] العَطَل وموهت الحُول .

---

(١) سبتة Ceuta (بفتح السين وسكون الياء) .

مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى شمال المغرب الأقصى وهى عبارة عن شبه جزيرة فى مضيق جبل طارق وتحيط بها الجبال من ناحية الجنوب ، وهذا الوضع الجغرافى جعل اتجاهها واتصالها بالأندلس أقوى بكثير من اتصالها بالمغرب الموجودة فيه ولهذا نجد أن مدينة سبتة فى العصور الوسطى الإسلامية امتازت بطابع أندلسى فى مظهرها وثقافتها بل وفى وضعها السياسى، فلقد حرص الأمويون فى الأندلس على امتلاكها واتخاذها قاعدة استراتيجية لمقاومة الخطر الشيعى الفاطمى فى القرن الرابع الهجرى . كذلك سيطر عليها الحموديون الادارسة حكام مالقة فى عصر ملوك الطوائف فى القرن الخامس الهجرى . ثم استقلت بها أسرة من أصل أندلسى تعرف ببنى العزفى فى القرن السابع هجرى ، كذلك استولى عليها بعض ملوك بنى نصر أو بنى الأحمر سلاطين غرناطة مدة من الزمان فى القرن الثامن الهجرى . وفى بداية العصور الحديثة استولى عليها البرتغاليون ، سنة ١٤١٥ ثم الأسبان سنة ١٥٨٠ م ، ولا تزال المدينة فى أيديهم إلى الآن رغم المحاولات العنيفة التى بذلها المغاربة لاستردادها . وهى الآن تتبع مدينة الجزيرة الخضراء Algeciras فى جنوب أسبانيا ، ومعظم سكانها من الأسبان .

ومن الـكتاب المسلمين الذين وصفوا هذه المدينة نذكر الوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب راجع (أحمد مختار العبادى : شاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس ص ١٠١ ١٠٢ ، جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) كذلك نذكر العالم السبتى أبا عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصارى (أواخر القرن ١٤ وأوائل القرن ١٥ م) الذى كتب وصفه تحت عنوان : « اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار » وقد نشره فى بادىء الأمر المستشرق الفرنسى ، ليفى بروفنسال فى (Hesperis, tome XII, fas. II, 1931) ثم أعاد نشره مع زيادات هامة الأستاذ محمد ابن تاويت فى مجلة تطوان ١٩٥٩) .

(٢) المصاقبة : أى القريبة أو الملاصقة يقال صاقبه صقابا ومصاقبة أى قاربه .

(٣) فى الأصل : حلت ، ولعلها ما أثبتناه أو : حلت .

ولحق به لما تصيرت إليه طنجة الأحسن[1] بن يوسف الخيرى من شيوخ قبيل بنى وارتجين[2] ، المشار إليه فى الصلف والترف والتأنق فى فاخر الكسوة ، والممتاز بحسن الركض وتفاهة ميدان السلم متوجها إلى رُندة ، والشريف الندب نسيج وحده فى قوة الشكيمة ومضاء الحد وفضل الصرامة ، مُطَبِّق المِفْصَل ، وفاصل الخطة ومعز الرسالة ومحل الرجولة المستولَى على الأمد ، حُسْنَ رواء وفصاحةَ لفظ ونصاعة طرف وبراعة أدب وعموم مشاركة وإمتاع ، أبو القاسم حسن بن يوسف[3] الحَسَنى ، ضاق به رحب الدائل ، واتهمه بالحمل عليه فصرفه إلى الأندلس مُوَرِّيًا بغرض الرسالة تحرجا من التصدى لمضرته ، وإرعاء على منصب شرفه ، فارتاش ، واستظهر من المرينى بقيوم الوزارة ، ومن الشريف بتجديد[4] المجالسة ولسان الدست وظهير التدبير . وسكن من يومئذ المضارب واتخذ بعض الآلة ، وتلاحق فرسان الطاعة من أهل الجبل ورندة[5] . وتوجهت إليه الحصَّة من ظاهر البلد الجديد فوصلت قصر كتامة[6] واضطربت به فَبَيَّتَتْها خويلة مع الوزير الأحسن (٩٢ و) ابن يوسف ، هزمتها واستاقت كُراعها وعُدَّتها ، وصرف إليه بعدها منصور بن سليمان العناية ، فبعث إليه حصة خشنة لنظر ذَمِرٍ من رجال دولته معروف النفرة عن السلطان أبى الحسن وبنيه ، مُرْدَفَةً بأخرى لنظر أخويه عيسى بن سليمان وطلحة . ولما صمما نحوه ،

---

(١) تنطق هذه الكلمة بدون همزة هكذا : لحسن (بفتح اللام وسكون الحاء) وهذا الاستعمال ما زال شائعاً فى المغرب .

(٢) بنو وارتجين من بطون زناتة .

(٣) راجع ترجمة الشريف الحسنى بعد ذلك فى صفحة ٢٦٥ حاشية ٢ .

(٤) الكلمة فى الأصل غير منقوطة .

(٥) رنده Ronda واسمها القديم Arunda وتقع فى غرب مالقة ، وهى تعتبر من أم القواعد العسكرية فى الأندلس لارتفاعها وحصانة موقعها حتى أنها سميت بعصا الأندلس Baston de Andalucia وينسب إلى هذه المدينة علماء كثيرون نذكر منهم الفقيه المتصوف ابن عباد الرندى شارح حكم ابن عطاء الله السكندرى .

راجع ما كتبه ليفى بروفنسال عن هذه المدينة فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) قصر كتامة : ويسمى اليوم القصر الكبير ويسمى أيضا قصر عبد الكريم ، وهو بلدة معروفة فى شمال المغرب الأقصى جنوبى العرائش .

لاذ بسفح الجبل وأهمَّ من لديه أمرُهم . ووقع القتال بتناصف القوم ، أول أيامه ، ثم بان الظفر لأكبر الطائفتين ، ودوخل القبائل من غمارة وأطمعوا بالمال فرجوا في أمره ، وهمت به طوائف منهم و نشب[1] بنفسه . لولا أن الله فصل الخطة وفرج عنه الكربة ، وهناه المنحة وقسم له الحظ ضربة لازب . لا ربّ سواه سبحانه ولا مبدل لكلماته . وكان من الأمر ما يذكر إن شاء الله .

رَجع : ولما اتصل بالوزير الحسن بن عمر ، الثابت القدم بالبلد الجديد المحصور ، عبور الأمير إبراهيم ، واتصاله بجبل غمارة ، ودخل إليه جاسوسه المهدى باكورة خبره ، رفع الأعلام ، وشهر الاستبشار ، وقرع الطبول مستبشرا به ومظهرا للناس النجح بمكانه فخلخل طاعة حاصره ، وفَتّ في عضده لاختلاف أهواء من لديه واضطرابهم ومرَه[2] بصائرهم ، وغلبة التلاعب بالملكات عليهم ، خورا في الطباع ، واحتطابا في حبال الدائلين ، وتهافتا على الحطام ، وذهولا عن حسن العواقب ، واستخفافا بثقل الأمانة . ففرّ كاتب (٩٢ ط) إنشائه صاحبنا الفقيه الصَّدْر المتقدم بكريم الخلال ، ومتعدد الخصال عبد الرحمن بن أبي بكر بن[3] خلدون في لمة من الفرسان ، هاج حفائظهم ، واستفسدهم عليه ، لمضايقته إياه جاهلا بوزانه ، مخدوعا في ثمن دُرّته ، مفضلا عليه يومئذ صاحب العلامة ، صبيا من ذرية منديل[4] الكناني خالصة دولتهم في القديم أصعر الخد ، خلو من الخلال الراجحة ، يرى أنه سبط من أسباط إسرائيل الله في دول اليعاقبة ،

---

(١) نشب بنفسه أى هرب .

(٢) المره بياض العين وعدم الرؤيا ، يقال مرهت عينه أى فسدت وابيضت .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة ، وصاحب المقدمة المشهورة التي لم يكتب مثلها في الإسلام على الإطلاق ، توفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ .

تراجع ترجمة حياته التي كتبها ابن خلدون عن نفسه والتي نشرها الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي تحت عنوان (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا) . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١) .

(٤) لعله يقصد أبا المكارم منديل بن محمد الكناني الذي كان حاجبا وكاتبا لأمير المسلمين عثمان ابن يعقوب بن عبد الحق المريني (٧١٠ — ٧٣١ هـ) راجع (اسماعيل بن الأحمر : روضة النسرين ص ٢٤ ، الرباط ١٩٦٢) .

صارَفَه الجفوة فلم تجزها طباعه الأبية ، وارتكب الخطر وتجاوز الأحراس والأهوال فاستقر لديه مُحْملا كثيرا من صاغية الناس . وتولى للأمير إبرهيم كبرَ الأمر وأحكامه فى السرّ خطيب أبيه ورسوله ، نسيج وحده وأعجوبة دهره والبعيد الشأو فى هذا الميدان ، الشيخ الفقيه الخطيب الشهير أبو عبد الله بن مرزوق[1] ، متلقى كرة الدولة والمستأثر بعد بالزبدة ، فداخل الأشياخ ومهد الطاعة وكاتب فى السر وردَّد مُداخلة البلد المحصور فكانت الطائلة لحيلته والبلاء الحميد لدسيسته ليقضى الله أمرا كان مفعولا. والأنْوَكُ[2] المخدوع عن نفسه ذاهل عما وراءه ، قد خضب الشيب وأعرس وهو على مقرب الصَمْغَة[3] كأنه أخذ بقول الشاعر :

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم دون النساء ولو باتت[4] بأطهارِ

وأشار عليه ولده بالقبض على الوزير لما حذره من المداهنة فى أمره (٩٣ و) فغلت يده عنه لينفذ فيه قضاء الله وقدره . وأوحش عميدا من رؤساء جنده المظاهرين له على أمره ، المناصحين بالجِبلَّة والغُربة[5] لسلطانه محمد بن يوسف بن نصر المنبز[6] بالأبكم الرئيس ، البطل البهمة ، راكب ظهر التهور ، الحىّ الأنف ، المرشح بالأندلس للإدالة ، المفتتح من حضرة تونس دار الخلافة ، جاهلا بوزانه ومجريا عليه حكم غماره ، فأمر بثقاف حرمةٍ له لم تعرف قط إلا الحجبة ، فقارضه سوء الدخلة .

وفى اليوم الثالث عشر من شهر شعبان عام ستين وسبعمائة ، نَهَدَ هذا الرجل الموتور موريا بالقتال ومدافعة من يبرز من حامية البلد ، وقد راسل صاحب الأمر به ، وصدق الدفاع ، وأعطاه من بين يديه الضُّمة فدخل البلد ، وقد نالت الجراح كثيرا

(١) راجع التعريف به فى ص ١٦٣ حاشية ١ .
(٢) الأنوك أى الأحمق ويقصد منصور بن سليمان .
(٣) الكلمة غير منقوطة بالأصل . والصمغة القرحة .
(٤) واضح أن ابن الخطيب قد أورد هذا البيت على سبيل السخرية لأن الواقع على عكس ذلك .
(٥) لم تنقط من الكلمتين إلا الجيم .
(٦) يلاحظ أن هذا الرئيس الأبكم من بنى الأحمر كان قد بايع منصور بن سليمان من قبل بتلمسان وانضم لجيوشه فى حصار فاس ولكنه عاد وانقلب عليه نتيجة لسوء معاملته له كما هو فى المتن.

من أتباعه لخفاء الغرض عن حماة البلدة ، وثقات المراصد ، وشاع بالمحلة أنه افتتح البلدة ودخلها عنوة ، واستركب السلطان المغرور ، ووقع النفير فتمخض الأمر عن الزُّبدة ، وحصحص الحق بعد الشُّبهة واستراب الوزير المستوحش من وعيد الولد ، فتحيز إلى المدينة وسلك سواد مسلكه من الرضا بالمدينة ، وحَمِيَتْ أنفس المحصورين وهم شوكة وذمّرهم من لحق بهم ، فكانوا لهم أسوة ، فبرزوا ينهبون المحلة ووقع البَهْت وغلّت الأيدى ونزل من الله(٩٣ ط) الخذلان . ووقف مغرورهم منصور ابن سليمان وولده موقف الحسرة ، وتورطا فى شَرَكِ الدَّهش والحيرْة ينشدان الأرحام، ويدْعُوان الذمام ويحترشان ذمم الحرية فلم يُلو إليهما لِيت ولا رُفعت لهما عين ، ولا دافعت عنهما يد ، ولا رُوعى لهما عهد فانصرفا في شرذمة محروبة تتقاصر عن العشرين فارين على وجوههم إلى جهة بادس[1] . وكان من الأمر ما يأتى به الذكر إن شاء الله .

ولما تلاحق وزير الحائن بابن عم عمه الوزير القائم بأمر البلد نازعا إليه ، رابه قبوله وخافه على نفسه ، فلم يلبث أن برز لحينه فى سبيل المدافعة فصرف وجهه إلى الأمير المقبل أبى سالم وثَنَت الناس الأعنة إليه ، فلم يَرُعه أضيق ما كان خناقه ، وأوفر ما كان فرقه ، وأقصر ما كان أمله ، إلا الخبر بالفتح الذى لم يلبس له لامة ولا اقتحم هولاً ولا تسربل عَجَاجه ، واتصل بالحصص الآخذ بخنقه ، فألقى قوّادها أنفسهم عليه وأخذوا أمانه ، فغرب لحينه منهم أخوى طريده إلى بر[2] الأندلس — وتحرك يوما والناس يتسايلون عليه أثناء طريقه على اختلاف طوائفهم مهنين ، وبالطاعة باخعين ، وللوسائل مقررين ، ومن الذنوب السابقة إلى سلفه مستغفرين ، فقوبل كل بصاعه وأجيب ببسط أمله .

---

(١) بادس (بكسر الدال) مدينة تاريخية بالمغرب الأقصى على ساحل البحر الأبيض المتوسط وكان يقال لها بادس فاس تمييزاً لها عن بادس الزاب . وتقع بادس الآن على بعد ٦٠ ك . م ، غربى مدينة الحسيمة فى المملكة المغربية وقد اندثرت الآن ولم يبق منها شيء سوى الاسم . راجع (ابن خلدون : التعريف ص ٦٩ حاشية ١) .

(٢) اللفظ غير منقوط . ولعل صوابه : براً .

وخاطب سلطان الأندلس بما نصه[1] :

من عبد الله إبراهيم أمير المسلمين المستعين برب العالمين بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا (٩٤ و) أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق أيد الله أوامره ، وخلد مناقبه الكريمة ومآثره ، ووصل لدولته العلية السعود ، وأنجز له من مواهب النصر الموعود ، وزين بإعلاء كلمته الوجود ، إلى محل أخينا الذى مجده أصيل ، وشرفه شامخٌ جليل ، وحكم رأيه فى حفظ المودة مرضى مقبول ، وعلاء همته وزكاء أوصافه السنية وشيمه كاف بتعديد المادح وإحراز المحامد كفيل ، وفى استغنائه عن ترديد الثناء دليل ، فزاده تعظيمٌ وتبجيل ، ودولته العليه فى وجوه الأيام غررٌ وتحجيل ، ولعزماته الماضية فى حد الشرك تفليل ، وفى يد الإسلام بذْل وتنويل . السلطان الكذا بن السلطان الكذا بن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ، أبقى الله دولته العلية فلكا يستضاء بكواكبه ويستنار ، وحَرَماً يحتمى به من الخطوب ويستجار ، وَوَصَل لها سعداً ما تعاقب الليل والنهار ، ونصرا يحمد منه فى الإسلام الآثار . سلامٌ كريم ، برٌ عميم يخص أخوتكم الباسقة الفروع ، ذات الفضل الذى هو أوضح من الشمس عند الطلوع ورحمت الله وبركاته . أما بعد حمد الله الذى ألّف برحمته بين قلوب المؤمنين من العباد ، وهداهم إلى التمسك بحبل الطاعة التى بصّرهم فيها بمواقع الرشاد ، وجعل الخلافة (٩٤ ط) حَرَماً آمِناً طهره من دنس الظلم والإلحاد ، وكتب الشقاء على من رَامَهُ من غير أهله بما اقترفه من كبائر الفساد ، ووعد من استعان به وتمسّك بسببه من النصر والإنجاد ، والتأييد الذى يمده من الفتوحات بأعظم الأمداد ، والصلاةُ والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبى الهادى المختار من بيت الشرف الرفيع العماد ، سراج النبوة الوقّاد ، والشفيع المشفّع

(١) هو سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر المعروف بمحمد الخامس الغنى بالله .

فى الميعاد ، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا فى الله حق الجهاد وآوَوْا ونصروا على استيلاء الكفر وظهور البغى والعناد ، وأحسنوا بعده الخلف فى أمته بالاتباع لأوامره والانقياد ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى المؤيد الكريم السلطانى المستعينى الابراهيمى بالنصر الذى يُجرى جياد البشائر فى أفسح الآماد ، والفتح الذى يرتاد محلنا السامى أى ارتياد ، والتمكين الذى يقر جنبات السيوف فى مضاجع الأغماد . فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم سعدا تنتظم فى قلائد المجد دُرَرُه ، وعزاً تنضح فى وجوه الأيام غرره ، من منزلنا الأسعد بأمرجن يمنه الله ، والأقدار فى مساعدة أمرنا الكريم نافذة وماضية ، وأجياد الملك بالبشائر المتتابعة ، والمسرات المرادفة حَالية ، ووفود الفتوحات على بساطنا الأشرف مزدحمة متوالية ، ومُقَدّمات النصر من شوائب العناد سالمة ، وعن الأوهام الكاذبة عارية ، والحمد لله على ذلك حمدا نستزيد به عوارف (٩٥ و) جوده ، و نستدر به أخلاف مذخوره ، من النعم وموعوده ، والحب فيكم صميم ، والود فى إخائكم ثابت سليم ، والحمد لله على ذلكم وعنايتنا بجانبكم موصولة بالخلوص مشفوعة ، وأحاديث مصافاتكم فى الحسان العوالى مرفوعة ، وشِيَمُ مقامنا الكريم على مشايعتكم ومؤازرتكم مطبوعة ، وإلى هذا وصل الله سعادتكم وحَرَسَ بتوالى النصر والتأييد مجادتكم وأجزل من مواهب الفتح إفادتكم .
فإنكم علمتم خبر سفرنا وما كان إليه بعد خروجنا من غرناطة المحروسة مآل أمرنا ، وإنا لما اتصل بنا شأن الحضرة وقوى ما كان عندنا على سرير الملك من الغيرة ، خرجنا وقد اشتهر من ذلك ما اشتهر ، نحاول ملكا أو نُعذر ، فاتخذنا سبيلنا فى البحر عجبا وجعلنا الفلك المشحون لوصولنا إلى الحضرة سببا ، فلما انتهينا إلى هذه العدوة وآوينا منها إلى أسعد ربوه ، طفقت البلاد تصافحنا بيمناها ، وتستبشر من دولتنا الكريمة ببلوغ مناها ، وتبث إليها من التشوق إلى دعوتنا العلية شكواها ، وتفتخر بالانتظام فى سلك طاعتنا وتتباها . وعلمت أنه قد نَهَدَ إليها معاذُها ، وقوى على حين

توَثُّم الصعب ملاذُها . وآن أن يقام الحق والعدْل فيها ، وأن يغمر ظل الأمن والعدل نواحيها وبادر إلى التمسك بالطاعة الكريمة أهل الجبل وطنجة وأصيلا وقصر المجاز[1] وجميع البلاد (٩٥ ط) الريفية والقبائل الغُمَارِيَّة ، وكان الشقى الخاسر منصور ابن سليمان ، قد امتدت فى الفتنة مطامعه ، ونَبَتْ عن قبول النصائح فى طلب ما ليس له مسامعه ، ففسح مجال آماله التى ضيَّقها القدر وصَرَمَها ، وأوقد نار الفتنة على من بحضرتنا من الأولياء وأضرمها ، وبذل فى التضييق عليهم ذخائر الأموال ، وأنفق فى حصارهم أعمار الرجال ، فلم يحل بطائل ، ولا ظفر منها والحمد لله ببغية آمل ، ووصلتنا كتب وزيرنا الحظى لدينا الشيخ الأجل الاسنى المعظم الأكمل أبى على الحسن بن عمر أعزه الله ، يستصرخ بنا ويستنجد على الأشقياء بحزبنا ، فأجبنا داعيَهْ ، وحمدنا فى حماية حضرتنا الكريمة مساعيَه ، وأعملنا إليه الركاب ، وقدمنا فى نصره الأسباب ، ونزلنا بسريف يمنه الله بمقربة من القصر الكبير ، وكان الشقى لما خامره من أمرنا الرعب ، وعلم أن ما وَطِىء من هذا الأمر موطىء يغيظ المؤمنين صعب ، وجَّه أخويه عيسى وطلحة إلى القصر بجمع اعتقد ولاءهم فى مغالبة أمرنا ومدافعة حزبنا ليقفوا هنالك ، ويسد علينا بجمعهم الوافر الطرق والمسالك ، وكان مع الشقى جماعةٌ من قبيلنا أعزهم الله ، دعاهم إلى الوقوف معه داعى الاضطرار ، وسلمت عقائدهم من الاعتداد بأمره والاغترار ، فجعلوا يتسللون إلينا لِوَاذا ، ويودُّون لو يجعلون كبيرهم الذى لا يرجعون إليه جُذاذا ، علما منهم بضعفه عن الولاية ، وأن مبدأ ملكه لا يصل إلى الغاية ، ثم (٩٦ و) اتصل بهم أن أمرنا قد أُمِر ، وملكنا بعد اشفائه على على الخراب قد عُمِرْ ، فنبذوا دعوتهم بالعراء ، وشحذوا عزائمهم لنصر دولتنا الغراء ،

---

(١) قصر المجاز أو القصر الصغير أو قصر مصمودة ، مدينة صغيرة على الشاطىء المغربى المطل على مضيق جبل طارق ، وينسبها المؤرخون إلى رابع خلفاء الدولة الموحدية ، يعقوب المنصور ، وكان الغرض من تأسيسها إيجاد مكان صالح لإبحار الجيوش المغربية المتجهة إلى مدينة طريفة Tarifa فى العدوة الأندلسية المقابلة ، كذلك يقال إن جواز طارق بن زياد إلى الأندلس كان من قصر مصمودة راجع (مجلة تطوان : العدد الثانى ص ١٦٣ ، سنة ١٩٥٧) . راجع كذلك (بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ص ٢٢) .

وانفضوا من حوله وإن لم يكن لأجل استيلافهم فظا ، ودانوا بطاعتنا الكريمة ومحبتنا اعتقادا ولفظا ، وأشرقوا الخائن بريقه ، وأسلموه لمن تابعه من فريقه ، ففر والرعب قد ملأ فؤاده ، وسعادة أمرنا العلى مالكة إن شاء الله قياده ، وقصد هو وولده وثلاثة من الفرسان ميمما إلى جبل أكان[1] الذى فيه إن شاء الله حتفهُ ، ولنا الاستيلاء عليه بعناية الله ، وإن رغم أنفهُ . وتفرق أولياؤه فرقا ، وسلكوا فى طاعتنا سُبُلا حميدة وطرُقاً ، فمنهم مقتصد وقف مع وزيرنا المعظم أبى على الحسن بن عمر أعزه الله ليكمل عقد الطاعة ، وينتظم بمحبتنا وخدمتنا فى سلك الجماعة ، ومنهم سابق بالخدمة لم ير الغاية إلا فى الوقوف ببابنا ، ولا جعل قصده إلا في اللحاق بركابنا ، قد تسابقوا إلى بابنا الكريم يصلون السُّرى بالتأويب ، ويهتدون من أسِنَّتِهِم وعزائِمِهم بكل شهابٍ ثاقب فى كل طريق ملحوب . وأما الوزير أبو سرحان مسعود بن رحو وكان ممن نقض عرى دولته وسعى فى محو كلمته ، فإنه بادر إلى خدمةٍ تزكى عمله ، وتبلغه من رضانا أمله ، فاعتمد أولياءنا الأقربين ، وبطانتنا المظفرين ، وقصد الذين بالقصر ليصادف فيهم غِرَّة ، ويُذهب عن منصب الملك بمحو آثارهم معرّة ، ويتَحَيَّل فى القبض على (٩٦ ط) أخوى الشقى ، ويتقرب إلينا بأثر من نصائحه جَلِى . وفى خلال ذلك اتصل بالقوم ما وقع بفاس ، فارتبكوا فى أمرهم ، وخلوا إلى شياطين طغيانهم وكفرهم ، ثم إن الله سبحانه أيقظهم للهُدَى ، وهيأ لهم من أمرهم رشدا ، وبصَّرهم بمواقع الطاعة فالتمسوها ، وانسوا أنوار عفْونا اللائحة فاقتبسوها ، فالقَوْا يد الطَّوع والإذعان ، وهداهم الله إلى استكمال عقد الإيمان ، وتحقق الوزير أبو سرحان خبرهم ، واقتفى أثرهم ، واجتمع طريقه بالقوم الذين استعجلوا إلى حضرتنا الكريمة ، فوردوا فى حين واحد ، وشعارهم

---

(١) اكان ، كذا فى الأصل ، وفى القرطاس (جـ ١ ص ١٢١) الكاى ، وفى أعمال الأعلام لابن الخطيب (ص ٢١٣) أكاى ، وفى البكرى (ص ١٢٦) لكاى ، وكذلك فى ليون الإفريقى Lukai وقد وصفها هذا الأخير بأنها جبل أو مدينة كثيرة الخيرات بالقرب من فاس . انظر ليون الإفريقى : وصف افريقيا ، الترجمة الإنجليزية ، نشر روبرت براون جـ ٢ ص ٥٢٨ (لندن ١٨٩٦) وواضح من كلام ابن الخطيب قبل ذلك أن منصور بن سليمان وولده وبعض فرسانه قد فروا تجاه مدينة بادس فى شمال شرق المغرب ولعله يقصد هنا أنهم مروا بهذا الجبل أثناء فرارهم إلى هناك .

محبتنا التى أطلعت لهم الشك يقينا ، وطاعتنا التى لم يعتقدوا إلاّ الوفاء بها وليّا ولم يتقلدوا غيره دَيْناً ، فصرفنا إليهم وجه القبول والإقبال واضح الجبين ، ورفعنا لهم راية العز والإحظاء فتلقوها باليمين ، وبرزنا إليهم والنصر قد عقد علينا لواءه ، وهذا اليوم الأغر قد أرانا من الفتح ما وراءه ، وازدحموا على ركابنا العَلى متفيئين ظلال العدل والأمان ، وبايعونا بيعة رضى ورضوان ، وضربت الطبول ، وخفقت البنود ، وأمن الرعايا ، واستبشرت الجنود ، وانجز لنا من الله الموعود ، ومن الله سبحانه نستوهب نصرا يردف هذا الفتح بمثله ، وتأييدا يغنى المقاتل عن هزّة رمحه وسلّه نصله . وسيق الذين بالقصر إلى محلنا الكريم يعثرون فى لباس الذل والهُون ويرتعون حول حمّى من المنون ، فاعطوا الطاعة عن يد وهم صاغرون ، كأنما يساقون (٩٧ و) إلى الموت وهم ينظرون ، فرَدَّدْناَ النظر وعلمنا أن الكريم يعفو إذا قَدَرْ ، وقلنا إن عاقبنا فالعذر أجلى وأوضح وإن عفونا فالسجايا أندى وأسْجح ؛ لكننا إلى الأدنى من الله أجنح . فأوسعناهم عفوا وأوردناهم من أمواج حلمنا صفوا ، وسكّنا بالصفح روعهم ، وأذهبنا بالوعد الجميل خوفهم وجزعهم ، وبعثنا أخوى الشق صحبة القائد الأنصح الأثير المرعى قاسم بن أبى بكر بن بنج إلى عدوتكم المحروسة ليقر لهم فيها القرار وتطمئن بهم بحسب عفونا فى جواركم الدار ، ورحلنا صبيحة يومنا قافلين إلى الحضرة الكريمة مستعينين بالله فى تتميم دعوتنا العلية ، ونزلنا بهذا المنزل فوصلتنا أخبار وزيرنا المعظم أبى على الحسن بن عمر أعزه الله ، وأنه آخذ جهده فى الخدمة ومتمسك بأمور الطاعة المهمة ، وإنه وجه إلينا المال وآلات السلطان جميعا وهم واصلون على الأثر بعد أن كانت كتبه وصلتنا أمس التاريخ ، يستحث ركابنا ، ويوصل بالحضرة انسابنا ويقر من طاعتنا بالواجب ، ويسلك فى الخدمة والمحبة أسنى المذاهب ، ونحن لا نزال نبرم عقد مودتكم وإن كانت الحال دعتكم إلى نقضه ، ونعلم وضوح عذركم فيما فرط من الإخلال بفرضه ، فنوافى لديكم سار انبائنا تقريرا للمناصحة التى خاصت سرا وعلنا ، والمحبة التى أنبتها الله من حَبَّة القلب نباتا حسنا ،

والمشايعة (٩٧ ط) التى نعتقدها شريعة ونتمسك بها سننا ، والمعاهدة التى تنيلكم فى جهاد أهل الكفر أملا ، والمؤازرة التى تطلع لكم من آفاق دولتنا الكريمة شُهُبَ النصر قواضبا وأَسَلَا ، ورِعيا لما بين أسلافنا رضوان الله عليهم من الوصلة التى أُسِّس مبانيها الجِوَار ، والمودة التى حَسُنَت فى غاياتها ومبادئها الآثار ، وتجديدا لذلك العهد وإن تقادم أمدُه ، وتأكيدا لحكمِهِ الذى عظم بالمؤازرة مددُه .

ولما بيننا من المواصلة فى السر والجهر ، وعندنا من المساهمة لكم فى الحلى والمر ، أعلمناكم بهذه الأخبار ، وأفصحنا لكم عن جميل الاعتذار عملا على شاكلة المساهمة ، وحفظ المودة التى لم تزل على أصولها قائمة ، ودفعا لما عساه يلحقكم من الخجل فى ذلك ، وسلوكا من مراعاة ودكم على أجمل المسالك وسيتضح لكم عند وصولنا إلى الحضرة الكريمة شواهد هذا الدليل ، ويظهرها ما أضمرناه لكم من الوعد الجميل(١) ، فثقوا بذلك وافسحوا فى جهاد أهل الكفر مجال آمالكم ، والله يضاعف لكم التأييد والنصر ، ويطلع لدولتكم الزمن النضر ، ويضاعف لكم الاقتدار ويجرى فى مساعدة أمركم الأقدار ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب فى يوم الأحد العاشر لشعبان المكرم من عام ستين وسبعمائة ، عرف الله خيره وبركته وهو المستعان وكتب فى التاريخ المؤرخ به .

وصدرت المراجعة بما نصه :

المقام الذى عالج زمانة الزمن فشفى ، وضمن له عزيم القدر بلوغ الأمل وإحراز الوطر فوفى ، وانسدل بأياليه على الأمة لباس الوقاية والعصمة فضفى ، واستظهر للدهر بعقوده ، طالبا بالحق إرث آبائه وجدوده ، فوقع عليها قاضى القضاء : استقل بالواجب واكتفى مقام محل أخينا الذى ثَغْرُ الدهر لما استحقه من عزة الأمر بَرودُ شنيب ، وقبة الفخر قد أحكم منها على مجده العدّ وفضله الغمر تطنيب ، ومركب العزة القعساء

(١) كتب على الهامش تعليق على هذه العبارة : اتضح ذلك أى اتضاح حين ورد عليه سلطان الأندلس فاراً مهيضاً كسيراً فاعطاه واغناه وأكسبه وجبر حاله .

لخدمته فى الإصباح والإمساء جنيب ، ولسان الثناء على حلمه ودينه يتلو على الأشهاد من[1] إن إبراهيم لحليم أواه منيب . السلطان الكذا بن السلطان الكذا بن السلطان الكذا أبقاه الله تضرب بصدق عَزْمته الأمثال ، كما ارتفع بحجة دعوته الإشكال ، فمهما طمحت نفسه النفيسة إلى غرض بعيد ، قرب منه المنال ، وطأطأت أعناقها الآمال ، ونجحت الأعمال ، وأعطت الغاية التى لا تنال . سلام كريم بر عميم يخص مقامكم الأعلى وأخوتكم الفضلى ورحمة الله وبركاته . مُعَظِّم مقداركم الكبير ، الموجب لأخوتكم الكريمة مزية التوقير ، المثنى على فضلكم المبين ، ودينكم المتين ، وحسبكم الشهير الأمير عبدالله محمد بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر . أما بعد حمد الله مُدَبِّر الوجود الذى بيده مقاليده ، الملك الحق الذى ثبت ببديهة العقل توحيده ، جبار السموات (٩٨ ط) والأرض ، فالأمر أمره والعبيد عبيده ، جاعل الشكر مفتاح المزيد من نعمه ، فهو كما وعد يُحسب الشاكر ويزيده ، فمن استعان به فى المهمات أعانه نصره وأنجده تأييده ،ومن توكل عليه فى الملمات ساعده ما يريده ، ومن تذلل لعظمته اشرأب بالعز جيده ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله صاحب الفخر العالى مشيده ، والحمد المتوالى فى الذكر الحكيم ترديده ، والفخر الذى لا يطال سمكه ولا يخلق جديده ، هادى الأنام الذى استبان بطاعته شقى الخلق وسعيده ، فأصبح الباطل وسيف الحق يبيده ، وغدا عقد الإيمان لا ينقض مبرمه ولا يحل شديده ، والرضا عن آله وصحبه الذين نصروه فى حياته بالعزائم الصادقة ويوم الروع لا ينادى وليده ، وحفظوه فى أُمَّتِه بالاهتداء الذى بان فضله وظهر تسديده ، وكانوا فى سماء ملته كالنجوم المشرقة لمن يبتغى الخير ويستفيده . فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم سعدا يطوى المراحل فيشبه الغيث يؤم البلد الماحل بريدُه ، ونصرا يُقصر على تمهيد الأرجاء وعلى الجهاد الذى هو مطمح الأمل الدينى والرجاء عدته وعديده، حتى يزين عِطفَ المثقف إنثناؤه وخَدَّ المهنّد توريدُه ، ويقوم خطيب الحسام مُكبرا

(١) كلمة غير واضحة — رسمها مرسه — ولعلها مدينه بمعنى مدينته . وبذلك تستقيم السجعة :

بالفتوحات الجسام ، فيقال هذا اليوم عيده ، وهنا كم الملك الذى ذخر لنظم مآثركم طويله ومديده ، فإذا تذوكرت الأملاك وانتظمت من الفخر الأسلاك ، فسيفكم (٩٩و) سفّاحه ورأيكم رشيده ، من حمراء غرناطه حرسها الله ، وساجعُ شكر الله يملى الأفواه وقد طاب بدوحة الصنع الجميل تغريده ، والمسئول فى صلة عوائد فضله من يُبدىء الخلق ويعيده ، وإلى هذا هنا كم الله ماخوّلكم ، وبلغكم من فضله أملكم ، فإننا — من لدن انبعث عزمكم ، على طلب حقكم ، وقد تأذن الله لكم فى استخلاصه ، ومطاردة أملكم الذى أجلى الركض الحثيث عن اقتناصه ، ونبهكم القدر ، والحظ المبتدر ، والسعد الذى راقت منه الغرر ، لسرٍّ من القبول خَبأَهُ سبحانه وحَجَبَهُ ، واعتناءٍ حتّمه وأوجَبَهُ ، فسهل الصعب ، وهانَ الخطر ، وانقاد الوطن وتأتى الوطر ، وبرز إلى الوجود ما تضمنه اللوح المستطر لم نزل نسأل الله لكم حسن العقبى ، ونجح المآل ، ونتشوّف إلى ما تربدّ[1] من قبلكم من الأحوال ، ونتلقى مايَرِدُ من أنبائكم المعربة عن سمو القَدْر ، والسعادة المشرقة البَدْر ، بانشراح الصدر ، إذ لم توسعُ الأحوال المتعارفة عندنا زيادة على هذا القدر ، إلى أن طلع علينا كتابكم الأسنى ، متحفا بثمرة السعد طيبه المجنى ، وقد تأسس منه على الوفاء وكرم العهد المبنى ، وتطابق منه فى الفضل اللفظ والمعنى . اطلعتمونا طليع الأنباء التى يَحُومُ التشوف حول حماها ، وتتزاحم أنساب الشفقة على منتهاها ، وتشرع الأفكار إلى فك معماها ، وإنكم (٩٩ ط) مازلتم ترفلون فى لطائف صنع الله برا وبحرا ، وتتوسدون كنف الرفق والعناية نحرا وسحرا ، إلى أن نقلكم من صرير الفُلك إلى سرير الملك ، من يُجنى ثمرة الحياة الطيبة من شجر الهُلك ، ويشقّ عن أزهار الأنوار كمائم الظلم الحُلك ، فتأرّجت نواسِمُ القبول من مهبها ، وأشرقت الأرض بنور ربّها . وتذاكرتِ الرعايا صنائع والدكم المقدس فرّعتْهاَ ، وأنصتت إلى دعوة الحق فوعتها . وأقام الله لكم بدار الملك وهو الأصل ، والرياس الذى يُمْسكُ منه النّصل ، مَنْ حَمَى

---

(١) رسمت : تريد ، مع شده فوق الياء التى تحتمل أن تكون باء — ولعلها ما أثبتناه —

الحوزة ، وأحيا العزامة ة وبذل فى حفظها عليكم الجزالة والصرامة ، بما يستوجب به هو وعقبهُ منكم الحظوة والكرامة ، فلم تجْدِ معه الحيل ولا أغنى الحصر ، حتى نزل بإصراخكم النصر ، وسعد بدعوتكم العصر وارتاح إلى مُحيا كم القصر . ووردت عليكم الوفود تجر ذيول الأَسَلْ ، وتستشعر النشاط من بعد الكسل ، وتراجع الوفاء للعهود ، وتتذكر الحقوق السالفة والعهُود ، وأنكم حثثتم السَّير إلى الحضرة التى فارقتكم مطالعها هلالا ، فعدتم إليها بدرا ، وارتاحت إلى لقائكم على مر الأيام ، وقد جعل الله لكل شىء قدرا ، وإن وزيركم الأوفى شكر الله وفاءه وجعل معروف اعتقادكم الجميل كفاءه ، وجّه آلات الملك التى بها يستظهر الأمر العزيز ، ويكون بها على المدينة التبريز ، وقررتم ما سلكتم فيمن أظفر الله به أمركم وسعى بالقدرة عليه صدركم من عفوٍ عن دمٍ ، ورعى ذِمَمٍ ، وإيثار (١٠٠ و) عادة وفضلٍ موروث وكرم . فاستوفينا ما قررتم من مقاصِدَ نظمت البلاغة شذورُها ، وجَلَت ظُلَم الحبر نجومُها العواتم وبدورُها ، وحضر بين يدينا خديمكم فلان فزاد الخبر لأجل المعاينة إيضاحا ، وأفاد شرح الجزئياتِ الصدرَ انشراحا ، فقابلنا نعم الله عليكم بشكره وحمده ، وسألنا لكم مزيد فضله بكل نِعْمَةٍ من عنده ، وقلنا الذخر الثمين انتظم فى عقده ، والحسام الماضى عاد إلى غمده ، والفرع الكريم استقل بمنبت أبيه وجده ، وما يفتح الله للناس من رحمة فلا مُمسك لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له من بعده . ثم ثنينا العنان إلى شكر مجدكم الذى لا ينكر حقه ، ولا تلتبسُ فى الأصالة طرُقه ، فالجواد لا ينكر سبقُه ، والغيث يدل عليه برقُه . وعلمنا بما قررتم من استشعار العفة عمن قصدكم من الناس ، وخفض جناح الايناس ، استقامةً للأمن إن شاء الله على أوثق الأساس ، وسلامة الصدر وذهاب الباس ، وسررنا — والله العليم بالضمائر — بما سَنَّى الله لكم سرورا نناز‌عكم فيه فضل اللباس وفضلة الكاس ، فإن إيصال الحقوق إلى أهليها ، وكَوْنَ رتب الآباء تستقر فى الأحقِّ بها من بنيها مما جُبلت النفوس على استحبابه وإيثاره ، ويجده كل قلب وفق اختياره ، فكيف إذا عَضد ذلك وُد متُوارث عن السلف ، محفوظ بدرُه

عن الكلف ، فنحن نهنيكم والهنا شامل ، ونؤمل لكم المزيد والله لا يخيب لديه آمل . و نسأله أن (١٠٠ ط) يسعدكم بما صار لكم ويجعل فى طاعته عملكم ، ويكتبكم فيمن شكر آلاءه ونعمه . وذكر فضله وكرمه ، والسلام .

وبادر الوزير الثابت القدم بدار الملك بَعْثَ الأعلام ، والخلع الملكية والمراكب الثقيلة الحلية . والآلات التى باستعمالها تمام الأبهة بعد أن بدا له فى الاستمساك ، وشرع فى ضم مرافق المحلّة ، واستخلف الكثير من الزاد ، واكتسح البلد والمحلة لولا أنه أسلمه المنجد ورابه من أوليائه الأمر ، وبادر إليه الأمير القاصد قبل إفاقته من هوله وابتلاع ريقه . فبعث رسوله الشريفَ الثبت فى الجُلّىّ الدامغ الحجة العظمى . فما كان إلا أن أوصله إلى نفسه يوهمه الخلوة به ، فجهر بالرسالة وقرأ على الناس الصكّ وأخل بالمصاف . وقاده إلى غرضه بعد التوثق له ، فخرج الولد فى طُوَيْفَةٍ من الإخوة والخدام بعد أن اقتضى له من عمه الدائل العهد بحفظه وتبنيه فاخفر عما قريبٍ عهد الله فيه .

وفى يوم الخميس الخامس عشر من الشهر شهر شعبان ، برز الوزير وقضى حقه وكر بين يديه مقيما رسم الوزارة ، مسجلا له بالكرامة ، فدخل البلد واستقر منه بدار أبيه وجده وأريكه إرثه ، بعد انبتات السبب ، وبُعد المحلة وإقصار الأمل وعجز الحيلة وإعواز المال والعدة . سبحان ذى الملك الحق والقدرة لا إله الا هو جل شأنه وعز سلطانه . وخاطب السلطان صاحب الأندلس[1] أيضا بما نصه :

من عبد الله المستعين (١٠١ و) بالله إبراهيم أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أعلى الله كلمته وزين باقتبال البشائر دولته ، إلى محل أخينا الذى رسخت فى صدق الإخاء قدمه ، وأعربت عن خلوص الولاء والسنا مناقبه السنيهُ وشِيَمُه ، وظهر فى كل شِعْبٍ مّن طرق المودة علَمُه

(١) هو كما ذكرنا آنفا سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله .

وطبعت على مُصافاتنا هممه ، السلطان الكذا الكذا بن السلطان الكذا الكذا ابن السلطان الكذا الكذا ، وصل الله لمجده سعدا تستنير أضواؤه ، وسعْياً يخفق بالنجح لواؤه ، سلامٌ كريمٌ يخص أخوتكم الرفيعة الجناب ورحمة الله وبركاته .

أما بعدَ حمد الله الذى يؤتى الملك من يشاء فلا يُرَدُّ حكمه ولا يُرام ، ويعز من يشاء فلا يُزال سلطانه ولا يُضام ، القادر على ما يشاء فله الحل والإبرام ، والنقضُ والإحكام، الذى جعل الخلافة حَرَماً آمنا تجافاه الظلم والإظلام ، وألف بين قلوب المؤمنين فكمل الاتفاق وحصل الالتئام ، ووعد من استعان به وتمسك بسببه بالنصر الذى تخفق به الأعلام ، والفتح الذى تُطلعه من آفاق التأييد الأيام ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى له الاصطفاء والإكرام (١٠٤ ط) والحوض والشفاعة والمقام ، الذى رحم بابتعاثه الأنام ، ودعا إلى الله على بصيرة فاستقر الإيمان والإسلام ، واقتعد بهدايته الغارب والسنام ، وعلى آله وأصحابه الذين هم البررة الأعلام ، ولهم المضاء فى نصر دينه والاعتزام ، والجلاد والجدال اللذان تم بهما أمر ملته السمحة وانعقدت لها الأحكام ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العَلِىِّ المؤيد الكريم الإمامى المظفر المطاع السلطانى الإبراهيمى المستعينى بالنصر الذى لعقده الوثوق والإحكام ، والفتوحات التى لها فى سلك دولته الاتساق والانتظام ، فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم سعدا لا يفارق الدوام ، وعزا لا ينفصل منه متصل ولا ينقص منه تمام ، من حضرتنا العلية المدينة البيضاء[1] مَهَّدَها الله تعالى وخلَّدها ، وقد صدَّق الله تعالى أمل الإسلام فينا ، وحقق اقتداءنا بأسلافنا الكرام رضوان الله عليهم فى إحراز ملكهم الشامخ وتأسينا ، وزُهِى بنا منبر الخلافة وسريرها ، وجرت بنظرنا الصالح وتدبيرنا الناجح أمورها ، وأعطانا الملك صفقة الرضا والقبول ، واستبشرنا بمحبة الله التى قام عليها من محبة الناس أوضح دليل ، والحمد لله على ذلك حمدا يصل النعم بمثلها ، ويوجب المزيد لمُستَمْنِحِها بالشكر ومُسْتَجْزٍ لها ، وَوُدكم من ثوابت الغِيَرِ سليم ، والحب كما تعلمونه ثابت صميم ، واهتمامنا بمناصرتكم

(١) المدينة البيضاء يعنى فاس وتقابلها المدينة الحمراء وهى مراكش .

وَثِقُ العقود (١٠٢ و) وإيثارنا لمعاضدتكم محفوظ العهود ، والله يصل ذلكم لوجهه كفيلا برضاه ، وافيا بزيادته وحسناه ، وإلى هذا وصل الله سعودكم ووالى تأييدكم ، فإنا كنا قدّمنا لجلالكم التعريف بما سنّاه الله تعالى من محو آثار الفجرة الأشقياء ، الذين بَغوا الفسادَ فى الأرض بعصيان ربٍّ السماء ، وفسحوا مجال الأطماع فى إحراز الملك الشامخ البناء ، واحتالوا بالتضييق على حضرتنا ليغتالوا ، وهمُّوا فى كيد أمرنا العلى فلم ينالوا ، ولما تيقنوا أن الله سبحانه أعلى بالخلافة وإظهار الدعوة يدَنا ، وصدع قلوبهم الرعبُ الذى سبق بين يدينا وتقدَّمَنا ، فَشُتَّ شمل ضلالهم ، وانصرمت حبال آمالهم ، وانفض من حولهم الأولياء الذين أكرهوا وقلوبهم مُطمئنة بالطاعة ، وسلمت عقودُ ضمائرهم من أن ينفث فيها مخالفة الجماعة ، وانصرفوا عنه يهتدون بلائح أنوارنا ، وَيعْشونَ إلى ضوء نارنا ، فشرحنا صدورهم بالوعد الجميل ، وفسحنا لهم مجال التأميل ، وقفلنا إلى حضرتنا الكريمة والنصرُ قد ألقى إلينا مقاليد البلاد ، والتأييدُ قاد لنا طلائع الفتح مشرفة الهواد ، والتمكين قد أقر جنوب السيوف فى مضاجع الأغماد ، ولما وقع الحق بإظهار هذه الدعوة الواضحة السناء ، وبطل ما كانوا يعملون فى التضييق على من كان بها من الأولياء ، وعصم الله سبحانه (١٠٢ ظ) حضرتنا العليَّة من أن يجيش صدرُها بِجَمْعِهم الذَّميم ، أويعْلَق كفُّنا منهم بالحبل الرَّميم ، ونأت بجانبها عن دواعيهم ، واستصعبت على عزائمهم ومساعيهم ، بادر وزيرنا الحظى لدينا الشيخ الأجل الأعز الأمنى الأرفع الأخلص الأكمل أبو على الحسن بن عمر ، أعزه الله تعالى إلى تقديم الأسباب الواجبة لركابنا العلى عند الاقتراب والإعلان ، بما كان يسره خشية منهم من الطوع والإذعان، فعلمنا بما ظهر من مبادىء النصائح صدق ضميره فى المصائر ، واستقبلنا الفتح يرفل فى ذيول البشائر ، بعد أن كانت كتبه تناجينا بلسان خلوصه على بعد الدار ، وتستحث ركابنا العلى راغبة فى القدوم على حضرتنا والبدار فطوينا المراحل إليها ، واستعنا بالله فى تكميل ما رمناه لديها ، وقد ازدهت بعسكرنا المظفر الوهاد ، وسالت بأعناق المطى الأغوار والأنجاد ، وتباهت بالانتظام فى سلك طاعتنا البلاد ، وحين طلعنا على حضرتنا العلية من آفاقها ، وابتهجت النفوس

بانتظام المسرات واتساقها ، وجمع الله كلمة المسلمين بعد افتراقها ، خرج إلى لقائنا محل ولدنا الأسعد الأرشد أبو بكر السعيد بن أخينا المرحوم أبي عنان رحمه الله والشوق قد بعثه على المسارعة إلى ركابنا ، ونور الهداية قد أوضح له التمسك بعلى جنابنا ، فوصل إلى بساطنا الأشرف يبرأ من تدبير الأمور ويلتمس منا الانفراد بنفسه عن الجمهور (١٠٣ و) وألقى مقاليد أمره إلينا ، وعول فى النظر له وللمسلمين علينا ، وخرج بعده وزيرنا أعزه الله تعالى بعد أن قدم أسباباً ظاهرة من النصائح ، أنتجت له العلا فى بابنا والظهور ، وتَجَرَّ فى حماية حضرتنا والقيام بدعوتنا تجارة لن تبور ، وتمسك بمقامنا الكريم الذى يمهد له مراتب العز ويوطدها ، ويثبت له أحكام الحظوة والمكانة ويؤكدها ، ودخل بين يدينا إلى حضرتنا العلية وقد أشرق السعد فى جنباتها واتضح، واتسع مجال الآمال فى دولتنا الكريمة وانفسح ، واستوينا على سرير ملكها ، وانتظمت الفتوحات فى سلكها ، وتمت كلمة المؤمنين ، وأعز الله باستقرار ملكنا وثبوته الدين ، والحمد لله على هذه النعمة التى أعجزت عن القيام بشكرها ، وانتشرت المسرات المتصلة فى نشرها ، أعلمناكم بذلك جريا على حكم المودة التى أُسسَ بنيانها ، وتساوى إسرارها وإعلانها ، ولما بين أسلافنا رضوان الله عليهم من الوصلة الحميدة الآثار ، والمحبة التى أكدها قرب الجوار ، ولتعلموا أنا والحمد لله قد أعطانا النصر قياده ، وفسح لنا الملك آماده ، وأملناً بحول الله تعالى أن يبلغ الإسلام مُرَادَه ، ويجرى فى ميدان الجهاد جهاده ، والله سبحانه وَلِيُّناً المستعان ، وبه اعتصامنا في كل أمر وشان . وقد أوفدنا عليكم بخطابنا فلانا وهو يقرر ما عندنا لكم من حسن المودة والمناصرة وجميل المعاضدة (١٠٣ ظ) والمؤازرة . والله سبحانه يحرس ودادكم ، ويفسح فى جهاد أهل الكفر آمادكم . والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . وكتب فى اليوم السابع عشر لشعبان المكرم عام ستين وسبعمائة . عرف الله خيره وبركته وكتب في التاريخ المؤرخ به .

ووصل صحبة هذا الكتاب قوم من نبهاء الخدام تكفلوا بإيصال العيال[1]

(١) المقصود بالعيال هنا أسرة السلطان أبى سالم المرينى التى كانت قد بقيت فى غرناطة عندما اتجه هو إلى المغرب مطالبا بملكه .

المتخلف بغرناطة ، وشرعوا فى الاستعداد والاستظهار بما حملهم من زينه .

وقعد لهم السلطان بالأندلس قعوداً فخماً بقبة قصره ، وتضمن الكتاب المذكور مدرجا بما آلت إليه حال منصور بن سليمان طريده نصه :

وصل الله لولائكم الرضى سمو المكانة والعلاء ، ووالى فى ذاته حراسة ذلكم الإخاء ، مما نعلمكم به ونصل لكمالكم وَصْلَ المسرات بحسب الاعتقاد الجميل سببه هو أنه بعد ختم خطابكم الواصل هذا طيه إن شاء الله ، ورد علينا التعريف من حفدةِ ولى الله تعالى الإمام الكبير العارف الشهير أبى يعقوب البادسى[1] رضى الله عنه وأدام رعايتهم ، بأن الخائن الغادر الخائب الخاسر منصور بن سليمان الذى تعرض لما جهل بالتعرض له قدره ، وأراهُ عاقبة غدره ، وأحاق به مكره ، وصل إلى بادس هو وولده ومعهما عطية بن نُرْزدَغ من أشياخ جبال غمارة المخالفين على طول السنين[2] ، طالبين لنجاتهم التى لم يجدوا إليها من سبيل ، ولا عدموا بمرامها الأخذ الوبيل ، فقبض على ثلاثتهم خديمُنا (١٠٤ و) الأثير المرعى عبد الله بن عسكر مع رُماة البلد ، وتحصَّل جميعُهم فى قبضة الثقاف ، فبعثنا فى الحين من يأتى بهم إلى بابنا العَلى أسماهُ الله ليذوقوا وبال أمرهم ، ويجتنوا ثمرة غدرهم ، ومن العَجب أن عطية المذكور لم يُقدر عليه قط فى حال امتناعه بحبله ولياذه بحياله ، ولما أراد الله أخذه ، بعث إليه الخائن الذى أتته به رجلاه ، ورماهُ من شؤمه بما رماه ، فأمكن الله منهم أجمعين وقُطِع دابرُ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين نسأله سبحانه أن يوزعنا شكر نعمائه ، ويؤدى عنا حقوق آلائه والسلام معادٌ عليكم ورحمة الله .

وصدرت المراجعة عن ذلك بما نصه :

---

(١) ولى الله تعالى أبو يعقوب البادسى توفى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (١٤ م) ومقامه مشهور بين أهل الريف عند مصب نهر بادس وله منارة كبيرة عند أطلال مدينة بادس . وقد ذكره ابن خلدون فى مقدمته على أنه آخر أولياء المغرب، كذلك ذكره ليون الأفريقى عند كلامه عن منطقة بقوية المدفون بجوارها . ويرجح كولان أن هذا الولى من قبيلة زهيله التى كانت تسكن هناك راجع (عبد البادسى : المقصد الشريف فى التعريف بصلحاء الريف ، ترجمة كولان الفرنسية ص ١٠ ، ٢١٩) .

(٢) سبق أن اشرنا إلى أن قبائل غمارة القاطنين بجبال الريف فى شمال المغرب كانوا ، دائماً مصدر قلق واضطراب للدول التى تعاقبت على حكم المغرب ، واجع : (ص ٢٣٣ ، حاشية ٤) .

المقام الأسنى الذى أحسن الله له العقبى وأعقب له الحسنى ، وبلغه من فضله ما تمنى ، وجعله مثابة للناس وأمنا ، هو مقام إبراهيم[1] لفظا ومعنى ، مقام محل أخينا الذى جدد البيت الكريم ورفع أركانه ، واستحق النصر العزيز فعين زمانه ومكانه ، ونبهه القَدَرُ والحظُ المُبتدر فملأ أوطاره وتملك أوطانه ، واستظهر للدهر بعقوده ، طالبا إرث آبائه وجدوده ، فحاز تراثه واسترد سلطانه ، السلطان الكذا بن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا بن السلطان الكذا أبقاه الله مُنشرحة بسلطانه الصدور ، مُستمدة من نور سعادته البدور (١٠٤ ط) مُشَمِّراً لتتميم مآربه ، وإيضاح مذاهبه ، القدر المقدور ، مقرونا بعزماته الظهور ، متنافسة فى تخليد مآثره الأيام والشهور ، رافعا رواق العصمة عدله المشهور ، ضاحكا فى اليوم العبوس عَلَمه المنصور ، معظم قدره وملتزم بِرّه المسرور ، بما سناه الله من إجلال قدره ، وإعزاز نصره ، فلان ، سلامٌ كريمٌ طيب بَرٌّ عميم يخصُّ مقامكم الأعلى وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته . أما بعد حمد الله الفتاح العليم ، محيي ثمرة الأمانى القاصية ، والآمال المتعاصية ، من شجرات الرضا والتسليم ، ومطلع أنوار الظفر بالأوطار ، فى ظلمات الأخطار ، لأولى العزم من خُلفائه الأبرار ، وذاخر منحة الفوز بما لديه ، من أوليائه الكرام عليه ، لمن أتاهُ بقلبٍ سليم ، الذى جدَّدَ للمِلَّةِ ملابسَ عزها رائقة التَّسْهيم ، وجلا عنها بنور السعادة غياهب الليل البهيم ، ونَفَخَ منها روح الحياة فى العظم الرميم ، الملك الحق الذى إذا أعطى لم يُفِد لَدَدُ الخصم ولا مماطلة الغريم ، فبيده مِلاكُ القبض والبسط والتأخير والتقديم ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى الكريم ورسوله الرءوف بالمؤمنين الرحيم ، الذى أثنى فى كتابه العزيز على خُلُقِه العظيم ، وأرسله بالآيات البينات والذكر الحكيم ، وأخبر أنه وملائكته يصلُّون عليه (١٠٥ و) وأمر بالصلاة عليه والتسليم ، وبعثه إلى الناس كافة يأخذ بالحجزات عن العذاب الأليم ، ويدعو على بصيرةٍ منه سبحانه إلى جنات النعيم ، حتى أصبحت كلمة الله تحث بها جياد الأقلام فى ميادين الأقاليم ، وسرت فى الأقطار تبين لأولى الأسماع والأبصار حدود التحليل والتحريم ،

(١) الإشارة هنا إلى إبراهيم الخليل عليه السلام .

والرضا عن آله وأصحابه المتميزين بأصالة المجد وكرم الخيم[1] ، الحائزين قصب السبق في الحديث والقديم ، الذين خلفوه في ملته بالتكميل لمحاسنها والتتميم ، ونصروه في حياته نصرا تكفل بحفظ النفوس وصون الحريم . فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم صنعا تُتلَى أنباؤه ما بين زمزم والحطيم ، وسعداً تُغنى قواطعه في الأعداء عن اختيارات النصب واعتبارات التنجيم ، ونصرا يدونه الذابل[2] والحسام فيقومان بوظيفتي السَّبْر[3] والتقسيم ، وبشائر تَسْرِى في الآفاق مَسْرَى النسيم ، وتسفر في مطالع التعريف عن الوجه الوسيم ، وتروى منها العبادُ والبلادُ تحفةَ القادم[4] وزاد المسافر وقوتَ المقيم ، من حمراء غرناطة حرسها الله ، ونعم الله قد همت منها السحاب ، وفتوحاته الربانية قد تفتحت منها الأبواب ، والكلمة المحمدية قد اتصلت بها الأسباب ، ودولة الإسلام قد عاد لها بدولتكم الشباب ، وآلاء الله قد ذهلت لما بَهَر منها الألباب ، والظنون فيه سبحانه قد صدق منها (١٠٥ ط) الحساب ، ولا زائد بفضل الله الذى عمت هباته ، فهو الجواد الوهاب ، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أشرق من نور هدايته الشهاب ، إلا العز المشيد ، والسعد الجديد ، والجد السعيد ، واليُمن العريض المديد ، والآمال التى أشرف منها الجيد ، والحمد لله حمدا يتوالى منه بوسيلة الشكر المزيد ، وإلى هذا عرّف الله المسلمين والإسلام عارفة سعدكم ، وهنأكم ما هيأه من الصنع الجميل لمجدكم ، فإنا قدمنا لكم الخطاب جوابا عما أهديتم إلينا ، وأوفدتم بمقتضى فضلكم العميم علينا ، من إتحافكم ببواكر الفتح الأسنى ، والصُّنع الوثيق المبنى ، وأنكم صرفتم العزم إلى دار الملك الذى احتفلت لسعادة أمركم أوقاته ، ومقر العز الذى حفظ أمانته عليكم ثقاته ، وتشوف إلى تلبية مجدكم ميقاته ، وارتاحت

---

(١) الخيم : الطبيعة والسجية .

(٢) الذابل : أى الرمح والجمع ذوابل .

(٣) سبر وأسبر واستبر الجرح أو الماء أو البئر : امتحن واختبر غوره ليعرف مقداره ، يقال : هذه مفازة لا تسبر أى لا يعرف قدر سعتها .

(٤) يشير هنا إلى أسماء كتب معروفة مثل تحفة القادم لابن الأبار وزاد المسافر لصفوان ابن إدريس ، وهما من كتاب القرن السابع الهجرى .

إليكم عهودُه ، وحنت إلى لقائكم سروجُه ومهودُه ، وسهرت لارتقابكم عُيونَه ، ويسرت لاقتضائكم ديونُه ، ونضدت لمجالسكم مراتبه ، وعُرِضَت بين يدى جودِكم مواهبه ، وجُنِبَتْ جُرده[1] وسلاهبُه ، وزينتْ ببدركم هالتُه ، وخطبت لجلالتكم جلالته ، وإن الملك قد استقر والمنّة لله فى قراره ، وربُّ الدار قد توسد أريكة داره ، والوارث الأحق قد فاز بحقه ، والجواد الكريم قد تميز فى ميدان السعد بخَصْل سبقه ، وإن الطاعة قد اتسقت عقودُها وانتظمت وخلصت واستحكمت ، والألسنة (١٠٦ و) قد أعلنت ما كَتَمَتْ ، وملة الإسلام قد رضيت وسَلَّمَتْ ، وأن البلاد والعباد قد شملها الاستبشار ، وحصل لها الأمل الذى إليه يشار ، والقرب الذى كانت تحن إليه حنين العِشار ، وظهرت آثار الاعتقاد الذى كان كامنا ، وذهب بروع النفوس مقام إبرهيم الذى من دخَله كان آمنا ، وغبطناكم بموقعها الأسنى ، وعارفتها الحسنى ، وقلنا الحمد لله الذى ردَّ حلى المُلك المجيد إلى الجيد ، وقلد حُسام الخلافة عاتق البطل النَّجيد ، وزيَّن المفْرقَ بالتاج ، وقرن مقدمة العزم بالإنتاج ، فمعاذ الله أن تجهل البلاد حق والدكم الذى كفل الرعية وكفاها ، وتمم مآرب الإسلام على مرِّ الأيام ووفاها ، وأعذب الموارد وأصفاها ، ومدَّ جناح العدل المنشور ، والفضل المشهور ، ووسم بغرر المناقب أوجه الأعوام والشهور ، وكان لملوك الإسلام أبا ، ولتمهيد الأقطار وتسنى الآمال الجهادية والأوطارسببا ، ولدين الله ركنا وثيقا ، ولأوليائه وليًّا وصديقا ، وعلى الثغور شفيقا ، ولأعباءِ الخلافة مطيقا ، وللمناقب ديوانا ، وعلى عزِّ كلمة الله عُنوانا ، وللجهاد مُديما ، ولنعمة الله بالشكر مُستديما ، ولرسوم العلم والعمل مُقيما ، وللعدل والإحسان صراطا مستقيما ، وبخصوص هذه الجزيرة الأندلسية التى جعلها ميدان أمانيه — من رضى الله — وآمالِه ، وأسلف فيها ما أسلفه (١٠٦ ظ) من أعماله ، وسمح لها بنفسه وولده وماله ، جزاه الله جزاء الخلفاء الصالحين والأئمة المجاهدين من أمثاله ، وأبقى بركته فى ولده وآله . فلو لم يدعُ إلى السرور بما سنَّاهُ الله لكم إلا هذه

(١) الجرد : جمع أجرد من صفات الخيل وكذا السلاهب .

الوسيلة التى تسلِّم لها الوسائل ، وتقوم على فضلها البراهين والدلائل ، لكفت وأبَرَّت ووفت ، وسحت بركتها وَوَكفت ، فالفرند من النصل ، والفرع من الأصل ، والحب يُتوارث كما ورد به الحديث والخبر ، وشهد به الحسُّ وهو الشاهد المعتبر ، وإنا لنرجو أن تُرضوه باقتفاء سَنَن جهاده فى لحده ، وتتمموا مقاصده فى سبيل الله من بعده ، فأنتم سلالةُ مجده ومنقبةُ حمده . ورأينا أن تلك المراجعة دون الكفاية ، وقاصرة عما يجب من المبرة والحفاية ، فخاطبنا كم بهذا الكتاب نؤكد سرورنا بما ألبسكم الله من تلك الحلل ، ونسأل لكم تمام القصد وبلوغ الأمل . فنحن الآن نبدى فى هنائكم ونعيد ، ونسهب القول وأين يقع مما نريد ، ونروم أن يفى الكتاب بما ينطوى عليه لكم وهو المرام البعيد ، وإذا كانت السَّرائر يعلمها الشاهد الرقيب ، ويرتّب عليها المجازاة فهو المجازى المثيب ، فحسبنا أن نكل خَفِيَّهاَ إليه ، وندينه منها بما لا يخفى عليه ، فالله عز وجل يهنيكم ما أولاكم من منحةٍ حافلة ، وصنيعة فى حُلل الكمال رافلة ، ويسعد بها الأقطار ، كما مَهَّد بها الأوطان ويسر الأوطار ، ويجعلها فى العقب بعد طول المَدَا باقية ، ويُلْبِسُها عصمةً (١٠٧ و) منه واقية ، حتى لا يعرف شملها بعد الانتظام انتثارا ، ولا طِرْف سعدها من بعد الإحضار عثارا ، ويجعلها لنجوم عزكم مَدَارا ، ولدعوة ملككم دارا وقرارا ، وعيَّنا فى هذا الغرض ، والقيام بواجبه الملتزم المفترض ، مَن وجدنا أن ينوب عنا فيه أحمَد المناب ، ويُمهِّد أفسح الجناب ، ويشرح مالا تفى به مقاصد الكتاب ، وهم فلان وفلان وفلان ، وفضلكم كفيل بالإصغاء لما يلقونه ، والقبول على ما يؤدونه ، والله يصل سعدكم ويحرس مجدكم والسلام ، فى كذا . .

رجع التاريخ

وفد

كان عامر بن محمد بن على الهنتاتى ، شيخ قبيل دار هجرة الإمام المهدى[1] ، وبقية رجال الكمال ، الثبت الحصاة ، الوقور المجلس ، الوافر خلال السيادة ، نافَسَ الوزير أيام نصبه الولد خلفا من أبيه ، وأنف من الانقياد فى خطامه ، وتمسك بولدٍ ثانٍ كان السلطان أقامه بمراكش ، فنوه به ورتب له ، وبُودِرَ بالجيش فاقتصر على منعته ، وناصف القوم فى بعض مجاولاته . فلما استقر الأمر وخلَص الملك ، روسل فأصغى وأسهل ، ولحق بباب السلطان مستنيباً بمكانه أخاه عبد العزيز حامى السَّرح[2] ، وحافظ السيقة ، والمُعتلق بحبل المَنَعَة ، فسأله لِماَ كان من نبذ موالاة هذا الأمير عند مراسلته إياه من البحر ، ونِشْدَانه فى صلة اليد وقد استوسقت[3] الطاعة لمنصور بن سليمان ، وقدَّر أنها صفقة لا تَحِلُّ وبيعةٌ لا تنكث (١٠٧ ط) « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسَّنيَ السوء[4] » ثم أُعتب وهودن هدنة على دخن[5] .

ووجّه عن منصور بن سليمان وابنه ، وقد لحقا بجبال الريف[6] ، وأخذتهما يد

---

(١) يقصد المهدى بن تومرت أمام الموحدين . راجع ماسبق أن قلناه عنه فى ص ٤٩ — ٥٠ حاشية ٥

(٢) السرح : الماشية أو الشجر الضخم المرتفع والمقصود هنا ما يجب ان يحمى من الأموال

(٣) استوسق استيساقا : اجتمع وانقاد .

(٤) آية رقم ١٨٨ سورة الأعراف رقم ٧ .

(٥) الدخن : الحقد والحسد ، يقال « لست أصالحه على دخن » أى على مكر وفساد .

(٦) جبال الريف هى سلسلة الجبال الممتدة على شكل هلال فى شمال المغرب الأقصى بحذاء البحر الأبيض المتوسط من نواحى سبتة وطنجة غربا إلى وادى نكور بالقرب من المزمة أو الحسيمة الحالية شرقا . ويتراوح ارتفاع هذه الجبال من ألف إلى ألفى متر وتنحدر منها عدة أودية تصب مياهها فى البحر المتوسط ، ولقد اشتهرت هذه المنطقة بالثورة الخطيرة التى قامت فيها حديثا ضد=

الاضطراب ، ووراما التذمم بتربة الشيخ ولى الله تعالى أبى يعقوب[1] ، ولبسا الصوف ، فلم يغن ذلك عن نفسه ، وأسلمه الناس فتقبض عليه وعلى ولده ، وجيء بهما مصفودين مركبين على الظهر ، نكس العيون ، ميل الأعناق ، قد بدت لهما سيئات ما اكتسبا ، ومعقبات ما ارتكبا من الركون إلى العهد المخفور والذمام الرث ، والولى المخذول ، فوقفا موقف الشمات ، وتقدعا بالمقذع من القول ، ثم دفعا إلى المنايا السود فقتلا صبرا ، أمر بعض رحمهما[2] الواشجه[3] فناشهما بالحراب ، وتخلفا ملوثين فى ضحضاح من الحمأة عبرة لأولى الأبصار وسعوطا لأنوف الاغترار إلى أن نفذ الأمر بمواراتهما فضيا لشأنهما عفا الله عنهما ، ولقد كان الشيخ منهما موسوما بإقصار عن كثير مما نبزه[4] إليه أولو قعدده[5] مرعيا على البيت متظاهرا بالخير معروفا بالتصاون ، ثبت الموقف فى اللقاء . وكان ولده من النبل والكيس والتفطن للأمور ، ومن الحدة على ثبج[6] عظيم غير سكير ، مع جنون الشباب ، وترف النشأة وحسن الرواء . ونفذ الأمر بمثل ذلك فى ذمرين من صقور قبيل بنى مرين ، منصور بن أبى منديل ، وعمر ابن الزبير المخصوصين بركبة الحائن ، والمعينين لرياسة الحصص القاطعة (١٠٨ و) بالأمير الدايل . قيدا يرسفان فى قيودهما ويعالجان جر أداهمهما[7] إلى مصرع السوء ، وفى القلوب منهما كهف[8] الجمر وحز المدا ، لمكانهما من الدفاع وشهرتهما بالمضاء .

= الاستعمار الفرنسى والأسبانى والتى قادها بطل الريف المغربى عبد الكريم الخطابى. راجع (البكرى المغرب فى ذكر بلاد ، أفريقية والمغرب ص ٩٠ — ٩١ ، أحمد عبد السلام أبوعياش : الريف بعد الفتح الإسلامى تطوان ١٩٥٤) .

(١) يقصد الولى العارف بالله ، أبا يعقوب البادسى راجع ص ٢٥٣ حاشية ١ .

(٢) رحمهما : أى قرابتهما .

(٣) وشج أى اشتبك ، والقرابة الواشجة هى القرابة المتصلة المشتبكة .

(٤) نبزه بكذا أى لقبه به ، وهو شائع فى الألقاب القبيحة يقال تنابزوا بالألقاب أى تعايروا .

(٥) أى قرابته ، والقعدد والقعدود : القريب الآباء من الجد الأعلى .

(٦) على ثبج عظيم : أى على مقدار عظيم .

(٧) الأدم . القيد والجمع أدام .

(٨) لعله يقصد بهف الجمر : لفحته أو لسعته .

وبان يؤمئذ على منصور منهما ما زكّى عقد الشجاعة إذ غافص أحد الوَزَعَة فانتزع منه سيفه وأهوى به إلى قاتله فأثبته بجراحة لولا أنه منَعَ القيد من نقل خَطْوِه ، وجُذِبَ بمعلاقه فسقط ليَدَيْهِ وفيه ، لتركها جَلْوَاء .

وأقام الوزير الحسن[1] بن عمر رسم الوزارة الكبرى على دَيْدَنِهِ من التقدم والاستبداد وعدم المبالاة بمن دونه ، فأخذته الألاقىُّ وتعاورته السعايات ، وخَوَّفَ السلطانَ منه أولو الدالَّةِ ، ودست الدسائس حتى بألسنة الحُرَم . فاقتضى النظر صَرْفَه عن السُدَّة والاستظهار به على المهم من الخدمة ، فعُقد له على مَرَّا كُش[2] وأحوازها ،

---

(١) هو الوزير الحسن بن عمر الفودودى ، وهو من أسرة بنيْ فودود Fudud التى برز منها عدة شخصيات تولت منصب الوزارة على عهد بنى مرين نذكر منهم أبا زيد عبد الرحمن ابن ما ساى الفودودى المدعو برحو ، عيسى وابراهيم بن عمران الفودودى ، عمر بن موسى بن عمران الفودودى ومسعود بن عمر الفودودى ، ومسعود بن رحو بن ما ساى الفودودى ... الخ راجع (إسماعيل ابن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين (الرباط ١٩٦٢) — راجع كذلك (ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن ص ٢٤ النص العربى ص ٥٤ (الترجمة الفرنسية وما بها من حواشى) نشر بروفنسال Hesperis 1925 .

(٢) مراكش : (بفتح الميم وتشديد الراء وضم الكاف) مدينة عظيمة فى جنوب المملكة المغربية تقع عند سفح جبل أطلس الكبير ويمر فى شمالها نهر تانسيفت ، وتمتاز هذه المدينة بخصوبتها وجودة مناخها وجمال مناظرها حيث توجد فيها غابات النخيل الخضراء وبجوارها الثلوج البيضاء على قمم الأطلس .

أسس هذه المدينة امير المرابطين أبو بكر بن عمر اللمتونى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) لتكون عاصمة لدولة المرابطين الناشئة ، ثم أتم بناءها ابن عمه يوسف بن تاشفين وابناؤه من بعده . . على أن عظمة مراكش لم تتحق إلا فى أيام الموحدين الذين اتخذوها عاصمة لدولتهم أيضاً وتركوا فيها مآثر جليلة مثل مسجد الكتبية الذى أسسه الخليفة عبد المؤمن بن على ٥٤٨ (١١٥٣) ثم أتم بناءه ولده الخليفة أبو يعقوب يوسف (١١٦٣—١١٨٤) الذى بنى أيضا مسجد أشبيلية بصومعته المشهورة فى اسبانيا باسم الخيرالداى ، الدوارة . غير أن هذه الأعمال لم تتم نهائياً إلا فى عهد ولده الخليفة أبى يوسف يعقوب — المنصور (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ ، ١١٨٤ — ١١٩٩ م) .

وفى ايام بنى مرين قلت مكانة مراكش السياسية عندما صارت مدينة فاس عاصمة لدولتهم ولكنها لم تلبث أن استعادت مكانتها كعاصمة للبلاد فى أيام السعديين . ولا تزال أطلال قصر البديع الذى بناه المنصور الذهبى ، وقبور الأشراف السعديين ، وقصر الباهية الذى بناه الوزير أبو حماد بن موسى الخ خير شاهد على عظمة هذا العصر السعدى . هذا وتوجد فى مدينة مراكش أضرحة بعض الشخصيات العلمية المغربية البارزة مثل أبى العباس السبتى والقاضى عياض والإمام السهيلى . كما يوجد بها ضريح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى بنى عليه الملك الراحل محمد الخامس قبة جديدة ، راجع (أحمد مختار العبادى : دراسة حول كتاب الحلل الموشية وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ١٩٦٠) راجع كذلك (الصديق بن العربى ، كتاب المغرب ص ١٠٣ الرباط ١٩٥٦) .

وأُتبع الجيش وأقطع العز وسوّغ المـال ، فانصرف لها يجر الدنيا وراءه ، فاستقر بها أملك بصقعها فأمّن السُّبُل ودوّخ الجهات واستخلص ما رسب من الجباية ، وحسنت منه المناصحة .

ودالت الدولة بالأندلس فى أثناء هذه الأحداث ، وكان ما تقدم الإلمـاع به من الوثوب بها بالسلطان وتطريق النـكبة لنا أولى خالِصتِهِ ، فمن بين ناج وشاجب[1] ، حسبما ثَبَت فى موضعه من صدر هذا الديوان. واستمرت أيام الوزير المذكور بمراكش ، وهو على الوصف مستوحشا من نداء يقع من السلطان فى أمره ، أو غصص بمكانه ، ولم يرشده الله إلى النظر (١٠٨ط) لنفسه ولا يَسَّرَ عليه سبب الحيلة فى خلاص مهجته ، وتلك عادته جل وعلا فيمن ذهل عن حقه ، وتبرأ إلى حول المخلوقين من حوله ، وانغمس فى سموم الأمور والسياسة بتقصير عقله . ووسل فى إسلام بعض الخدام ممن أغرى به السلطان ، وقلد لديه طوق عظمى الجناية وولى كِبْرَ الأحدوثة ، فأجاره بقوة شكيمته وعظيم طاحه ، ففتح باب الإغراء بنفسه ، واستعجل التَبارَ[2] بسوء تدبيره ، وجرت بينه وبين السلطان مراسلة بطن فيها من كياده والتمريض فى أمره والمصانعة ما توهم أنه يحتج به من تسويغ انصرافه عنه إلى طِيَّتِهِ وإباحة رحيله عن إيالته ، وآثر الامتناع بجبل بنى جابر[3] وقد طوق عميدهم[4] يد الانتياش[5] من الهلـكة ، وصيره طليقه ، ليقرضه فى الشدة ويكافيه فى المعضلة ، فضمن له ما ركنت إليه نفسه ولحق معه بجبَلِهِ ، ولمـا باح السر وتحقق من خروجه عن مراكش النبأ ، جهز السلطان إليه

---

(١) شاجب : أى هالك من شجب شجبا وشجوبا أى هلك ومات .

(٢) التبار : أى الهلاك .

(٣) بنو جابر قبيلة من قبائل جشم العربية التى كانت تقيم ببلاد تادلا وتامسنا (الشاوية) ونذكر منها : بنو جابر ، الخلط ، سفيان ، العاصم ، ولقد كان بنو جابر فى ذلك الوقت ، يقيمون بجبل بأقليم تادلا بالأطلس المتوسط عرف بجبل بنى جابر .

راجع (الناصرى : الاستقصا جـ ٣ ص ١٨ ، ٣١ ، ٩٤ جـ ٤ ص ٣٢ ، ٥٤) ،

(٤) كان عميد بنى جابر فى ذلك الوقت الحسن بن على الورديغى أنظر (الناصرى جـ ٤ ص٣٢).

(٥) الانتياش : أى الاستنقاذ .

الجيش لنظر وزيره الحسن بن يوسف الخيرى[1] بعد إزاحة علله وإطلاق يد اختياره. ولحق به مجرى القوم على رسمهم من خذلان المغرور بهم من كان ، والمستبصر فى الثقة بدفاعهم عنه . ولم يزل يركب الشاهق طَبَقاً عن طبق والجيش يشمر أذياله ويستأصل عدته حتى فُضَّ مَصَافُه وتُمُلِّكَ حريمه وانتهب ماله وغلت ذخيرته ، وارتقى إلى مسجد بذروة الجبل منيع الحوزة ، صونع عليه أشراف ذلك القبيل فباعوا ذمتة بدنانير ، واقتادوه (١٠٩و) فأسلموه إلى يد طالبه . وورد الخبر بالقبض عليه واقتلاع ثُؤْلُولِه ، فانكفأ أعلى القصر على أسفله استبشارا ولم تمض إلا أيام ، وجلس السلطان إلى وروده ببرج المُصارة ، وقد حُشر الناس عقب صلاة الجمعة ، ونظم طائفتُه العتاة الوهق[2] ، ودارت أطواق القِد[3] على أعناقهم ، قد نهكهم الضرُّ ، وغيَّر وجوههم بعد الترف الُجهد ، ومثل بهم العرى وأركب الوزير جملا ظالعا بيِّن الظَّلَع[4] هزيلا كان بأحواز الحضرة سائبة ، بعد أن ألبس جبة من الصوف التى يتخذها الساسة والملاحون ، حاسر الرأس قد تصببت عرقا فى موقف الهول ومرقب الشهرة وهيضة[5] المثلة . وأُمر بتأدية حق الخلافة فأوْمى لثقل الكبول وتشاغله بالامتساك على السِّنام ، وقد أُوعز إلى أعدائه باقتضاء ما أسلفهم من الإهانة وأُغْرِىَ به السبَّابون وأولو المهاترة وأذيال الباطل ، فنالوا منه ومن زوجه سُونه زوج الوزراء قبله ، ما المسئول من الله أن يخفف به حسابه ويجعله كَفَّارة لبعض ذُنوبه فهو الغنى ذو الرحمة ، ثم نقل إلى السلطان وقد تحول إلى مجلس القصر وكرسى الملك ، وقام ابن عمه الوزير بعده يتقرَّعه والحاضرون يَجْبَهُونَه وهو غير ملتفت إليهم رابط الجأش رطب اللسان ، صادعٌ بالحجة ، قرر السلطانَ على حسن بلائه عنده ، وضبْطِ البلد عن عدوه حتى قصده هو ومَلَكَه ،

(١) فى ابن خلدون والناصرى : الورتاجنى .

(٢) الوهق: حبل فى طرفه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة حتى تؤخذ والجمع أوهاق .

(٣) القد : سير أو قيد من جلد .

(٤) الظلع : العرج والغمز ، يقال ظلع البعير أى غمز فى مشيه فهو ظالع .

(٥) الهيضة هنا بمعنى الهم والحزن والكسرة .

و نسب الفرار إلى امتثال أمره والانتباذ إلى تسويغ رقعته[1] . (١٠٩ ط) ولما استوفى ما لديه أُمر بتَلِّه[2] فسحب بالكُبول على وجهه، وتطرقت الأيدى لِسِمْطِ كريمته[3]، وسُجن ببعض دور الثقاف إلى أن أُنفذ فيه لأيام ما حَتَّمَتْه مشيئةُ ربه، فقيد إلى المصرع المعروف بباب السَّبع[4] . « وأضحت رماح بنى أبيه تنوشه[5] » . فقضى على هذه

---

(١) كان المؤرخ المعروف عبد الرحمن بن خلدون من ضمن الذين حضروا هذا المجلس وفى ذلك يقول هونفسه « وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاما تسيل فيه العيون رحمة وعبرة .

(٢) تله : أى جره ودفعه .

(٣) السمط : الخيط الذى ينتظم فيه الخرز أو اللؤلؤ أى العقد ، وكريمته أى ابنته فلعل المعنى هنا أن الأيدى تطرقت إلى عقد أو حلى ابنته ، هذا ويروى ابن خلدون (ج ٧ ، ص ٣١٠) أن الأيدى امتدت إلى لحيته ، كذلك يروى الناصرى (ج ٤ ص ٣٣) فسحب على وجهه ونتفت لحيته ، وضرب بالعصى .

(٤) باب السبع : أحد الأبواب التاريخية المشهورة لمدينه فاس الجديد المرينية أو المدينة البيضاء ، ولعل هذه التسمية ترجع إلى صورة لأسد كانت مرسومة على هذا الباب ثم زالت بمرور الزمن ، وهذا الباب يقع فى شمال المدينة ويسمى الآن بباب الدكاكن (أى الولائم أو المآدب) وفى العصور الحديثة انتشرت صورة هذا الباب فى البطاقات السياحية وعلى طوابع البريد نظراً لأهميته كمدخل رئيسى للقصر المرينى الجديد او لدار المخزن أو القصر الملكى المرينى فى المدينة الجديدة راجع Roger Le Tourneau : Fès P. 67,74 (أنظر إلى صورة هذا الباب فى اللوحات رقم ١١ ، ١٢ فى آخر الكتاب المذكور) .

(٥) هذا شطر ابيت قالته قتيلة بنت الحارث فى قصيدة لها تستعطف بها الرسول عند مصرع أخيها النضر بن الحارث : وكان قد وقع أسيرا فى أيدى المسلمين فى موقعة بدر فأمر الرسول بقتله لأنه كان مغالياً فى عداوة المسلمين بمكة ، يكثر أذاهم ، ويعلم القيان الشعر الذى يهجون به المسلمين ليغنين به، لهذا كان مقتله لسبب خاص . وقصيدة قتيلة بنت الحارث فى هذا الصدد تعتبر من أرق ما قيل من شعر فى غزوة بدر ، ويقال إن الرسول لما بلغه هذا الشعر قال « لو بلغنى هذا قبل قتله ، مننت عليه » .
ومن أبيات هذه القصيدة قولها :

هل يسمعنى النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق ؟
أمحمد ولدتك خير نجيبة ... فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق !
فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقهم إن كان عتق يعتق
أضحت رماح بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق

انظر (الشيخ محمد الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٠٥ — ١٠٧) .

السبيل وجرّ شِلْوُه فصلب بباب المحروق[1] ، ثم أرجل وأمر أهله بمواراته . واسْحَنْفر[2] الناس فى إطراء السلطان بهذا الصنع وتشادق الخطباء وتكلم الشعراء ، حتى لقد وقف بين يدى السلطان صاحبنا الشيخ المدعو بالشريف ابن راجح[3]، مَقدمه من الأندلس منتابا، ورفع عقيرته يقول : « تَبَّت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل

(١) الباب المحروق هو الباب الغربى لمدينة فاس القديمة (أو فاس البالى) بالقرب من باب بوجلود الذى كان المدخل الرئيسى للقادمين من فاس الجديد إلى المدينة القديمة . والباب المحروق كان يسمى من قبل بباب الشريعة الذى اسسه الموحدون ، سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٤م) ثم سمى بهذا الاسم بعد أن أحرق عليه فى نفس السنة ثائر شيعى يدعى بالعبيدى وهو من احفاد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين فى مصر واسمه محمد بن عبد الله بن العاضد . ولقد اتسم هذا الباب بطابع القتل والتنكيل إذ كانت تعلق عليه رءوس القتلى فى مختلف العصور التاريخية حتى صار يضرب به المثل : « اقطع لى رأسى وعلقه على باب المحروق » .

ولقد شاءت الأقدار أن الوزير ابن الخطيب مؤلف هذا الكتاب قد احرق جسده بعد قتله عند هذا الباب سنة ٧٧٦ هـ (سنة ١٣٧٤ م) حتى ظن البعض خطأ أن تسميته بالمحروق ترجع إلى هذه الحادثة مع أن التسمية أقدم من ذلك بمدة كما هو واضح .

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن ضريح ابن الخطيب ما زال قائما فى الجبانة الممتدة خارج هذا الباب كما يوجد على مسافة قريبة منه ضريح قاضى اشبيلية المشهور على عهد المرابطين وأوائل الموحدين المحدث الفقيه أبى بكر بن العربى (١٠٧٦ — ١١٨٤ م) الذى مات عند هذا المكان وهو قادم من مراكش فى طريق عودته إلى بلاده الأندلس بعد مبايعة الخليفة عبد المؤمن الموحدى .

راجع (محمد بن جعفر الكتانى : سلوة الأنفاس جـ ٣ ص ١٨٦) راجع كذلك (السلاوى : الإستقصا جـ٢ص١٩٥) .

(٢) اسحنفر الناس أى أكثروا .

(٣) أفرد له ابن الخطيب ترجمة طويلة فى كتابه الاحاطة تقتطف منها هذه القطعة :

هو محمد بن على بن الحسن بن راجح ، الشريف الحسنى باعترافه ، تونسى ، صاحب رواء وأبهة ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جموح فى إيجاب الحقوق ، مترام إلى أقصى آماد التوغل ، سخى اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسل لعنانه فى كل المحافل ، متواضع متودد ، فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حل من الملوك والأمراء بالأثرة ، وممن دونهم بالمداخلة والصحبة . ينظم الشعر ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولى الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتا من الوقيعة بالسلطان أبى الحسن بالجهات الشرقية بأيدى بنى زيان وأحلافهم فمهد له سلطان غرناطة كنف بره وآواه إلى سعة رعيه ، وتأكدت بينى وبينه صحبة ... ... توفى يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمسة وستين وسبعمائة . وقد ناهز السبعين ودفناه بروضتنا بباب إلبيرة . راجع (ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ٨٢ (الاسكوريال) راجع كذلك (المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٩٤ ــ ١٩٧) .

من مسد[1] » ، يشير إليه وإلى امرأته بسبابته فى مقطع كل كلمة . فكان من تقدير السلطان أبى عبد الله بن نصر[2] أن قال : كنت أنتظر أن يقول عند ذكر قوله وامرأته سونه ، ويقحم ذلك فى الآية إبلاغا فى إنكار هذا الأغبا[3] . والله يجعلنا من الدهر وأهله تحت تقية وحذر ويقينا مصارع السوء ويضفى علينا جلابيب الستر .
وأنشدت السلطان فى ذلك طوع اقتضائه قولى :

أيُغْلَبُ مَنْ عَادَاكَ واللهُ غَالِبُه ... ويُفْلِتُ مَنْ نَاوَاكَ والسَّيْفُ طَالِبُه
وَيَخْلُصُ مَنْ فِى رَاحَتَيْكَ زِمَامُهُ ... فَسَيْبُكَ[4] كاسيه وسيفُك سالبه
كَبَا بِعِدَاكَ الجَدُّ[5] لما تنكبوا ... رضاكَ وطِرْفُ[6] البَغْيِ يُصْرَعُ رَاكِبُه
فيا ذُلَّ من عاداك يا مَلِكَ الوَرَى ... وخابت أمانيه وساءت عواقبه
يُسَالِمُ من سالمت دهرُك مثل ما ... يُدَافِعُ من عاديته ويحاربه
ولله فى علياك سرٌّ محجبٌ ... تلوح بعز المسلمين كواكبه
أبا سالمٍ دينُ الإله بك اعتلَى ... وأُيِّدَ ركنٌ منه واعتزَّ جانبه
دعا بأبِكَ الأعلَى الفتوح فأقبلت ... أيُمْنعُ حظا والمهيمن واهبه
أجَرْتَ وآويتَ الغريبَ وإنها ... سجيَّةُ من عزَّتْ وطابت مناسبه
وأضمرت يا مولَى الأئمةِ نصره ... فلكُكَ بالنَّصرِ استقلَّتْ ركائبه
ومَنْ عَلِمَ الرحمان نيَّة صدقه ... أتته بألطافِ الإله عجائبه

---

(١) الآية رقم ١ سورة المسد رقم ١١١ .

(٢) هو سلطان غرناطة محمد الخامس الغنى بالله فر إلى المغرب بعد أن خلعه أخوه إسماعيل .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) السيب : المطر أو العطاء او المال .

(٥) الجد هنا بمعنى الحظ .

(٦) المقصود بالطرف هنا الجواد ، والطرف عموما هو الكريم الأب والأم من الناس ومن غير الناس كالخيل ونحوها والجمع أطراف .

هنيئا أميرَ المسلمين بنعمةٍ لها أثر فى الدين تبدو مذاهبه
ولا زال صنعُ الله يضفو لباسُه على أمرك العالى وتصفو مشاربُه
وقابِل صنيعَ الله بالشكر واستَزِدْ من الله صُنْعاً تستهل سحائبه

وصرف السلطان وَكْدَه[1] إلى اجتثاث شجرة أبيه وأن لا يدَعَ مَنْ يصلح الملك ولا مَنْ يترشح للأمر ، فالتقط من الصبية بين مراهق ومحتلم ومستجمع[2] ، طائفةً تناهز العشرين غلمانا رُوقة[3] من إخوانه وأبناء إخوانه ، فأركبُوا البحر إلى رنده ، ومنهم ابن أخيه المسمى بالسعيد[4] ، المتصير إليه الأمر بعد أبيه ، وأفلت منهم ولدان لحقا بغرناطة فاستقرا بدار آمنة . ثم تعقب النظر فيهم فاركبهم جفنا غزويا مُوَرِّياً بتغريبهم إلى المشرق مبعدا إياهم عن حدود أرضه ، ثم طير إلى قائد الأسطول وهو أبو القاسم بن أبى بكر بن بنج ، السابىء[5] بضاعة (١١٠ ط) الخزى بعدهم ، ثبتا بخطه يأمره بتغريقهم مُنْصَرَفَه عن مَليله[6] . فأُخرجوا ليلا من جوف السفينة

---

(١) الوكد : القصد أو المراد أو الهم .

(٢) مستجمع أى مكتمل .

(٣) غلمان روقة أى حسان : ويستعمل لفظ روقة مع المفرد والجمع مذكرا ومؤنثاً : فيقال : غلام روقة وجارية روقة وجوار روقة .

(٤) السعيد أبو بكر بن أبى عنان الذى حكم قبله .

(٥) السابىء أى المشترى .

(٦) مليلة أو مليلية Melilla : إحدى المدن المغربية المطلة على البحر المتوسط فى شمال شرق المملكة المغربية عند منتصف المسافة بين وهران وسبتة .

وفى موضعها كانت توجد مدينة روسادير Rosadir التى أسسها الفينيقيون ثم تداول حكمها القرطاجنيون والرومان والقوط .

وفى العصور الإسلامية كانت تسمى مليلة ، على وزن سفينة ، ثم تطورت الكلمة بالاستعمال إلى مليليه ، وأول ظهور لها فى التاريخ الإسلامى كان فى القرن الرابع الهجرى عندما جدد بناءها الزعيم الزناتى موسى بن أبى العافية المكناسى . وفى عام ٩٢٧ م (٣١٥ ﻫ) . احتلها خليفة الأندلس الأموى عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر ، وحصن أسوارها ، واتخذ منها قاعدة عسكرية أمامية لمقاومة الخطر الشيعى الفاطمى . وظلت مليليه فى أيدى الأمويين إلى أن اعتصم بها بعض أمراء الأدارسة ثم احتلها المرابطون ثم الموحدون ثم المرينيون وأخيراً الوطاسيون ، وفى يناير سنة ١٤٩٢ (٨٩٧ ﻫ) . تمكن الأسبان من القضاء على مملكة غرناطة آخر معقل للاسلام فى أسبانيا ، =

من بين أمهاتهم الثكالى بعد أن جللتهم الذلة ومسهم الضر وعاث في شعورهم الحيوان[1] لطول مقامهم في البحر شهورا عدة فأغرقوا : يركب الصبي منهم زَبْنِيّ[2] من تلك الزبانية ليخرجه إلى البر ، فإذا خاض به الغمر وقارب الضحضاح قلبه ، وأمسك أصحابه بيديه ورجليه وغمسوا رأسه في الماء حتى تفيضَ نفسُه ، إلى أن كمل منهم تسعة عشر ، بدور مُلكٍ وشُموس إمارة غُذُوا بالنعيم ومُهدت لهم الأرائك ، لم تعلق بهم شُبْهَة توجب إباحة قطرة من دمائهم . حدثني مُتولي هذا المكروه بهم بِهَوْل مصرعهم فقال : لقد عَلَتْ منهم ليلتئذ الجثث حتى صارت هضبة ، وحُفر لهم أخدودٌ هيل عليهم ترابه ، كتب الله شهادتَهم وجعل أصاغرهم[3] فَرَطاً لآبائهم ، وعنده جزاء الظالمين وهو أسرعُ الحاسبين سبحانَه . ونَفَذَ بعد ذلك أمره عند الوجهة إلى تلمسان بالإجهاز على طائفة من الأغفال[4] بين مَشْيَخة وسواهم مُنْتَسِبين إلى يعقوب بن عبد الحق ، نسبة دَلّت عليهم الرَّدى وقادت إلى غَلاصِمِهم[5] المُدى أُبيدوا ذبحا ثم أُلحِقَ بالجملة

= ثم شرعوا بعد ذلك في مهاجمة السواحل المغربية حتى لا يعود المسلمون إلى مهاجمة أسبانيا مرة أخرى. وكان الوطاسيون حكام المغرب في ذلك الوقت قد وقعوا في خلاف مع جيرانهم بني زيان ملوك تلمسان حول مليلية واتفق الطرفان آخر الأمر على أن يهجر كل منهما المدينة حسما للنزاع ، فانتهز الأسبان هذه الفرصة واستولوا على مليلة في ١٧ سبتمبر سنة ١٤٩٦م (٩٠٢ هـ) .

ولقد قام المغاربة منذ ذلك التاريخ بسلسلة من المحاولات لاسترجاع المدينة ، وضربوا حولها حصاراً يكاد يكون مستمرا عدة قرون ، ونخص بالذكر الحصار الذي ضربه السلطان مولاي محمد ابن عبد الله حول المدينة سنة ١٧٧٤ ، ثم الهجوم الذي شنه بطل الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي على مليليه واندحار الجيش الأسباني في الوقعة المعروفة بكارثة أنوال سنة ١٩٢١ .

على أن هذه المحاولات كلها لم تحل دون استمرار مليلية وغيرها من بلاد المغرب الشمالي في يد الأسبان ولما أعلن استقلال المغرب تمسك الأسبان بمليلية وسبتة ، وصارت مليلية تابعة من الناحية العسكرية لسبتة التي يقيم بها حاكم للمدينتين معا . راجع (عبد اللطيف الخطيب : مليليه في تاريخ المغرب القديم والحديث ــ مجلة دعوة الحق العدد الثامن ــ مايو ١٩٦٠) راجع كذلك (الصديق بن العربي : كتاب المغرب ص ١٠٦ (الرباط ١٩٥٦) .

(١) أي عاث القمل في شعورهم .

(٢) الزبني والزبنية : الشديد القوي وتأتي بمعنى الحارس او الشرطي والجمع زبانية .

(٣) الفرط : ما تقدم من الأجر ، وفي الدعاء للطفل الميت يقولون : اللهم أجعله لنا فرطاً أي أجراً يتقدمنا .

(٤) الأغفال من الرجال : جمع غفل وهو الرجل الذي يخشى شره أو يرجى خيره .

(٥) الغلاصم : جمع غلصمة وهي اللحم بين الرأس والعنق .

بعد مُدَّةٍ ابن اخته الغالبة على أمره من أحد أبناء عمه ، فتجي عليه ما أوجب أن أثكلها به . ورأى أن قد خلا له الجو ، إلاَّ أن همَّه بمن تحصَّل بالأندلس من بنى عمه وبنى إخوته نَغَّصه (١١١ و) المِنْحَة ، وكدَّر الشرب . وفتل إلى المتغلب على الأندلس فى الغارب والذروة ، واستفزَّه عنهم بكل جهد وحيلة فلم يجد فيه من مَغْمز ولا عليه من مُعوَّل ، وسَتَر الله عنه أخاه المبايع له من بعده[١] . وألقى بأزمة دولته لأول أمره إلى خطيبه[٢] وخطيب أبيه لوسيلة قديمة . ثم لِماَ تأكد أيام لقائه إياه بالأندلس ، فإنه لم يأل فى تأنيسه والهوى إليه ، ثم لِماَ أبلاهُ فى جلب الملك إليه فلطفت المنزلة ، وعظمت الألفة ، وتمحضت الثقة ، فخلطه بنفسه[٣] ولم يستأثر عنه ببثه ، ولا انفرد عنه بما سوى أهله بحيث لا يقطع فى شىء إلا عن رأيه ، ولا يمحو ولا يُثبت إلا واقفا عند حده ، فغشيت بابه الوفود ، وصُرفت إليه الوجوه ، ووقفت عليه الآمال ، وخَدَمته الأشراف وجُلبت إلى سُدته بضائع العقول والأموال ، وهادته الملوك فلا تحْدُو الُحداة[٤] إلا إليه ، ولا تُحَطُّ الرحال إلا لديه ، إن حضر أجرى الرسم وأنفذ الأمر والنهى ، لحظا أو سرارا أو مكاتبة ، وإن غاب ترددت الرقاع واختلفت الرسل . ثم انفرد أخيرا ببيت الخلوة ومنتبذ المناجاة ، من دونه مصطفّ الوزراء وغايات الحجَّاب ، فإذا انصرف تبعته الدنيا وسارت بين يديه الوزراء ، ووقفت حِفاَفَى[٥] بابه الأمراء وقد وسع الكلَّ لحظُه ، وشملهم بحسب الرتب والأحوال رعيُه ، وانسحب

(١) يقصد أبا عمر تاشفين بن أبي الحسن المرينى ويلقب بالموسوس لأنه كان ناقص العقل مختل المزاج ، زعموا أنه أصيب بذلك أثناء مدة الاسر التى قضاها عند الأسبان بعد وقعة طريف التى هزم فيها والده ، وواضح من المتن أن هذه اللوثة هى التى أنقذته من هذه ـ المذبحة لعدم صلاحيته للملك ، وإن كان ابن الخطيب فى الصفحات التالية يشير إلى أن هذا الامير ربما قد تظاهر وتستر بذلك ليسلم من المهالك .

(٢) يقصد الخطيب عبد الله بن مرزوق صاحب كتاب المسند السالف الذكر .

(٣) أورد المقرى الاسطر العشرة التالية فى كتابه نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤) .

(٤) يقال حدا الإبل أى ساقها وغنى لها فهو حاد والجمع حداة ، وعبارة المتن كناية عن أن الرجال لا تشد رحالها إلا لزيارة الخطيب عبد الله بن مرزوق .

(٥) حفافى بابه : أى جانبى بابه وهى ساقطة فى نفح الطيب .

عليهم[1] تقريره ، وعقدت ببنان عليتهم بنانه ، لكنّ رضى الناس غاية لا تدرك[2]
(١١١ ظ) والحسد بين بنى آدم قديم ، وقبيل الملك مباين لمثله بكل اعتبار[3] ،
فطويت الجوانح[4] منه على سِل ، وحنيت الضلوع على بث[5] ، وبحسب ما بت الله
جل جلاله من أسْر نيات الخلق إليه ، وتعطشهم إلى لقائه ، ورغبتهم فى إنهاضه
إلى ملك أبيه ، كان انقلابهم إلى ضد هذه الحال شَرَقاً[6] بأيامه ، وإحصاء لسقطاته ،
وولوعا باغتيابه ، وتربصا للمكروه به إذ خابت فيه آمال الآملين ، وحبطت أعمال
العاملين ، فكان من آزره على أمره ، وَصَحِبَهُ فى التماس ملكه أو رَفَعَهُ على كاهله ،
أو اقتحم الخطر من أجله هو الغُفْل من سِيا حُظوته أو المخصوص بهجرانه وَمَقْلِيَتِه[7]
أو المطرود عن سُدَّته . وكل ما أصدر من أمر أثناء طريقه أو أقطع من بر أو أجرى
من نعمة كر عليها المَحْوُ ، وتعقبها النسخ ، والقبائل التى أخذت عفو طاعته وخفت
إلى بيعته لم يقسم الله لها حظا من رفقه ، ولا هضما[8] من غُرمه ولا مزية من ملكه .
والرعايا استولت عليها المغارم ونزفها الحلْب حتى عجزت عن الفَلْح وضعفت عن الإثارة
والبذر ، يستصفى أموالها بعصاَب الضيق والإلحاح ، فإذا ركبت الطريق وأقلها الظَّهر
وشد عَناقها القِد ، نكبت عن سبل بيت المال وغاصت فى كل بالوعة فاغرة . وأخذ
الناس حرمان العطاء ، فلا يلمحون للإسعاف مخيلة ، ولا يترشفون للإحسان بُلالة
(١١٢ و) فافتتحت أبواب الأرجاف وتربصت الدوائر ، وقُصَّت الرؤى ، وعُبِّرَت

(١) فى نفح الطيب : ووسم أفذاذهم تسويده .
(٢) فى نفح الطيب : الغاية التى لا تدرك .
(٣) بكل اعتبار : زيادة على نفح الطيب .
(٤) منه : زيادة على نفح الطيب .
(٥) فى نفح الطيب : واغمضت الجفون على قذى ، وهى زيادة عن المتن وبها تنتهى هذه الفقرة التى نقلها المقرى فى كتابه .
(٦) شرقوا بأيامه أى ضاقوا به .
(٧) المقلية : الكراهية والبغض ، يقال قلى فلانا أى أبغضه فهو قال وذاك مقلى ، وفى الآية الشريفة : « ما ودعك ربك وما قلى » ويريد المؤلف بهذه العبارة التى فى المتن أن الذين ساعدوا السلطان وأيدوه كانوا موضع اغفاله وكراهيته وأبعاده واهماله .
(٨) هضم له من حقه : ترك له منه شيئا عن طيبة النفس .

الأحلام ، وحُدَّت القواطع ، وعُدت الأيام . وكان شديد الميل إلى علم القضاء بالأحكام النجومية ، قد مرن على العمل بآلة الاسطرلاب ، وشَدَى شيئا من التعديل ، مختصا لذلك طبيب قصره أبا الحسن المراكشى من أهل قسنطينة[1] والمتصف بالإجادة فى ذلك . وتوعد المرْجِفين وعزم على إنفاذ النكال بهم عند مُجاوزة الوقت المعطى للقاطع . وممن تناول السعى طائفة من الخواص والكتاب دبت عقاربهم وأرهفت مكائدهم بين يدى التوقع ، وكان ذلك أقوى الأسباب فيما نزل به . وتحول من دار سكناه بالبلد الجديد إلى القصبة القُدْمَى على ضيق المحل وقُصور قُصوره عن نباهة غيرها . وأسند حفظ مدينتهم البيضاء مستقر صامتهم وذخيرتهم وخزانة عُدَّتهم ومثوى حريمهم إلى ابن وزير[2] أبيه المرشح ببابه لعلياء الوزارة بمزية النبل ونباهة البيت

(١) قسنطينة : من أهم المدن الجزائرية الشرقية . وتقع على صخرة مرتفعة ، وتشرف ثلاث من جهاتها على الهاوية بينما تتصل جهتها الرابعة فقط بالأرض ، ثم وقع حديثا وصل أطرافها بعضها ببعض بواسطة جسور تعرف بالجسور المعلقة . وقسنطينة مدينة قديمة أسسها الفنيقيون فى بادىء الأمر باسم سيرتا ومعناه المدينة أو القرية الكبيرة ، واشتهر بها الزعيم البربرى ما سنيسا الذى حاول الحصول على استقلال البربر بواسطة روما ولكن آماله خابت وصارت سيرتا مستعمرة رومانية إلى أن خربها البربر عقب ثورات دامية . ثم جاء الإمبراطور البيزنطى قسطنطين فأعاد بناءها وسميت منذ ذلك الوقت قسنطينة .... ولقد تعاقبت عليها بعد ذلك حكم الدول الإسلامية المختلفة كالحماديين والحفصيين ، ثم احتلها الأتراك فى القرن السادس عشر الميلادى ، وظلت فى أيديهم إلى أن احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٧ م بعد كفاح مرير قاده آخر ولاتها أحمد باى . وتعتبر مدينة قسنطينة فى طليعة المدن الجزائرية المحافظه على طابعها وتراثها العربى الإسلامى ، وقد يرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى الشرقى واتصالها بتونس والمشرق راجع (أحمد توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص ٢٣١ — ٢٣٤) .

(٢) هو الوزير عمر بن عبد الله بن على بن سعيد اليابانى — نسبة إلى بنى يابان من قبائل بنى مرين ، كان والده أبو عبد الله محمد قد تربى فى كنف السلطان أبى الحسن المرينى ثم صار وزيرا لولده أبى عنان فارس ، ويبدو أن هذا الوزير قد انضم بعد وفاة أبى عنان ، إلى بعض المرشحين للملك ممن ليسوا من عقب مولاه أبى الحسن المرينى ، الأمر الذى حمل السلطان أبا سالم يأخذ عليه هذا التصرف ولا يوليه الوزارة فى عهده ، على أنه يبدو أن السلطان أبا سالم قد عاد وعفا عن أسرة هذا الوزير بعد وفاته بدليل أنه أقام ابنه عمر وزيرا له وزوجه أخته ثم استخلفه على قاعدة ملكه مدينة فاس الجديدة عندما انتقل منها إلى فاس القديمة ، غير أن هذا الوزير رغم ذلك قد خان الثقة التى وضعها فيه مولاه فقام بتلك الثورة التى انتهت بمصرع السلطان أبى سالم . وفى ذلك يقول الخطيب ابن مرزوق فى كتابه المسند الصحيح الحسن « Hesperis 1925 P 26 » وممن كان يتعرض لهذه الخطة (أى خطة الوزارة) وزعم أن مولانا (أبا الحسن المرينى) قلده إياها مع وعده السابق له بها ، أبو محمد =

وورائة الخطة وسعة مجال الإدراك ، والرُّشوق إلى أهداف الأغراض وفضل الذكاء والنبل وغموض الحيلة وحسن التأتى ، ولطاقة الإدراك وَرَهَفِ الجانب . وأوحشه زعموا بنكير علّقه عاتق وجهته رسولا عنه إلى بنى زيان ، فبانت له الغرة فلم يهملها وأمكنته الفرصة فلم يُضعها ، ورأى أنه يقوم عن الموتور من قومه بفرض الكفاية من الإدالة والإراحة ، فاعمل التدبير وفتك (١١٢ ط) الفَتْكة التى لم تُبق للبَرَّاضِ[1] من ذكر ، ولا للسُلَيْك[2] بن السلكة من خطر ، ولا لحادى الأسد من مزية .

ودَاخل زعيم المشركين من الروم صبيا من عنصر أهل قطلونية[3] ، شامخ الأنف ، شديد البأو[4] ، طافحا من خمر الاغترار ، راقصا على إيقاع جُنُون الشبيبه . قاسمه الجرأة شق الأُبلمة ، وأعطاه صفقته ، وقد أسَفَّته الدولة بقِضاضه . فلما كمل ما أبرماه استركبا قومهما واستخرجا الطبول والأعلام ، وفَضَّ ختام صُرر المال ، وقيد للسلطان[5] جواد من مراكب الوزير خالص الحلية ، وقصد إلى محل ثقافة

= عبد الله بن على بن سعيد اليابانى ، ربى فى حجر مولانا رضى الله عنه وفى إحسانه وبين يديه وفى خدمته . وقدمه وزيراً لولده الأرضى الأسعد أبى على الناصر . . . ثم تقلدها بعد المولى أبى عنان رحمة الله عليه ، ثم خف وتقلدها لغير عقب مولاه ، فنقم عليه ذلك المولى أبو سالم فلم يقلده إياها ، وتوفى سليما معافى ، واستحل المحارم بعده ولده عمر ، عمر الله به زوايا الجحيم ، وجدد عليه العذاب الأليم ، وكتب لمولانا مبيده الثواب الجسيم والأجر العظيم .

(١) البراض : أحد فتاك الجاهلية ، ويقال إنه بسببه قامت حرب داحس والغبراء .

(٢) السليك : أحد العدائين العرب فى الجاهلية . كان من أدل الناس بالأرض وأعرفهم بمسالكها وأشدهم عدوا .

(٣) هو قائد الفرقة الأسبانية التى كانت فى خدمة ملوك بنى مرين واسمه فى ذلك الوقت غرسية بن الطول وكان من أهل أقطلونيا Cataluna وهى البلاد التى تقع فى شمال شرق أسبانيا وقاعدتها مدينة برشلونة وقد خضعت هذه المنطقة بعضاً من الوقت للامبراطورية الرومانية المقدسة وصارت تعرف باسم Marca Hispànica ثم دخلت بعد ذلك فى نطاق مملكة أراجون . وفى سنة ١٤٦٩ اتحدت قطالونيا وأراجون مع مملكة قشتالة وتوج هذا الاتحاد بزواج فرناندو ملك أراجون بازابيلا ملكة قشتالة . وعلى الرغم من أن أسبانيا قد اتحدت سياسياً منذ ذلك الوقت وصارت لغتها الرسمية هى اللغة القشتالية وهى الأسبانية الحالية ، الا أن اللغة القطلانية استمرت إلى اليوم مستعملة فى تلك المناطق الشمالية الشرقية إلى جانب اللغة الأسبانية الرسمية .

(٤) البأو : التكبر والفخر .

(٥) هو السلطان أبو عمر تاشفين بن أبى الحسن المرينى الملقب بالموسوس . راجع (الحاشية رقم ١ صفحة ٢٦٩) .

وقد تجافت به عنه المحن ، لاشتهاره باللوثة وعدم الصُّلوح للولاية . زعموا أنه تستَّر بذلك دَهْياً ، فتخطته المتالف لأجله ، وسلم من مغرَّة إخوته مجراه . فبايعه بالولاية وأركب للناس ، وَوَجه عن الشيخ عيسَى[1] بن الزَّرقا المستنام إليه بالأمانة على الأيام ، الراجع لنظره أمر الرماة ومقاعد الحرس ، السّارح فى ظل البيت وخَلْف الشهرة ، المنطوى على جم الانطباع والتلون والمَذَق[2] ، حالبا بذلك ضَرع السعادة فى عمره حتى اضْطَبَن[3] المال الدَّثْر[4] المحوط بسد يأجوج من الضنانة ، فجىء به من سريره إليه ، فحمله على البيعة فى ظل الحسام الصلت . ورتب ليلتئذ الأمور وأحكم التعبئة ، إلا أن النار لـكثرة المشاعل واقتحام الخزائن عَدَتْ على هذه المدينة فاصْطَلَمت القصر المعروف بأبى قير مطرح الأموال المجموعة (١١٣ و) وسَمَرِ الركاب المجنوبة ، وخُرْس الألسنة الناطقة ، ومرجع العيون الطامحة ، المشتملة دُوره وزواياه على الـكثير من عُدد المُلك وآلات الحركات وأجرام المنشآت وثمين السلع من اللَّك والنَّيلج والعاج والأبنوس والصندل وَشِبْهه . ثم تعدّت إلى دار الصنعة وبه مالا يأخذه الوصف من السُّروج والمهندات والسلاح ونقر الذَّهب والفضة ، إلى المواعين والموازين وآلات الخيل ، ثم اتصلت بدار الديباج فالتهمت من الحرير والأثواب وآلات النَّسج وضخام المناول وألواح الرسوم وجبال التَّمْويه وعقار الصبغ وغَزْل الذهب مالا يأخذه الوصف . وتلاحقت ألسنة النار بأعناق السماء وفضحت أستار الظلماء ، وكان اصطلام هذه الدُّور مما نغَّص المسرة وحظَّ التدبير وإلمام المُمْحَسَة ، وأحْرِ بما جمعه اللَّهفُ والقَسْر وأُغمِضَ فيه الدِّين

(١) ورد اسم عيسى بن الزرقاء فى موضع آخر بعد ذلك على أنه صاحب الشرطة بباب السلطان كذلك يرفع ابن الخطيب نسبه إلى رؤساء غرناطة منى بنى أشقيلولة . أما ابن خلدون (ج٧ ص٣٤٣) والناصرى (الاستقصا ج ٤ ص ٣٨) فيذكر أن اسمه محمد بن الزرقاء شيخ الحامية والناشبة بمدينة فاس الجديد وأنه أكره على مبايعة السلطان الجديد .

(٢) يقال مذق اللبن : أى مزجه بالماء ؛ ومذق الورد أى شابه بكدر ولم يخلصه ؛ والمعنى هنا أن الشيخ عيسى بن الزرقا ، كان رجلا مداهناً لينا فى كلامه ولـكنه غير خالص الود .

(٣) اصطبن : أى اختزن :

(٤) الدثر : الـكثير ، يقال مال أو أموال دثر وقد يجمع فيقال دثور .

أن تسوء عُقباه وتكون النار مأواه[١] . ولما وضح الصباح قُرعت الطبول والناس في بُلَهْنيةٍ[٢] ، ونُشرت الأعلام ، ووقع النداء بأمر السلطان الذى نقلت إليه البيعة فانكشف الخبء ، واشتهر الأمر ، واستركب السلطان فبرز في مركبٍ أخشن قد حفّه وزيراه مسعود ابن[٣] رَحّو ، وسليمان بن داود المستقدم من جبل الفتح ، وخطيبه أبو عبد الله بن مرزوق ، وخالصته سُليمن بن وَنْزار ، والجمّ الغفير من الأشراف وأرباب المشورة وأشياخ (١١٣ ط) القبيل ، وطاف بالبلد فرأى سُخْنَةَ[٤] عينه ، وشجا صدره ومَثار حسرته . ووقع الرأى منهم على التخييم بظاهره ، ونقْل الأسواق إليه ، واضطراب المحلات عليه . فاستُدعيت المضارب وقد تناصف اليوم ، وبدا في المصاف الاختلال وكثر إلى محل الثورة النُّزوع وبه اللحاق ، والسلطان رحمه الله قد اختبل جزعا واسْتُطيرَ فَرَقاً ، وقعد بمضرب هجير[٥] نُصِب له يُقلب كفّيه ويلاحظ الموت صَلْتًا من خلفه وبين يديه ، ويستدعى الماء لتبريد جوانحه فيُؤتَى به في أوانى تعَافُها البُهْم من مبتذلات آلات الضُّعفاء ، عنواناً على الخول ودليلا على الإدبار . ولم يكن إلا أن انهزم النهار فانهزم عنه جمعه من غير قتال ولا مدافعة شأن مَنْ قبله ، وتُرِك أوحش من وتد في قاع ، وولّى العنان يخبِطُ عشواء في طائفته الخاصة به وكلهم ينجدُه ويقوى بصيرته ويعده بالدفاع عنه الوعد المكذوب ، ويقسم له على الوفاء له القَسَم الحانث ، ولم يتم ذلك ، ونزل الليل إلا وقد أفردوه وخلّفوه وحيدا مطرحاً مكفور الصنيعة مضاع الحق ، ورجعوا أدراجهم فاستأمنوا لأنفسهم من الغد . ثم بدا في أمرهم فأكبلوا وضموا إلى الثقاف . وأُخرجَ للبحث عن السلطان شعيب بن ميمون

---

(١) أى أن هذه السلع والأموال قد جمعت بطريق القوة والضغط ولم تراعى فيها حرمة الدين فكان مآلها النار والفناء .

(٢) بلهنية العيش : أى رخاؤه .

(٣) هو مسعود بن عبد الرحمن بن ماساى بن رحو السالف الذكر .

(٤) سخنة العين : نقيض قرة العين ، يقال أسخن عينه أى أنزل به ما يبكيه .

(٥) لعله يشير بذلك إلى الفسطاط الذى نصب له لاتقاء حرارة الهاجرة أو الهجير .

ابن وادَرار[1] ، مخلفه كان على مدينة الجزائر[2] وكان قد أوقع به سُخطةً اعتيم[3] لأجلها فعثر عليه من الغد فى بيوت بعض (١١٤و) البادية على أميال من المدينة[4] قد استبدل ثياب الملك أسمالا فأركبه على الظهر ،واستاقه إلى قريب من البلد وطيَّر مستأذناً فى أمره فاستعجل فى قتله وجلب رأسه ، فصدر ذلك على يد علج أو أعلاج من قاذورات المشركين ، طرحوه عن ظهر الدابة التى سيق عليها وقتلوه ذبحا عن جزَعٍ شديد واستلطافٍ وممانعةٍ باليد عن حُلقومه ، ثم حزُّوا رأسه عن عُشْر متصلا ببعض تَرْقُوَته ، وضمَّه بعضُهم فى فضل ثوبه فأوصله إلى ما بين يدى الثائر والعيون ناظرة إلى خليفتها بالأمس على هذه الحال فلم تحرك الحَمِيَّةُ نفسا ، ولم يقم حسنُ العهد رسما ، وأمر والى البلدة بمواراته ، فأضيف رأسُه إلى جَسَدِهِ ، لَأَمَ غاسِلُه[5] بينهما بطين

---

(١) فى الاستقصاء (ج ٤ ص ٣٨) : شعيب بن ميمون بن داود .

(٢) الجزائر Alger عاصمة القطر الجزائرى .

كانت هذه المدينة فى القديم تحمل اسم ايكسيوم ثم خربت أثناء هجمات الوندال — وثورات البربر ، وأصبحت مستقراً لقبيلة بربرية تدعى بنى مزغنة (بفتح الميم وسكون الزاى وفتح الغين وتشديد النون) . وفى القرن الرابع الهجرى أسس بلكين بن زيرى ابن مناد الصنهاجى مدينة هناك دعاها جزائر بنى مزغنة لأن صخورا كانت أمام مرسى الجزائر انعدمت اليوم .

ولقد تعرضت مدينة الجزائر لهجرات القبائل العربية فى القرن الخامس الهجرى وسكنتها قبيلة الثعالبة ، ثم خضعت لنفوذ المرابطين والموحدين وبنى زياد أو عبد الواد ، ولما ضعفت دولة بني زيان هاجم الأسبان سواحل المغرب واستولوا على مدينة الجزائر سنة ١٥١٠ م فاستنجد الأهالى بالقائد التركى البحرى خير الدين بربروسا ، فاتجه إليها بأساطيله وكسر الأسبان واحتل المدينة سنة ١٥١٦ . ولم تلبث الجزائر إن صارت ، عاصمة للدولة العظيمة التى أسسها الأتراك فى شمال إفريقيا وكانت تشمل القطر الجزائرى اليوم والبلاد التونسية ، وصار لها أسطول قوى لإثار الرعب فى حوض البحر الأبيض المتوسط مدة ثلاثة قرون إلى أن كان الاحتلال الفرنسى ، راجع (أحمد توفيق المدنى كتاب الجزائر ص ٢٠٦ — ٢١٦) راجع كذلك (البكرى : ص ٦٦ ، ٨٢ ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٩٣) أنظر أيضاً (Ency. of Islam, art. Alger by G. Y ver) .

(٣) اعتيم لأجلها أى اختير لأجلها .

(٤) فى الاستقصا (ج ٤ ص ٣٨ — ٣٩) عثروا عليه نائما فى بعض المجاشر بوادى ورغة إزاء كدية العرائس بالقرب من فاس راجع كذلك (ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣١٣ — ٣١٤) .

(٥) لأم الشىء أى أصلحه وجمعه وشده .

القَيْموليا[1] العلك[2] .وقضى مُشَاهِدُه العجب من بدانته وفرط شحمه[3] .واستُدْعِيَ له من سَراةِ الناس ووجوه الطبقات من حضر جنازته وقد نُوِّهَ بجهازه وخشب مواراته ، ودفن بالقبلة[4] من المقبرة بإزاء المُصَلّى العيدى[5] المطلة من كثب على باب الجيسة[6] ، فانقضى أمره على هذه الوتيرة. وكان رحمه الله على تطامُن هِمَّتِهِ وتقاصُر مدى خصاله ، دمثاً شديدَ الحياء وسيما غير عَرِيٍّ عن الإدراك سيما في مبادىء الحساب .

وقام بالأمر على سنن الحجابة العامرية[7] الوزير[8] الناهض بالـكَلِّ البائى بالعبىء ، مكفى

(١) طين القيموليا : لعله الطين الأندلسى ، وقد أشار إليه الإدريسى عند وصفه لأهالى بلاد السوس الأقصى فى جنوب المغرب فقال :

ورجالها ونساؤها سمر ، وفى نسائهم جمال فائق وحسن بارع وجمال ظاهر ، والغالب على أهلها الجفاء وغلظ الطبع وقلة الانقياد ، وعلى رءوسهم الشعور الكثيرة ، ولهم بها اهتمام وحفظ وذلك لأنهم يصبغونها فى كل جمعة بالحناء ويغسلونها فى كل جمعة مرتين برقيق البيض وبالطين الأندلسى . راجع النص العربى ص ٦٢ ، والترجمة والتعليق الفرنسى ص ٧٢ من كتاب : Dozy et De Coeje Description de l. Afrique et de l. Espagne Par Edrisi (Leyde 1866) راجع كذلك كلمة طين فى معجم دوزى Dozy : supplement aux Dictionnaires Arabes (11 P. 81 - 92)

(٢) العلك : أى اللزج أو المتمطط الذى يعلق باليد ونحوها .

(٣) وصف المؤرخ المعاصر اسماعيل ابن الاحمر ، السلطان أبا سالم بقوله : رأيته آدم اللون معتدل القامة ، رحب الوجه ، واسع الجبين بادن الجسم ، أعين أدعج ، حسن الوجه ، معتدل اللحية اسودها . . بويع فى منتصف شعبان من عام ٧٦٠ هـ وقتل رحمه الله وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكى يوم الخميس الحادى والعشرين لذى القعدة سنة ٧٦٢ هـ وعمره ٢٨ سنة ، ودفن بالقلة (هى المعروفة اليوم بقلل بنى مرين بفاس) راجع (ابن الاحمر : روضة النسرين ص ٣٠ – ٣١ ؛ الرباط ١٩٦٢) .

(٤) قد تقرأ كذلك بالقلة وهو ماورد أيضاً فى كتاب الاستقصا للناصرى جـ ٤ ص ٣٩ ، حيث ، يقول : ودفن بالقلة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران » .

(٥) المصلى العيدى : الفضاء الفسيح الذى تقام فيه صلاة العيدين وكان لمدينة فاس القديم ، أو فاس البالى مصلى عيدى يعرف بمصلى باب الفتوح أو مصلى الباشا كما كان لفاس الجديد المرينية مصلى آخر قريب من القصر الملكى عرف بمصلى السلطان أو مصلى باب سجمه أو باب الشريعة ، هذا إلى جانب المصلى العيدى المطل على باب الجيسة كما هو مذكور فى المتن . راجع (Le Tourneau : Fés p. 114, 485, 586, 287, 592 ;

(٦) باب الجيسة : بناه الموحدون سنة ١٢٠٤ م ثم جدد بناءه بعد ذلك السلطان المرينى ابو يوسف بن عبد الحق المرينى ويوجد بخارج هذا الباب مقابر المرينيين .

(٧) نسبة إلى المنصور بن أبى عامر وكناية عن الدكتاتورية المطلقة .

(٨) هو الوزير عمر بن عبد الله بن على اليابانى السالف الذكر صاحب الانقلاب .

السماء على الأرض ، وخائض بحر الهول ، وفاصل خُطَّةِ الكريهة وابن جَلا[1] الإقدام وطَلَّاع[2] ثنايا الجرأة من مُرهف (١١٤ ط) البدن نحيله ، يتوقد ذكاء ، حديد اللحظ خفيف الحركة ، نومُه فكرةٌ وجوارحُه مسامع :

رَقِيقٌ كمَا غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ وَجَزْلٌ كمَا شَقَّ الهواءَ عُقَابُ

أحسَّ لأول أمره بنث[3] ، وأوجس من بطانة السوء المتجافى لها خيفةً ، فَجَرَّع الرومى[4] مُمِدَّه فى الأمر ومظاهره على الفتكة الشنعاء كأس الحتف وكان فتًى حمِىَّ الأنف ، شديدَ الصَّلَف ، مترامياً إلى أقصى حدود البسالة محتقراً للأمة ، بادر ثانيه من زعماء الروم بالقتل وتغالى للوقت ، وأجار على الوزير من يخاف مع بقائه فسادَ أمره ، فبطش به لأسبوع من الكائنة . وقد نمى إليه زعموا تدبيره عليه فى طائفة ، منهم الفقيه الخطيب أبو عبدالله بن مرزوق ، وهى التى جنت البداء فى أمره والبدار إلى ثقافه ، واستخراجه من بيت سيد الشرفاء صهره ، بعد أن كان مُسَوَّغ العافية مخصوصاً بخلعة الأمان ، متجافى له عن القُل والكُثْر ، مخيراً فى الانصراف والإقامة . وسليمن بن ونزار[5] المغرب الشأو فى تهتك اللذة ، والسَّبح فى بحر العُهْر ، المُخلَّى بينه وبين غايات المجانة ، المخصوص برسم القيادة ، أعجب أهل جلدته فى حسن الصورة ونصاعة الظرف ،

---

(١) ، (٢) يقال ابن جلا للرجل للمشهور ، وطلاع الثنايا أى الذى يركب الصعاب ويتحمل المشقة وهو يشير بهذا الكلام إلى بيت الشعر المعروف عن الحجاج بن يوسف الثقفى عامل العراق على عهد الأمويين :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . . متى أضع العمامة تعرفونى .

(٣) نث الخبر أى أفشاه والمعنى هنا أنه أحس بنذير الخطر .

(٤) يعنى قائد الفرقة الأسبانية القطلانية التى كانت فى خدمة السلطان أبى سالم وكان اسمه غرسيه ابن أنطول الرومى .

(٥) من المعروف أن سليمان بن ونزار هذا كان رئيساً لحرس السلطان أبى سالم وقد صحبه أثناء فراره ، ثم رجع فيمن رجع والتجأ إلى القائد الأسبانى غرسية بن انطول فقبله وأكرمه ، ويقال إنه كان يعاقره الخمر وإنه اتفق معه على خلع الوزير عمر بن عبد الله واعتقاله ، فنما الخبر إلى الوزير المذكور فارتاب فى نواياهما وعمل التخلص منهما بقتلهما كما هو مبين فى المتن . راجع كذلك (الاستقصا ج٤ ص ٤١ — ٤٢) .

وغرابة المشية وتباهى البزَّة وممن يوصف بسخاءٍ وإيثار ، لكن مقصور على أبطال الكأس ووصلاء المجانة والرقاعة ومجال اللذة ، وهذا السخاء الغالب على سخاء الوقت فى الأحداث من أبناء النعم ، وكان له (١١٤ و) بالرومى لياذٌ وإليه صاغية وقد كان تقدَّم سجن الوزيرين[1] قبله بمجال ترقبةٍ ، ممسوحةٌ أعطافهما بالعُذر مُعلّلةٌ نفوسهما بالإيناس . فوقعت على الروم يومئذ وقيعةٌ سد[2] السيف فيها وألْحَم ، أجلت عن جُملةٍ تناهز المائة إذ سبق عميدهم باب السلطان ونذر به الوزير ، فأخذ أهبته واستعان بشيوخ الدولة وشحن الملعب بالرجال ، ودخل القصر من بعض أبواب السر ، واستدعى الرومى للمفاوضة في بعض الأمر فلم تسعه إلا الإجابة فدخل ممتقع اللون مستشعرا للشر ، وتخلف الكماة[3] من فرسانه الغُلْفَ[4] وراءه ، فحاوره وصرفَه ثم أوعز إلى الرجال بالإيقاع به ، فتراوغ ورام الإفلات ، واعتورته السيوف فمُزّق ، وتعرف قومه الأمر ، فراموا المدافعة عن أنفسهم وقد شَرِهَ الناس إلى إبادتهم فتعُووِرُوا ضربا هبراً وطعنا دِرَاكا ، وعاث الجندُ فى سلاحهم وكُراعهم واعتصم سوادُهم بالمدينة المقطعة لسكناهُم ، فأحيط بهم وأُخرِجوا عن دورهم فانحازوا إلى فضاء منعوا فيه حوزتهم بخلال ما بودر بأمانهم ورفع السيف عنهم ، وقد انتُهِبُوا فلم يبق لهم نافخ ضَرَمَة[5] ، وامتلأت الأيدى من أسبابهم وحَريثهم وصامتهم وحليهم وماعونهم فهلك لهم متاع جم . وللحين أُنفذ القتل في سليمن بن ونزار حليفهم واسْتُصْفِيت أمواله . وضم الخطيب[6] إلى دار سكناه

(١) لعله يشير بذلك إلى وزير السلطان أبي سالم وهما مسعود بن رحو بن ماساى ، وسليمان بن داود ، وكان الوزير عمر بن عبد الله قد قبض عليهما وسجنهما بعد نجاح ثورته .

(٢) كذا ويحتمل أن يكون أيضا سدى السيف . . إلخ والسدى واللحمة (بضم اللام) من الثوب ، مامد من خيوطه طولا وعرضاً ، والمعنى هنا كناية عن ان الروم قد أخذوا بالسيوف من كل جانب .

(٣) الكمى : هو الشجاع أو لابس السلاح لأنه يكمى نفسه أى يسترها بالدرع والبيضة والجمع كماة واكماء .

(٤) الغلف . جمع اغلف وهو الذى لم يختتن .

(٥) الضرمة : الجمرة أو النار والجمع ضرم ، يقال ماف الدار نافخ ضرمة « أى أحد » .

(٦) الخطيب عبد الله بن مرزوق .

بالبلد الجديد قبل الحادثة ، لصق قصر السلطان ، وطولب بالمال فتململ ، ثم أحضر زعموا اثنى (١١٥ ط) عشر ألفا من الذهب العين إلى الأصول والمتاع والله يلطف له وينفس الكرب عنه برحمته .

وتقرر الأمر على إبراز السلطان للناس جلسة الخطيب ، ثم اختلى الوزير بأرباب الشورى كيحيى بن رحّو[١] بن تاشفين بن معطى ، بقية الوقت ، وعمرو القبيل رجاحة ودهيا ونبلا وألمعيّة ، وإدريس بن يوسف تلوُهُ المُبِرّ بالرُّوَاء والسذاجة ، وبحناش ابن عمر الفسيح الذَّرع المُرْخَى العنان مع استجماع ، القادح زناد النبل المستدر في مثله ، إلى غيرهم من جِلَّةٍ نُقاوة . وبادر مخاطبة الثائر[٢] بالأندلس يعرفه بالصنيع الذى أراح مُخَنَّقَه ، وتعجل[٣] إفاقَتَه . ويوعز إليه بضبط من لنظره من اليعاقبة المرتَقِبين لحظوظهم من الدولة . وخاطب من لنظره من الجيش المستخدم فى إعانة سلطاننا أبى عبد الله بن نصر[٤] بالرجوع إلى محال سُكناهم ، وكتب إلى الأسطول كذلك بالقفول إلى سواحله ، وخاطب من بتلمسان يعرض عليه حُسن الجوار وتهنى الأمر[٥] مع سد باب الفتنة والامتساك بمن يتصل به من مباينى الأمر وأضداد الدولة . وأجرَى الرسوم ، وأفاضَ العطاء ، وجدد الإقطاعات ، وضاعف السهام ، وأجرى القبيل على السَّنَن القديم مظنة الارتياش ، والان لهم القول واعترف لهم بالفضل فطابت به نفوسهم وضبثت به أيديهم ووطئوا عقبه ووعدوه المؤازرة وضمنوا له المدافعة وشرع فى الاعتزاز بالوزعة ،

---

(١) فى الاستقصا (ج ٤ ص٤٢) يحيى بن عبد الرحمن شيخ بنى مرين وصاحب شوارم ، ولعل كلة رحو هى اختصار عبد الرحمن .

(٢) يقصد الملك محمد السادس الملقب بالبرميخو Bermejo ومعناه بالأسبانية اللون البرتقالى (أو الأصفر المائل إلى الحمرة) نسبة إلى لون شعره ولحيته .

(٣) فى الأصل : يحجل — ولعلها ما أثبتناه .

(٤) هو السلطان محمد الخامس الغنى بالله صاحب الحق الشرعى فى ملك غرناطة .

(٥) راجع مادة تهنأ أمره فى معجم دوزى ج ٢ ص ٧٦٥ .

والانغماس فى الحامية وراش جناحه بقبيله (١١٦ و) من بنى يابان[1] وهم عَدَد وافر ، وألقى الله لهذا العهد على الخلق واقية كواقية الوليد[2]، فاتسقت الطاعة ودانت الجبال الشم . وانتشرت الرُّفَق ، وأمنت السُّبُل . وكانت قد سبقت بينى وبينه مداخلةٌ أكَّدها وصوله إلى منتبذى من مدينة سلا[3] فى بعض وجهات الخدمة ، فقدمت عليه بعد استدعائى ثانى شهر ذى الحجة[4] من العام ، فأعمل الخطا وصارفنى المعاطفة وأنزلنى بيت أهله ومهد لى فراش نومته ، واستدعى نصحى فى كثير من أمره وأنشدته شعرا بغرضى فى سرعة التحول وتيسير الانصراف :

---

(١) بنو يابان من قبائل بنى مرين ، وينسبون إلى يابان بن جرماط بن مرين ، ومنهم الوزير عمر ابن عبد الله بن على اليابانى السالف الذكر ، راجع (ابن الأحمر روضة النسرين ص ١١ ، ٢٨ ، ابن مرزوق المسند ص ٢٦ (Hesperis 1925) .

(٢) يقال فى الأمثال واقية كواقية الكلاب أى وقاية كوقاية الكلاب على ولدها وهى أشد الحيوانات وقاية لأولادها . وفى الحديث : اللهم وقاية كواقية الوليد قالوا عنى به صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام ، راجع الميدانى : مجمع الأمثال ج ١ ص ٣٢٧) .

(٣) سلا : Sale مدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلسى بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة الرباط وادى أبو الرقراق ، وفى العصور الإسلامية برزت سلا كعاصمة لدولة بنى يفرن الزناتيين فى القرن الخامس الهجرى كما اهتم بعمارتها بعد ذلك الموحدون فى القرن السادس الهجرى . فبنوا أسوارها ومسجدها واتخذوا منها قاعدة . بحرية وعسكرية لأساطيلهم وجيوشهم ، وفى أيام بنى مرين هاجمها الأسبان بغتة أيام الملك الفونسو الحكيم El sabio سنه ٦٥٨ م) وقد طردهم منها السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى بعد احتلال دام أربعة وعشرين يوما .

ولقد أقام المرينيون عدة تحصينات حول المدينة لمنع تكرار هذه الاعتداءات . هذا إلى جانب المنشآت العمرانية التى شيدوها هناك كالمدرسة الطبية ومسجد المرينى وزاوية النساك .

وبعد سقوط الأندلس فى أيدى الأسبان سنة ١٤٩٢ م . كانت سلا والرباط ماوى لعدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الذين احترفوا مهنة القرصنة البحرية كى يتسنى . لهم مواصلة الجهاد ضد الأسبان والبرتغال .

ومن الأبطال المجاهدين الذين برزوا فى هذا الميدان نذكر الأمير محمد العياشى السلاوى الذى كون إمارة مستقلة فى سلا والرباط سنة ١٦٢٧ م ثم امتد نفوذه إلى العرائش ونضاله بل إلى المدن الداخلية مثل فاس ومكناس ، واستمر العياشى يدافع عن الشواطىء المغربية إلى أن اغتيل غدرا سنة ١٦٤١م وما زالت مدينة سلا إلى اليوم تنفرد بشعائر خاصة لا نجدها فى معظم المدن المغربية الأخرى مثل احتفال مواكب الشموع فى ليلة المولد النبوى .

(٤) ربما تدل هذه العبارة على تاريخ تدوين هذا الكتاب وهو شهر ذى الحجة سنة ٧٦٢ ﻫ

رَأَتْ والليلُ قد سَدَلَ الرِّوَاقَا ... شعاعَ البَرْقِ يأتَلِقُ ائتِلاَقَا

وحققت الوميضَ وميضَ نجدٍ ... فهاج فُؤَادَها نَجْدٌ وَشاقَا

ونازَعَها الزِّمَامُ فمَا ثَنَاهَا ... وعارَضَها العِقَالُ فمَا أطَاقَا

تقولُ لِيَ السُّراةُ وقد أجَدَّتْ ... أخَبْلًا تشتكى قُلتُ اشتياقا

إلى عمَرَ بن عبد اللهِ حَنَّت ... رِكَابى فهى تستبقُ استباقا

إلى الغَيْثِ الذى إن شحَّ غَيْثٌ ... فَمِنْ يُمْنَاهُ يَنْدَفِقُ انْدِفَاقَا

إلى الليْثِ الذى رَاعَ الأعادِي ... وأَمَّنَ رِفْقُ سِيرتِه الرفاقا

إلى حَبْرِ السياسة لا يُجَارَى ... ولا يبغى مُعَارِضُه اللحاقا

إلى الفَطِنِ الذى لولاَ نَدَاهُ ... إذا ما جئته خِفْتَ احتِرَاقَا

إلى قَمَرِ الوزارة جلَّلَتْهُ ... إياةُ السَّعْدِ نوراً واتساقَا

وعصمةَ ربه اشتمل اشتمالا ... فما يَخْشَى الأفولَ ولا المَحَاقا

وحيدُ الفضل مشترك الأيادى ... بِمَيْدَانِ العُلَا حاز السباقا

إذا نَسَقَ الحديثَ الرَّطْبَ قلنا ... أهذا الشهدُ أم أحلى مَذَاقَا

وإنْ ذُكِرتْ مَفَاخِرُهُ ابتدرْنَا ... مهبَّ الطيبِ يُنْتَشَقُ انتِشَاقَا

مرينيٌّ النِّجار فلا ادعاءٌ ... تقولُ إذا مَدَحْتَ ولا اختلاقا

ومن كأبيه عبد الله رأيا ... إذا ما المُعْضِل انطبق انطباقا

لَعَبْدُ الله فى الوزراء مَهْمَا ... تُذُوكِرَ خيرُ من ركض العِتاقا

ظهيرُ الأمرِ والقِدْحُ المُعَلَّى ... وأكرمُ مَنْ نَضَا البِيضَ الرِقَاقَا

غدَتْ عَلْيَاهُ فوقَ البدرِ تاجاً ... وللجَوْزاءِ قد مُثلت نِطاقَا

لقد غَدَتِ الوزارة منك تُزْهَى ... بمن رقَّت سجاياهُ وَرَاقَا

وسيف الملك أنت وأىُّ سَيْفٍ كَفَى الأزماتِ دون دمٍ أُرَاقا

رَكِبتَ الهَوْلَ فى سُبُلِ المَعَالِى فَلَقِّيتَ السعادةَ والوِفَاقَا

ضَرَبْتَ الصَّخْرَ فانفجر انفجارا ضَرَبْتَ البَحْرَ فانْفَرَق انفِراقَا

وَزَارَتُكَ التى حقّاً تُهَنِّي فما هَدَراً[1] وَلِيتَ ولا اتفاقا

فَلَمْ تَزْدَدْ برتبتها عُلُوّاً ولم تَزْدَدْ بنعمتها ارتفاقا

ولكن بعضُ حقِّكَ قُمْتَ فيه بحقِّكَ بعد ما استُرِقَ استراقا

خطبتُ عُلاكَ قبل اليومِ وُدًّا بذلتُ من الوفاء له صَداقا

وأوعدتُ الزمانَ بك انتصارا وأرغمت الخطوبَ بك اعتلاقا

فسامحنى فعُذْرِى غيرُ خافٍ إذا ما العُذْرُ فى التقصير ضاقا

شكوتُ لك التَّغَرُّبَ قبل هذا وهأنا بعده أشكو الفراقا

فلولا ما تَوالَى من حديثٍ بعزك لم أكُنْ مِمَّنْ أفاقا

فقَرِّرْ حالتى من غيرِ لُبْثٍ هناءً واحتراما وانطلاقا

ركبتَ الدَّهرَ منقادا ذَلولا بحرمةِ مصطفى رَكِبَ البُراقا

وتلطفت إلى سلطانه فى طلب جارية من بنات الروم ممن اشتمل عليهن قصره بقولى :

قصدتُ إلى المولى أبى عمر الرضا غدت بالذى يَرْضى المشيئةُ جاريه

وطوفانُ هَمِّى قد طَغَى لِيُجيرَنى وتُركبَنِي آلاؤه فوق جاريه

وإنى لراضٍ بالذى يَرْتَضيه لى ولو عَبَدَتْ آباؤها شَنْتَ ماريه

وإن ظنونى فى الإمامِ وفضله محققةٌ والله لا ممازيه

(١) فى الأصل : يدراً ــ ولعلها تحريف عما اثبتناه ــ

ففاز بمـا يهواهُ من فضل ربِّه وأمُّ الذى يَهْوَى له الشرَّ هاويه

فلم يدع غاية فضل إلا بلغها ، ولا ثَنِيَّةً[1] وفاءٍ إلا طلعها ، فنوه فى الملأ المشهـود الجلسة ، وخصنى بالإفراد مع أميره والخَلْوة ، واقتضى منه ملوكىّ الخلعة ووافر العطية ، وجدد الصكوك وضاعف العناية ، وألحق الولد والقرابة وحَرَّر من المغارم الغلة ، جزاه الله أفضل الجزاء وأعانه على ما يرضيه — وكان من الأمر ما يذكر إن شاء الله .

(١) الثنية : شعب الجبل أو طريق العقبة . يقال فلان « طلاع الثنايا أى ركاب المشاق » .

رجع التاريخ

عبور السلطان محمد الخامس المخلوع إلى الأندلس

وحث السلطان أبو عبد الله بن نصر الموجه إلى الأندلس ركابه إلى سبته لا يُصدق بالإفلات ولا يثق بالنجاة، فعارت[1] له خيلٌ ونفقت حُموله لشدة السَّيْر، واستقر بسَبته واستعجل الجواز وحلَّ بجبل الفتح بعد مراوضة كبيرة لقواد الأسطول الرومى[2] ومحاورة، إذ تبرعوا بإجازته ولم يسمحوا فى خلاف ذلك ليجلبوا الفخر (١١٧ ط) لسلطانهم وينسبوا الحركة إليه، فأعملت الحيلةُ ولُفقت الُحجة، وقطع السلطان ألسِنَتَهُم بمال بذله مُكارمة لهم، وأركب أجفانهم طائفة من كبار قرابته، واستقرَّ بجبل الفتح وطال به مقامه تتردد الرسل بينه وبين ملك الروم[3]، ثم ارتحل نحوه فى لُمَّةٍ من مماليكه ووجوه قرابته، وتحفَّى السلطانُ بمقدمه، وبالغ فى برِّه، وأفرط فى التَّنزل لوجهته، وأبعد المَدى فى خُطا تلقيه، وأرجل الأكابر لأداء حقه، وتوسع فى نُزُله، وعمَّ بالملاحظة جميع مَنْ فى صُحْبَتِهِ، وأعطاه صفقة يمينه بالمظاهرة والمعاضدة والتهالك من دون بغيته، وسلفه ثلاثين ألف دينار من الذهب العين لنفقته، وشرط له أن لا يبتزَّه حصنا ولا ينقصه فتحا، ولا يعلق به طاعية، وأنه يصل معه السلم مدة حياته، ويتركه وصيةً فى عَقِبه. وانصرف مجبوراً قريرَ العين، منشرحَ الصدر، فلحق بسائر الجيش المرينى ومن تخلف عنه من قومه بظاهر رُنْدَه[4]،

---

(١) عارت له خيل: أى تلفت ومرضت.

(٢) يقصد أسطول قشتالة.

(٣) أى ملك قشتالة بدرو الأول.

(٤) راجع التعريف برنده فى حاشية سابقة.

وارتحل إلى أحواز أنْتِقَـيْرَة[1] فى جُوَيْشٍ[2] من المسلمين وطاع له حصن أنـكَـيرة من الحصون المنسوبة إلى مالقة [3] ، نزع إليه قائده فجعل به حصة من الخيل وثَقِفه . وبيناهُ يرتقب إنجاز وعد ملك الروم ولحاق جيش مظاهرته به ، إذ يجىءُ النبأ المشنوء ، من الفتك بالسلطان أبى سالم ، ملك المغرب مُعينِهِ ورائشِ جناحه ، والـكادح له ، وقد تطاولت الأعناق لمقدمه واهتزت الأندلس لوجهته ، وترددت المخاطبات بينه وبين من يرجو القيام (١١٨ و) بدعوته . وكان قد بذل المجهود فى طلب استصحابى ، وتواترت مخاطبتهُ إياى على عادة اعتداده وسَنَن فضله ، فآثرت ما أنا بسبيله من الراحة ، والفرار عن هفوات الغِيَر والانـكماش عن الخدمة — وأقنعته بالوعد من تَوَجُّهى إليه بولده عند تصير الأمر إليـه . والنيابة فى اقتضاء جميل سراحه من باب السلطان ، وخطة كرامةٍ طريفه له ، وإكناف رواق الستر على من تصحَبُهُ من حرمته ، وترتيب القدوم عليه به ، وتقرير حال لقائه إياهُ ، فى آمال عديدةٍ أخذها الترتيب وزيَّنها البيان والخطابة ، ثم محاولة الانصراف عنه إلى بيت الله[4] من غير تَلَبُّسٍ بخدمة ، ولا غمسٍ

---

(١) انتقيرة Antiquera : مدينة قديمة عامرة تبعد عن مالقة بنحو ٥٩ ك . م .

(٢) لعله يقصد جييش تصغير جيش .

(٣) مالقة Malaga : اسم لمدينة وولاية على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوب شرق أسبانيا أسسها الفينيقيون عام ١٢٠٠ ق.م واعطوها اسم Malaha أى المـالحة وذلك نسبة إلى مستودعات الأسماك المملحة التى كانت تعمل وتحفظ فيها . واشتهرت مالقة إلى جانب ذلك بزراعة الفواكه الممتازة مثل التين والـكروم والرمان كما اشتهرت بصناعة الفخار الجيد . أما من الناحية السياسية فـكانت عاصمة الحوديين الادارسة أيام ملوك الطوائف . كما كانت تعتبر العاصمة الثانية بعد غرناطة أيام ملوك بنى الأحمر وقد كتب عنها كثير من الـكتاب المسلمين مثل الوزير لسان الدين بن الخطيب فى رسالتيه مفاخرات مالقة وسلا . ومعيار الاختبار فى ذكر المعاهد والديار . انظر (مشاهدات . لسان الدين ابن الخطيب مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨) . كذلك وصفها وصفاً ممتعاً دقيقاً الرحالة الطنجى المشهور ابن بطوطة الذى زارها وتعرض لحادثة فيها كادت تودى بحياته . راجع (رحلة ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٨٦ ــ ١٨٧) هذا إلى جانب وصف المؤرخ الأندلسى ابن سعيد المغربى لهذه المدينة وقد نقله المقرى فى كتابه نفح الطيب (جـ ١ ص ١٨٦) . راجع كذلك ما كتبه الحميرى عن هذه المدينة فى كتابه الروض المعطار (ص ١٧٧ ــ ١٧٩) وياقوت الحموى فى معجم البلدان (ص ٣٦٧) .

أنظر كذلك (Ency. of Islam, art. Malaga & Guillen Robles : Malaga musulmana)

(٤) هذه العبارة تدل على أنه كان فى نية ابن الخطيب اداء فريضة الحج .

يدٍ فى فرث خُطة ، ولا مغير للنّسْكِ من هيئة ولا لبسة . فقنع بذلك ورا كننى إليه واستدعى المشورة فيما يَعِنُّ له ، فرسمت من ذلك ما قُدِّرَ غناؤه ، وتُوُهِّمت الحاجة إليه .

ونظَمت القصيدة المُعَدة لإنشاده إياها عند تملي المنيحة وتهنى الموهبة ، فتعددت منها الأغراض وأخذها الطول ، وتَفَنَّنَتْ منها المقاصد . ومن الأمور التى أعثَرَتْ عليها التجربة ، إخفاق المساعى فى الأغراض التى تُقدم لها القصائد والانشاءات وتروى الخطب والمنظومات ، ليتبرأ قضاء الله من تحكم البشر وتبدو مزية القدر . وأنا أجلب القصيدة على جهة الإحْمَاض[٢] والتنشيط إذ فائدتها مع تمام الأمر وإحقاقه حاصلة لمن ارتاد الآداب وكلف بالفضائل ، وتشوف إلى الأنحاء البلاغية والمقاصد وهى[٣] : (١١٨ ط)

الحقُّ يَعْلُو والأباَطِلُ تَسْفُلُ ... واللهُ عَنْ أحكامه لا يُسْأَلُ

والأمرُ فيما كَانَ أو هُوَ كَائِنٌ ... كالعِلَّةِ القُصْوَى فكيف يُعَلَّلُ

وهُوَ الوجودُ يَجُودُ طَوْراً بالذى ... تَرْضَى النفوسُ بهِ وطَوْراً يَبْخَل

وإذَا اسْتَحَالتْ حَالةٌ وتَبَدَّلَتْ ... فالله عزَّ وجلَّ لا يَتَبَدَّلُ

واليُسْرُ بَعْدَ العُسْرِ مَوْعُودٌ بهِ ... والصَّبْرُ بالفَرَجِ القَرِيبِ مُوَكَّلُ

---

(٢) يقال أحمض القوم أى أنهم أفاضوا فيما يؤنسهم و روح عنهم من حديث كأن ينشدوا شعرا مثلا كما ورد هنا فى المتن .

(٣) نقل المقرى جزءا من هذه القصيدة فى كتابه نفح الطيب (جـ٩ ص١٨٢ — ١٨٤) وقد قدم لها بقوله : قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان — أسعده الله تعالى وأنا بمدينة سلا لما انفصل طالبا حقه بالأندلس ، كان صُنع الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح . ثم لما قدمت انشدتها بعد الفتح وفاء بنذرى ، وسميتها « المنح الغريب فى الفتح القريب » . ولقد علق المقرى على هذه القصيدة بقوله (ص ١٨٢ نفس المرجع) : ويقال إن السلطان امر بكتب هذه القصيدة على قصور الحمراء إعجابا بها ، وأنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التى استولى عليها العدو الكافر أعادها الله تعالى للإسلام .

والمُسْتَعِدُّ لِمَا يُؤمِّلُ قَابِلٌ ... وكَفَاكَ شَاهِدُ قَيِّدُوا وتَوَكَّلُوا

ومَنْ اقْتَضَى بالسَّعْدِ دَيْنَ زَمَانِهِ ... والسَّيْفِ لَمْ يَبْعُدْ عَلَيْهِ مُؤَمَّلُ

أَمُحَمَّدُ والحَمْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ ... بِحُلِيِّهَا بَيْنَ الوَرَى يُتَجَمَّلُ

أَمَّا سُعُودُكَ فَهِيَ دُونَ مُنَازِعٍ ... عَقْدٌ بِأَحْكَامِ القَضَاءِ يُسَجَّلُ

وَلَكَ السَّجَايَا الغُرُّ والشِّيَمُ التي ... بِغَرِيبِهَا يَتَمَثَّلُ المُتَمَثِّلُ

ولَكَ الوَقَارُ إذا تَزَلْزَلَتِ الرُّبَا ... وَهَفَتْ مِنَ الرَّوْعِ الهِضَابُ المُثَّلُ

ولَكَ الجَبِينُ الطَّلْقُ والخُلُقُ الذي ... لَحْظُ الكَمَالِ بِلَحْظِهِنَّ مُوَكَّلُ

النُّورُ أَنْتَ وكُلُّ نُورٍ دُجْيَةٌ ... والبَحْرُ أَنْتَ وكُلُّ بَحْرٍ جَدْوَلُ

وإِذَا ذُكِرْتَ كَأَنَّ هَبَّاتِ الصَّبَا ... رَكَدَ الكِبَاءُ بِجَوِّهَا والمَنْدَلُ

مَنْ ذَا يُجِيدُ الوَصْفَ مِنْكَ خَيَالُهُ ... وَصِفَاتُ مَجْدِكَ فَوْقَ مَا يُتَخَيَّلُ

واللهِ مَا وَفَّى بِحَقِّكَ مَادِحٌ ... واللهِ مَا جَلَّى بِحَمْدِكَ مِقْوَلُ

عَوِّذْ كَمَالَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهُ ... قَدْ تَنْقُصُ الأَشْيَاءُ مِمَّا تَكْمُلُ

تَابَ الزَّمَانُ لَدَيْكَ مِمَّا قَدْ جَنَى ... واللهُ يَأْمُرُ بالمَتَابِ وَيَقْبَلُ

إِنْ كَانَ مَاضٍ مِنْ زَمَانِكَ قَدْ أَتَى ... بِإِسَاءَةٍ قَدْ سَرَّكَ المُسْتَقْبَلُ

هَذَا بِذَاكَ فَشَفِّعِ الثَّانِي الذي ... أَرْضَاكَ فِيمَا قَدْ جَنَاهُ الأَوَّلُ

واللهُ قَدْ وَلَّاكَ أَمْرَ عِبَادِهِ ... لَمَّا ارْتَضَاكَ وَلَايَةً لا تُعْزَلُ

وإِذَا تَغَمَّدَكَ الإِلَهُ بِنَصْرِهِ ... وقَضَى لَكَ الحُسْنَى فَمَنْ ذَا يَخْذُلُ ؟

فَإِذَا انْتَضَيْتَ فَكُلٌّ كَهْمٍ مُرْهَفٌ[1] ... وإِذَا ضَرَبْتَ فَكُلُّ عُضْوٍ مَفْصِلُ

فَلَوِ اعْتَمَدْتَ عَلَى الرِّيَاحِ لِغَارَةٍ ... نَهَضَتْ بِغَارَتِكَ الصَّبَا والشَّمْأَلُ

ولَوِ اسْتَعَنْتَ الشُّهْبَ واسْتَنْجَدْتَهَا ... حَمَلَ السِّلاحَ لَكَ السِّمَاكُ الأَعْزَلُ

سُبْحَانَ مَنْ بِعُلَاكَ قَدْ شَعَبَ الثَّأَى ... وأَعَادَ حَلْيَ الجِيدِ وهو مُعَطَّلُ

(1) كف كذا ولعلها نهم .ي السيف .

قد كادَّتْ الأعيانُ يَكْـذِبُ حِسُّهَا والأَوَّلِيَّاتُ السَّوابِقُ تُجْهَـلُ
والأرضُ راجفةٌ تَمُورُ وأهلُها عصفتْ بِهِمْ رِيحُ العَذَابِ فَزُلْزِلُوا
من ماتَ مِنْهُمْ ماتَ مِيتَةَ فِتْنَةٍ أَوْ عَاشَ فَهُوَ مُفَسَّقٌ ومُضَلَّلُ
لا بَيْعَةٌ تُنْجِي ولا عَهْدٌ يَقِي الدِّينُ والدُّنيا نَسِيجٌ هَلْهَلُ
فَحَجَبْتَ عَنْ آفاقِهِمْ مَنْ يَهْتَدِي ومَنَعْتَ عن أحكامِهِم مَنْ يَعْدِلُ[1]
فاليَوْمَ إذْ بَخَعَ المُسِيءُ بِذَنْبِهِ مُسْتَسْلِماً وتَنَصَّلَ المُتَنَصِّلُ
فاشْمَلْ بِعَفْوِكَ مَنْ تَجَنَّى أَوْ جَنِي واسْلُكْ طَرِيقَتَكَ التي هِيَ أَمْثَلُ
واحْرُسْ حِمَى العَلْيَا فَمَجْدُكَ مُنْجِدٌ واطْلُبْ مَدَى الدُّنيا فَسَعْدُكَ مُقْبِلُ
وانْهَدْ فَنَصْرُ اللهِ فَوْقَكَ رَايَةٌ وَمِنَ السُّعودِ عَلَيْكَ سِتْرٌ مُسْبَلُ
والرُّعْبُ بَيْنَ يَدَيْكَ يُرْدِفُ جَحْفَلاً مِنْهُ عَلَى بُعْدِ المَسَافَةِ جَحْفَلُ
والرُّوحُ رُوحُ اللهِ يَنفُذُ حُكْمُهُ لَكَ والملائِكَةُ الكِرَامُ تَنَزَّلُ
لَمْ يَدْرِ اسماعيلُ ما طَوَّقْتَه مِنْ مِنَّةٍ لَوْ كَانَ مِمَّنْ يَعْقِلُ
نِعَمٌ مُهَنَّأَةٌ وظِلٌّ سَجْسَجٌ تَنْدَى غَضَارَتُهُ وَمَاءٌ سَلْسَلُ
الطَّاعِمُ الكَاسِي وَرِفْدُكَ كَافِلٌ والعَالَةُ المُعْفَاةُ مِمَّا يَثْقُلُ
أَغْرَاهُ شَيْطَانُ الغُرورِ لِغَايَةٍ مِنْ دُونِهَا تَنْضَى المَطِيُّ الذُّلَّلُ
يَبْغِي به دَرَجاً إلى نَيْلِ التي كانت قُوَى إِدْرَاكِهِ تَتَخَيَّلُ
سَرْعَانَ ما أبداهُ ثُمَّ أَعَادَه فى هَفْوَةِ البَلْوَى وبِئْسَ المَنْزِلُ
وسَقَى بِكَأْسِ الحَيْنِ قَيْساً بَعْدَهُ واللهُ يُمْلِي للطُّغَاةِ ويُمْهِلُ
والغَدْرُ شَرُّ سَجِيَّةٍ مَذْمُومَةٍ شَهِدَ الحَكِيمُ بِذَاكَ والمُتَمَثِّلُ

---

(١) هذا البيت لا يستقيم معنى — وحقه (من يعتدى) بدلا من (يهتدى) وفى الشطر الثانى (وجعلت فى) بدلا من (منعت عن) أو ما فى معنى ذلك ليستقيم السياق .

فاسأل دِيَارَ الغَادِرِينَ فإنَّهَا لمُجِيبَةٌ أطلالُها مَنْ يَسْأَلُ
جَرَّتْ عليها الرَّامِسَاتُ ذيولَهَا وعَوَتْ بِعِقْوَتِهَا الذئابُ العُسَّلُ
يا فَتْـكَةً أخفَتْ مَوَاطِىءَ غَدْرِهَا حِيَلُ الخَدِيعَةِ والظَّلَامُ المُسْبَلُ
عَثَرَ الزمانُ بِهَا وكانت فَلْتَةً شَنْعَاءَ والدُّنْيَا تَجِدُّ وتَهْزِلُ
أمِنَتْ سُعُودُكَ من حَرَابَةِ قَاطِعٍ فَاسْرَحْ ورِدْ فهُوَ الكَلَأُ والمَنْهَلُ
قُتِلَ المُقَاتِلُ بَعْدَهَا بِسِلاَحِهِ وغَدَا لها زُحَلٌ يَقَرُّ ويَرْحَلُ
وَلَفِيفُ جُبَّانٍ إذَا ما اسْتُوْقِفُوا نَادَتْ بهم آجالُهُمْ فَتَسَلَّلُوا
طَرَقُوا على الضِّرْغَامِ لَيْلاً غَابَهُ والبدرُ تاجٌ بالنُّجُومِ مُكَلَّلُ
لَوْلاَ دِفَاعُ اللهِ عَنْكَ وعِصْمَةٌ أصْبَحْتَ فى أبْرَادِهَا تَتَسَرْبَلُ
ما رُقِّعَ الوَهْيُ الذى قد مَزَّقُوا ما حُلِّيَ الجِيدُ الذى قد عَطَّلُوا
فَثَبَتَّ مُجْتَمِعَ الفُؤَادِ بِهَفْوَةٍ خُذِلَ النَّصِيرُ بها وخَانَ المَعْقِلُ
وفَدَاكَ شَيْخُ الأولياءِ بِنَفْسِهِ والنَّفْسُ آثَرُ كُلِّ شَيْءٍ يُبْذَلُ
ما ضَرَّهُمْ إذْ نَاوَشَتْهُ كِلاَبُهُم وسَطَتْ بِهِ أنْ لم يكونوا مِثْلُ
وكذلك الخِبُّ اللئيمُ إذا سَطَا عَمِلَ التى ما بَعْدَهَا ما يُعْمَلُ
وَنَجَوْتَ مَنْجَى البَدْرِ بعدَ مُحَاقِهِ تَهْوِى كما يَهْوِى بِجَوٍّ أجْدَلُ
فَحَلَلْتَ من وادى الأشَى بِقَرَارَةٍ عَزَّ الثَّوَاءُ بِهَا وطَابَ المَنْزِلُ
كُرْسِيُّ مُعْتَصِمٍ ، ومَثْوَى هِجْرَةٍ والمُسْتَقَرُّ إذا تَزِلُّ الأرْجُلُ
دَارُ الوَفَاءِ ومَوْطِنُ القَوْمِ الأُلَى كَفَلُوا ، وبالنَّصْرِ العزيزِ تَكَفَّلُوا
حتى دَعَاكَ المُسْتَعِينُ وإنَّهُ لأَبَرُّ بالمُلْكِ المُضَاعِ وأكْفَلُ
فَرَحَلْتَ عنهم والقُلُوبُ بوالغ نُغَرَ الحَنَاجِرِ والمَدَامِعُ تَهْمِلُ
فلقد شَهِدْتُ وما شَهِدْتُ كَمَوْقِفٍ والناسُ قد وَصَلُوا الصُّرَاخَ وأعْوَلُوا

وبكلِّ نادٍ منكَ أنَّةُ نَادِبٍ   وبكُلِّ دَارٍ منكَ حزْنٌ مُشْكِلُ
يَتزاحمُونَ علَيْكَ حتَّى خِلتَهم   سِربَ القطَا الظَّامِي وكفُّكَ منهَلُ
غلبُوا علَيْكَ لكى تَتِمَّ مشيئةٌ   للهِ تَبرزُ فى الوجُودِ وتَنزِلُ
وظَعَنْتَ عن أوْطانِ مُلْكِكَ راكِباً   مَتْنَ العُبابِ فأىُّ صَبْرٍ يَجمُلُ
والبحرُ قد خَفقَتْ عليكَ ضُلُوعهُ   والرِّيحُ تقتَطِعُ الزَّفيرَ وتُرسِلُ
فى موْقفٍ ياهوْلَهُ مِنْ موْقِفٍ   يَذْوِى له رَضْوَى ويذْبُلُ يَذبُلُ
حتى حلَلْتَ بعُنصُرِ المَلِكِ الذى   يُرْعَى الدَّخيلُ بهِ ويُكفَى المُعْضِلُ
مَثْوَى بَنِي يَعقُوبَ أسبْاَطِ الهُدَى   وسَحائِب الرُّحْمَى التى تُسْتَنزَلُ
وخلائِف اللهِ الذين أكُفُّهُمْ   ديَمُ الورَى إنْ أحسَنُوا أو أمحَلُوا
ودَعائِمِ الدِّينِ الحَنيفِ إذَا وَهَتْ   مِنهُ القُوىَ واختَلَّ مِنهُ الكَلْكَلُ
وكَفَى بإبْراهِيمَ بدْرَ خِلافَةٍ   تَعنُو لِغُرَّتِهِ البُدُورُ الكُمَّلُ
وكَفَى بإبْراهِيمَ لَيثَ كَريهَةٍ   يَعْنُو لعزته الهِزَبْرُ المُشْبِلُ
أغْنَي وأقْنَي واعتَنَي وكَفَى العَنا   وأعانَ فهو المُنْعِمُ المُتفَضِّلُ
ولِكُلِّ شَيءٍ غايةٌ مرْقُوبَةٌ   أعْلامُها ولكُلِّ شيءٍ مَفصِلُ
فأنِفتَ للدِّينِ الحَنيفِ وأهْلِهِ   مِنْ خُطَّةِ الخَسْفِ التى قد حمَّلُوا
ولِمِلَّةٍ جُنَّتْ فلو لم تَنْتَدِبْ   لم يُلْفَ مَنْ يرْقِى ولا مَنْ يَتفُلُ
أحكَمْتَ بالرأيِ السَّديدِ أصُولَهَا   وفرَيْتَها لمَّا استَبانَ المَفصِلُ
وركِبْتَ فيها كلَّ صَعْبٍ لم يكُنْ   لولا الإلهُ وعزُّ نَصرِكَ يَسْهُلُ
وأجَرْتَ مَسجِدَها الذى قد ضيَّعُوا   ورَحِمْتَ مِنبَرَها الذى قد عطَّلُوا
جَمعَتْ عليكَ العُدْوَتانِ قُلُوبَها   وأكُفَّها وعلى الحَمِيَّةِ عوَّلُوا
فاهْتَزَّ للحرب الكَمِىُّ بسَالَةً   واهْتزَّ فى مِحْرَابِهِ المُتَبتِّلُ

وبدَا انفعالُ الكَوْنِ هذا العالَمُ العُلْـوِيُّ مهتزٌّ فكَيْفَ الأَسْفَلُ ؟

والرُّومُ لاسِترْجاعِ حقكَ شمَّرتْ هَذَا هُوَ النَّصرُ المُعِمُّ المُخْوِلُ

واسْتقبَلَتْكَ السّابحاتُ مواخِراً تَهْوِى إلى ما تَبْتَغِي وتُؤَمِّلُ

تُبْدِى جَوَانِبُهَا العُبُوسَ وإنْ تَكُنْ بالنَّصرِ منْكَ وُجوهُهَا تَتهَلَّلُ

هُنَّ الجوارِى المُنْشَآتُ قد اغْتَدَتْ تَخْتَالُ فى بُرْدِ الشَّبَابِ وتَرْفُلُ

مِنْ كلِّ طَائِرَةٍ كَأَنَّ جَنَاحَهَا وهو الشِّراعُ به الفِرَاخُ تُظَلَّلُ

جَوْفَاءَ يحملها وَمَنْ حَمَلَتْ بِهِ مَنْ يَعْلم الأُنثى وماذا تَحْمِلُ

أَطلعْنَ صُبْحاً مِنْ جَبِينِكَ مُسفِراً يَجْلُو الظلامَ وهُنَّ لَيْلٌ أَلْيَلُ

وطَلَعْنَ مِنْكَ على البِلادِ بِطَارِقٍ لِلْفَتْحِ والنَّصرِ الذى يُسْتَقْبَلُ

وَبِقيَّة مِنْ قَوْمِ عادٍ أُهْلِكُوا ببقيَّةِ الرِّيحِ العَقِيمِ وجُدِّلُوا

بالبَاطِلِ البَحْتِ الصُّراحِ تَعزَّزُوا فالآنَ للحقِّ المُبِينِ تَذَلَّلُوا

خَضَبَتْ مَنَاصِلُكَ المَفَارِقَ مِنْهُمُ حِنَّا نَجِيعٍ صَبْغُهَا لا يَنْصُلُ

أَقْبَلْتَ فى يوم الهيَاجِ فأَدْبَرُوا أَقْدَمْتَ فى لَيْلِ العَجَاجِ فأَجْفَلُوا

أَعجَلْتَ حِزْبَ البَغْيِ فاشْتبَهَتْ بِهِمْ طُرُقُ النَّجاةِ وللهَلاَكِ تَعجَّلُوا

صبَّحْتَهُمْ غُرَرَ الجيَادِ كأنما سَدَّ الثَّنِيَّة عَارِضٌ مُتَهَلِّلُ

من كلِّ مُنْجَرِدٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ يرْمِى الجِلاَدَ به أَغرُّ مُحَجَّلُ

زَجِلُ الجناحِ إذا أَجَدَّ لِغَايَةٍ وإذا تَغَنَّي بالصَّهِيلِ فَبُلْبُلُ

جِيدٌ كما التَفَتَ الظَّلِيمُ وفوقَه أُذُنٌ مُمَشَّقَة وطَرْفٌ أَكْحَلُ

فكأنما هو صورةٌ فى هَيْكَلٍ مِنْ لُطفِهِ وكأنما هو هَيْكَلُ

عَجَباً له أَيخَافُ فى لَيْلِ الوَغى تِيهاً وذَابِلُهُ ذُبَالٌ مُشْعَلُ

وخَلِيجُ هِنْدٍ رَاقَ حُسْنُ صَفائِهِ ... حَتّى لَكادَ يَعُومُ(١) فيه الصَّيْقَلُ

غَرِقَتْ بِصَفْحَتِهِ النِّبالُ وأَوْشَكَتْ ... تَبْغِي النَّجاةَ فأَوْثَقَتْها الأَرْجُلُ

فالصَّرْحُ مِنْهُ مُمَرَّدٌ والصَّفْحُ منـه ... مُوَرَّدٌ والشَّطُّ منه مُهَدَّلُ

وبكلِّ أَزْرَقَ إنْ شَكَتْ أَلْحاظُهُ ... مَرَهَ العُيونِ فبالعَجاجَةِ يُكْحَلُ

مُتَأَوِّدٌ أَعطافُهُ في نَشْوَةٍ ... مما يُعَلُّ مِنَ الدِّماءِ ويُنْهَلُ

عَجَباً له إنْ النَّجِيعَ بِطَرْفِهِ ... رَمَدٌ ولا يَخْفَى عَلَيْهِ المَقْتَلُ

لله يَوْمُكَ في الفُتُوحِ فإنَّهُ ... يومٌ أَغَرُّ على الزمانِ مُحَجَّلُ

لله مَوْقِفُكَ الذى وثَباتُه ... وثَباتُه مثلٌ به يُتَمَثَّلُ

والخيلُ خَطٌّ والمَجالُ صحيفةٌ ... والسُّمرُ تَنْقُطُ والصَّوارِمُ تَشْكُلُ

والبِيضُ قد كَسَرتْ حرُوفَ جُفُونِها ... وعَوامِلُ الأَسَلِ المُثَقَّفِ تَعْمَلُ

لله قَوْمُكَ عِنْدَ مُشْتَجِرِ القَنا ... إذْ ثَوَّبَ الدَّاعِي المُهِيبُ وأَقْبَلُوا

قَوْمٌ إذا لَفَحَ الهَجِيرُ وجوهَهم ... حُجِبُوا بِرَاياتِ الجِهادِ وظُلِّلُوا

فوجوهُهُم بِسَنا الأَهِلَّةِ تَزْدَرِي ... وأَكُفُّهُم جُونَ السَّحائِبِ تُخْجِلُ

يا آلَ نَصْرٍ إنْ تَذُوكِرَ مَفْخَرٌ ... لا تَفْضَحُوا مَنْ دونَكُم وتَرَسَّلُوا

عَلْيَاؤُكُم غاياتُها لا تَنْتَهِي ... في مِثْلِها خانَ البَلِيغَ المِقْوَلُ

آثارُكُم في الدِّين غَيْرُ خَفِيَّةٍ ... تُرْوَى على مَرِّ الزَّمانِ وتُنْقَلُ

أَوَلَسْتُمُ الشُّهُبَ الأُلَى ما غَيَّرُوا ... مِنْ بَعْدِ بُعْدِ نَبِيِّهِم أو بَدَّلُوا

أَوَ لَيْسَ جَدُّكُمُ المدينةُ دارُهُ ... كلاَّ وصاحِبُهُ النَّبيُّ المُرْسَلُ

سَعْدٌ وما أَدْراكَ سَعْدُ عُبادَةٍ ... في مَجْدِهِ صَدَقَ الذى يَتَوَغَّلُ

ماذا يُحَبِّرُ مادِحٌ مِنْ بَعْدِ ما ... أَثْنَى بمدحِكُمُ الكتابُ المُنْزَلُ

---

(١) في الأصل : يقول .

يَا نُكْتَةَ العَلْيَا ويا قَمَرَ الهُدَى والعُرْوَة الوُثْقَى التى لا تُفْصَلُ

يَهْنيكَ صُنعُ اللهِ حين تَبَلَّدَتْ فيك الحِجَى وتَأَوَّلَ المُتَأَوِّلُ

يَهْنيكَ صُنْعُ اللهِ حِينَ اسْتَأْنَسَتْ مِنْكَ الظُنُونُ وأَقْصَرَ المُسْتَرْسِلُ

يَهْني العِبادَ أنَ اغتَدَى بِكَ دِينُهَا يُجْلَى مِنَ الشَكِّ المُرِيبِ ويُغسلُ

يَهْني البلادَ أنَ اغتَدَى بِكَ فَوْقَها سِتْرُ الوقاية والحمايةِ يُسْدَلُ

فَتْحُ الفُتُوحِ تَأَخَّرَتْ أَيَّامُهُ يَنْسَلُّ مِنْ حَدَبٍ إليك ويَنْسِلُ

يَزَعُ الإلهُ مِنَ النفوسِ من ارتَضَى حتى يَبِينَ مُحِقُّها والمُبْطِلُ

واللهُ بالتمحيصِ يُوقِظُ أَنفُسًا عن حَقِّهِ المحتومِ كانت تَغْفُلُ

وَيُكَيِّفُ السبب الخَفِيَّ لِمَنْ قَضَى بِسَعَادةٍ منه إليه تُوصَلُ

والحظُّ أمرٌ ليس فى وِسْعِ امرئٍ فمُكَثِّرٌ فى كَدِّهِ ومُقَلِّلُ

والحقُّ حقٌّ ما سِوَاهُ فَبَاطِلٌ لوْ حَقَّقَ المُسْتَبْصِرُ المتأمِّلُ

تتلوَّنُ الدنيا وتختَلِفُ المُنَي والبُدُّ بُدٌ ليس عنه مَعْدِلُ

وَلرُبَّمَا الرُّجْعَى وإنْ طَالَ المدَى واللهُ نِعْمَ المُرْتجَى والمَوْئِلُ

لم يُبْقِ ربُّك من عُداتِكَ مُعْتَدٍ والسيفُ يَسْبِقُ حَدُّهُ مَنْ يعذل

أُخِذُوا بِبَغْيِهِمُ أيُفْلِتُ هَارِبٌ للهِ يسرع خَطْوُهُ أو يُعْجِلُ

ثُقِفوا بكل ثنية وتبادرت بهمُ عيون المؤمنين فَقُتِّلُوا

سحقا لهم لا بالوفاء تمسكوا يوما ولا فازوا بما قد أَمَّلُوا

ورأى عدوُ الله عُقْبَي غدره والخزى منه معجلٌ ومؤجل

وهو الذى مِنْ حقِّه ألاَّ يُرى يُعنَي اللسانُ بذكره أو يَحْفِلُ

وحقارةُ الدُّنيا على الله اقتضت أن يثأر المستَحْقَرُ المسترذَل

هذا سليمانُ النبيُّ ابتزَّه الكرسيَّ بعضُ الجنِ فيما يُنْقَل

ما غيرت منك الخطوبُ سجيةً مجبولةً والطبع لا يتنقل
بل زاد عقلَكَ بسْطَةً من بعدها حتى أحاط بكل شيء يُعْقَل
وأفادَك الدهرُ التجاربَ بانياً تضعُ الأمورَ على الوزان وتَحمِل
ما أن رأينا من يُعَابُ بحنكةٍ حتى يعاب الصارمُ المتفلِّلُ
قد قرَّ أمرُكَ واستقرَّ عِمادُه والحقُّ بانَ فلم يَدَعْ ما يُشْكِلُ
وأتاكَ نجلُك والسعود تحفه والخلْقُ تلثم كَفَّه وتُقَبِّلُ
لمَحُوكَ يا بَدْرَ الكَمَالِ فكَبَّرُوا وبَدَا هلالُكَ بَعْدَ ذَاكَ فهَلَّلُوا
فالشملُ مجتمعٌ كأحْسَنِ حَالَةٍ تعتادها ونوالُ رَبِّكَ يشمل
ولقد غفرتُ ذنوبَ دهرى كلَّها حتى المشيبَ وذنبُهُ لا يُهمل
لما رأت مثواكَ كعبةَ طائفٍ عَيْنِي وكفَّكَ للطواف مُقَبّل
أهديك من أدب السياسة ما به تنْبأى الملوكُ على الملوك وتَفْضُلُ
لا تغفلِ الحزْمَ الذى بعقاله إبلُ الإمارة والإدارة تُعقل
واجعل صُماتَكَ عِبْرةً فيما مضى وعليه قِسْ مِنْ بعدُ ما يُستقبل
والأمرُ تحقِرُه وقد يَنْمى كما تَنْمِي الجسومُ على الغِذَاء وتَعبَـلُ
فاحذر صَغِيرَ الأمر ولتحفلْ به وإذا غَفَلْتَ فإنه يستفحل
فالنارُ أولَ ما تكون شرارة والغيثُ بعد رذاذه يسترسل
شاوِرْ إذ الشورى دعتك أولى النهى لخطاب غير أولى النهى لا يَجمل
واجز المُسِيءَ إذا أساء بفعله والمحسنَ الحسنى جزاءً يَعْدِل
وإذا عدَلْتَ فلا الهوادةُ والهوَى مِنْ بعده أبدا لديك تؤمل
ومن استبحت ذمارَه بعقوبةٍ فبغيره من بعدها يُستبدل
وإذا عَقَدْتَ فللغنَا لا للهوى فبكُلِّ قَدْرٍ رتبةٌ لا تُهمل

وصُنْ اللسانَ عن القبيح فربما يمضى اللسانُ بحيث ينبو المُنْصُل
وإذا جرحتَ فؤادَ حرٍّ لم تُطِق إدمالَه وبأىِّ شىءٍ يَدْمُل
واقبل وصيةَ من أتى لك ناصحا واشكُرْهُ وهو الكاذب المتحيل
وعلى التثبت فى السعاية فاعتمد فمَردُّ أمرٍ فات لا يُسْتَسْهَل
وإذا جنى جانٍ تبيَّنَ جهلُهُ فاحلُمْ عليه فأيْنَ مَنْ لا يجْهَلُ
وارْعَ السوابقَ لا تُضِعْها إنها دينٌ يُلام لأجله من يَمْطُلُ
وإذا ترحَّل عن جوارك راحل فانظر بعقلك عنك ماذا يَنْقُلُ
واجعل على السِّيَرِ التى رتَّبْتَهاَ عينا تجىء بكل ما يُتَقَوَّلُ
لا تُبْدِ هَوْناً فى الشدائد إن عَرَتْ فبقدر ما تُبديه قدرُك يَخْمُلُ
والمالَ خذْهُ بحقِّهِ واعلمْ بأنَّ المالَ للغرضِ البعيد يُوَصِّلُ
وازنْ به مؤنَ السياسةِ وادَّخِرْ فضلا ووازِ بخرجه ما يدخل
والمنحُ والمنْعُ اعتبر قسطاسَه فالبُخْلُ والتبذيرُ مما يُرْذَلُ
وعليك بالتقوى وبالخلق الذى ينهى النفوس عن القبيح ويعدل
واشغَل عن اللذات نفسَك بالذى نفسُ الحكيم به تلذُّ وتُشغَلُ
وبنو الزمان على سبيل أبيهِمُ إن عزَّ عزوا أو يُذَلُّ تَذَلَّلُوا
بالعفو خذْ منهم ولا تَكْشِفْ لَهُمْ سِتراً فلستَ على كبير تحْصُلُ
ذُمَّ الزمانُ وأهلُهُ مِنْ قَبْلِناَ فمتى حلا أو لذَّ هذا الحنظلُ ؟
هذا وعقلُك فى الخلافة قدرُه أسنى ورأيُكَ فى السياسة أفضل
مولاىَ هاضَنِىَ الزمانُ وسامنى جوْراً وأنت هو الإمام الأعدل
أنحَى عَلَى وَفرِى وروَّع مأمنى ظُلما وحمَّلَنى الذى لا يُحْمَلُ
وَرَمَى بنا البحرُ المحيط ولو درى مِن دونِهِ مرمًى لقالَ لنا ارحلوا

إنَّا قُتلنا بالنوى سِيَّانِ مَنْ يُجْلَى عن الأوطان أو مَنْ يُقْتَل

هذا قياسٌ ليس يُدفع حكْمُه من بعدِ ما شهِدَ الكتاب المُنْزَلُ

أصبحتُ فى زغبٍ كأفراخِ القَطاَ والماء شرطُ حياتِهم والسنبلُ

فإذا سموتُ لقَصْدِهِم لم أَسْتَطِعْ وإذا اعتذرتُ إليهمُ لم يَقْبَلُوا

وأنا الذى مالى إليك وسيلةٌ أُدْلِي بها لِعُلاَكَ أو أتوَسَّل

أنت الوسيلةُ لِي إليكَ فلا تُضِع قَصْدِي فمثلُكَ مَنْ يقولُ ويَفْعَل

مآلِي ولا لِبَنِيَّ غيرك رَحْمَةٌ لكنَّ عُذرى واضحٌ لا يُجْهَل

خُذْهاَ كما شاء الخلوص كأنها عقدٌ بألقاب البديع مفصل

أَهْدَى البيانُ بها فرائدَ حكمةٍ يبأى النَّدِيُّ بنشرِها والمحفل

واشكر صنيعَ اللهِ فيك فإنَّهُ يُنْمِي ثوابَ الشاكرين ويُجْزِلُ

رجع التاريخ

سياسة البرمينجو المغتصب لعرش غرناطة
بعد عبور السلطان الشرعي محمد الخامس إلى الأندلس

وقد كان الفَسْلُ المتغلبُ على الأندلس لَمَّا شعر بالعمل على إجازة السلطان مغدورِه الذى كبس مضجعه ، وابتز أمره ، أخذ حِذْره ، ونشط للمقارضة شَرِهاً إلى إقامة رسوم الفتنة وجريا على سبيله من الجرأة ، وعدم نظره فى العقبي والمغبَّة ، فشرع فى إجازة من لنظره من أبناء الملوك والمرشحين بالمغرب للأمر والمتأهلين لإقامة سوقِ التشغيب على ابن عمهم ، وهم جملة منهم الإخوة الأربعة المعتقلون ببعض دوره[1] تقمناً لمرضاة السلطان الحائن ، متوقِّعٍ حظهم ، وهم عبد الحليم وعبد المؤمن ومنصور والناصر بنو السلطان المغمور الحظ (١٢٤ و) بسعد أخيه ، الموكوس الوزن بكدح الأيام لصنوه مع أثرة الأب ورجحان كثير من الخلال أبي علي[2]

(١) تقمن الأمر : قصده وتوخاه دون سواه ، والقمن : الجدير الخليق .

(٢) أبو علي هذا هو اخو السلطان ابي الحسن المريني ، وكان يعرف بالأبيض لأن أمه كانت جارية أسبانية بينما كان أبو الحسن يعرف بالأكحل أى الأسمر أو الأسود لأن أمه كانت حبشية ، وفى عهد والدهما السلطان أبي سعيد ، كان أبو الحسن أميرا على الحضرة وأبو علي أميرا على القبلة أى الجنوب فكانا أخوين ملكين فى عصر واحد ، ولما مات السلطان أبو سعيد استقر رأى الخاصة من المشيخة ورجال الدولة على تولية ولى العهد أبي الحسن ، فبايعوه بالسلطنة بينما بقى أخوه أميرا على سجلماسة والمناطق الجنوبية ولكن لم يمض وقت طويل حتى دبت السعايات بين الأخوين وقامت الفتنة بينهما . ولم تستقر الأوضاع إلا بقتل أبي علي ، ولقد كفل السلطان أبو الحسن أولاد أخيه ولم يميز بينهم وبين أولاده ، ولما ولى الحكم السلطان أبو عنان بن أبي الحسن ، بعث بعض اخوته وقرابته إلى غرناطة ليقيموا هناك تحت مراقبة سلطانها أبي الحجاج يوسف ابن الأحمر وكان من بينهم أبناء عمه أبي علي المذكورين فى المتن وهم عبد الحليم وعبد المؤمن ومنصور والناصر . فبقوا هناك إلى هذا التاريخ الذى نحن بصدده . راجع (الناصرى : الاستقصا ج ٣ ص ١١٩ — ١٢٠) .

عمر بن أمير المسلمين أبى سعيد بن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أسبقهم أبو محمد عبد الحليم الأمثل الطريقة في الرجاحة وحُسن السَّمت وإقامة الخط وإبانة الخطاب والتظاهر بالتصاون والتزيّى بالخير . من رَجُلٍ رَبْعَةٍ ، أزهر اللون مرهف البدن طويل اللحية مُسْوَدًّا شعرها كأنها قِنْوُ النخلةِ المُتَعَثْكِل [1] ، لم يزل من بينهم مطمح النفوس ومرمى الآمال وهدف الأراجيف ومتشوّف الظنون . وأخوه عبد المؤمن مجاريه فى بعض الخلال والصفات ، المُرْبى بالصُّفرة [2] وإيثار الصِّمات [3] المشهور بالإقدام . وأخوهما المنصور تلوه فى الترشيح وأحد الأفراد فى التشدق وتعاطى الفصاحة إلى الهُوِىِّ فى أقصى دركاتِ اللَّوْذَعِيَّة [4] ، وانتحال الأدب ، مباينٌ لهما بالوسامة والبدانة . وأخوه الناصر مثله وأظهر سداداً وانقباضا مع صلوح وخيرية يشهدُ بها معارفه . إلى سوى هؤلاء من القرابة والنسباء . فَتَنَخَّلَ [5] منهم عبد المؤمن وعبد الحليم وابن أخ لهما ، وأمسك الآخرين ليكون له الخيار فى الإعادة إن عارضهما معارض أو التغرير إن بانت له فى متعدد من الجهات فرصة . ونذر بغرضه الأسطولُ المتضمن حفظ البحر من أسطولى المغرب وقشتالة . وقد دفعت القطعة من مرسَى (١٢٤ ط) [6] المنكّب فقصداها [7] وراما التغلب عليها ، وقام أهل الساحل من

---

(١) المتعثكل : أى الذى يتذبذب فى الهواء كالعثكول فى النخل فهو بمنزلة العنقود فى الكرم ، والجمع عثاكيل .

(٢) ربما يقصد أن مزاجه صفراوى .

(٣) إيثار الصمات أى الصمت .

(٤) اللوذعى : الفصيح اللسان الذكى الذهن .

(٥) تنخل الشيء : صفاه واختاره وأخذ أفضله .

(٦) المنكّب : يبدو أنه اسم عربى بمعنى الحصن الحصين المرتفع ويسمى اليوم Almunecar أما الاسم القديم لهذا المكان فهو Sexi وهو مرفأ ساحلى مرتفع فى جنوب شرق الأندلس بولاية غرناطة ، وبهذا المرسى كان أول نزول الأمير الأموى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك عند دخوله الأندلس سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) وقد لقب بعد ذلك بالداخل راجع (الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٩ ، نشر دوزى : دى خوية ١٨٦٦) . راجع كذلك (الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٦) .

(٧) أى أسطولا المغرب وقشتالة .

دونها، وأورطوها فى الرمل فتعذر إخراجها ووقع عليها[1] قتال فَشَتْ منه فى الطائفتين الجراح فتعذر سفرها وشُرع فى رَدِّها إلى مستقرها وانجرف الأسطول لحاجته من زاذ الماء بتلك الأحواز فغافصوه[2] فى قطعة مختصرة عجّلوا دفعها التحفت الظلمة وخاضت الموج بعد تقدم مراسلة آل زيان الراغبين فى ضرب بعض عدوهم ببعضه واستجلاب الفتنة إلى أرضه والاتفاق على ما يستقر عليه الأمر . فكان نزولهم ببعض مراسى السواحل التلمسانية وذلك بين يدى الحادث بسلطان المغرب . فاستقروا فى الأيالة الزيّانيّة فى نفر ستةٍ من أمير وخاصةٍ نوه بهم الأمير أبو حَمّو بتلمسان موسى بن يوسف ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن متلقف كرة الحظ ومُجدد رسوم الدّولة المتفق منه على الصلوح دهيا وحزامة، فحملهم[3] وحباهم وخلع عليهم، وأعان صاحبهم بموْئل قِرّى ومكارمة . وكان حلولهم لديه على تفئة استيلائه على مدينة الجزائر عقد الصفوة وسبْقة البلاد المنهزمة ، وآخرها انقيادا للإيالة الزيانية، وتمسّكا بالمرينية، وقد اشتملت من العيال المتورطين بافريقية[4] فما دُونها والحامية المنبتّين[5] والضعفاء المحرجين على أمم وقع الرأى من آل زيان زعموا على إكبالهم وإرهانهم فى عددهم (١٢٥ و) ومثلهم ممن فى السجون المرينية، فجعل هذا الوافد الشفاعة فيهم صدقة بين يدى نجواه . ولم يمكن إيواء مثواه الأمير أبا حَمّو إلا إسعافه فتخلص منهم أمة لحقوا بسببه بأوطانهم . وكان من الأمر ما يأتى به الذكر إن شاء الله .

ولما اتصل هذا الخبر بالسلطان طالبِ حقّه وناشدِ ضالة ملكه، سقط فى يده، وانصرف عنه الجيش المرتزق من الدول المرينية بجملته والشيخ يحيى بن عمر بن رحو مؤمل الكرة من إمارة جنده والرّيس الذى خف لمظاهرته محمد بن يوسف بن نصر، وفرّ الكثير إلى عدوّه، ومن وجوههم ابن وزيره المشؤوم الطائر، المهدى لقبه فأل الانكماش، المقطوع بالمنْحسة مع استبطانه

---

(١) ووقع عليها قتال أى وقع من أجلها قتال .
(٢) غافصه أى غافله أو أخذه على غرة منه .
(٣) حملهم هنا بمعنى أركبهم .
(٤) المراد بافريقية هو المغرب الأدنى أو ما يسمى اليوم بالجمهورية التونسية .
(٥) أنبت أى انقطع والمقصود هنا بالمنبتين أى المقطوع بهم .

هَوَجا وخَوَرا وأَفَناً[1] وهذرا ونَهَما وبُخلا وبَخَرا وسوء خلة ، يُبِرّ عليه ابنه المأبون بالتطفيف فى مكيال أكثر هذه الخلال ، فانكفأ أدراجه على قرب عهد من وصوله إلى الأندلس فاحتل مالقة ، وبها أشياخ النُّكْراء من بنى شعيب المتظاهرين بالسذاجة الأندلسية وعدم التصنع وإرسال السجية ، وأكل الأطعمة التى يحضرها التطرف ، وفى مِسْلاخ[2] كل تيس منهم وَالِبَةُ بن[3] الحُباب والعباس بن الأحنف[4] والحسن الحكمى[5] من اللَّوْذَعية والفطنة والمعرفة بطرق المجانة ، ويمتُّ إليهم بصهر ، فقاموا به وانصرف عنهم إلى السلطان بغرناطة ، فحين توسط طريقه (١٢٥ ط) بدا له فجعل وجهه إلى بلد النصارى وارتكب خطرا عظيما ولحق بمنشأ فراره آيباً بخَفَيٍّ عاره . وحسبك بها مجادة وحياء[6] ودهيا ، والولد من طينة أبيه ، وتوجه على آل شعيب نكير السلطان لإغفالهم إصحابه إليه وهو المعتاد فى مثله بما أوجب نقلهم عن مالقة فى هذه الأيام موريا بالحاجة إليهم وفى سبيل مظاهرته .

وانحاز السلطان جبره الله بمن استمسك معه الى صاحب قشتالة وقدم عليه فآنسه واعتذر له على التقاصر فى نصرته المجدية لهيض جناحه بهلاك سلطان المغرب ثالث أثافيهم وهجوم فصل الشتاء ، وضيق الزمن عن احتفاله بحركة تجيشه ، وأسكنه بمن معه بلد اسْتِجَّة[7] الكائنة على ضفة شنجل[8] ، الرَّحْبَة الساحة ، المجدية الفلاحة ، الأنيقة الكريمة ، المطلة على ثغور بلاد المسلمين ، فاستقر بها في دَعَة ، وتحت نُزُلٍ وجراية .

---

(١) أفن أفنا أى ضعف رأيه فهو افين ومأفون .

(٢) المسلاخ الإرهاب أو الجلد أو قشر الحية الذى تنسلخ منه .

(٣) أبو أسامة والبة بن الحباب : شاعر من شعراء الكوفة المستهترين ، وكان صديقا للشاعر أبى نواس راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٤) .

(٤) أبو الفضل العباس بن الأحنف : شاعر من شعراء الغزل المعروفين على عهد هارون الرشيد . توفى سنة ١٩٢ ﻫ راجع (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٩ — ٢٣٣) .

(٥) هو الشاعر المعروف الحسن بن هانىء الحكمى المعروف بأبى نواس ، توفى فى بغداد أواخر القرن الثانى للهجرة . راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٧) .

(٦) حقها أن تكون (محادّة وخنا) إلاّ أن يريد السخرية .

(٧) استجة Ecija : واسمها الرومانى القديم Astiggi وهى تتبع الآن ولاية اشبيلية . راجع (Ency. of Islam, art. Istigga by Sybold)

(٨) نهر شنجل أو نهر شنيل : ويسمى حاليا Cenil بولاية غرناطة .

استبداد الوزير عمر بن عبد الله واضطراب الحالة فى المغرب

وفى غرة شهر ذى حجة اتصل بالوزير الثائر بالسلطان الآخذ بخطام[1] الدولة المستبد بالأمر عمر بن عبد الله بن على ما كان من محط الأمير المتوقع نجومه بالمغرب ، بساحل تلمسان ، وشروعه فى الحركة إلى طلب الأمر ، وهو على العلم بهوى الناس إليه على فرضه رجلا من مُدَّجنة[2] الأشبونه[3] أو عمل بنبلونه[4] تناهيا فى فساد (١٢٦ و) السيرة والانقياد إلى النبيذ وارتباكا فى حبال الشيطان ، وخَوَرا فى الطباع ، فضلا عن كونه صميا من عِيص[5] الملك كامل شروط البيعة ، موصوفا بالرجاحة . فاستراب بمن لديه وأعمل النظر وقدح زناد الفكرة ، وهمّ بأن يصيّر الملك إليه وراسله زعموا فى السر ، ثم أوحشه مكان أتراب له لحقوا به ،

---

(١) الخطام : حبل يجعل فى عنق البعير ليقاد به ، والمعنى هنا أن الوزير المذكور كان ماسكا بزمام الدولة مدبراً أمرها .

(٢) دجن دجونا بالمكان أى ألف المقام واستأنس فهو داجن . وقد أطلقت كلمة المدجنين Mudejares على العناصر الإسلامية التى خضعت للحكم الاسبانى المسيحى كذلك أطلقت كلمة مستعربين Mozarabes على العناصر المسيحية التى تعربت وخضعت للحكم الإسلامى فى الاندلس . وبعد سقوط غرناطة وزوال الحكم الإسلامى من أسبانيا ، أطلق على العناصر العربية التى تنصرت أو بقيت على إسلامها إسم الموريسيكيين : Moriscos .

(٣) أشبونة وتسمى الآن لشبونة Lisbona عاصمة البرتغال .

(٤) بنبلونة Pamplona : قاعدة ولاية Navarrà نبرة فى شمال أسبانيا .

(٥) العيص : الشجر الملتف أومنبت خيار الشجر ، يقال هو من عيص كريم أى من اصل كريم .

منهم الحالُّ لدى الناجم المذكور محل الوزارة محمد بن موسى بن إبرهيم ، المنبز(١) بالسبيع ، المشهور بفروسية وثقافة ودربة ، وأولى القوم سفرته(٢) ، فعمل حينئذ على استجلاب أميره محمد بن أبي عبد الرحمن تاشفين ابن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن ، المستقر في إيالة سلطان قشتالة نازعا إليه من جملتهم بغرناطة عند القبض عليهم ، وأن يمسك عليه البلد الجديد على الحصْر حتى يصل إليه . فوجه إلى سبته مُعتقله سليمن بن داود ، أنشقه ريح الحياة ، وكان في أضيق من الخرْت وامتنَّ عليه أيأس ما كان ، وطوقه الخلعة وأركبه الفاره(٣) ، وسوغه الولاية ، وجعل لنظره طنجة وأقامه بالمرصاد لإيواء مُستدعاهُ والذبّ عنه والممانعة دونه إلى أن يتصل به حبْله ، وارتهن ابنه بِكْرَ ولدِه وشُقَّة نفسه ، وثقة(٤) في الوفاء بطلبته منه ، فانطلق يقول قول عمران بن حِطّان(٥) ، (١٢٦ ط) غلَّ يداً مُطْلِقَها واسترق رَقَبةً مُعتِقها . واستحضر الوزير مسعود بن رحّو بن على الشاخص في النصل المرتقب للغيله نِفاسا على الخطة ، وسُمُوًّا إلى المال العريض وخوفا من الوثوب ، وقد كان ، اتصل منه بصهر عالج به قرحا داميا أثاره بينهما التحاسد فسوغه دنياه بجمّتها لم يرْزُؤْه منها قِطْميرا(٦) ، وصرفه إلى مراكش يجرُّ الدنيا برَسَن(٧)، وقد وجع من الالتفات لِيته(٨) وأخدَعه ،

(١) المنبز بكذا : أي الملقب بكذا وتستعمل عادة في الألقاب القبيحة . يقال تنابزوا بالالقاب أي تعايروا بها .

(٢) كذا ـ ولعلها : نفرته .

(٣) أركبه الفارة : أي أركبه دابة حسنة كريمة قوية ويقال أيضا رجل فاره وجارية فارهة أي حسناء . فتية والجمع فواره وفره .

(٤) في الأصل : وشقة

(٥) عمران بن حطان : من زعماء الخوارج وشعرائهم أيام الأمويين . ومن شعره قوله في مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على :

يا ضربة من منيب ما أراد بها	إلا ليبلغ عند العرش رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه	أوفى البرية عند الله ميزانا

راجع (أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٣٣١ وما بعدها) .

(٦) القطمير والقطمار : القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة : يقال ما أصبت منه قطميرا أي شيئا .

(٧) الرسن . الحبل والمعنى هنا كناية عن العظمة .

(٨) الليت : سفحة العنق ، والاخدع : عرق بين الترقوة والصدغ ، والمعنى هنا كناية عن الكبرياء .

زعموا أن مطايا عيالِه بلغت نيفا وثلاثين من ذوات الحَكَمات[1] والأرائك والقِباب . ووجه لنظر أخيه عمر بن رحو ظِئْر[2] ذلك السلطان الهالك مَظْؤورَه الولد فى لمة من الخيل ، وأوعز إلى أوليائه بالجهة أن يظاهروا مسعود بن رحو التشاما على الولد إن لحقه ضيق أو تعذر لمستدعاه قصد . وعند استقرار القوم بمراكش ، انتدب أشياخ العرب من العاصم والخلط وسفيان والجابر والحارث ومن حالفهم ، فوصلوا إلى مراكش وشاع عنهم مُعاقدة بقبر الولى القطب المقصود التربة أبى العباس السبتى .

ثم نظر[3] فى ضم ما يحتاج إليه المُحْتَجِر ويقتاتُه المنحَصِر ، ويفتقر المستكن ، فاكتسح الأدم والأدهان والكوامخ[4] ، والشحوم معلياً لأثمانها ومرضيا بائعها ، واستكثر من الوقود فأغرى الظهر بثقل أجرام الزياتين حتى رأى الحصول على كفايته . ولقبل ما كان السلطان المغرو لم يأل اجتهاداً فى ضم الأقوات فكانت مخازن (١٢٧ و) الحبَّتين[5] فاهقة[6] وأهراؤها جاشية[7] وأبوابها على الوسع مختومة ، واستوعب الفعلة والصناع من البنائين والنجارين ومن ينسب إلى مهنة الحديد وفتل الجُدل وإصلاح السلاح إلى مهرة المهندسين ، وقادحى شُعَل الأنفاط ونافضى ذوائب المجانيق ، ونقَّر عن القسى بالبلد مُغريا بها العيون فانتزعها من حيث كانت ، والتَّ ضُروب السلاح من دكاكينه المتعارفة ، وبنى المراقب والمراصد ورفع الظلال واتخذ أبراج الخُشُب والبناء ومظاهر الحرس ومناظر حذاق الرماةِ ، وضم المال على ضروبه من الأوقاف .

---

(١) الحكمة : ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه والجمع حكمات .

(٢) الظئر : العاطفة على ولد غيرها أو المرضعة له ، والإشارة هنا إلى وجود نوع من القرابة بينه وبين السلطان .

(٣) يقصد هنا الوزير عمر بن عبد الله الذى صمم على مقاومة الحصار بفاس الجديد إلى أن يصل الأمير المرشح للسلطنة ابن زيان محمد .

(٤) الكامخ : إدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التى تستعمل لتشهى الطعام ، والجمع كوامخ والكلمة من الدخيل .

(٥) لعله يقصد بالحبتين نوعين من الحبوب كالقمح والشعير مثلا على غرار الأسودين والأحمرين .

(٦) الفاهقة : أى الممتلئة ، يقال فوق الاناء أى امتلأ حتى صار يتصبب .

(٧) جشأ المكان : أى اخرج كل نباته والمعنى هنا كناية عن الامتلاء .

والأمانات ، واستدعى الرماة من الرَّجل أولى الفرنجيات ، وسواهم من فُره الدَّربين على العقارة واللولبية ، والحضَر أولى الاتصاف بهذه المزية ، واستلحق من يجيد الرمى فيها بالعربية ، واستظهر من الرجال الأندلسيين أولى العصى والوَفْرات والوصفان المساعير والصقور والحراب بأمم يعيي عدُّها ويعجز حصرها . وأخذ مواثيق من لديه من النصارى بعد أن أكثر عُرفاءهم ، وخصَّ بالإحسان فقهاءهم مقتضيا إياها فى بيعة نُسكهم حسبما يستدعيه ترجمانُه ويُهذبه قسيسهم ثم تخللهم بأصنافٍ مباينين لهم فى اللسان والنحلة . ولم يدع معروفا بصناعة ، ولا حامل يراعة ، ولا مُصَرِّفَ آلة ، ولا متقدم قوم ولا صاحب (١٢٧ ط) مهنة ، ولا كاتب طومار[١] أو رسالةٍ إلا حصَّله خلف سوره ، إجحافا بمُطالبه ، وإخلالا بأُهبته ، وهيضا ظنه لجناحه . فغص البلد وضخم الملك ، وتواترت الأخبار بإقبال الأمير عبد الحليم بن عمر ، وقربت مراحله ، وقد نَهَدَ من تلمسان سائرا بسيْر ضعيفه ، وقد اشتمل رواقه على الجملة من الخدام بين نازع إليه ومستخلص شفاعته . واجتمع الملأ من قبيل بنى مرين المعتادين فى أمثالها بذل العطاء والاستظهار بهم على الحماية والذب ، وقد رابهم أخذه فى شأنه وازوراره بجانبه ، وعدم إشراكهم فى أمره ، وطلبوه بالإصحار إليهم ليفاوضوه فى المهمة . ونمى إليه ما أوحشه فاستأثر بتنبوأ منعته واستدعى المشيخة إليه فقارضوه النقبة ، وترددت الرسل بما أثار أنفهم واستعلاءهم ونفروا عنه بواحدة مذيعين الرغبة عنه متبرئين عن سلطانه ما دام متولى أمره . وعسكروا بالهضبة تجاه المدينة ، وكانوا أملك بالبلد القديم[٢] منه ، فسدوا ما يواجهه من أبوابه ، وطيروا رسلهم إلى القادم يسوغونه المنحة ، ويهنونه العطية ، ويعطونه الصفقة ، وكان وصوله إلى المدينة واضطرابه بظاهرها فى السادس من شهر محرم[٣] وهو يوم السبت ، فى نصبة لم يُعِنْها اختيار زعموا مُحجما عن المنزل

---

(١) الطومار والطامور : الصحيفة أو القرطاس والجمع طوامير .

(٢) المقصود بالبلد القديم فاس القديمة التى بناها الأدارسة ومن جاء بعدهم ، وأما البلد الجديد أو فاس الجديدة فهى المدينة التى بناها المرينيون بجوارها .

(٣) أى المحرم سنة ٧٦٣ هـ .

المعتاد لِمَا (١٢٨ و) كان من التقدم بهدم جُدرٍ كانت تمنع عمل فَكَّيْ آلة النفط[١]، فنزل قِبليّ البلد بالموضع المعروف بإفركان[٢] بين ملتف ما به من شجر ، وبرز إليه أهل البلد القديم على طبقاتهم من الشرفاء والفقهاء والخطباء والأمناء وسائر اللفيف ، فقرر الرتب وقدم الحكام وعيَّن الجباة ، واستكتب من أفلت من وَهَق الحصر ، وتخطته أيدى القسر وقلد خُطة العلامة الفقيه الحسن الرواء ، العظيم المران على الأغراض السلطانية ، العذب الحديث والفكاهة ، أبا سعيد بن رُشَيْد ، وخُطة الأشغال الحيسوبى العريق البيت فى الاصطناع وتطويق الوجاهة يوسف الكنانى .

وكثر يومئذ مصطف للوزراء المتنقبين ببذل النصح وإهداء الوسائل ، والمتقدم على الجملة محمد بن موسى بن إبراهيم المنبز بالسبيع باكورة النازعين إليه . واضطر إلى المال فتوجه الطلب على الجملة من أذيال الدولة وبعض المياسير تناولهم الضغط وأصابتهم الجلاوز ، فرشح بعضُهم وأطمع بعضٌ ولم يحصل منهم إلا على بُلالة ريثما فُصِلت الخطة وانتاشهم الله من الورطة . وتعرض إليه قومٌ من الصفاعين والأوغاد من أهل سلا ممن يأنف يهود لعنة الله على كفارها من انتسابهم إلى نحلتها وتعلقهم (١٢٨ ط) بأذيال ملتها كالرُّطلى اللعين الأهرت[٣] الشدْق المستكره الوخط،الوضر[٤] الأطواق، المعروف القحة

---

(١) أطلقت كلمة نفط على المواد الملتهبة الحارقة التى كانت تلقى على الحصون والابراج ، والسفن لإحراقها ثم أطلقت أيضا فى أواخر العصور الوسطى على المواد المفرقعة كالمدفع والأسلحة النارية التى تحدث الهدم والتدمير .

راجع David Ayalon : Cunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, (London 1955)

راجع كذلك نقدنا للكتاب السالف الذكر فى (Hesperis II 1959)

(٢) إفركان كذا فى الأصل ، ولعلها إفرخان جمع أفروخ وهى بربرية معناها الشاب أو الفتى ، وقد أطلق المغاربة هذا اللفظ بمعنى فتيان على الجنود الأسبان أو البرتغاليين الذين خدموا فى جيوش الدولة فى عهد الموحدين والمرينيين . وما زال يوجد فى المغرب بعض القلاع والأماكن المنسوبة إلى قواد هذه الفرقة مثل قلعة جرندة بن مازيغان ومراكش وتنسب للقائد البرتغالى Gerande على عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن . فمن المحتمل أن يكون اسم هذا الموضع افرخان أى المكان الذى يسكنه هؤلاء الفتيان أو الجنود .

(٣) الأهرت : الواسع الشدقين ، والجمع هرت ، وفى هذا المعنى يقال هرَّت شدقه .

(٤) الرجل الوضر أى الذى اتسخ بالدسم والمعنى هنا أن ثيابه وياقته التى حول عنقه متسخة بالدهن والدسم .

والبُهْت[1] وتلوه الحاج السالمى اللعين المعروف السَّرق والبُهْت وحنثِ اليمين ، الدَّغل[2] العقد ، والمخزى الشَّيْبَة المهان السَّبَلَة[3] عدو أهل القبله ، المقعد على النطْع فى سبيل العقاب المرة بعد المرة لولا سابق الأجل والشفاعة ، فأطمعوا فى أموال تتبين وجوهُها ببلدهم كيما تجد حياتُهم السبيل إلى لدغ أرباب النعم وأولى الهيئات على عدم ذَيْن النَّمطين بهذا البلد ، وظن بهم الصدق فأصبحوا بوزير أخى السلطان من قبيل بنى واطاس[4] ، ووصل معهم من غير خطاب سلطانى للمشيخة ، ولاحثٍّ على البيعة ، نادى بالبلدة المعتدّة خِطْباً فقالت نكح . وحضر أعيانها واين الأعيان من كل حلف الخمول ضئيل الجاه شَحْتِه[5] مُغْرًى بعضُهم بسيئة بعض ، طالبهم بالمال الفاضل عن نفقات الحُبُس من شروب المياه ورباع المساجد وأموال اليتامى ، فحضرت نُتافة تافهة لاتسمن ولا تغنى من جوع حسْب الملك الصراح أن يستقيل الله من عثرة التشوف إليها ، ويستعدى مجده على من غمس يده مرة فى قذرها ، وأنفذ معه مقدما على خطة سوائم السلطان الراعية بأبى طويل[6] وهى العمالة التى يتقلدها أولو الكفاية والتحقق

---

(١) البهت والبهتان : الكذب والافتراء . والبَهوت الذى يبهت السامع بما يفترى عليه والجمع بُهُت .

(٢) دغل الشىء : أدخل فيه ما يخالفه ويفسده عن سوء نية .

(٣) السبلة : ماعلى الشارب من الشعر ، أو مُقدَّم اللحية والجمع سبال .

(٤) قبيلة بنى وطاس : قبيلة زناتية قامت على أكتافها الدولة الوطاسية بعد سقوط دولة بنى مرين .

(٥) شحته : أى قليلة .

(٦) أبو طويل إحدى عيون الماء العديدة التى تزود مدينة فاس بالمياة العذبة . ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : عين الخيل ، عين البغل ، عين علو ، عين ازليتن ، عين بو طويل وهى التى تعنينا هنا وهى بنواحى الصاغة .

راجع : (Le Tourneau : Fès avant le Protecetosat, P. 232)

هذا وقد أطلق البكرى اسم « أبو طويل » أيضا على قلعة بالقرب من طبنة وبجاية بالجزائر ، وقال انها كانت إحدى قواعد الدولة الزيرية الصنهاجية بالمغرب وأنها ازدهرت بعد خراب القيروان فى القرن الخامس الهجرى ، إذ انتقل إليها أهل إفريقية كما قصدها التجار من جميع أنحاء العالم الإسلامى . كذلك أشار البكرى إلى أنه فى هذه القلعة تحصن أبو يزيد مخلد بن كيداد عندما قام بثورته الخطيرة ضد الدولة الفاطمية سنة ٣٣٢ هـ .

راجع (البكرى : المغرب فى وصف إفريقية والمغرب ص ٤٩ نشر دى سلان) .

بالأمانة لدرور الفوائد من الجبن الذى يعم الدور والأسواق غريضه[1] ، والجلائب التى تكسو الأوضام لحمانُها[2] والأدهان التى تضيق الأوعية (١٢٩ و) عن مُهالِها[3] ، وشمول النظر على من تجاوز المراعى المحدودة بهذه الأمم من الأنعام من قاطن أو ظاعن والتحكم فى أولى البَهم المحظور عليهم سرح الحمى ، المغضوض عنهم الطرف بحسب الرشا ، فأسند ذلك إلى بعض الأخابيث ممن لصق به قوادُه بالأندلس وتردد فى أمره إلى تلمسان يعرف بالقناع ، أشأم الخلق نصبة ، وأحقرهُم طلعة وأظهرهم هَوَجاً ودَمامة خامل الأبوة مجهولها ، معروف العهر مَثَل فى النميمة والكذب ، مَشْنُوء[4] جميع الخلال ، استظهر لأول حلوله بصك خَطَّتْهُ جميعَه يدُ سلطانه المتصفة بالخَصْلْ[5] فجعل له إن تم الأمر فالولاية المذكورة معززة بخطة قيادة الرَجْل جمعاً له بإزاء بلائه ، فأطلق للحين لَقْلَقَة[6] بالنداء ، وذِبذِبهُ بالخنا[7] ، وتعاطى عموم النظر حتى فى خطيب الصلاة، واستدعى الرُّشا وضمَّ الأخابث فأنس بهم ونافر أضدادهم من أهل الصون ، فخافه المريب واستراب به البرىء . وشرع فى طوامير يخاطب بها سلطانه بالغا أقصى مبالغ التحكم والدالة ، فظهرت فى هذه الخلال مبادئ النجح وبدا للناس سوء ما ارتكبوه من إجرارهم أرسانهم وتسويغهم مدينتهم ، وكان من الأمر ما يأتى به الذكر إن شاء الله .

---

(١) الغريض : الطرى .

(٢) لحانها : أى لحومها .

(٣) مُهالها قد يكون معناها عما تكوم وانهال فيها .

(٤) مشنوء أى مكروه من شنأ الرجل شنآنا أى أبغضه مع عداوة وسوء خلق .

(٥) الخصل : أى الفضيلة وإصابة الغرض .

(٦) اللقلق : اللسان وهو أيضا اسم طائر طويل العنق والرجلين ، واللقلقة صوت اللقلق .

(٧) الخنا : الكلام الفاحش .

وفى يوم السبت التالى لسبت النزول ، كانت المناجزة بين طائفة الاحتجار والأنحاص بعد (١٢٩ ط) مواقفات خف بها عند المنحصرة وزانُ القوم ممن سواهم ، فخرجوا على تعبئة محكمة قد أسبغوا الدروع وأكثفوا العدد ونشروا الرايات والبنود ، وهولوا بالطبول والبوقات والدبادب والغيطات[1] واستغلظوا بالصراخ والعجيج والجلبات ، تقدمت الجمع كراديس الغز[2] الرماة الناشبة بين أيديهم قوم من مشاهير الميدان وذوى الثقافة . وركب الجيش بظاهر البلد . وانتظمت التعبئة المرينية على السلطان عبد الحليم من الشيوخ الزجج ، والفرسان أحلاس الصهوات الذين لا تفضلهم أمة من الأمم فى إجادة الركض ، ومثاقفة ميدان السلم ، وغريب الكر والفر والانعطاف مع اللَّى . فكانت المدافعة عند الأخدود الذى أعمقوه بين المحلة والبلدة على غَلْوة من باب المدينة . واقتحمه سَرَعان الخيل من درج مغفل طاردت مَنْ وراءه بخلال[3] ما تلاحقت الفعلة واجتهدت فى العمل والتسوية ، وجازت المقاتلة يتخللها رِجْل الدَّبا كثرةً من الرماة الرَّجل وأولى العِصِى منهم ، فتستروا بجدرات الجبانة وأطلال

---

(١) أشار ابن خلدون إلى كلمة غيطات على أنها آلة موسيقية استخدمها الأسبان فى حروبهم لتقوية روح جنودهم المعنوية (المقدمة ص٢٦٠) ويبدو أن هذا اللفظ تحريف للكلمة الأسبانية جايتاس Geitas وتطلق على نوع من المزامير أو الصفافير التى مازالت تستعمل حتى اليوم فى غاليسيا أو جليقية فى شمال غرب أسبانيا .

(٢) من المعروف أن الموحدين قد استمالوا واصطنعوا عدداً كبيراً من الجنود الغز الذين قدموا من مصر إلى المغرب بقيادة الأمير قراقوش التقوى على عهد صلاح الدين الأيوبى ثم أرسلوا بعضهم إلى الأندلس برسم الجهاد ، وقد أعطانا ابن عذارى معلومات طريفة عن هؤلاء الأغزاز وحليهم وملابسهم فى كتابه البيان المغرب (جـ ٤ ص ١٣٨ ص ١٨٧ نشر هويثى ميراندا) وواضح من المتن أن عادة استخدام الغز فى الجيوش المغربية قد استمرت أيضاً على عهد المرينيين .

(٣) أى بينما .

البناء ، لا يمر بهم مار إلا أثبتوه[1] ، فانشمر الناس ، ولاذ بهم الفرسان ، فوقفوا وصبروا تسرى إليهم من سحاب النَّبْل عوارض الغَيْم ، وقطرات المطر السجم بحيث تحتجب عين الشمس . وأبلى المرينيون أحسن البلاء ثم أعذروا ، ثم خرج السلطان يقفو التعبئة فى جملة حسنة ، فحميت الناشبة ونقلوا الخطا (١٣٠و) وتحرك جمع الروم يمشى الهوينا ، ثم سال منهم الآتِى[2] ، ودكّت بسنابك بَرَاذِينِهِم[3] الأرض فتولى القوم رغما وثنوا[4] الأعنة على حال استجاع ، فانهار قوم على العَقَبة الكؤود المفضى مسلكها الوَعْر إلى باب الجيسة[5] . وانصرف معظم القوم ملتفين على السلطان شرقى البلد فى مساوقة المصارة إلى الزاوية الحديثة ، فعبروا النهر إلى هضب الرمكة ، ووقفوا مليا ثم استبصروا فى الانصراف ، وأقصر الجند عن الاتباع ، ووقع القنوع بما تهيأ من الأمر ، وعاثت الأيدى فى المحلة ، فوقع بها النهب ، واستأصلها العياث ، فعادت المضارب مزقا ، وتقسمت الآلات انتهاباً ، واكتسح كثير من الظهر[6] ، وتُحدث بحسن ثبات السلطان المنهزم ، واتفق القول على شجاعة أخيه عبدالمؤمن ومضائه ، واعترف الناس بجميل مواساته ، والفضل ما شهدت به الأعداء . وتعرف بعد أن القوم قصدوا رباط تيزى[7] اتخذها سلطانهم مُستندا منها إلى المنعة ، ومستظهرا بأهل وطنها

---

(١) ثبته وأثبته جعله ثابتا ويقال أثبت فيه الرمح أى أنفذه ، وربما يكون المعنى هنا أن كل من مر بهم قيدوه أو كتفوه .

(٢) يقال سيل آتى وأتاوى أى يأتى من حيث لا يدرك .

(٣) البراذين جمع برذون أو برذونه ، وهى دواب الحمل الثقيلة والبغال والخيل .

(٤) رسمت : وثبنوا .

(٥) يقع هذا الباب فى شمال عدوة القرويين بفاس ، ولا يزال قائما إلى اليوم . وينسب إلى عجيسة المغراوى الذى كان واليا على المدينة فى القرن الخامس الهجرى ، وإن كانت العامة قد أسقطت العين من عجيسة فقالوا باب الجيسة .

(٦) الظهر أى الركائب .

(٧) كلمة تيزى كلمة بربرية معناها الصخرة وتجمع على تيزا وتازا . وهناك أعلام جغرافية كثيرة فى المغرب والجزائر تحمل اسم تيزى ، ولعل المقصود هنا مدينة تازا التى تقع شرق مدينة فاس بنحو ١٢٧ ك . م وفى منتصف الطريق المؤدى إلى مدينة وجدة على الحدود الجزائرية ، وتمتاز مدينة تازا بموقع استراتيجى ممتاز جعلها منذ أقدم العصور ، مركزا حربيا له خطورته إذ أنها تقع على هضبة مرتفعة بين جبال أطلس المتوسط وجبال الريف فى ممر استراتيجى عظيم عرف بعنق الجمل بين المغرب الشرقى وسهول سايس غربى فاس ، ولمكانة تازا الحربية اتخذها الحسن بن إدريس =

من قبيل بنى عسكر وبنى ورتاجين ، وشرعوا فى لَمِّ الشَّعْث ورأب الثأى ، فتوجه منهم إلى بنى زيان وإلى العرب الأحلاف وجبال الريف ، خدام مستصرخون مستنصرون يطلبون المدد ويجلبون الرجل ويستدعون الحَمِيَّة . وتفرق آخرون شَذَر مَذَر (١٣٠ط) وذهب الشيخ يحيي بن رحو بن تاشفين بن معطى ، قطب هذه الدوائر ومحاول هذه اللعب إلى جهة مراكش متضمنا استفساد من بها وصرف دعوتهم إلى سلطانه . وهذا الشيخ عريض المال دَثْرُه ، وافرُ الصامت[٣] جمه ، كثير الذخيرة زعموا متملكُ للعقار ، محوط النعمة بسياج الإمساك ، جامد الكف كميش البنان ، قفر الخوان ، أكله بلاغ[٤] وشرابه نغبه[٥] ، محجورٌ لِحُجُوله المقَيَّضة لنمووفره ، ولا يفتر مع الحَظْوة وقرب السواد من مضجع الملك ومبدأ السياسة من الإنكار للأحوال والسعى فى الإدالة ، والغمز على سقطات الدولة وإغراء أضدادها ، فى سبيل المشاره وفتح أبواب الغِيَر عليها ، فى سَنَن غريب من النبل مصرف فى موضوع الشمات ، وشره الإعاضة ، وتَسَخُّط الأحوال ، جر عليه ذلك كثيرا عند وجود الملوك أولى الحلوم والحزامة ، إطالة الثقاف وجرَّ الأداهم ، ومساكنة صُرعاء الغير . ولله درُّ الحكيم إذ يقول «المرء أسير مولده» ، كبحنا الله عن الركض فى هذه الميادين بلُجُم العبرة ، وأرانا وَكْسَ هذه الحظوظ بعين البصيرة . وهو مع ما رُمى به ووُزِنَّ من هذه الخلال حسن المجالسة ، مختصر البأو ،

= الثانى قاعدة حربية لجيوشة. كذلك عنى بها الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على الكومى فبنى فيها رباطا ومسجدا وجعلها حصناً مانعاً لدولته ، وفى أيام المرينيين اتخذها السلطان أبو يعقوب المرينى قاعدة لغزو تلمسان فى المغرب الأوسط ، وفى أوائل القرن الحالى كانت هذه المدينة عاصمة للثائر بوحمارة ، ولا تزال إلى اليوم مركزا حربيا له اهميته ، وينسب إليها علماء كثيرون .

راجع . (Ency . of Islam, art.Taza by G. Marcais & Le Tourneau Fes. P. 37 - 39)

راجع كذلك (التعريف بابن خلدون ص ١٣٤ حاشية ٢ ، الصديق بن العربى : كتاب المغرب ص ٤٤ — ٤٥) .

(٤) الصامت من المال : الذهب والفضة ، والمال الناطق هو الحيوان ، يقال « ماله ناطق ولا صامت » ، أى ماله شىء .

(٥) البلاغ والتبليغ : ما يكفى من العيش ، من تبلغ بالشىء أى اكتفى وقنع به .

(٦) النغبة . الجرعة وجمعها نغب .

معتدل الوقار ، ظاهر النبل فطن للمعاذير ، كثير الحبكة وربما غُرزت فى أديم ماله إبرة الصدقة .

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلها كفى المرء فضلا أن تُعدَّ معايبه

وكان أهل العقد والحل من أهل سلا قد كتبوا البيعة ، ونفذوا لوجهتهم معهم قائد الأسطول مستدعى بالآلات البحرية والرماة ، واتصل بالقوم خبر الهزيمة فكرَّ ليلا ، وتقبض على من كان بالبلد من خدام الأمير عبد الحليم وتحصلهم فى حكم الثقاف ، ثم نقلوا إلى الحضرة فاستنقذوا فى طريقها لكثرة الخوض وفساد السبل ، وعادت الأمور إلى بعض سكون .

ووصل الكتاب المنبيء عن الكائنة فاستدعى الناس لسماعه وقرىء على المنبر منه كتاب مرسل المقاطع عادل عن السجع . أوجب ذلك من أصحابنا المنشئين مكانى من سكنى المدينة وإيثارى لهذه الطريقة ، فمدوا فيه الأعنة وذهبوا فيه إلى كثير من الإجادة ونصه :

من عبد الله تاشفين أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أيده الله ونصره وأطال فى السعادة عمره ، إلى الأشياخ المكرمين المؤثرين المرعيين الملحوظين المحترمين الشرفاء والفقهاء والخطباء والقضاة والوجوه والأعيان والأمناء والخاصة والعامة من أهل مدينة سلا حرسها الله ووصل إكرامهم ووالى (١٣١ ط) رعيهم واحترامهم . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد ، فإنَّا نحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو ، محب الصابرين ومجازى الشاكرين وجاعل العاقبة للمتقين ، الذى أيد أولياءه ، وأسبغ نماءه ، وأجزل للصابرين ثوابه وجزاءه ، وأورث الأرض عباده الصالحين كما اختاره وشاءه فضلا من الله ونعمة ،

والله عليم حكيم . ونصلى على سيدنا ومولانا محمد سيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفوة الخليقة والهادى إلى سواء الطريقة ، بعثه الله على حين فترة من الرسل ، وفشوٍّ من الباطل وعتوٍّ من الجهل ، فدعا إلى الحق وجاهد فى ذات الله وإظهار دينه ولم يزل صابرا على العداوة والأذى داعيا إلى الرشد والهدى حتى أنزل الله عليه النصر وأذهب عنه البأس وأصبح المؤمنون بنعمة الله إخوانا ، وأظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ، وعلى آله وأصحابه حماة دينه وأهل هجرته وأنصار ملته ، وأولياء دعوته الذين فرقوا الأحزاب وبذلوا فى مناصرته الأموال ، وقال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ، ونسأله لهذا الأمر العلى عزًّا تتفيأ ظلاله ، وسعدا تشرق آياته وتأييدا (١٣٢) يتعرف لأولياء بركته وتمكيناً يقيم الرعايا فى ظل حرمه ، وإلى هذا أكرمكم الله باتصال البشائر وأعانكم على تحمل أعباء الحمد ، فإن النعم أغفال إذا لم توسم بالشكر والثناء ، وشوارد إذا لم تأنس بالاعتراف والإقرار ، وأوابد إذا لم تقيد بالإخلاص والدعاء .
وإنّ من أعظمها قدراً ، وأجلها خطراً وأولاها بالشكر سراً وعلنا والإقرار خفاء وجهرا ـ وإن كان الحمد لله فى كل حال ـ نعمة الله فيما سنّاه لمقامنا العلى ، وهيأه من نصر الأولياء والظفر بالأعداء والفتح الحميد الأنباء ، الجميل الإعادة والابتداء ، والتأييد الذى ضربت الدولة معه بعطنها ، وألقت الدعوة له بجرانها . وذلك أن الخائن المغرور عبد الحليم بن عمركان ، حين إجازته البحر من بلاد الأندلس ، يطلب ماليس له ، والدعاية بغير حق لنفسه . احتل من هذه العدوة بتلمسان مستجيرا ببنى عبد الواد ، راضياً بالدنيّة فى تحية سلطانهم والاستظلال بظلهم والدخول تحت حكمهم والتذلل لعزتهم والاعتماد على إعانتهم ، فاستبق إليه بعض الغواة الأشقياء ممن يخبُّ فى الفتنة ويُوضع ويسدى فى تفريق الكلمة ويلحم ، وجعل يوسوس إلى من بحضرتنا الكريمة من الأولياء ويزين لهم بما يزعمه من الكفاية والغناء طالباً منابذتهم لأمرنا وإظهار دعوته فى عقر دارنا ، فدلاهم بالغرور وأطمعهم فى سراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا

جاءه لم يجده شيئاً . ونزغ الشيطان بينهم فخرج علينا (١٣٢ط) منهم بظاهر البلد الجديد من خلع طاعتنا ونَبَذ عهدتنا وقدح فى إيالتنا ، والله من ورائهم محيط وعليهم شهيد ، وبهم فيما ارتكبوه من البغى كفيل . وأرسلوا إليه فجاءهم ضاربا بسوطه مُغذًّا فى سيره مستعجلا أوان حتفه ، وخالفهم إلينا مِنْ أعزة قبيلنا ووجوه أوليائنا ، رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فما بدلوا تبديلا ، ولا سلكوا غير الوفاء سبيلا ، فأوليناهم من إعلاء الرتبة وترفيع المنزلة وإسباغ ما عهدوه من النعمة ماناسب جميل الاعتناء بهم وحميد الوفاء منهم ، وجعلنا ذلك لهم سائر مدتنا وعهدنا لهم به من بعدنا جزاء لما اتسموا به من الوفاء وعرف منهم من الانقياد وأخذنا فى إحصاء من معنا بالبلد الجديد من الجند والمماليك[1] والأغزاز[2] والنصارى ورِجْل الأندلسيين ، وموالى النعمة وغيرهم ممن كان مستخدما قبل، أو مستلحقاً بعد ، أو تحيز إلينا وفاء بالطاعة التى لَزِمته ومعرفة بقدر النعمة التى أنشأته . وجلسنا لعرض طبقاتهم ومباشرة تمحيصهم ، وفتحنا ديوان العطاء فقسمنا فيهم الأعطيات ، وأجزلنا لهم الهبات ، واستثرنا بترغيبهم الحفائظ والعزمات . ووصل الشقى إلى قومه يوم السبت السادس لشهر تاريخه يظن أمره قد استَفحل وملكه قد استوسق ، وأن دعوته توطدت وخلافته قد تمهدت ، فعبأ المواكب ورتب المصاف وجرّ السواد والغوغاء مجتازا من قبلى البلد إلى ناحية كدية العرائس فضربوا أبنيتهم وأقاموا أخبيتهم ثم بدا له مالم يَحْتسِب وعلم (١٣٣ و) من نفسه أنه لا تنهض إلى إضاقة البلد قوتُه ، ولا تستوفى إحاطتَها جموعه ولا تُحْتسب الآمال عطيته ، فانعكس أمله وخاب ظنه وداخله من اليأس والجزع ماداخله ، ورجع إلى فناء حائط نحاه بباب الوادى معترض فى الطريق ، يتمنّع به من اجتياز أوليائنا إليهم ، فأمرنا بإزالته وتسهيل الطريق إليهم ، فأزيل بعد محاولة بين الفريقين ، انتهب فيها كثير من أمتعة العدو وكُراعِهم وأخبيتهم ومعائشهم لولا أن الليل حال بينهم

(١) يلاحظ أن استعمال لفظ مماليك لم يقتصر على دول المشرق الاسلامى فحسب بل استخدم ايضاً فى المغرب والاندلس كما هو واضح فى المتن .

(٢) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٣١١ .

وأمْرُنا لم يتقدم لأوليائنا بالحمل عليهم وقطع دابرهم آخر الدهر . ثم إنهم استدرَكوا حفر خندق بين يدى بنائهم حسبوه أشد عناء وأمكن تحصينا ، وخرج أولياؤنا إليهم عشية يوم الجمعة بعدَهُ فى روض المصارة فناشبوهم القتال وطاولوهم النزال وأوقعوا بهم وأعظموا الفتك فيهم ونالوا منهم بالسلب والجراحة والقتل أكبرَ النيل ، فقوى الرجاء فى دفاعهم ، وامتدت الأعين إلى ما بأيديهم ، فاستخرنا الله سبحانه فى الخروج إليهم ، وأخلصنا النية فى الذب عن المسلمين وتسكين دهمائهم وإطفاء نار الفتنة بينهم ، وجعلنا الموعد صبيحة يوم السبت . ونَمَى الخبرُ بذلك إليهم فأصبحوا متأهبين للقتال متحيزين إلى المراقب ثابتين فى المصاف متميزين بشعائر الألوية المختلفة ألوانها باختلاف الجموع والقبائل ، وبرز أولياؤنا من باب الوادى رجالا وركبانا دارعين مستلئمين شاكين فى الدروع السابغة متلثمين بالأسلحة (١٣٣ لاط) الرائقة الحلية مما احتوته خزائن العدد بدارنا ، وصانت المدد من ذخائر أسلافنا يقدُمُهم سيف دولتنا وظهير دعوتنا وخالصة أمرنا ونجى سرنا وكبير أوليائنا وعضد ملكنا الذى نقذف به ثغر الأهوال ونوهن به عزائم العداة وزير أمرنا أبو على عمر بن عبد الله بن على أعزه الله تعالى ، فتقدم بجميع الأولياء فى أحسن هيئة وأكمل[1] شكة تلتاح[2] الأشعة من قواضبهم وتلتمح[3] الكواكب من أسنتهم ، وقد ربط الله على قلوبهم وثبت أقدامهم وأوجدهم ريح النصر على عدوهم ، وقصدوا إلى ماخندقه العدو حفيرا وقد استصحبوا الفعلة بالآلات المعدة لتسوية الطريق وإزالة ما اعترض فيها من البناء فصدَقوهم القتال وصابروهم فى الدفاع فلم يكن إلا كلا ولا حتى اختلت مراكزهم ووهنت عزائمهم وبَطَل ما كانوا يعملون ، وزحف أولياؤنا إليهم بجملتهم على الهيئة والتدرج فى المشية والنصر تخفق بنوده والدولة يهب ريحها والسعود تشرق آياتُها فالتحم القتال واشتد الجلاد وصابروا مليا يكرون فى وجه أوليائنا ويفرون ، والنبل

---

(١) أى لابسا سلاحاً تاما وغارقاً فيه فهو شاك السلاح .

(٢) التاح بمعنى عطش وقد تأتى هنا بمعنى تلألأ .

(٣) التمحه أى أبصره بنظر خفيف والمعنى هنا كناية عن شدة لمعان الرماح والسيوف .

تحصبهم والرّمى يثبتهم والرماح تستبق إليهم وطيورُ المنايا تحلق عليهم، وما راعهم إلا خروجنُا فى موكبنا المنصور من خواص المماليك ووجوه العبيد والحاشية بزدلف إليهم ازدلافا قد خفقت أعلامه وتجاوبت لجابته، فشارفوا ثم وقفوا وأضعف الرعب أيديهم وملأ أفئدتهم وزلزل (١٣٤ و) أقدامهم، وصدق الأولياء بين يدينا الحملة عليهم فمنحهم الله أكتافهم، واستمر الطلب لهم والنهب فى أخبيتهم، واكتُسح ما كان فيها من الذخائر والأمتعة والكراع والأسلحة، وأصبحت منازلهم خاوية كأن لم تَغْنَ بالأمس، ووقفنا بكدية العرائس بعد الظهر من يومنا ومضى الأولياء فى اتباعهم فتفرقوا طرائق قدداً وأفلت الحائن ناجياً برأس طِمِرَّةٍ ولجام[1] وتخيرنا من أنجاد الأولياء من يتبعه حذراً من إفلاته، وكتابنا هذا إليكم من حضرتنا العلية وقد افترَّ بالبشر ثغرها، وازدان بالنصر جيدها، وعمرت بالمسرات أقدارها، واستقام الأمر وظهر الحق وزهق الباطل وعادت الدولة إلى ما كانت عليه من رسوخ القَدَم ونفوذ الأمر والحمد لله على ذلكم. ولِماَ لكم عندنا من العناية الواضحة والنظر الجميل، أعلمناكم بذلكم لتأخذوا بحظكم من السرور به، وتشيعوه فيمن يَليكم من الأولياء، وتعلموا عناية الله بهذا الأمر الكريم وما منَّ عليكم به من حماية حوزتكم وحفظ سياجكم، وتشكروه على مامنحكم من ائتلاف الكلمة وذهاب الفتنة والله يصل إكرامكم ويوالى احترامكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وكتب فى الخامس عشر المحرم فاتح عام ثلاثة وستين وسبعمائة :

وأَظْلَمَ جوُّ الشدة لهذا العهد فأمسك الله السحاب ورفع الغيث، وقد ذهب من فصل البذر أكثر من شطره والسماء زجاجية (١٣٤ ط) الأديم، مشتعلة الكواكب، متقاذفة الرجوم، والأرض عليها قَتَرة[2]، وبيضة الملك قد اقتصرت على حوزتها، والفَلُّ الموتور قد انطلقت أيديهم، وَرُجْعَى المستبصرين فى الوفاء للمنهزم متوقع،

(١) مثل معروف، والطمر والطمرير والطمرور : الفرس الطويل القوائم والمعنى هنا كناية عن إفلاته بنفسه وفرسه.

(٢) القترة والقتر : الغبرة.

والعرب قد شرهت إلى الإدالة[1] ومنَّاها بذلك كل عراف ومنتحل كهانه فاشرأبت أعناقها إلى استباحة ما يليها ، والله يضم شمل المؤمنين ويرأب صدع الدين ، ويرفع مرير الفتنة عن العالمين ، وكان من الأمر ما يذكر بحول الله .

ولما نابذ الوزير قادح هذا الزناد أشياخ القبيل لاتهامه إياهم بسوء الدخلة ، قلب أمره ظهرا لبطن فرأى أنه لا يستقيم له الأمر مع استمساكه بأميره البادى العتاهية المختل عُقدة العقل بعد أن حصحص الحق وشف عما وراءه من عدم الصلوح ساتِرُ التمويه ، وصده عن الميل لجهة الأمير المجلب عليه من أفق تلمسان لهذا العهد مكان الخويصة[2] التى لديه ممن لا يأمن الإغراء به والتشمير لإبادته فرمى بأمله على خطر السُّرى[3] ، وغول[4] اللجج[5] ، وبعد الشقة ، جانب الأمير المستقر ببلد قشتالة لهذا العهد ، نازعا إلى مَلِكها من الإيالة المخيفة بالأندلس على تفئة إفلاته من الجملة المعتقلة المغتالة بساحل مليلة وهو أبو زيان محمد بن أبى عبد الرحمن تاشفين بن أمير المسلمين أبى الحسن ، صبى لمَّا استجمع وجهه مظنة للسداد ، متين السبب منفرد فى الوقت ، بإرث الفريضة لتقاعد (١٣٥ و) عصبتها بين غُفل ومئلوم وطفل ومختبل ، فارتهن عهد أوليائه من أمراء الجهة المراكشية كعامر بن محمد متحفه مع نبأ الكائنة بولاية أمر المصامدة وما اتصل بحدودهم إلى ما عبر النهر الأعظم[6] شرقا وما تمطَّت عليه العِمالة من الخطة إلى سِيْفِ بحر اقيانُس[7] وتخوم دَرعة[8] ، طرقه بريده بمحل منعته

(١) أدال الله العرب على عدوهم أى جعل النصر والغلبة لهم عليه .

(٢) لعله يقصد بالخويصة هنا المعارضة والعداوة ، يقال خاوصه البيع أى عارضه ، وقد تكون تصغيرا لخوصاء وهى الريح الشديدة الحرارة وهى هنا كناية عن العداوة أيضاً .

(٣) السرى : السير فى الليل :

(٤) الغول معناها هنا الهلكة والمنية ، وحول تفسير كلمة الغول عند العرب . راجع المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥)

(٥) يقصد باللجج ، البحر .

(٦) لعله يقصد نهر ملوية Moulouya الذى يفصل المغرب عن الجزائر ، وهو أعظم الأنهار الشرقية .

(٧) بحر أقيانس أى البحر المحيط من الكلمة اللاتينية Oceanus أى المحيط والمقصود هنا المحيط الأطلسى Atlanticus Oceanus ويسميه العرب البحر الأخضر وبحر الظلمات والمحيط أو بحر إقيانس . راجع الحميرى : الروض المعطار ص ٢٨) .

(٨) درعه Dra : مدينة وولاية عامرة فى جنوب المغرب الأقصى وراء جبال أطلس الكبير=

من الجبل مرتبك الأمر ، وقد ساء ظنه بالدولة الحائنة واضطر إلى مصانعة المتغلب على أمرها بالمال العريض ، وظهر عليه عدوه لما آنسه من ركود ريحه لديها . فأسهل إلى مراكش فى خف من غاشيته[1] فتقبض على والى الوطن المحكَّم فى صَفْرائه وبيضائه محمد بن حسون بن أبى العُلَى ، فتى الفتيان الخرق الكف فى مال الجباية ، وعلى صهره رئيس الجيل المعروف بابن سعد الله ، البُهْمَة[2] البيس[3] كاشف قناع المحادة لعامر المذكور ، والمُصارِفَهُ نقدَ الإحنة[4] والمتحيف أطرافَه بلؤم الجوار ، فلم يقله العثرة ، وبادره بأكتاد الصيْلَم[5] ، واقتطف الذى فيه عيناه[6] ، وتهنّا ذلك المَصام[7] بعده ، وكشيخ[8] العرب ذى السمعة بالقِرى والبذل على نزارة المتعاطِية لهذا العهد مبارك بن إبراهيم عميد الخِلْط . واستخرج قِتْله[9] ووزير صريعه مسعود

= وشرق إقليم السوس ، ويخترقها نهر طويل يسمى بوادى درعه ، يصب فى المحيط الأطلسى عند راس نون Cap Nun .

وكانت درعة فى العصور الاسلامية السالفة محطة تجارية مزدهرة ولا سيما لواردات السودان من الذهب والفضة كما كانت مركزا علمياً اشتهر بعلمائه وزواياه وتخص بالذكر منها الزاوية الناصرية بمكتبتها الشهيرة . وسكان درعه خليط من العرب وبربر صنهاجة . وتسمى مدينة درعه بالبربرية تيومتين Tiuyumtin وتليها فى الأهمية مدينة ورزازات Our zazat والجدير بالذكر أن هذا الاقليم هو الوطن الأصلى لدولة السعديين بالمغرب .

راجع (محمد المكى الناصرى : الدرر المرصعة فى أخبار درعة (مخطوط بمكتبة الرباط) البكرى ص ١٥٥ — ١٥٦ ، التعريف بابن خلدون ص ٢٢٣ حاشية ٤) .

راجع كذلك (Ency .of Islam, art . Dra by G. yver ; Hadj sadok : op cit P · 95 Note 103)

(١) غاشية فلان : خدمه أو أصدقاؤه أو زواره .

(٢) البهمة (بضم الباء) الشجاع الجرىء : والبهمة (بفتح الباء) وجمها البهم : أولاد البقر والماعز والضأن .

(٣) باس يبيس تكبر على الناس وآذام .

(٤) الاحنة : الحقد والكراهية والجمع إحن .

(٥) الصلم أى السيف .

(٦) أى رأسه .

(٧) لعله يقصد من المصام بعده أى القائم بعده ، يقال مصام الفرس أى موقفها .

(٨) رسمت فى الأصل ــ وكبيح .

(٩) القتل (بالكسر ثم السكون) المثل والنظير جمه أقتال .

ابن رحّو الفدودى (١) المات إليه بذمة الصهر ، ويالها رحما غير مجفوة تسفه رأى من وأدَ البنات ، واسود وجههُ لبشير الأنثى ، أجارته وقد شُهرت المُدية إلى غلاصمه ، وقد أبقته رهن المحبس موقفا عليه معذولا فى استحيائه . فألطف له القول وجلا عليه اليد وقرره على المنّة ، وأخذ عهده بالوفاء ، ولم يرزأه من نعمته قُلامة ظفر ، وصرفه عجلا إلى مراكش صحبة الأمير ابن السلطان الموقع هُو به ، وأوعز إلى جملتهم الالتفاف عليه والصمد به وبمن لف لفهم من العرب والأوشاب إلى إصراخه إن ضويق حسمَه أو أخفق فى استدعاء مختاره المنبتّ بأرض الروم مسعاه .

وقد كان الرئيس أبو عبد الله بن نصر الشهير الموقف ، المثل بين أفراد هذا البيت فى الشجاعة والإيثار ، وصدق الحَمِيَّة لهذا العهد ، عاد من تشييعه السلطان أبا عبد الله بن نصر المتوجه إلى الأندلس طالبا بوِتْرِه ومؤملا الكرة على دار ملكه لما سُقِط لموت ملك المغرب فى يده ، وفارقه مَنْ عيَّنَهُ لإعانته من جنده ، فأزعجه ثانى يوم وصوله إلى استجلاب السلطان المذكور واستخلاصه من إيالة سلطان قشتالة . وقد كانت السِّلم ارتفع حكمها لوفاة عاقدها ، وعادت هَيْفُ الغِرَّة إلى أديانها(٢) من فساد طريقى البحر والبر ، فظهر العدو البحرى على بعض الأساطيل القافلة من الأندلس خاوية من الرجال فاقتادوها برمّتها ، وقارضه من بالجبل من حماة الإسلام صرف النكاية فصبَّحوا حصن أشويس(٣) على غفلة وإهمال احتراس من مسلحة العدو به فتملكوه وجمعوا الأيدى على هدمه فصيروه قاعا صفصفا على قوة أسْره ، وعادى بنائه ، وتلاحم كاسه ، وضخامة صفاحه وعَمَدِه ، فسار (١٣٦ و) هذا الرئيس الشهم لطيّته والأمير عبد الحليم محاصر دار المُلك ، ونذر به فأتبعه صِرْمة عدت خلفة مقصرة عن لحاقه

---

(١) فى روضة النسرين لابن الأحمر ص ٣٠ : مسعود بن رحو بن ماساى الفودودى .

نص المثل فى الميدانى « ذهبت هيف لأديانها » يضرب مثلا عند تفرق كل إنسان لشأنه .

(٢) والهيف ريح حارة . وأديانها بمعنى عاداتها .

(٣) الرسم يحتمل (اشونين) .

متجافية عن مناوشته ، فلحق بطنجة وقد سدّها هذا القائم بالجُذَيْلِ المُحَكَّكِ(1) والعُذَيْقِ المرَجَّب(2) ، سليمان بن داود ثانى وزيرى الخائن وقد سار فيه سيرته فى صاحبه من الامتنان والاستغاثة على ضبط مدينتى طنجة وسبته . وعبر الرسول البحر واتصل ببلاد الروم ، وتأتى القصد من بعثة الأمير بعد شروط أكدها الطاغية فكان حلوله بسبته فى العاشر من شهر صفر من عام التاريخ ، وبودر لما اتصل الخبر بتوجيه الجملة من الحامية السكائنين بالبلد الجديد لإيصاله ، فنفذ ذلك وسهّل الله عليه الصعب فقد كان عدوه الظاهر على مدينة مكناسة(3) مركز الفحص الأفيح بين يدى الحضرة أرصد له وعزم على القطع به فأعجله عن الحيلة ، وصدرت كتبه مؤرخة بيوم

(1) الجذل : عود ينصب للابل الجربى لتحتك به ، والجذيل تصغيره . ومنه قول القائل « أنا جذيلها المحكك » أى الذى يحتك به كثيرا ، وهو مثل لمن يلتجأ إليه ويستفتى برأيه . ويؤثر عن سعد بن عبادة أنه قال هذه العبارة فى بيعة السقيفة .

(2) العذق : تطلق على عنقود العنب أو العنقود من النخل كما تطلق أيضاً بمعنى العز والجاه ولعله المقصود هنا . والمرجب هو الرجل المهيب المعظم .

(3) مكناسة Meknes : قبيلة مشهورة من قبائل زناته ، نزلت عدة أماكن بالمغرب والأندلس وظل اسمها علماً لبعض تلك الأماكن التى لم تلبث أن صارت مدنا زاهرة . فهناك مكناسة الأندلس التى وصفها الادريسى فى رحلته والتى كانت تقع فى الثغر الأعلى ، (سرقسطة) عند ملتقى نهر الابرو بنهيره الأشقر Segre ولا زال مكانها يعرف الآن باسم مكناسة Mequineza .

أما فى المغرب فهناك مكناسة تازا وتعرف بمدينة تازا ثم هناك مكناسة الزيتون وهى مدينة مكناس الحالية ، وتقع فى جنوب غرب فاس على مقربة من جبل زرهون وعلى مكان يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ٥٢٢ مترا ، تحيط به أشجار الزيتون والكروم .

ولقد اشتهرت مدينة مكناس بجودة مناخها وجفاف هوائها . وكانت نواتها الأولى هى مدينة تاجرارت (ومعناها بالبربرية المعسكر) التى بناها المرابطون للاشراف على بلاد مكناسة . ثم لم تلبث أن اندمجت فيها وازدهرت بمرور الزمن ولا سيما فى أيام بنى مرين الذين بنوا فيها المدارس والمساجد والحصون ، ولا تزال مدرسة السلطان أبى عنان فارس تلفت الأنظار ، وفى أيام المولى إسماعيل مؤسس الدولة العلوية كانت مدينة مكناس عاصمة لملكه سنة ١٠٨٤ هـ فاتسعت عمارتها بالمنشآت العظيمة التى ما زالت باقية إلى الآن مثل باب منصور العلج وباب فيلالة وقبة الخياطين وجنان أكدال وهى كلها من المآثر الاسماعيلية . ولأهمية تاريخ هذه المدينة عنى بها المؤرخون وكتبوا عنها كتبا كثيرة مثل كتاب الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون لمحمد بن غازى العثمانى المكناسى (فاس ١٣٢٦) وكتاب اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس للمولى عبد الرحمن ابن زيدان .

الاثنين الحادى والعشرين من الشهر يستحث من بمرا كش من أولى التواطىء على طاعته أخبث ما كانوا رأيا وأظهر فرقا .

وقد كان الشيخ يحيى بن رحو وسوس لهم وأزلّهم فثبتوا لنزغته مولين غدر اليمين ، فانصرف من خيمة الشيخ مبارك وقد علق الانقياد له بانقياد صاحبه عامر بن محمد وتماسكوا وقد استهواهم بعض الهوى فطاروا قُدُما على وجوههم وكان حلولهم بمدينة سلا حرسها الله (١٣٦ ط) فى السادس والعشرين من الشهر ملتفًّا أمرهم على عميد الصُّقْع عامر بن محمد وشيخ عرب الخلط مبارك بن إبراهيم بن على بن مهلهل المقصود الحلة إلى من سواهُما كشيخ عرب سفيان وعرب العاصم .

وقد كان الأمير عبد الحليم لما ضبثت يده برباط تيزى فاستند إلى جبلها ووفى له شيوخها من بنى مرين طاعة معروفة ، إذ كشفوا الوجوه فى المناصبة ، وأعطوا صفقة اليمين بين يديه على تفئة انصرافهم عن المحتجر واستغنائه عنهم ، فناصحوا والتأموا واستبصروا . ولقد حُدِّثْتُ أنهم احتفروا أُفحوصا[1] واستدعوا لجاما يجعلونه فى أعناقهم عند القسم سجية جاهلية أُذْكروا بها عند صحيفة[2] قريش ويوم تَحْلاقِ اللِّمَم[3] وغَمْس العرب أيديها فى الدم[4] عقدا تأذن الله بانحلاله إلى ما دون الشهر .

(١) الأفحوص : الموضع الذى يحفره الطائر فى التراب ليبيض فيه .

(٢) صحيفة قريش هى الصحيفة التى أجمعت قريش فيها على مقاطعة بنى هاشم والمطلب فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم ، ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم شيئا ، وقد علقت هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم بذلك (الخضرى ج ١ ص ٧٧) .

(٣) يوم تحلاق اللمم أى حلق الرءوس . (اللمم جمع لمة وهو الشعر المجاوز شحمة الأذن) وقد أطلقت هذه التسمية على يوم من أيام حرب البسوس التى قامت فى الجاهلية بين قبيلتى بكر وتغلب . وقد سمى بذلك لأن بكرا أمرت رجالها بحلق رءوسهم حتى يميزهم النساء الذين حلوهم معهم ليقتلوا جرحى تغلب ويعنوا بجرحى بكر . وقد انتصر البكريون فى هذا اليوم . (محمد مبروك نافع : عصر ما قبل الاسلام ص ٢٩٥) .

(٤) جرت عادة القبائل العربية ولا سيما فى الجاهلية أن تحيط نفسها بأنظمة متعددة للمحافظة على كيانها وحرمتها ، ومن هذه الأنظمة نذكر نظام الحلف أو المعاهدة السياسية مع القبائل الأخرى . ولكى يكسبوا هذا الحلف قوة كانوا يصبغونه بصبغة دينية ليجعلوا له صفة مقدسة كأن يعقدوا الحلف عند الكعبة أو يغمسوا أيديهم فى الدم أو الطيب ثم يتصافحوا بعد ذلك دليلا على التمسك بالحلف مثال ذلك حلف المطيبين أو حلف لعقة الدم . راجع (عبد المنعم ماجد : الدولة العربية ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣) :

وأقصر من بدار الملك إلى هذا العهد عن المناهضة ، وقنع بالكسر وأبدى الاحتجاز مُسَلِّماً فيما وراءه ، مستجمعا مُصِيخ الأُذن إلى نبأ مستدعاه غير ملتفت إلى غير ذلك ، فامتدوا وتغلبوا على مدينة مكناسة من غير قتال ولا مدافعة إلا ما كان من قبس[1] أدنوه من بعض سياجات بساتينهم ، وتوعدوا بتسليطه وإرساله فمكنوا من أنفسهم ومدينتهم ، وخذلوا قائد قصبتهم فتقبض عليه وأُركب بعض الأداهم ، واستقر عوضا عنه دائل من قبل الدولة المطالبة . ولقبلُ ما كان هذا البلد مشارا إليه فى (١٣٧ و) المنعة وشهامة القاطن ووفور الخزين واستبحار الدهن وهو آخر البلاد اللمتونيه[2] فتحا على الدولة المؤمنية[3] بعد المصابرة سنين سبعا أُقْتِيت فيها الحشرات والهوام وأمتكت العظام الرفات واستنقعت الجلود المُسْتَشِنَّة[4] فأصبحت اليوم بَغِيًّا لا تردُّ يد لامس . ثم تولى أمرها ابن أخى السلطان المتغلب عليها ، وصلها من تيزى فى لمة خشنة ، فضبطها وذاع خبرُ سوء المِلْكَة فى أهلها من الطلب بالمعونة وافتراض عُددٍ من السلاح ، واستعجال بوجيبة ، مغرم الجزاء قبل إظلاله ، إلى غير ذلك من طلب المترفين وأهل السعة بفرش ووطاء لاستمتاع أولى الأمر ، وإنزال حامية الدولة ببيوت أهلها مجبورين على إطعامهم من أعالى ما يطعمونه أهلهم ، إلى غير ذلك مما تنبسط به أذيال الدول غير المهذبة بالحكمة التى لم تأخذ بحُجْزَتها يد السياسة ولا أجالت قداحَها أكف الحرمة . ثم ذاع التنقير عن العُجَز[5] اللائى يعتمدن فى كراء الحُلِىّ عند المداعى والأعراس والمواشط المتناولات للزينة والتمويه والتطرية ليخبرن بمكان الحلى وأولى الذخيرة على قُلٍّ هذا المتاع بهذا الأفق وخلو الأيدى منه ، فلا تكاد تقع على طبقة أو بيت متهمٍ باقتناء عقد من الجوهر أو خيتام من نفيس الحجر المفضل أو حلة مثقلة بالذهب النسيج

---

(١) كذا رسمها فى الأصل .

(٢) يقصد بذلك دولة المرابطين التى قامت على أكتاف قبيلة لمتونة إحدى قبائل صنهاجة .

(٣) يقصد بذلك دولة الموحدين التى كان معظم خلفائها من أولاد عبد المؤمن بن على ولهذا نسبت الدولة إليه

(٤) المستشنة أى البالية .

(٥) العجز والعجائز . جمع العجوز وهى المرأة المسنة . والكلمة غير منقوطة بالأصل .

كدين وطننا[1] الذى هذا العَرَضُ به سلعة معروضة وما عون مستعار، إلا (١٣٧ ط) ما كان من الديار المرينية السلطانية وأذيالها ، فالأمر جلل والذخيرة خطيرة ، ذاع هذا الأمر عن هذا القوم فى تغلبهم هذا والله أعلم بيقينه . وامتـدوا إلى تملك مدينة سلا وقد وجدوها لأول أمرهم مَهينةً لا تَدْفَع ، وذلولا لا ترمح ، فوجهوا قوما من العمال وقائدا يضبط البلدة ، وصلوها عشية يوم التاسع من شهر محرم هذا العام ، وتقدم بعض وزعتهم فسبق باب البلدة فأقفله على فراغ يمنع من التقاء مصراعيه ، ففر الراتبون به لوظيفة الجباية ، وتذامر أفذاذ من سواد المدينـة ممن نبض له عرق الفتوة والمواساة وقليل ماهم ، فأحكموا سده . ونزلوا بالزاوية تجاهه خارج المدينة فتسلل إليهم من ثلم السور صنائعهم بالأطعمة والعُلفة وبات الناس من أمرهم على مثل الرَّضْف[2] ، وقد ماج المشيخة المستضعفون متوقعو المكروه ، من طرفَىْ أمرهم طاعة أو صدوفا ، وطيروا إلى قائد القصبة القريب العهد باللحاق بها العديم الصلوح للرأى وضم النشر وضبط البلاد يحيى الوزقونى المضعوف عند الهيعة المستأسد عند الأطماع . ولما أصبحوا مهدوا العذر للقادمين ، وقد وقفوا حفافى بابهم يرومون دخول المدينة ، وأفردوا والى البلدة بالرأى ، وواعدوهم التوجيه إليه لسبر ما عنده ، وعبروا الوادى إليه والخلق بين محتجر ومُصْحِر ومحوقل[3] قد مثلوا بالعَبْرَيْن[4] . ولما (١٣٨ و) عرضوا ما لديهم على واليهم المذكور ، صارفهم المكيدة ، وقروهم على عقدهم فتبرعوا بالوفاء لسلطانه . وهتف منهم الشيخ محمد بن صاعد المُنْبزْ بالعروس ، هيدورة[5] هذه النزوات ، وكافى أهل البلدة

(١) هذه العبارة تشير إلى إعتزاز ابن الخطيب بوطنه غرناطة رغم إلتجائه إلى المغرب ، كذلك تشير هذه العبارة إلى ظاهرة اجتماعية هامة فى كل من هذين القطرين الشقيقين المغرب والأندلس فى ذلك العصر .

(٢) الرضف : الحجارة المحماة ، ومفردها رضفة ، يقال . هو على الرضف أى قلق .

(٣) لعله يعنى بهذه العبارة إن الناس أخذوا يستعدون للقتال ، فهناك من وضع الحجارة فى حجره أو احتضن بها ، وهناك من أراد مقابلة العدو وجها لوجه كالأسد (أى المصحر) ثم هناك المسن الضعيف الذى لا يستطيع عمل شىء إلا أن يحوقل أى يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(٤) العبر من الوادى : شاطئه وناحيته ، ولعله يقصد بالعبرين ، ضفتى نهر أبى الرقراق الذى تقع عليه مدينة سلا .

(٥) لعلها من هادرة أى الساقطة والجمع هدرة .

مؤنة مثلها من الأمور الحرفية، وهو لهذا الوقت قد تثاقل وتوكأ على عصى يهش بها على ذوْد[1] أثارة[2] يرتشف بُلالَتَه، شَنٌّ[3] يحمل ريحا، وصدًى لا يؤدى حقيقة، بكلمة فصلت الخطة، مشيرا بالقبض على الواصلين لتكون باكورة القطيعة وعنوان المانعة. وانصرف القوم فتبعهم ولد القائد لاقتضاء هذا الأمر، وبدا للشيخ ابن صاعد المنيز بالعروس سوء ما ارتكبه، فاضطرب أمره وتمسك بقصوى العدوة[4] وجعل يطل إطلال اليَرْبُوع[5] من تلك الربوة، وبادر المشيخة بين يدى رجوعهم إعلام القوم، وتبرءوا من الأمر وأفردوا عروسَهم بهُجْر القول، وخزرت[6] إليهم العيون وتَحلَّبَت[7] الشفاه، فرجعوا أدراجهم، وبدا للناس فى أمرهم فاتبعوهم، وظهروا لهم على ظَهْرٍ وأسباب سفرية رجعوا بها رجوع الجيوش الظافرة، والعساكر الغانمة يتحدثون بشدهم واستبصارهم فى ركضهم. ولليلة الثالثة من ليلة مُنْفَضِّهم، وهى ليلة الحادى عشر من شهر صفر ورد النذير العريان مخبرا باستجاشتهم[8] مَنْ بأحواز سلا من الفرسان المرتبين وهشهم بعصى الزائد (١٣٨ ط) على رِجل[9] الدَّبا من الرَّجْل، فماج الناس بعضهم فى بعض، لفيفا عدموا الرؤساء وهمجا فقدوا الرعاة، ثم تواتر الخبر ووقع النفير، فتبادر الناس بجملتهم تيار الوهل، واجهضت الحوامل، وعلا للنساء الصراخ وكثر منهن ببنيهن والرُّوقة[10] من أزواجهن الغبطة والضنانة والتشبث بالشعور واللحى والقبض على الأطواق والخصى، فاختلط الصراخ وعلا العويل تقية من معرة الحرب

---

(١) يقصد بالذود هنا القطعة من الابل.

(٢) أثارة أى بقية.

(٣) الشن: القربة البالية والجمع شنان، وأشنان

(٤) العدوة (بفتح العين أو كسرها) شاطىء الوادى وجانبه، وتأتى هنا بمعنى المكان المرتفع.

(٥) اليربوع نوع من القواضم يشبه الفأر، قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل والجمع يرابيع.

(٦) خزرت العيون: أى ضاقت لؤما وغضبا.

(٧) تحلبت الشفاه: أى سالت بالريق.

(٨) أى بتعبئتهم.

(٩) جموع النمل أو الجراد الصغير والمعنى هنا كناية عن كثرة الرجالة أو المشاة.

(١٠) يقصد بالروقة هنا الشباب.

وصونا لهم تحت الأغلاق لعدم مرانهم على المدافعة ، وإغراقهم فى الحضارة وفقدانهم السلاح ، إنما هم على الأيام حَلَجة قطن ومَوَاشط كتان وأبطال مقاعدِ حياكة وماعز مَغْرم[1] ، سواسية كأسنان المشط لا يوجبون مزية ولا يشعرون برجحان كفة .

وبرزت إلى ما خلف السور حامية فرسان ساكنوا الدهماء وإن كانوا من سِنْخ[2] العدو ، زعانف من بنى يَرْنيان[3] وغيرهم ، سلاحهم رث وكُراعهم هزيل ، كشفوا الثنية ، ثم عادوا وسرعان خيل العدو تطاردهم ، ثم أطل القوم فى لمة من الفرسان وعدد جمّ من رجل الأحواز فكانت بينهم وبين القوم محاولات . وتمرَّس[4] بهم كثير من الغرباء المستخدمين فى الأعمال من قبيل غماره ولا سلاح إلا الجنْدَل[5] ولا مجن إلا الأسمال . وغلَّ الله أيدى من تنخله اللفيف من رماة الأسطول وسواه فقل الانتفاع بهم يومئذ فانصرفوا بعد أن زالت الشمس وقد بَلَوْا من البلدة غير ما عهدوه (١٣٩ و) من شِمَاسٍ[6] واقْشِعرارٍ ونبوٍّ عن الملامسة . ثم وجدت الخرقاء صوفا فجعل أهلها ملازمة الأسوار والخُفُوف إلى الهيعة واحتمال السلاح عُرسا ، فاقتسموا الأقطار ، واقعدوا صراديك[7] مشيختهم بدهاليز الأبواب وعلقوا السلاح وتناغوا فى اتخاذ أطعمة السمر واستدعاء المغنين وإيقاد المشاعل ، وحصنوا ثلم الأسوار ومدوا الخشب مُعْرَضَةً فى أفضية الأبواب ، وغشَّوْا أعرَاهاَ[8] بجلود ذبائح البقر .

---

(١) لفظ (ماعز) غير منقوطة .

(٢) السنخ : الأصل أو الجذر أو المنبت .

(٣) بنو يرنيان : من بطون زناته ، ولهم جبل بهذا الاسم فى الطريق إلى سجلماسة فى جنوب المغرب ــ وقد برز منهم عدة شخصيات تولوا منصب الوزارة أيام بنى مرين مثل ابراهيم ابن عيسى اليرنيانى وموسى بن إبراهيم اليرنيانى . راجع (اليعقوبى : كتاب البلدان ص ١٣ ، نشردى خويه (ليدن ١٨٦٠) ، البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٨٨ ، نشر دى سلان (الجزائر ١٩١١) راجع كذلك (ابن مرزوق : كتاب المسند الصحيح الحسن ص ٥١ نشر بروفنسال فى Hésperis ١٩٢٥)

(٤) تمرس بالشىء : احتك به .

(٥) الجندل : الصخر أو الحجارة والوحدة جندلة والجمع جنادل .

(٦) الشماس : أى العناد . من شمس شموسا وشماسا أى امتنع وأبى .

(٧) صراديك : جمع صردوك ولعلها تعنى كبار مشيختهم .

(٨) لعله يقصد بأعراها : الأجزاء العارية التى يستتر فيها بشىء .

وطُيرت الأنباء إلى عرب تامسنا[1] وحِلَّةِ عميدهم ، واستدعيت منهم النصرة وقد كان جيش مراكش نَهَدَ لنظر كبير الصقع عامر بن محمد بن على ، فاحتل ضفة وادى أم ربيع[2] يَسْبِرُ الأعماق ، ويوازن الأحوال ويعمل ميزان الترجيح ، فبعث لمة من فرسان العرب إلى إصراخهم ، وصلوا وخيموا بشط الوادى من جهة قصدهم ، فنشق الناس ريح الانتياش على ضعف النصير وخمول المصرخ وأنسوا بجناب الأمنة . وعلى ذلك فما زالت رسل الوعيد مترددة والنفوس لعودتهم متوقعة ، وفسدت طريق مكناسة ، وسدت السبل ما بين دار الملك ومدينة سلا ، فلا يخلص بها الطيف ولا ينفد الفكر ، وربما اقتحمته طائفة تدل بوسيلة دين أو دنيا فآبوا بادياً بوارهم ، عاريةً عوراتهم . وفى ذلك صدرت عنى مقطوعة فى غرض التورية استملحها الناس يومئذ وهى قولى[3] :

مكناسةٌ حُشِرَتْ بها زُمَرُ العِدا ... فمدى بريدٍ فيه ألفُ[4] مَريدِ[5]

من واصل للجوع لا لرياضة ... أو لابس للصوف غير مُريد[6]

فإذا سلكت طريقها متصوفا ... فابْنِ[7] السلوك بها على التجريد

واستمرت الحال إلى أخريات شهر صفر من عام التاريخ وكان الأمر ما يأتى به الذكر إن شاء الله . .

---

(١) تلاحظ هنا الإشارة إلى سكنى العرب فى منطقة تامسنا البربرية على ساحل المحيط الأطلسى ، ويبدو أنه منذ ذلك الوقت اتخذت هذه المنطقة الاسم العربى المعروفة به حتى اليوم وهو الشاوية نسبة إلى الشاه أو الماشية التى كان يرعاها عرب تلك المنطقة لحساب الأسرة المرينية الحاكمة .

(٢) نهر أم الربيع : أكبر نهر فى المغرب بعد نهر سبو ، ينبع من الاطلس المتوسط ، ويروى سهول تادلا ويفصل بلاد الشاوية عن دكالة ثم يصب فى المحيط الأطلسى ويبلغ طوله حوالى ٦٠٠ كم ، وله أهمية اقتصادية لوفرة مائه وانتظام سيلانه ، وقد بنيت عليه السدود فى عصورنا الحديثة لتوليد الكهرباء ونخص بالذكر السد المشيد بقصبة تادلا لسقى منطقة بنى عمير .

(٣) أورد المقرى هذه الابيات فى كتابه نفح الطيب ج ٨ ص ٣١٩ .

(٤) فى نفح الطيب : انف .

(٥) المريد (بفتح الميم) : المتمرد الخارج عن الطاعة .

(٦) المريد (بضم الميم) : لفظ من اصطلاح الصوفية يقرب من معنى التلميذ .

(٧) فى نفح الطيب : فانو .

واتصل النبأ باحتلال الأمير المستدعى من ملك قشتاله مدينة سبته واستقراره بها فى العشر الأول لصفر من العام، بعد مراوضة من ملك الروم ومحاورة وضنانة وتشطط قطع السلطان المذكور فيه أطماعه عن المعيَّنات وتضمن له ما دونها ، فاشرأبت الأعناق وسمت الأحداق ثم وردت مخاطباته مع أقوام من الساسانية على رؤساء الجيش المراكشى مستنجدة محركة باسطة للآمال متكفلة بحسن القرض بعيدة الشأو فى ميدان التجلة والإطراء ، فزال الشك وتمحضت الوجهة وانطلقت الخطا ، وأعمل السير على تؤدة كبيرة ، وتثاقل واستبراء لقروء الفتنة ، فكان كما قال الأول :

إن القُباعَ[1] سار سيراً نُكُرَا   يسير يوما ويقيم شهرا

ديدن الجيوش التى لم تزح عللها ، ولا اصطفيت تقاوتها ولا هُذِّبَ بالعرض ديوانها ، وأحوال الدنيا متقاربة وأحوال الطالب والمطلوب فى الضعف متناسبة ، ولله أمر هو بالغه سبحانه .

ولما قاربوا مدينة سلا ، وردت الكتب السلطانية مخبرة باستقرار ركابه بظاهر مدينة فاس أنفا من دخولها (١٤٠ و) قيل لعزم وإزماع وقيل لاختيار معدّل ، فخيم لجراء بعض ذلك بالهضبة المنسوبة إلى العرايس . إذ كان الوزير مُستَدعيه لما تحقق نبأ وصوله إلى سبته ، وجه إليه مِقْنَباً[2] من خيل الروم وكتيبة خشناء من غيرهم فيها الكثير من الناشبة والرَّجل الأندلسيين . ونوّه بموكبه فأصْحَبها صاحب العلامة الباهر الرواء الميمون النقيبة المارن على الألقاب ، البارع الأدوات ، المهدىّ فأل الرضوان فى عقد البيعة ، أبو القاسم بن رضوان[3] ، وصاحب الأشغال وديوان الجيش الشيخ

---

(١) القباع : الرجل الأحمق الجبان وتطلق أيضا على القنفذ وعلى دويبة بحرية ، ومن معانيها أيضا المكيال الضخم .

(٢) المقنب : جماعة من الخيل تجتمع للغارة والجمع مقانب .

(٣) هو الكاتب الخطيب أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجارى الخزرجى المالقى صاحب كتاب الشهب اللامعة والسياسة الجامعة (مخطوط بخزانة الرباط). رحل إلى فاس والتحق بخدمة السلطان أبى الحسن المرينى فى ديوان الانشاء فبان فضله وعلمه وقد مدحه ابن خلدون بقوله : « وكان ابن رضوان من مفاخر المغرب فى براعة خطه وكثرة علمه وحسن سمته واجادته فى فقه الوثائق =

الوقور الحسن السمت ، المُدْلى إلى أبوابهم بالقديم ، المرموق بعين التجلة محمد بن أبي القاسم بن[1] أبي مدين العثماني ، فاتصلوا به ، وقربين أيديهم مَن كان قد حاصرقصر كتامة[2] من حزب ضدهم ، فالتف بهم . وعاد جميعهم إلى دار الملك لم يعترض طريقهم معترض ولا عاقهم عنه عائق . وبرز الوزير فأخذ على الناس بيعته ، وسلم إليه أمانته وتولى خدمته ، ووقع الرأى على بث العطاء بالمخيم المذكور واعتراض الجيش ، والنهود لمدافعة الأمير الآخذ بمخنق الحضرة وقد أقعى برباط تيزى يصابر انسلاخ زمن القُر[3] . وضبط ابن أخيه مدينة مكناسة ، فكان أملك بها ، ثم أمده بالأخ عبد المؤمن الصَّدْق عند الحفيظة ، الثبت الموقف فى ميدان المدافعة (١٤٠ ط) وأضحت الحضرة

= والبلاغة فى الترسيل عن السلطان وحوك الشعر والخطابة على المنابر لأنه كثيرا مايصلى بالسلطان ، فلما قدم علينا بتونس ، صحبته واغتبطت به ، وإن لم اتخذه شيخا لمقاربة السن ، فقد افدت منه ، وقد مدحه صاحبنا أبو القاسم الرحوى شاعر تونس فى قصيدة على روى النون :

ولم يبق لى فى الغيب من أمل   سوى لقاء ابن رضوان وجنة رضوان

ولما جرت على مخدومه السلطان أبى الحسن الهزيمة بالقيروان وغرق الأسطول سنة ٧٤٩ لحق ابن رضوان بالأندلس ، ثم عاد إلى فاس بعد ما استتب الأمر للسلطان أبى عنان ، فنال عنده حظوة كبيرة وكلفه بكتابته وتوفى بآنفا (الدار البيضاء) سنة ٧٨٣ هـ ودفن بمقبرة الحاج صالح .

راجع (ابن خلدون : التعريف ص ٢٢ ـ ٢٤ ، ابن الاحمر : روضة النسرين ص ٢٩ حاشية ٢ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، ابن مرزوق : المسند ص ١٤ ، والترجمة الفرنسية ص ٢٠ حاشية / ٢ فى (Hesperis 1925 Trimestrel) .

(الناصرى : الاستقصا ج ٤ ص ٣٩) .

(١) محمد بن أبى القاسم بن أبى مدين ، كان من سراة الفضلاء وكبار الحسباء ، وقد تولى بعض أفراد أسرته خطة العلامة والكتابة لسلاطين بنى مرين ونخص بالذكر منهم عبد الله بن أبى مدين العثمانى مدبر دولة السلاطين يعقوب بن عبد الحق وعامر بن عبد الله بن يوسف وأبى الربيع سليمان .

راجع (ابن الأحمر : روضة النسرين ص ١٨ حاشية ١ ص ٣٥ ، ابن مرزوق : نفس المرجع ص ١٥) .

(٢) قصر كتابه يسمى اليوم القصر الكبير ويسمى أيضا قصر عبد الكريم (نسبة إلى أمير كتامة عبد الكريم فى أول الاسلام سنة ١٠٢هـ) ويقع فى جنوب مدينة العرائش وعلى بعد ٣٦ كـ.م من ساحل المحيط الاطلسى ، وفى ضواحى مدينة القصر الكبير وقعت معركة وادى المخازن المشهورة سنة ١٥٧٨ م التى انتصر فيها المغاربة على البرتغاليين وقتلوا فيها ملكهم . وقد خلدت هذه المعركة بلوحة تذكارية لا زالت قائمة هناك فى وسط هذه الساحة التاريخية .

(٣) زمن القر : أي زمن البرد .

بين لَحيَيْ[1] أسد الضيق واليأس فى أمر مَرِيج وكان من الأمر ما يذكر .

ومحّص الله هذا الأمير المتلاحق بدار الملك بفَرْى[2] روعةٍ ومروج صاخَّة قامت بها عليه الساعة بغتة ، لولا سابق السعادة وتملُّؤ الحظ واستحصاد حَبْل الإقبال ، بما ترامى إليه أحد الأخابث ، ممن أخذت بضَبْعِه شهوة الإقدام مع الانحطاط فى القَمْر ، والانهماك فى إجالة حصباء الزَّدَشِير[3] ومعاقرة القَدَح الريَّان ، وخمول الأصل وانحطاط النشأة ، شُعَيبُ الوصيف ، المدعو بأبى تُصُوكَيْت[4] ، منسوبا إلى صوت يقرقر به قوم من الأوقاح بين يدى القتال . كان قد اصطُنِع فأركب المُقَرَّبات وألبس الخز وقلد الحلية البحتة ، وأتبع الجماة ، سوَّلت له نفسه عندما أفسد الثمل خيالها ، التغلب على الأمر ، وتحويل الدعوة . فركب فى شرذمة من السِّفلة ، من كل مرخى الفكّ ماشٍ مشى الفِرْزان[5] ، وشهر السلاح ، وقصد إلى قيُّوم الرماة ، ومتولى الحكم وصاحب الشرطة العليا[6] بباب السلطان الشيخ عيسى بن الزرقاء المنتسب إلى الرؤساء من بنى اشقيلولة[7] ، القديم جنوحهم وهويّهم إلى هذه الإيالة

(١) أى بين فكى الضيق واليأس .

(٢) فى الأصل : بقرى — ولعلها ما أثبتناه — والفرى الشق .

(٣) حصباء الزدشير : كذا — ولعلها نوع من النرد .

(٤) أورد ابن خلدون هذا اللفظ فى مقدمته ص ٢٥٨ على أنه كلمة بربرية زناتية كانت تطلق على الطرب والغناء الذى كان يصحب المعركة ، فيحدث فى نفوس الجند اندفاعا وشجاعة مثل نشوة الخمر .

(٥) الفرزان قطع فى الشطرنج .

(٦) الشرطة العليا : لعلها كما يفسرها المؤرخون الهيئة القضائية الخاصة بعلية القوم ، ويقابلها الشرطة السفلى الخاصة بعامة الناس ، وقد يؤيد هذ التفسير قوله هنا أن مقر الشرطة العليا كان بباب قصر السلطان وليس عند باب الشريعة أو عند باب المسجد كما هو الحال فى القضاء العام .

(٧) واضح أن هذا الاسم أشقيلولة Ashkilula ليس عربيا وإنما من أصل اسبانى ، وقد اختلفت المصادر فى كتابته ، فالبعض يكتبها بكسر الألف والبعض الآخر بفتحها ، وهناك من يكتبها بدون ألف ، وكيفما كان الأمر فان بنى اشقيلولة كانوا من أسرة غرناطية عريقة ترتبط بالأسرة المالكة (بنى نصر او بنى الأحمر) برباط القرابة والمصاهرة ، فضلا ، عن أنهم قد ساهموا معهم فى تاسيس مملكة غرناطة ، وكان نصيبهم منها ولايات مالقة ووادى آش وقمارش . وفى عهد السلطان الغرناطى محمد الثانى بن الأحمر الملقب بالفقيه (٦٧١ — ٧٠١ هـ) قام نزاع عنيف بينه وبين اخواله بنى أشقيلولة ولم يلبث هذا النزاع ان تطور إلى عصيان وأعلن هؤلاء الثوار عدم خضوعهم لسلطان غرناطة ، ونادوا بتبعيتهم لسلطان المغرب يعقوب بن عبد الحق المرينى . وقبل سلطان المغرب هذا العرض واستولى على ولاية مالقة واضطر سلطان غرناطة أمام هذا التدخل المغربى فى بلاده أن يتحالف مع القوى =

اليعقوبية[1]، شيخ رسخ له فى الاصطناع قَدَم، لتعرُّقه[2] ولَوْذَعيَّتِهِ وتأتّيه للأهواء وتبريزه في ميـدان الطنز والمقالعة[3]، فأثرى وجمت أمواله محوطة بقفل الشحِّ معفاة عن الخرج (١٤١ و) فألفاه متفرق الوزعة حلس الأريكة، فرماه بحربة كادت تصيب حلقومه، وتراوغ فنجا باختلاطه مع الغمار فى خفارة الخندس، واستقر ببعض أبراج السور واقتدى به قائد جند الرَّجْل المُغراة به أيدى الاغتباط، من مضعوفى هؤلاء المتغلبة على الدولة، والمتورطة فى خباط سياستها المضطربة، لتعلق آمالهم السخيفة بغناء من لديه من أبناء العَلاَّت وأذَّبة الأطاع ونَبذة الحياء، ورغاء البلاد وغثاء الجالية، وأوليـاء السَّرق والمعاقرة، إبرهيم بن أحمد البطروجى، الشيـخ المنحل الفك، المستشن الأديم، المتمسك بذيل البطالة والصَّبوة عن السن والـكبْرة، المرّق لسانه فى الإمالة، المتفـكَّه منه بالمهاترة وإرسال السجية، قاد الدنيا العريضة وابتنى للمشاربَ الملوكية لغير خصيصة ولا مزية، ولا استظهارٍ بنباهة قديم ولا صدق موقف، وشعيب بن وادَّرار بن ميمون من شيوخ الحشم ومواعين الجوْر وآلات التسليط، وقهر الملـكة والعز مع الرخاء والذل عند الإحساس بالشدة. ما منهم من انضم إليه قومه ولا من دافع عنـه رجله ولا من استمات دونه صنائعه، بل تحولوا عنهم وجهروا بأذاهم وتدربوا لإبادتهم

=الأسبانية مثل مملـكتى قشتالة وأراجون ضد المغرب، وبعد عدة مناوشات واصطدامات بين الجانبين سويت المشاكل المعلقة بين المغرب وغرناطة ومن بينها مشكلة بنى أشقيلولة. وقد نص الاتفاق فيها على أن يتنازل سلطان غرناطة لسلطان المغرب عن مدينة وادى آش Guadix الغرناطية بينما يتنازل سلطان المغرب بدوره عن مدينة القصر الـكبير فى شمال المغرب لتـكون مقراً لبنى أشقيلولة. وبالفعل هاجر بنو أشقيلولة إلى المغرب سنة ٦٨٧ هـ واستقروا فى مدينة القصر الـكبير تحت رعاية السـلطان المغربى أبى يعقوب يوسف المرينى واستمرت ولايتهم هناك إلى أن انقرضوا فى أواخر حكم بنى مرين.

راجع تفاصيل ثورة بنى أشقيلولة فى (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٨٧ — ٢٩١، نشر ليفى بروفنـسال) ونظراً لأهمية هذا النص فقد ترجه علوش إلى الفرنسية فى (Hesperisxxv,1938) كما ترجه إلى الأسبانية سانشيت البورنث (San cher Allornoz : La Eopana mwulmanat . 11, P.352.)

راجع كذلك (الناصرى السلاوى: الاستقصا جـ ٣ ص ٦٨ وما بعدها).

(١) الإيالة اليعقوبية أى الدولة المرينية، نسبة إلى سلطانها فى ذلك الوقت يعقوب بن عبد الحق.

(٢) رسمها يحتمل: لتبغرقه.

(٣) الطنز السخرية ــ ويبدو أن المقالعة (والرسم يحتمل القالعة) بنفس المعنى.

واستعجلوا قَمّ الفاقرة [1] لانفرادهم عنهم بنفاضة الدنيا وضنانتهم بالعَرَض الأدنى وتمسكهم بفضلات أخونتهم وخُلقان ثيابهم . فامتنعوا بذروة السور وانتبذ الجند والنصارى فضبطوا مدينتهم (١٤١ ط) المدعوة بالملاّح [2] ، فكانوا أملك بها . وجعل ذلك الجلَبُ السِّفلةُ يطوف بسكك المدينة هاتفا بالخلعان ، وإبقاء الأمر على المؤدب [3] المعدول عنه . وكثُر الخوض واختلت الدعوة ، فقومٌ يهتفون بدعوة الأمير عبد الحليم ، وزعنفة تدعو لأبى عمر ، وأخرى للسلطان المستدعى .

وفضت أقفال السجن فانتشر من به من بنى مرين وبنى زيان وغيرهم ، واختلط المرعىّ بالمهَمَل وطار الخبر الكريه إلى مخيم السلطان ، فوقعت الواقعة وظن أنها القاضية .

وبادر الوزير بالرّجْل إلى باب البلد ، فجَلّى له المتسورون من أوليائه الخنىّ فسكن إليه ، ولم يكن ثمّ من يمانعه عن معالجة الباب ، واستثار حفائظ الرّجْل بين يديه وأطمعهم فى الأموال ، فدخل البلد وسكّن الهرج ، وقتل ذيالك الخبيث ، وأمر باحراق شلوه ، من داعر متسام للعظمة مستام بالفَلْس الزائف ، ناقد للدولة ، عظيم الجرأة ، فاتح باب الطمع فى الأمر للسُّوَق والسِّفلة كما شاء ربُّ العزة ،

---

(١) الفاقرة : النكبة أو الداهية الشديدة التى تكسر فقر الظهر والجمع فواقر . والقمم من القم أى الأكل .

(٢) إشاورة مهمة تدل على أن مدينة أوحى الملاح (بتشديد اللام) كانت عبارة عن المنطقة التى كان يقيم فيها الرعايا أو الجنود النصارى فى فاس وتجدر الإشاورة هنا إلى أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادى أى فى أواخر أيام بنى مرين أطلق اسم الملاح على أحياء اليهود فى سائر المدن المغربية كما هو معروف حتى اليوم .

وقد اختلف العلماء حول اشتقاق هذا اللفظ ويبدو انه يعنى النبع المالح . وكان حى الملاح فى أيام المرينيين يقع فى جنوب مدينة فاس الجديد .

راجع (ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة عبد الهادى شعيرة ص ١٠٠ القاهرة ١٩٥١) راجع كذلك : (Letourneau : Fes PP. 102,104,158)

(٣) كذا فى الأصل .

واقتضت السياسة إرغام مَعْطس[1] التتبع للجناة وحلفاء الريبة والمقتحمين غمرة هذا الهول، لفشوٌ الفساد فى الطبقات وما يؤدى إليه استتباعه من إيحاش البرىء وفرار المريب وتمعُّط رياش الدولة، فزرَّت الأطواق منه على سِلٍّ وليكَ صَبِرُه[2] لَوْكَ ضرورة وصُيِّرت به الكتب إلى المحلة المراكشية وسائر البلاد سُبوقاً لخبر السمر ورفعاً للشبهة، ولو أعيت (١٤٢ و) الحيلة إلى إمتاع النهار وانتشار الأمر، لم يكن لخرْقِه من رَمْد ولا لصدعه من شاعب. ولازم السلطان من يومئذ سُدَّة المُلْك ودخل المدينة باختيار من يخلق ما يشاء ويختار، وكثر استدعاؤه للجيش المراكشى، وقدكان القوم خيموا بظاهر رباط[3] الفتح، أثر منصور آل عبد المؤمن، فى أوشاب

---

(١) المعطس : الأنف، والجمع معاطس، يقال « أرغمت المعاطس » أى قهرت الخصوم.

(٢) الصبر : المر ولاك يلوك مضغ .

(٣) مدينة رباط الفتح هى نواة مدينة الرباط الحالية عاصمة المملكة المغربية اليوم، وتقع فى مواجهة مدينة سلا فقيل الرباط وسلاه ويفصلهما وادى أبو الرقراق الذى كان يسمى قديما بوادى سلا أو وادى أسمير او وادى الفيط على حسب أقوال المؤرخين وواضح من اسم مدينة الرباط وتاريخها أنها كانت فى الأصل رباطا لجهاد قبائل برغواطة المارقين عن الدين الحنيف . وفى هذا الصدد يقول ابن حوقل (المسالك والممالك ٥٦) :

ومن ورائه (أى وادى سبو) إلى ناحية بلد برغواطة على نحو بريد، وادى سلا (أى أبو الرقراق) وإليه تنتهى سكنى المسلمين، وهى رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزلية المعروفة بسلا القديمة (يعنى شالة) قد خربت، والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها وربما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة آلف إنسان، يزيدون أو ينقصون، ورباطهم على برغواطة وهى قبيلة من قبائل البربر على المحيط متصلين بهذه الجهة التى شفت عمارة بلد الإسلام إليها ».

وأول من اهتم بعمارة هذه المنطقة م الموحدون، ويبدو أن المهدى بن تومرت نفسه هو الذى أهرم بذلك، فيروى عبد الواحد المراكشي فى كتابه المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، أن المهدى قال لأتباعه الموحدين : تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر ثم يضطرب امركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بايديكم إلا هذه المدينة ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود امركم كما كان... »

ويبدو انه استجابة لهذه النصيحة بنى الخليفة عبد المؤمن بن على سنة ٥٤٠ هـ قصبة المهدية تذكارا لاسم المهدى بن تومرت وكانت فى مكان قامة الوداية الحالية . وهذه المدينة تختلف عن مدينة المهدية الحالية التى تقع بالقرب من القنيطرة عند مصب وادى ــ سبو . فهذه الأخيرة كانت تعرف قديما بالمعمورة أو بحلق الوادى ثم سميت بالمهدية ايام المولى إسماعيل سنة ١٠٩٢ هـ عندما ضيق الحصار على الجيش الأسبانى المرابط فيها فخرج إليه قائد الجيش مستسلما وبيده مفاتيح المدينة كهدية للسلطان فامنه وقبل هديته ثم دخل المدينة وسماها المهدية .

أما مهدية الموحدين فكانت كما قلنا فى مكان مدينة الرباط الحالية وقد بدأ الخليفة عبد المؤمن ببناء=

من العرب والجيش المستخدم بتلك الناحية ، تدب بينهم عقارب المحاسدة وتَحْزَئِل[1] حيات النفاق ، وتتجاذب عزماتهم أيدى الاختلال . أما عميدهم فأسهل عن جبله لغير ضرورة وفى غير كنف من الحامية وعن غير روية إلا الوفاق والمساعدة والحرمة وأخذ العفو والانقياد فى زمام الألفة وهيْعة التهور والإقدام بقوم فوضى على أمرٍ شَعاع[2] .

وأما شيخ العرب حليفه الغبيط بمكانه فزاحم بالقبائل المغراة بالنفاس وإشعاب الكلمة . وقد كاشف قبيل الملك من بنى مرين ، نَبَا لأول وهلة فأغرم ما بوطنه من بلادهم ، واستباح حرمتها ، وأما المُعين للوزاره فى البطن الثالث من مناسختها أو الدور الثالث من تناسخها المموه به لديهم ، فموتور بالوزير الدائل مكبوح برئيس الوطن عن معتاده من علو اليد وفضل الحكم . وفشى تدبيرهم فلا مُلايلة[3] ومياومة تتلقفه من

=قصبتها ثم جاءابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فبدأ فى تخطيط المدينة نفسها . وقد وصف ابن صاحب الصلاة هذه العملية بشكل جميل فيقول إن الخليفة المذكور تقدم بجيوشه إلى أسوار القصبة التى بناها والده ثم أدار فرسه حتى صار وجهه قبالة جيوشه ورعاياه ، فبارك جمعهم ثم طلب منهم المقام فى هذا المكان .

ولقد تم بناء هذه المدينة فى عهد ولده الخليفة يعقوب المنصور ، وصارت تعرف باسم رباط الفتح لأنها كانت مركزاً لتجمعات الجيوش الموحدية المرسلة برسم الفتح والجهاد إلى الأندلس . ومن الطريف أن ابن خلكان قد أطلق عليها اسم :

إسكندرية المغرب ، لأنها كانت فى رأيه — على هيئة الإسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم واتقان البناء . على أن مدينة الرباط رغم ذلك لم تعمر بالسكان تماما حتى قيل إن المنصور حينما حضرته الوفاة سنة ٥٩٥ﻫ ندم على بنائها .

على أن عمران المدينة لم يتخذ شكلا جديا إلا منذ أواخر أيام الموحدين على عهد الخليفة الرشيد فى القرن السابع الهجرى عندما هاجر إليها سكان شرق الأندلس . بعد سقوط بلادهم فى أيدى الأسبان.

راجع (ابن صاحب الصلاة : كتاب المن بالأمانة نشر الأستاذ عبد الهادى التازى ؛ أبو عبد الله بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح (الرباط سنة ١٣٤٥ ﻫ) ، عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٦٦ محمد بن على الدكالى السلاوى : الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولاى عبد العزيز (مخطوط بمكتبة الرباط) .

(١) احز ألّ : تأتى بمعنى اجتمع وانضم أو بمعنى ارتفع وهو المناسب هنا فى المتن .

(٢) أى متفرق .

(٣) يقصد بالملايلة والمياومة : الليل واليوم .

شفاههم الدكاكين وحَلَقُ اللهو فلا يسترجع عنهم مسترجع ، وعاء قِرى أوظرف هدية الأوَمِلْ، وعائه ذرء من سرهم لإشراكهم فيه أهلَ البطالة (١٤٢ ط) والأحداث إخوان المعاقرة الذين لا تستأثر صدورهم عند عمل الكأس وزهزهة الأزراد(١) وانخراق جو المجانة ، إذ قذفت الإخافة منهم بطوائف شردتهم الدولة لمطالبات وإحَن ، اقتضت الصاغية إليهم والبر باستضافتهم والظن بغنَاء لديهم ، وإشراكُهم فى الأمر واستخلاؤهم للسر وإجالةُ قداح الرأى . ولا كالشيخ طُوَيْس(٢) الوقت ، الطِّرْفُ(٣) فى الخلال المذمومة ، الاسرائيلى الطلعة ، بزاز سوق النميمة ، واستاذ حلقة الخديعة وقطب رحى المكيدة والمثل فى الغفلة عن الله والدار الآخرة ، الخب(٤) ذو الوجهين ، المتنفِّق بخائنة الأعين(٥) خالد بن تاسكورت ، الهارب من وطن إفريقية ، منتهك البشرة مفلتا من شد العصاب فى مثل هذه السبل . دالت الدولة ، وقد أحفظها بسعيه بياض اليوم وسواد الليلة ، طوّافاً لنقل الهنات وتفريق المجتمعات وإثبات عقود الزور ، والولائج(٦) إلى إبانة النفوس والذمم ، فلم تُقله العثرة ، وأغرمته خمسة

---

(١) الازراد أى الولائم جمع زردة وهى كلمة شائعة فى المغرب .

(٢) ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى أن اسمه عيسى بن عبد الله ... الطاء وفتح الواو) وهو واحد من مشهورى المغنيين فى الحجاز فى عهد الدولة ... ونذكر منهم أيضا ابن سريج ومعبد وحنين .... إلخ . وفى ذلك يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريجى بعده   وما قصبات السبق إلا لمعبد

كذلك كان يضرب به المثل فى التشاؤم فيقولون فى أمثالهم أشأم من طويس وذلك لأن يوم ولد مات النبى ، ويوم فطم مات أبو بكر ، ويوم ختن مات عمر ، ويوم تزوج قتل عثمان ويوم رزق بمولود مات على بن أبى طالب ، وكان طويس مفرطا فى الطول ، أحول العين سكن المدينة المنورة ثم انتقل إلى السويداء وهى على مرحلتين من المدينة فى طريق الشام ، فلم يزل بها حتى توفى سنة ٩٢ هـ وهو ابن اثنين وثمانين سنة . . راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص١٧٣ – ١٧٤)

(٣) الطرف : الكريم الأصل والمعنى هنا كناية عن الأصالة فى الخلال المذمومة .

(٤) الخب : الخداع الملتوى ، ويقولون (أصابهم الخب) أى التوت عليهم الأرياح واضطربت الأمواج .

(٥) لعله يقصد بهذه العبارة : العائش على الحسد .

(٦) أى الكثير الولوج أو الدخول .

آلاف من العين رَزأ[1] بيت المال إياها فى زمن يسير تولى فيه بعض الأعمال من خدمتها بما دل على متانة الأمانة وعفاف الكف ، ولحق بمراكش حذرا من تعقيبه أو كسوع[2] إلى مطالبة ، فما شئت من تخبيب وبثّ سعاية وتسخير فى حبل هوى . ولم يغب هذا الفتق على حصافة الرئيس أبى ثابت عامر بن محمد ودربته بمراوضة المهمات ووضع الهِناَء[3] (١٤٣ و) مواضع النُقْب[4] ولكن اشتبهت الأمورُ فتركها مرسلة ، وتكاثرت الظباء فجعلها مهملة ، وقد كان الحجاج يقول إذا اشتبهت عليه الأمور .

دعها سماويةً تجرى على قَدَرٍ   لاتفسدَنْها برأيٍ منك مَنْكُوسٍ

فكان صنْع الله لها ولا القوم غطاء سترا يفصح له الحمد دائباً والشكر واصبا[5] . ولما خيموا بسلا وأطلوا على الأحواز المكناسية تهيئوا الولوجَ على[6] أَجَمتِها وقلقوا لامتساك أميرها وثبات فئته بها ، ففتقوا بالمراسلة صِفاَق[7] الوحشة وخطبوا من القبائل بها الارعاء[8] على البقية . وبرز الرئيس عامر بن محمد وهو الموثوق به فى رجال المغرب كافة يتضمن لهم تَقَبُّل الفيئة ومراجعة الحسنى وتهذيب ما عرَّضوا به من إخلاء دَسْت الملك من الوزير مخيفهم والاستعاضة منه بمسعود بن رحو ضده ، لما يرجون من ارتكابه فيهم خلاف غرضه مُحادّةً له وانحرافاً عنه ، وليروا مواقع منَّتهم فى عنقه بتسبيبهم رجعاه وتحسينهم عقباه ، فتكون أيدى دالَّتهم عالية وأصوات تعززْهم عليه غير خافتة ، وأن يهادن أميرهم الذى خلص إليه هويهم فى إرث أبيه بوطن سجلماسة وما إليها ، فانحط عامر بن محمد فى غرضهم وتحمل كلَّه وضمن غرضه ونفض

(١) يقال رزأ الرجلَ ماله : أى نقصه .

(٢) كذا فى الأصل ولعلها من كسعه كسعا أى طرده أو تبعه بالطرد .

(٣) الهِناء . القطران أو القار .

(٤) النقب : الثقوب أو الجرب فى جلد الإبل وكانت تداوى بالقطران .

(٥) هذه العبارة وردت هكذا مضطربة فى الأصل . وربما كانت (وللقوم) بدل (ولا القوم)

(٦) الأجمة : الشجر الكثير الملتف أو مأوى الأسد ، والمقصود هنا الحصن الرئيسى .

(٧) الصفق : مصراع الباب ولعله يقصد بصفاق الوحشة أبوابها .

(٨) أرعى عليه : اى أبقى عليه رحمة به .

اليد من المآلآت عليهم إن ترفَّع السلطان عنه ، حافظا بذلك سيقته وباذرا فيهم يده ومتوفرا عن حربهم (١٤٣ ط) جهده ، ومعملا فى السلامة من معرة عدوانهم دهيته ، ومدنيا من أمير متوفر الخلال جواره .

ولم يكد رسوله يتوسط طريق طيته ، حتى تواترت مخاطبات السلطان مستحثَّة ترهقها سنابك بروزه إلى كبس من بمكناسة ، فلم يسع التلوُّم[1] خيفة من ظهورٍ يتأتى له ولا يحضرون مَدْعاه ولا يأخذون بمقتضى من حمده ، فارتحلوا يوم الجمعة ثانى شهر ربيع الأول إلى خميس فزاره[2] . ولقيهم بريد الفتح وقد سالت الأباطح والرُّبا بخيل العرب مغيرة على ما واجهه من الأحواز ، فاستأصلت ما شاء الله من الأمم المحروبة فلم تدع لهم غطاء ولا وطاء ولا خفًّا[3] ولا ظلفا[4] ، وبيعت يومئذ المرأة غير مستكشفة عن سنخ ولا مسئولة عن حرية أو رق بثلاثة دنانير فما دونها ، واستبيحت الفروج واستحلت الأموال . صاننا الله من المحن وحجبنا عن غوائل الفتن . فتُعُرِّفَ ما كان من خروج الجيش المستعرض بدار الملك عن آخره ، إلى من استنفر من مطَّوِّعَة الرَّجل ، لنظر وزير الدولة وماخض زق هذا الهول عمر بن عبد الله ضنانة بأميره وكفاية له وانتدابا إلى القيام بمهمِّه ، غرة الشهر ، وفى موكبه عُدَّة السلطان وأبهته من الطبول والبنود والرجال الرقاصة[5] وتخييمه بوادى النجاة . وأنهم لما ارتحلوا صبيحة يوم الجمعة لحق بهم من عرفهم ببروز من بمكناسة لنظر أخى السلطان وابن أخيه

---

(١) التلوم : اى التردد .

(٢) يشير الإدريسى إلى قبيلة فازار أو فزارة بأنها كانت فى الأصل قبيلة من البربر المتعربين بنواحى مدينة سرت بليبيا . (الإدريسى ص ١٠٠ طبعة هنرى بيريس) .

(٣) يقصد بالخف هنا الجمال ، لأن الخف للبعير والنعام .

(٤) يقصد بالظلف البقر والحيوانات التى لها أظلاف .

(٥) الرقاصة (مشددة) لعبة للعرب ، ولعله يقصد بالرجال الرقاصة ، أولئك الذين يقومون بهذه الألعاب فى موكب السلطان ، والرقاص أيضا — ولا سيما فى المغرب والأندلس ساعى البريد أو البوستجى أو حامل الرسالة ، كذلك يسمى صبى البناء رقاصا ، فالنويرى عند وصفه لبناء مدينة الزهراء يقول « ومع كل بناء اثنا عشر رقاصا » والجمع رقاقيص . راجع (الزبيدى : تاج العروس) راجع كذلك . Dozy : Supplénent aux Dictionnoires Arabes 1'P.547

فى جيش خشن من أولى البصائر من قبيلهم المائلة دورهم (١٤٤ و) بتلك الأحواز فيمن لف لفهم من أذيالهم واجتمع من القوم عسكر وافر هون عليهم الإقدام على جيش الحضرة مع الاستلحاق والعطاء .

فلما تراءى الجمعـان ، أمر من فى جيش السلطان من القبيل المرينى بالمناوشة والاختصاص بباكورة اللقاء ثم أردفوا بالناشبة ورماة القسى العربية ، فرجفت راياتهم على شأن غز المشارقة من المزمار والطبل وحمل جمة الشعر [١] فى أرينة [٢] سنان الراية .

ولم يكن إلا أن شارفهم القوم من قبيلهم وهب المكناسيون فى وجوههم فانهزموا ضربة ، وسالوا عن يمين القلب ويساره ، وشالت [٣] نعامهم ، وكادوا يجرّون الهزيمة على سائرهم ، ديدنهم الذى صارفوه أمراءهم وناجزوه حروبهم من لدن ذَهَب أولوهم أولو الريح الهابة والدول الشابة .

ولما رأى الوزير قائد الجيش حلول الدَّبْرة [٤] وشافه موقف الفَضْح استجمع وأمر من لديه من فرسان الروم بالصدمة ، فصدَقوها عَدْوَه ، فكانت واحدة ركب بها أكتاف القوم فلم يثنوا عنانا ولا أفاقوا فواقا [٥] ، واستولت الأيدى على كراع كثير وأسباب ، واستلحم السيف جما يناهز المائة ، وأسر من الماثلين بمصطف الوزارة شعيب بن وخديج ، واستأمن إلى عامر بن محمد بطريق لحاقه طلحة التاورتى وهو أجلد القوم . وتحصل بيد العفة سبعة من هوادج نسائهم اللائى بادروهن بالنكاح فى مصطلى الفتنة منابرة على تحصيل الشطر من الدين . ووقع الاتّباع مقدار ثلاثة (١٤٤ ط) فراسخ ، وقد أفاق القوم وركبوا ثنية ينظرون منها إلى نشاط عدوهم واجتماع فله .

---

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس والجمع جمم ويقصد هنا خصلة الشعر التى كانت تعلق فى أعلى الراية الكبرى للجيش وكانت تسمى فى مصر والشام على عهد الأيوبيين والماليك ، بالجاليش وهذه الإشارة التى وردت فى المتن تدل على مدى تأثر الجيوش المغربية ببعض المؤثرات الحربية الشرقية .

(٢) أرينة كذا فى الأصل ، والمفروض أنها كلمة بمعنى فى أعلى سنان الراية . ولعلها أذينة .

(٣) شالت نعامهم أو نعامتهم أى أخلوا منازلهم وتفرقوا أو تفرقت كلمتهم وذهب عزمهم .

(٤) الدبرة : العاقبة أو الهزيمة فى القتال . ورسمها فى الأصل الديرة .

(٥) أفاق فواقا : تصاعدت الريح من صدره اى تجشأ والمعنى هنا كناية عن السرعة .

وجعل الجيش وجهه إلى مكناسة فنزل بظاهرها وبرز أهلها إلى وزيره خاشعين من الذل ينظرون من طرفٍ خفي تدمَى كلومُهم ، فقرروا مهولا من غلبتهم على الطاعة ، وشرحوا عُظماً مما رُموا به من سوء المَلَكة ، ووعدوا من أنفسهم بالاستماتة من دون حوزتهم مع فرض العودة .

وتلاحق بالوزير عشيئذ من قبل سلطانه المخاطبة مستَحثة فى اللحاق بدار الملك يوم السبت ثالث الشهر ، فتحرك ووصل المدينة عشيَّ اليوم المذكور وقد شاع قرب منزل الأمير عبد الحليم ممدا لأخيه بنفسه قبل شياع خبر الوقيعة به . وترك بمدينة مكناسة حامية ورجلا ورماة . وفى ليلة الميلاد الأعظم من هذا الشهر ورد كتاب الفتح على أهل مدينة سلا يتضمن الأنباء بالصُّنع المذكور ، وأن الأمير عبد الحليم فر عنه من كان معه من قبيلهم وارتحل لوجهه شرقا وكفى الله المسلمين معرة الفتنة .

ونص الكتاب الوارد بذلك :

من عبد الله المتوكل[1] على الله محمد أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ابن مولانا الأمير أبى عبد الرحمن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى الحسن بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى سعيد بن مولانا أمير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين أبى يوسف (١٤٥ و) يعقوب بن عبد الحق أيد الله سلطانه ، ومهد أقطاره وأوطانه ، إلى الأشياخ المكرمين والشرفاء المرعيين والفقهاء المؤثرين والوجوه والأعيان والخاصة والعامة والدهماء من أهل مدينة سلا حرسها الله تعالى .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله واهب النعماء ومجزل المنن الجميمة والآلاء ، مؤيد من توكل عليه بالظهور والاعتلاء والفتح الحميد الأنباء ، الجليل

---

(١) يكنى بأبى زيان ويلقب بالمتوكل على الله ، امه مولدة عربية اسمها فضة بويع فى ٢١ صفر سنة ٧٦٣ وقتل هرقا فى السانية التى بروض الغزلان بفاس فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٧٦٧ هـ وله ٢٨ سنة ، ودفن بجامع قصره . راجع (اسماعيل بن الأحمر روضة النسرين ص ٣٢ (الرباط سنة ١٩٦٢) .

الإعادة والابتداء ، والصلاة والسلام الأكملين على سيدنا ونبينا ومولانا محمد خاتم الأرسال والأنبياء ، المخصوص بالحوض والشفاعة واللواء ، المبعوث رحمة لإظهار الحنيفة السمحة البيضاء ، المؤيد بالرعب على من راغ عن سبيل السواء ، والرضا عن آله وأصحابه ذوى العزم والمضاء ، الباذلين أموالهم ونفوسهم فى مناصرته ومؤازرته فكانوا أعز الأنصار والظهراء ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلى المؤيد الكريم السلطانى المجاهدى المحمدى المتوكلى بنصر الأولياء وكبت الأعداء وقسر متبعي الأهواء واتصال الفتوحات المجددة مع الآناء .

فإنا كتبنا إليكم والى الله وفود البشائر عليكم ، وضاعف ضروب المسرات إليكم من حضرتنا العلية المدينة البيضاء حرسها الله تعالى « وكلاها » وإياة(١) النصر رائقة ، ورايات الفتح خافقة وآيات الظهور باعتلاء (١٤٥ ط) كلمتنا ناطقة . والحمد لله كثيراً ولكم عندنا عناية كفيلة بتيسير مأربكم وحفاية مؤكدة لرعاية جانبكم ، وبحسب ذلك لا يتزيد عندنا مزيد إلا أوفدنا عليكم زائده، ولا يتجدد لدينا متجدد إلا أوردنا عليكم وافده ، وإلى هذا أكرمكم الله تعالى فإنا أصدرناه إليكم نعلمكم أنه لما استقر ركابنا السامى بحضرتنا المذكورة وَالَى الله علوها ، واستولينا منها على سرير ملك آبائنا وخلافة الكرام أسلافنا ، اقتضى نظرنا الكريم أن وجهنا وزيرنا الحظى لدينا الأعز علينا المقرب بإمحاض النصائح إلينا ، ظهير خلافتنا الأرضَى وحسام دولتنا الأمضَى وعضد ملكنا وخالصة أمرنا ونجى سرنا ، أبا عمر بن عبد الله بن على أعزه الله تعالى ، يقدم جملة منصورة من جيشنا المظفر للقبض على من كان بمكناسة المحروسة من طائفة الشقى عبد الحليم . فلما أحست الطائفة المذكورة بذلك ، حدثتهم أنفسهم الخبيثة وأمانيهم الكاذبة بلقاء حزبنا الغالب بالله تعالى ، فخرجوا بظاهر مكناسة المذكورة ، حتى إذا تراءى الجمعان صدق أولياؤنا أعزهم الله الحملة عليهم ، فولّى الأعداء الأدبار ، ومنح الله منهم الأكتاف فأحال أولياؤنا عليهم القتل وأكثروا فيهم الفتك والسبي وفر متبوعهم

(١) إياة الشمس : نورها وهالتها وكذا للنصر كما فى المتن . «وكلاها» الحقت بالهامش في الأصل.

عبد المؤمن خاسرا إلى أخيه عبد الحليم المذكور . فلما ورد عليه الخبر بذلك أسلمه جميع من كان معه بتازى[1] من بنى عسكر وغيرهم . وفر للحين على وجهه لحيث يعجل الله بالقبض عليه والانتقام منه (١٤٦ و) ورجع من كان معه إلى بابنا العلى أسماه الله تعالى .

أعلمناكم بذلك لتأخذوا بحظكم من السرور بأوفى حظ والله سبحانه المشكور على ذلك وهو يصل كرامتكم ويوالى أثرتكم وحفايتكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب فى اليوم الخامس لشهر ربيع الأول المبارك من عام ثلاثة وستين وسبعمائة عرف الله خيره وبركته بمنه . وكتب فى التاريخ المؤرخ به فغشينا بالبلد سرور كثير تأيد بسرور الموسم المخصوص بالاحتفال والحمد لله .

وكان من الأمر ما يلى به الذكر إن شاء الله .

---

(١) يقصد مدينة تازا

بعض الرسائل الأدبية التي كتبها ابن الخطيب اثناء مقامه في المغرب

وصدر عنى لهذا العهد من نظم الكلام ونثره ما يذكر .

فمن التواليف رجز فى الأغذية[1] إذ كنت قد فرغت من النظم فى العلاج والسياسة تضمن ذكر الأغذية على أحرف المعجم وطباعها ومنافعها ومضارها وإصلاح خللها وما تعلق بها من وجوه المعالجة . ولم أقف فى هذا الغرض على نظم . وشرعت فى تأليف يختص بتاريخ الدولة النصرية على أسلوب مختصر منبه على العيون سميته باللمحة البدرية فى الدولة النصرية[2] . . افتتحته بما نصه[3] :

الحمد لله الذى جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك ، تُطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب بها غائرة[4] متغيرة ، السابقُ عَجِل ، وطبع الوجود مرتجل ، والحى من الموت وَجِل ، والدهر لا معتذر

---

(١) لعلها الأرجوزة المسماة « المعتمدة فى الأغذية المفردة » التى أوردها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته . راجع (الفقيه محمد التطوانى : ابن الخطيب من خلال كتبه ج ٢ ص ١٣٩ تطوان ١٩٥٩)

(٢) واضح من المتن كما هو واضح من كتاب اللمحة البدرية (ص ٩١ ، ١١٣ ، ١١٩) أن ابن الخطيب قد ألف هذا الكتاب فى المغرب ، وإن كان يبدو أنه قد أتمه بعد عودته إلى وطنه غرناطة ، بدليل أنه أرخ نهاية الكتاب فى سنة ٧٦٥ هـ . هذا ويبدو أن ابن الخطيب قد استمد عنوان كتابه من كتاب آخر للعالم النحوى أبى حيان الغرناطى المتوفى سنة ٧٤٥ هـ وعنوانه « اللمحة البدرية فى علم العربية . راجع (ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ص ٢١٣-٢١٤).

(٣) نشر كتاب اللمحة البدرية لابن الخطيب الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب المطبعة السلفية (القاهرة ١٣٤٧هـ) وقد وردت هذه المقدمة فى الصفحات ٩ ـ ١١ من الكتاب مع وجود اختلافات بينها وبين ما ورد هنا فى المتن نسجلها فيما يلى :

(٤) فى طبعة القاهرة : عائرة .

ولا خجل . بينما ترى الدَّست عظيم الزحام ، والموكب شديد الالتحام ، والوزعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور (١٤٦ ط) قد شمل العشير[١] ، والأطراف ، يلثمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ، والأموال يحوطها العدل أو يُبيحها الإسراف ، والرايات تُعقد ، والأعطيات تنقد . إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمَّلة ولا مزورة . والحركات قد سكنت ، وأيدى الإدالة قد تمكنت . فكأنْ لم يسمرْ سامر ، ولا نهى ناهٍ ، ولا أمر آمر . ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ، « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح[٢] » ، فالويل لمن لم[٣] يترك حسنة تنفعه ، أو ذكرا جميلا يرفعه ، فلقد عاش عيشة[٤] البهيمة النهيمة ، وأضاع جواهر عمره الرفيعة القيمة ، فى السُّبل غير المستقيمة ، وبذر أمانة الله فى المساقط[٥] العقيمة ، وطوبى لمن عرف المصير وغافص الزمن[٦] القصير ، فى اكتساب محمدة تبقى بعده شهابا ، وتخليد منقبة تفيده ثناء وثوابا ، فالذكر الجميل كلما تخلّد استدعى الرحمة وطلبها ، واستدنى المغفرة واستجلبها ، فلمثله فليعمل العاملون ، وغايته فليأمل الآملون « والدار الآخرة خيرٌ لو كانوا يعلمون[٧] » .

والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى شرح حقارة الدنيا على الله وبيّن ، وحدَّ[٨] البلاغ منها وعيّن ، وخَفَض الكلمة وليَّن ، وحسَّن الدار الآخرة وزيَّن ،

---

(١) فى طبعة القاهرة : قد شمل الأهل والعشير .

(٢) اقتباس من الآية رقم ٤٥ ، سورة الكهف رقم ١٨ : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... إلخ

(٣) لم ، ساقطة فى طبعة القاهرة .

(٤) فى طبعة القاهرة : عيش .

(٥) فى طبعة القاهرة : فى المساخط .

(٦) فى طبعة القاهرة : الزمان .

(٧) لعلها اقتباس من الآية رقم ٦٤ سورة العنكبوت (٢٩) : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

(٨) فى طبعة القاهرة : وحدد .

وخفض أمر هذه الدار الغرور وهيَّن . وقال صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » كيلا تتشبث بها يد ، « ولتنظرْ نفس ما قدمتْ لغد » . (١٤٧ و) والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدود ومروا ، ولقوا الله وهم لم يغترُّوا ، فكانوا إذا عهدوا بَرُّوا ، وإذا سمعوا اللغو فَرُّوا ، وإذا تليت عليهم آيات الرحمن خَرُّوا ، وكانوا عن حدود تقواه لا يبرحون ، وبسوى مواهبه الباقية لا يفرحون ، وفى مرضاته يمسون ويصبحون[١] ، « أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون[٢] » .

أما بعدُ ، فإن فى تاريخ الدول عبرةً لأولى النُّهى ، وذكرى لمن غفل عن الله وسها ، لتحوُّل الأحوال ، وتصيُّر الرسوم إلى الزوال ، وتلاعب زعازع الأهوال ، بالنفوس والأموال ، إلى إمتاع المجالسة ، وإتحاف المؤانسة ، عند الملابسة ، لا سيما التاريخ الذى لم يُهتد إلى ضمه لديوان ، لقلة عيان ، أو تأخر زمان ، فالنفوس إليه متطلعة ، وباجتلاء أغراضه[٣] متولعة .

لذلك ما جلبتُ فى هذا الكتاب ذِكرَ « ملوك الدول النصرية » على نَسَقٍ ، وأسندتُ منهم فى ليل الخبر بُدور غسق ، إذ كنتُ جهينة أخبارهم[٤] ، وزمام دارهم ، فذكرتُ نبذاً من حال[٥] وطنهم الذى سكنوه ، وأفقهم الذى حسَّنوه ، بسِيَرهم الحميدة وزينوه ، ومن دَال به قبلهم من أمير ، أو ذى خبر[٦] شهير . ثم تعاقبهم بحسب الزمان وَسعة الإمكان ، ومن اختص بهم من قاض وكاتب ووزير ، أو كان على عهدهم من مَلكٍ كبير ، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير ، وسميته « باللمحة البدرية

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى طبعة القاهرة .
(٢) الآية رقم ٢٢ ، سورة المجادلة رقم ٥٨ .
(٣) فى طبعة القاهرة : أنبائه .
(٤) وقطب مدارهم : زيادة فى طبعة القاهرة :
(٥) فى طبعة القاهرة : أحبار .
(٦) فى طبعة القاهرة : حسب .

فى الدولة النصرية » . فإن كانت الإجادة فهو القصد (١٤٧ ط) . وإن[١] كانت الأخرى بُذل الجهد ، وحصلت البراءة من العجز[٢] ولله الحمد . وها أنا أبتدى ، وبالله أهتدى ، وعفوُه يتغمد ما خطته يدى . وينقسم حسبما يذكر :

القسم الأول : في ذكر المدينة التى اقتعد هذا الملكُ سريرَها وأحكم تدبيرها .

القسم الثانى : فيما يرجع إليها من الأقاليم والأقطار ، على الإيجاز والاختصار .

القسم الثالث : فيمن دال بها من أمير ، وسلطان شهير .

القسم الرابع : فى عوائد أهلها وأوصافهم على تباين أصنافهم .

القسم الخامس : فى نَسَق الدول ، واتصال الأواخر منها بالأُوَل .

وما يختص بكل دولة من الألقاب ، والأذيال المتطرقة ، والأعقاب .

ومن المنظوم والمنثور فى شتى الأغراض من ذلك فى مخاطبة الوزير عماد الدولة أبى على عمر بن عبد الله فى بعض ما فتح الله عليه فيه ما نصه[٣] :

لا ترجُ إلا الله فى شدةٍ وثق به فهو الذى أيدك
حاشاك أن ترجُوَ إلا الذى فى ظلمة الأحشاءِ قد أوجدك
فاشكره بالرحمة فى خَلْقِهِ ووجهك أبسط بالرضا أو يدك
والله لا تهمل ألطافه قِلادة الحق التى[٤] قلدك
ما أسعد الملك الذى سُسْتَهُ يا عمر العدل ، وما أسعدك !

نخص الوزير الذى بهر سعده ، وحمد فى المضاء قصده ، وعول على الشيم التى اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجده ، الكذا[٥] ابن الشيخ الوزير الكذا ، أبقاه الله ثابت

---

(١) فى طبعة القاهرة : أو :

(٢) فى طبعة القاهرة : التقصير .

(٣) أورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب ج ٩ ص ١١٣ ــ ١١٥ .

(٤) فى نفح الطيب : الذى .

(٥) فى نفح الطيب : الوزير عمر الكذا .

القدم ، خافق العَلَم ، (١٤٨ و) شهيراً حديثُ سعده فى الأمم ، مثلا خَبَرُ بسالته وجلالته فى العرب والعجم .

تحية معظم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير ، المسرور بما سنَّاه[1] الله له من نُجْح التدبير ، والنصر العديم النظير وإنجاده إياه عند إسلام النصير ، وفراق القبيل والعشير . فلان[2] بن فلانة ، واليدُ ممدودة إلى الله فى صِلَة سعد الوزير — أبقاه الله — ودوام عصمته ، واللسان يطنب ويسهب فى شكر نعمته ، والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذمته ، وقد كان شيعتُه ، مع الشفقة التى أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد على علم بأن عناية الله عليه عا كفة ، ودِيَمَ[3] آلائه لديه وا كفة[4] ، فإن الذى أقدره وأيده ونصره ، وأنفذت مشيئته مادبره ، كفيل بإمداده ومليء بإسعاده ، ومرجو لإصلاح دنياه ومعاده ، وفى أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتَدَع ، فإنى كما يعلم الوزير — أعزه الله — منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعْد الجناب ، ومستعدى علىَّ بكونى من المعدودين فيمن له من الخلصان والأحباب ، فشرعت فى نظر أحصُل منه على زوال اللبس ، وأمان النفس ، وَاللحاق بمأمن يرعانى برعى الوزير، بخلال مايدبر الأمر من له التدبير ، فنى أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، ورد البشير بما سَنَّاه الله لسيدى (١٤٨ ط) وجابر كسرى ، ومنصفى بفضل الله من دهرى ، من الصنع الذى بهر وراق نوره وظهر ، فأمنت وإن لم أكن ممن جَنَى ، وحفّتنى المسرات بين فرادى وثُنَى ، وانشرح بفضل الله صدرى ، وزارتنى النعم والتهانى من حيث أدرى ولا أدرى ، ووجهت الولد الذى شملته نعمة الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائباً عنى فى تقبيل يده ، وشكر يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمور : منها المداولة[5]

---

(١) سناه أى يسره وسهله .

(٢) فى نفح الطيب : ابن الخطيب .

(٣) الديم جمع ديمة : بكسر الدال — هى المطر .

(٤) وا كفه : منهلة .

(٥) فى نفح الطيب : المزاولة فيما كان يلزمنى من إخوته الأصاغر .

فيما كان يُـكلفه من أمر إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، ولعائق ضعف عن الحركة[1] ، وبعد ذلك أشرع بفضل الله فى العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون و فوق الأمنية ، ورب عمل أغنى عنه فضل نية والسلام الـكريم على سيدى ورحمة الله .

وخاطبت صاحب الأشغال أبا عبد الله بن أبى القاسم بن أبى مدين ، المتقدم الذكر فى هذه الحال بما نصه :

سيدى الذى ورث الجلالة لا عن كلالة ، الجامع بين الهيبة وجمال الشيبة ، وصحة العقد ، وأصالة المجد ، والسمة المبارَكة ، وحسن المشاركة ، وسلامة الصدر ، ورفعة القدر ، بقية البيت الرفيع المعالم ، ووارث مجد عبد الله وأبى القاسم ، وحسبك بها مزية واضحة المواسم مفترة المباسم .

كتبت مهنئا جلالك الرفيع بنعمتين : نعمة الإبلال من المرض (١٤٩ و) وعودة الصحة وارتفاع العرض وهو المقدم من الغرض ، ثم نعمة ارتفاع الشدة واستئناف الدولة لباس الجدة واستقبال انفساح المدة ، وكلا النعمتين لها فىَّ مساس كبير ، وحظُّهما لدىَّ أثير يوجب إعمال القدم فضلا عن إعلام القلم . فانى أنظر إلى سيدى بعين مغضوضة عن الـكثير ، ممن يرى أنه باء بالحظ الـكبير ، وأتنَسَّمُ عليه عَرف تلك الأصول التى كرمت ، والذمم التى جلَّت مآثرها وعظمت . وكان والدى رحمه الله وقد توجه فى غرض الرسالة يخبر من ذلك فضلا ربانى على ذكره واستنابنى لعقبهم فى شكره . فليثق سيدى منى بخالصة تسر بسروره وتساهم فى أموره ، وتُثْنى عليه فى غيبه وحضوره . وقد أمرت ولدى الذى استنبته فى هذه الوجهة بلثم يده والتدرب على خدمته وخدمة ولده — والله يديم سعد سيدى ويحرس علاه ، ويعينه على ما ولاّه .

وخاطبت الصدر الأوحد صاحب قلم الإنشاء أبا زيد ابن خلدون[2] فى الغرض المذكور :

---

(١) وإفرادى له بالبركة : زيادة فى نفح الطيب وموجود بالأصل أيضا.

(٢) هو المؤرخ الفيلسوف المعروف ابن خلدون، وهو غنى عن التعريف به .

سيدى الذى له الفضائل الذاتية ، والمزايا الحسية والمعنوية ودرجة السبق فى المكارم دون مثنوية ، صورة مكملة ، وذاتا مقلدة بالخصال الشريفة محلة ، وبيتة مؤصلة ومجادة مجملة ومفصلة ، كتبت أهنىء سيادتك بنعمة الخلاص من الشدة ، واستئناف سعادة النُصْبة، (١٤٩ ط) وطول المدة والسلامة من منحسة التحول العائدة بسوء التقول وذهاب التمول فأنت اليوم غير مثلوم الوفاء ولا متكدر الصفاء ، قرير الجفن بالإغفاء ، مجموع الشمل بالبنين والله يجمعه بالرفاء . وكنت أتوقع أن يذهب بك الضجر مذهبا تسوء مغبته أو تخلف حبته ، وأنت المرشح والمحلى والموشح ، والعمرجديد ، فعلى ما الحرص شديد والأمل مديد ، فعلى ما القلق عديد ، إن نافستَ أرباب الرتب العالية فاعتبر مانلت من رتب الحكمة ، وإن نافست أرباب الذمم فالمعارف هى وفور الذمة ، وأنفقُ فى سوق السياسة صرفها من الهمة ، ولا تغفل ملاحظة الأمور المهمة ، ولتعلم أنى وإن أُغْيَيْتُ فى باب الدالة عليك ، أعرفُ الخلْق بما لديك وأهواهم إليك ، فانْصفنى باعتبار جنايتى فى جنب عنايتى ، ولا يوحشك عَتْبى فى سبيل وذى وحبى . فالله يعاملنى فيك بنيتى ، ويبلغنى من جريان أمورك على ما يُرضى غاية أمنيتى قبل منيتى . والسلام .

وخاطبت الفقيه الصدر صاحب العلامة فى الدولة المتقدمة ، الفاضل أبا الحسن ابن السعود فى هذا المعنى .

سيدى الذى له من قلبى المحل الكريم ولمجده عندى التقديم ولأياديه الشكر الذى لا يريم ، أبقاك الله بقاء يسر استصحابه ، وألبسك السعد يروق جلبابه ويستجد على هرم الدهر شبابه ، كتبت أهنىء مجدك الذى عجمتُ عوده وخبرته فحمدته وشكرته وبالجميل فى كل محلة (١٥٠ و) ذكرتُه ، فضلا مشهورا ، وخَصلا يتلألأ نورا ، وجودا فى لفق الاقتصاد مستورا ، وحَمِيَّة أصبح لواؤها منشورا بما كان من العصمة وتمام النعمة ، والخلاص من الشدة ، واستئناف طول البقاء وانفساح المدة ، ولى فى سيدى سريرة حب ماعارضها معارض ولاطرق عوْل النقص إليها فارض ، ومازلتُ قبل اليوم معزاً بثنائه وخاطباً لولائه ، فالآن لما غمر فضله الوالد والولد ، وأنسى تأنيسه

المال والبلد ، وعَمَّر حبُّه الخلد ، لا تسل عن أسباب وثيقة ووسائل بالرعى خليقة ، وقد وجّهتُ الولد المتلاحق بأخيه لطف الله به ووصل سبب الشفقة بسببه ، لينوب فى لقاء الوزارة المنعمة ووصيته بلقائكم ، فلكم عليه وعلى أخيه اليد وأنتم لهما الركن المستند ليكون بعدها سبيله إلى أبوابكم لاحبة[1] واضحة ، وحظوظه من رعيكم متى اضطر لذلك راجحة والسلام .

وخاطبت عميدالجهة المراكشية أبا ثابت عامر بن محمد الهنتانى فى غرض الشفاعة[2] :

سيدى الذى هو رجل المغرب كله والمُجمَعُ على طهارة بيته وزكاء أصله ، عَلَمِ أهل المجد والدين وبقية كبار الموحدين ، بعد السلام الذى يجب[3] لتلك الجلالة الراسخة القواعد السامية المصاعد ، والدعاء لله أن يفتح لك فى مضيقات هذه الأهوال[4] مسالك التوفيق ، ويعلقك[5] من عصمته بالسبب الوثيق ، أعرفك أن جَبَلك (١٥٠ ط) اليوم وقد عظم الرَجَفان ، وفار[6] التنور وطغى الطوفان ، تؤمل النفوس الغرقى جُودىّ جوده ، وترجو التمسك بالوجود مع وجوده[7] ، ووالله لولا العُلق[8] التى يجب لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزام ، فالله يمدك بإعانته على تحمل القُصَّاد ، ويبقى محلك رفيع العماد كثير الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفاً منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويبقى كلمة التوحيد باقية[9] فيكم إلى يوم التناد[10] ، وحامله القائد الكذا

---

(١) لحب الطريق : سكله أو أوضحه .
(٢) هذه الرسالة أوردها المقرى فى كتابه نفح الطيب جـ ٩ ص ١٢٠ — ١٢١ .
(٣) يجب : ساقطة فى نفح الطيب .
(٤) فى نفح الطيب : الأحوال .
(٥) فى نفح الطيب : ويمسك .
(٦) فى نفح الطيب : وفاض .
(٧) فى نفح الطيب : وتغتبط غاية الاغتباط بوجوده .
(٨) فى نفح الطيب : العلائق .
(٩) باقية : ساقطة فى نفح الطيب .
(١٠) أى إلى يوم القيامة .

بيته[1] معروف النباهة والجهاد ، ومحله لا ينكر فى القوّاد[2] لما اشتبهت[3] السبل والتبس القول والعمل لم يجد أنجى من الركون إلى جنابك ، والتمسك بأسبابك ، والانتظام فى جملة خواصك وأحبابك حتى ينبلج الصبح ويظهر النجح[4]، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلكم من قُصد وأمل ، وأُنضى إليه المطى وأُعمل ، وأما الذى عندى من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمناقبها المنيفة ، فهو شىء لا تفى به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله المسئول في صلة عزة[5] سيدى ، ودوام سعده ، والسلام .

وخاطبت شيخ الدولة المرينية على هذا العهد المرجى يحيي بن رحو وكان قد صدر له منى برٌ عند وصوله إلى أغرناطه[6]، و نشأت مداخلة عميمة إلى الآن[7]:

سيدى الذى له المزية العظمى والمحل الأسمى ، شيخ قبيل بنى مرين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء (١٥١ و) والرجاحة والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المباحة ، وشرط[8] الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة . أُسلِّم على ذاتك[9] الطاهرة التى بخلت الأزمان — والله — أن تأتى بنظيرها ، وتنافست الدول فى تكبيرها ، وسارت المواكب الملكية[10] بمسيرها ، وأثنت الألسن بفضلها وخيرها ، وأقرر لديها أنى أعددت من معرفتها بالأندلس كنزاً لم أنفق منه إلى اليوم وزنا ، إعداداً له وخزنا ، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقه ، ولا ترد

(١) بيته ، ساقطة فى نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب :الفؤاد .
(٣) فى نفح الطيب : استبهمت .
(٤) ويعظم المنح ، زيادة فى نفح الطيب .
(٥) فى نفح الطيب : عز .
(٦) يلاحظ أن ابن الخطيب استعمل الاسم القديم لغرناطة وهو أغرناطة اليهود .
(٧) أورد المقرى هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٩ ص ٩٠ – ٩١ .
(٨) فى نفح الطيب : وشروط .
(٩) فى نفح الطيب : ذاتكم .
(١٠) فى نفح الطيب : المملوكة .

اليد إلى الذخيرة إلا فى إضاقة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلى جَهْلاً بقيمتها العالية ، وإزراء بجهتها الكافلة الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وأعفا عن ابتذالها ما كيف الله من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنى قد كادت حاجتى إلى ذلك العتاد أن تتمحض ، وزبدته أن تمخض[1] ، إذ هو حظى من رعى ذلك القبيل الذى قُصِرت عليه رياسته ، والوزير الذى من رأيه تستمد سياستُه ، وإذا وفد خاصة هذه المدينة مُهَنِّين ، وبشكر إيالته الكريمة مُثْنِين ، فخيمته ظلى الظليل[2] ، ومشاركته معتمدى فى الكثير ، فكيف ولا غرض لى إلا فى القليل ، وعندى أن رعيه لمثلى لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ، ولا ذمام يحسب ، فمثله من قدر قدر الثناء ، وشد أعلام الحمد[3] سامية البناء وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمرى كله بعد الله إلى رأيك ، وغنيت (١٥١ ط) عن سعى لنفسى بجميل سعيك . والسلام .

وخاطبت فى هذه الحال صاحب خُطة العلامة الأمير الناجم الفقيه أبا سعيد ابن رُشَيْد بما نصه من المنظوم والمنثور . واتفق أن لم يوجه شىء من ذلك كله ولا مما قبله لفصل الدهر هذه الخطة بإذن مصرفه سبحانه .

بك الخطط الرفيعة فَلْتُهَنَّا   فإنك سعدها لفصّ [illegible]
إذا ذُكر العلاء فأنت أعلى   وإن ذُكر السناء فأنت أسنا
محاسنك اغتدت جنات عدن   لمن يرتاد إحسانا وحسنا
فمها حلّها إنسان عين   فللإنسان فيها ما تمنا
هززت أبا سعيد منك دوحا   به ما شئت من ظل ومجنا
فكن حيث اقتضاه بك اعتدادى   وشِدْ لى من كريم الرعى مبنا
فتى الفتيان أنت بلا نزاع   ومثلى من وفى بيد وأثنا

(١) فى نفح الطيب : تتمخض .
(٢) فى نفح الطيب : ظل الظليل .
(٣) فى نفح الطيب : والثناء زيادة عن المتن .

الحمد لله حمد من لم يفقد اللطف ولم يعدم على البذل العطف ، والشكر لله الذى سحب السُّحب الوطْف[1] ، وسوغ من أفنان نعمه القطْف ، وأطالع سيدى الذى وسم السعد كنيته وأعلها ، وقبل الإجماع حجة فضله وَسلَّمها ، وتيمنت باسمه وصورته ومعرفته الدولة التى خدمها [لما عجل لها الوسيلة وقدمها[2]] أننى لما اتصل بى خبر استقلاله برياسة القلم الأعلى والرتبه الفضلى ، والدوحة التى هو الأحق بها الأولى ، ذاتاً وصفات وقولا [قلت] هذه فريضة لى فيها / ١٥٢ و / حظ وتعصيب ، وغنم لى فيه إرضاخ[3] ونصيب ، وهدف لى فيه سهم مصيب ، العروة وثق ، والآخرة خير وأبقى . اللهم أوزعنا شكر نعمتك ، ولا تقطع عنا عوائد فضلك وكرمك . سادة ككعوب الرمح ، فضلهم أوضح من فلق الصبح ، كلما أفل منهم آفل أو غاب كاف كافل ، أربى من أقبل على من أدبر ، وقال لسان الحال ، هذا أكبر ، سيما هذا الفاضل ، الذى هو فضل كله ، وطبعه على الفضائل يدله ، ماشئت من رُشْدٍ وسعد ووجه سَبْط ، وحسبٍ جعدٍ وقبل وبعد ، ومخيلة نجح لاتخلف بوعد ، ورياسة هذا القلم الأعلى ، أبقى الله سيدى ، مورد مثلى ممن أصبح سلعة تتغالى فيها أولو الذواتِ الفاخرة ، ويتناغى المتنافسون فى إحياء العظام الناخرة ، وحظ الدنيا وحظ الآخرة ، فإذا رفع فى الرُّتْبة عَلَمٍ خفاق ، وتعين إجماع وإصفاق ، فهو قبلتى التى أرضاها ، ووجهتى التى عيّنها الدهر واقتضاها . فهنأت أولا نفسى بوفور حظها من النعمة ، وفوزها بالقدح المعلى عند القسمة ، ثم هنأت الرتبة التى ظفرت بالكفء الكريم ، ولا زمها اليمن والسعد ملازمة الغريم ، وقدَّمت بين يدى قدومى على سيدى الذى لامحطَّ لى إلا على نار قِراه ، ولاسَيْر لى إلا لِذَراه ، فقد جمع لى الصيد فَراه ، وحُمد عزمى عند صُبح وجهه المشرق وسُراه ، بفضل الله وتنبيه مثله على رعى مثلى جفوة يسعها كماله ويتغمدها إفضاله / ١٥٢ ط / إذ ذاته أشرف ، وهو بما توجبه طباعه الكريمة أعرف ، حفظ الله علينا منه جملة الكمال وقبلة الآمال ، وعرفه عوارف الإقبال بفضله .

---

(١) السحب الوطف أى الممتلئة بالمطر ، يقال « فى السحابة وطف » إذا تدلت ذيولها .
(٢) هذه العبارة كتبت فى الهامش .
(٣) لعلها من الرضخ أى العطاء القليل .

وخاطبت صاحب أشغال الدولة الناجمة يوسف بن الكنانى كذلك :

سيدى الذى إليه يشار بالبنان عند ذكر الأعيان ، وعنده يقف حد اللسان فى عرض أولى الحسن والإحسان ، سهم كنانة الصائب ، وفخر (؟) منها على الذاهب . أبقاك الله واضح المسالك فى الفضل والمذاهب .

حصلت بينى وبين ابن عمك مداخلة أوجبها المجد الذى أنت فيه قسيمه ، والسَّرْو[1] الذى راق العيون وسيمه ، والخلق الذى هو الروض تضوَّع[2] نسيمه ، وأنا حريصٌ أن أجمع من صنيعتى الدهر على بمعرفتكما بين أختين ، هما انشراح الصدر وقرة العين ، فسهل سبيل الثناء على مجدك ، وسوغ المكارم التى هى من بعض البنين لجدك ، فإننى من يوم نزعت عن وطنى وضاق بالاغتراب عطنى[3] عيال على الأعيان الأعلام سيما حملة الأقلام ، وقد رمت قربك فأمَّا معنىً وحُباً فتيسر ، وأما حساً ظاهرا فتعسَّر وتعذر ، وبادرتُ تهنئةَ سيدى بالولاية التى هى إرث عن سلف وعن سابق ومؤتنف ، وإن أغفلت قبل فقد ذكرت ، أو أخطأت فقد اعتذرت ، والفروض تُقضى إذا فاتت وهى العبادة ، وكيف المعاملات التى تتغمدها السادة ، وأنا على أثر الكتاب . وقدمته لأجد محله فسيحاً لأملى ، كفيلا بجذلى / ١٥٣ و / وجنابه منشرحا لناقتى وجملى ، بحول الله .

ولما تم الأمر لمولانا السلطان أبى زيان خاطبته على يدى مصرح أمره عامر بن محمد ابن على بما نصه . . وقد حملته ما ينهيه إليه من تشيعى[4] :

يا ابنَ الخلائف ياسمىَّ محمدٍ يامَنْ عُلاه ليس يحصر حاصرُ
أبشر فأنت مجدد الملك الذى لولاك أصبح وهو رسمٌ داثر

---

(١) السرو : شجر قويم الساق حسن الهيئة .

(٢) ضاع وتضوع المسك : انتشرت رائحته .

(٣) العطن والمعطن : مبرك الابل أو مربض الغنم ، والعطن أيضاً الرائحة النتنة ولعله يعنى بذلك أن مدة إقامته فى بلاد الغربة قد طالت حتى ضاق المكان به .

(٤) اورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب (ج ٩ ص ٨٦ — ٨٩) .

من ذا يعاند منك وارثه الذى ... بسعوده فَلَكُ المشيئة دائر

ألقت إليك يد الخلافة أمرها ... إذ كنت أنت لها الولى الناصر

هذا وبينك للصريخ وبينها ... حرب مضرّمة[1] وبحـر زاخر

من كان هذا الصنع أول أمره ... حسنت له العقبى وعزّ الآخر

مولاى عندى فى علاك محبة ... والله يعلم ماتُكنُّ ضمائر

قلبى يحدثنى بأنك جابر ... كسرى ، وحظى منك حظ وافـر

بثَرىَ جدودك قد حططتُ حقيبتى ... فوسيلتى لعـلاك نور باهر

وبذلت وسعى واجتهادى مثلما ... يلقى لملـكك سيف أمرك عامر

وهو الولى لك الذى اقتحم الردى ... ونضى[2] العزيمة وهو سيفٌ باتر

وولى جـدك فى الشدائد عندما ... خذلت علاه قبائـلٌ وعشائر

فاستهد منه النصح واعلم أنه ... فى كل معضلة طبيب ماهر

ورفعتهـا لتنوب قبل توصلى ... لك إذ عدانى عنك عذر ظاهر[3]

إن كنت قد عجلت بعض مدائحى ... فهى الرياض وللرياض بواكر

مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، الذى سخر الله البر والبحر لأمره[4] ، (٥٢٣ ط) وحكم فوق السماوات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سعده عن سَلِّ السلاح وشهره ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامةَ تسليمه وصبره ، وقيض له فى علم غيبه وزيرا مذخورا لشد أزره ، وقود الملك إليه على حال حصره ، الخليفة الإمام الذى استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزه الأعلام ولاح بدر مُحَيَّاه فافتضح[5] الإظلام ، المقتدى بالنبي الكريم سميه فى المراشد التى تألق منها الصبح ، والمقاصد التى لازمها النجح ، والتمحيص الذى

---

(١) فى نفح الطيب : مضرسة .

(٢) فى نفح الطيب : قضى . والمتن أصح من نضى السيف اى سله من غمده .

(٣) هذا البيت ساقط فى نفح الطيب .

(٤) فى نفح الطيب : بأمره .

(٥) فى نفح الطيب : فافتض الظلام .

نبع منه المنح ، حتى فى الهجرة التى جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ، ابن مولانا ولى العهد ترشيحاً وحالا[1] ، ومؤمل الإسلام تقلدا للمذهب الصريح وانتحالا ، وأمير المسلمين لو أوسعه القدر إمهالا ووسْطى عقد البنين خلائق متعددة وخلالا ، المتحف بالشهادة ولما يعرف بدره هلالا ، المعوض بما عند الله سعادة ألبسته سِرْبالا ، وأبلغته من رضوان الله تعالى ، آمالا ، أبى عبد الرحمن بن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وستر الله المسدول على الضعفاء ، والمجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهمته[2] وآماله ، المقدس أبى الحسن بن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرتضين[3] ، من قبيل بنى مرين ، وصفوة الله فى هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله على ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوجه من تاج العزة (١٥٤ و) القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآيته[4] الناسخة ، وربوته السامية الباذخة ، ، وعزة نصره الشادخة وأوْزَعَهَ شكر آلائه ، فى الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغول السفر ، وارتكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بدلوا تبديلا ، ولا ارتضوا لقِبْلَة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شطرها تحويلا ، بل صبروا صبرا جميلا ، وباعوا نفوسهم تتميما لعقدة إيمانهم وتكميلا . يسلم على مقامكم الذى وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرت قبَلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم الدهر[5] بمظاهرة أمره السعيد فبر ، والشكر لله فى يمينه ، عبدكم الذى اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقر بملككم عيناً وشرح صدراً ، وبذل الجهد وإن حمل[6] قُدرة وقدرا والتمس

---

(١) فى نفح الطيب : ومآلا .

(٢) فى نفح الطيب : بهممه .

(٣) فى نفح الطيب : المرضيين .

(٤) فى نفح الطيب : وآياته .

(٥) فى نفح الطيب : السعد .

(٦) فى نفح الطيب : قل . ولعل الأصل : خمل .

لكم الدعاء علناً وسرّاً ، فلان[1] الذى حط رحل اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محاريب بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين فى مظاهرتهم ورعيهم يظهر للناس مخايل هداكم ، وتدرُّ سحائب جودكم ، ملتحفاً منذ سنتين بأصونة قبورهم وثيابها ، مستظلا ببناها[2] المعظمة وقبابها ، ممرغاً ، خده بترابها ، مواصلا الصراخ يال مرين ويال يعقوب[3] متطارحاً على أبوابها ، فلم يتح الله له نعرة ترعى الضيف وتحمى الدخيل ، أو حمية تدفع الضيم وتشفى الغليل ، إلا على يديكم[4] أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان فى موقف الهول العظيم ، المذخور[5] لنصر المظلوم وإنصاف (١٥٤ ط) الغريم وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم .

كتبه مهنئا بما سنّاه[6] الله لملككم من الصنع الذى خرق حجاب العادة وأرى إعجاز السادة ، معجلا ذلك بين يدى المبادرة إلى لثم بساطكم الذى لشرف وجوهها تلثمه الوجوه ، وتخشاه الأملاك الجبابرة وترجوه ، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه فى الحفل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود ، وإلقاء ماعند العبد من خلوص وجنوح وحب وضح[7] أىَّ وضوح ، فولىّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد واثق بفضل الله على يديكم ، وملتمس النصر لديكم وقاطع أن طلبته بكم تتسنى ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذى تجرأ المتغلب[8] به على ملككم ، ومد اليد إلى نشر سلككم ، ونقص إرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة لكم المقرر وأضرم النار فى بسائطكم وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم ، متكثراً عليكم بالقلة متعززاً بالذلة

(١) فى نفح الطيب : ابن الخطيب .
(٢) فى نفح الطيب : بافنيتها وهى أحسن .
(٣) فى نفح الطيب : يا لمرين ويا ليعقوب .
(٤) فى نفح الطيب : يدكم :
(٥) فى نفح الطيب : المدخور .
(٦) فى نفح الطيب : سنى .
(٧) فى نفح الطيب : واضح .
(٨) فى نفح الطيب : المتقلب .

جان[1] على داركم بما لاتبيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يأذن الله تعالى فى الانتصاف ، والله يجعل الظهور لكم من الأوصاف ، ويعينكم على جبر الكسير ، وتيسير الأمل[2] العسير ، ويهنيكم منيحة الملك الكبير ويبقى كلمته فى عقبكم بعد تملؤ التعمير . والسلام .

وخاطبت الوزير كبير الدولة[3] على أثر الفتح الثانى الذى تكيف له[4] :

سيدى الذى (١٥٥ و) أُسَرُّ بسعادته ، وظهور عناية الله به ، فى إبدائه وإعادته ، وأعلم كريم[5] مَجَادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، الجارى حديثُ سعده ومضائه مجرى المثل السائر ، الكذا بن الكذا ، أبقاه الله عزيز الأنصار ، جارية بيُمْن نَقيبته حركةَ الفَلك الدوار ، معصوما من المكاره ، بعصمة الواحد القهار ، معظِّمُ سيادته الرفيعة الجانب ، وموقر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعى إلى الله بطول بقائه فى عز واضح المذاهب ، وصنع واكف السحائب ، فلان[6] من كذا ، عن الذى يعلم سيدى من لسان طَلْق بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله بالدعاء ، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذى تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سنّى[7] الله له من النصر والظهور ، والصنع البادى السفور ، لمَّا التقى الجمعان وتهوديت[8] أكواس الطعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهرت من حزامة[9] سيدى وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائلة لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربه ، فقلت الحمد لله

---

(١) فى نفح الطيب : جانيا .

(٢) فى نفح الطيب : الأمر .

(٣) يقصد الوزير عمر بن عبد الله بن على اليابانى .

(٤) نقل المقرى هذه الرسالة فى كتابه نفح الطيب (ج ٩ ص ١١٥ - ١١٦) .

(٥) فى نفح الطيب : كرم .

(٦) فى نفح الطيب : ابن الخطيب .

(٧) فى نفح الطيب : ما سناه .

(٨) فى نفح الطيب : وتهودت .

(٩) فى نفح الطيب : كرات .

الذى جعل سعد عمادى متصل الآيات ، بعيد الغايات ، وصنع الله له باهر الإياة[1] ، واضح الغرر والشِّيات ، وقد كنت بعثت أهنئه بما تقدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت اللهم أفد عليه[2] التهانى تَتْرى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هى الصغرى ، واجمع له بين نعم الدنيا (١٥٥ ط) والأخرى ، والناس — أبقى الله سيدى — لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتبهات ، إلا المحب المتشيع ، فجهتك هى التى آنست الغربة ، وفرجت الكربة ، ووعدت بالجبر[3] ، وضمنت عاقبة الصبر[4] ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوى على عبيده بهذه المدينة ، وأصل إن شاء الله لمباشرة الهناء ، وقرة[5] العين بمشاهدة الآلاء ، والله عز وجل يديم سعادة سيدى ويطيل بقاءه ويرادف قِبَله نعمه وآلاءه بفضله .

وخاطبت الرئيس الماجد أبا ثابت عامر بن محمد مراجعا عن مخاطبةٍ برّةٍ وردت قبل وصوله لمصارحة المُلك :

يا سيدى الذى لبستُ من يده البيضاء طوقا وسموت بمعرفته فوقا فوقا ، وعجزت عن معرفة قدره مقالا فقلدتُها حالا وذوقا . ورد على مشرف المراجعة وفضله عميم ، ومصدره — أبقاه الله — كهف فهو لأجل ذلك رقيم ، فقلت قول بلقيس : إنى أُلْقِى إلى كتاب كريم . أطرب بدنوّ اللقاء . وبشر على الظماء البرح بالسقاء . وهى علم الله الأمنية والمنحة السنية ، سيما لمثلى ممن خبر وتنخل ، وجود ونخل وأعمل ميزان الاختبار ، وماز الشبه من النضار ، فوقف عليك اختياره وشهد بطيب تِبْرِك معياره ، فأنت — والله يقيك ويصل بك الإمتاع ويبقيك — لست من الزمن فى شىء بعد أن صار رشده لِغَىّ ونشره لِطَىّ ، إنما أنت بقية من مشيخة الإمام ، وزهر تلك الكمام ،

(١) هذه الفقرة زيادة على نفح الطيب .
(٢) فى نفح الطيب : علينا .
(٣) فى نفح الطيب : بالخير .
(٤) فى نفح الطيب : الضير .
(٥) فى نفح الطيب : واصل الله تعالى لمباشرتها الهناء .

ورقعة من تلك الحلل الرفيعة ، وعوضٌ من تلك الزريعة ، أبقته الأيام (١٥٦ و) لتباهى به يوم زينة ، وتدلّ على من ذهب من رجالها وهى جد حزينة . وكان مما أوجب علىّ يد سيدى أن أقاسمه المراحل وأجود بلقائه أُنْسِىَ الماحل ، لولا ما طرقنى من تشتيت صيَّرنى دابة[1] طفل ، وحارس باب غير ذى قفل . والإنسان محل تأثير وباعتبار التغييرات غير أثير ، والله عز وجل يؤاخذ ببعض ما كسب العبد ويعفو عن كثير ، ومع ذلك فلقاء سيدى روحٌ من الله ينفّس الكروب ويبلغ المرغوب ، وحركته بفضل الله حركة إقبال وعند اللقاء يفسر كل إجمال بحول الله . والله عز وجل يمنع عن سيدى مواجد الدهر ، ويحفظه فى السر والجهر ، ويقر عينه بولده ، ويرده مرد السلامة والغنم إلى بلده ، ويجعل أيدى مناوئه تحت يده كما جعل يومه فى الفضل مقصرا عن غده بفضل الله .

ومما خاطبت به وزير الدولة الناجمة محمد بن موسى الملقب بالسُبَيْع ولم يُقْضَ إنفاذه :

أيا سَبُعَ الميدان غير مدافع	إذا برقت تحت العَجاج المناصلُ
ومن شأنُه والله يرفع شأنَه	(عفافٌ وإقدام وحزم ونائلُ[2])
أهنيك أم تُهْنَي الوزارةُ إنها	أنافَ عليها منك كافٍ وكافل
لئن صَغَّروا منك السُبَيِّعَ إنه	لتصغيرُ تعظيم به الفخر حاصل
كما فعلوا فى الموت والخطبُ خطبُه	(دُوَيهيةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامل)

ومما صدَّرتُ به إليه كتابا لم يتأتَّ إيصاله :

أيا سَبُعَ المَيدانِ دعوة آملٍ	على يدك النصرَ العزيزَ على الدهر
عيالٌ على الأحرار أصبحتُ فلتَقُمْ	بأمرى قيامَ الواحدِ الماجدِ الحُرِّ

---

(١) الكلمة غير منقوطة فى الأصل .

(٢) اقتباس من بيت أبى العلاء المعرى المعروف :

ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل   عفاف وإقدام وحزم ونائل

وأنتَ الذى جلَّيتَ فى كلِّ حَلْبَةٍ   من الجود والإقدام فى حدَّةِ العُمْرِ

إلى الحسب الوضاح والشِّيَمِ العُلى   إلى الرأى والفهم المُسَدَّدِ والشعر

لَعَمْرُكَ ما تدرى الوزارةُ كُفؤَها   سواكَ يمينا لا يخاف من الوزر

ومثلك من يُعْنَي بمثلى فإننى   تهيمُ المعالى فى ثنائى وفى شكرى

ومن المقطوعات المستملحات قولى وقد قلت لبعض الأصحاب عقب فكاهة ولوذعية أنكرتُها على نفسى ما رأيت ضيفا أهون ولا أهضم لدىّ من هذا الشيب الذى عاجلنى . فقال لى هو (أعنى الشيب) جَنَي على نفسه ، فإنه طرقك على غَفْلة وفى غير وقته الذى يستعد لكرامته[1] :

قلت للشيب لا يَرِبْكَ جَفائِى   فى اختصارى لك البرور ومقْتِكْ

أنت بالعَتْبِ يا مَشيبِيَ أوْلَى   جئتنى غفلةً وفى غير وَقْتِكْ

ومما وقع من المُلَح وقد جرى ذكر علىّ بن كماشة[2] من قواد الأندلس وقد مر ذكره . وهو مشهور بالشؤم فى حركاته ، معروف بذلك . وتوجه فى خدمة السلطان إلى الأندلس فلم ينجح القصد فقلت :

كما شِيكُم من أجله انكمش السعد   إذا ما اطَّرحتم شُؤْمَهَ أُنْجِزَ الوعْدُ

---

(١) أورد المقرى هذه الأبيات فى نفحة (ج ٩ ص ١٧٩) .

(٢) هو القائد والوزير الغرناطى على بن يوسف بن كماشة الحضرى ويكنى أبا الحسن قام برسم الوزارة للسلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله عندما أقام بمدينة رندة قبل عودته إلى عرشه فى غرناطة وقد أفرد له ابن الخطيب ترجمة طويلة فى كتابه الإحاطة (لوحة ٥٧٠ - ٥٧٢ بالمكتبة الوطنية بمدريد) نقتطف منها هذه الفقرة : « كان جده من المتزين ببعض حصون الأندلس بطلياطة (بالقرب من أشبيلية) وخدم طاغية الروم ببعضها وانخرط فى جملته ، يشهد بذلك مكتوبات تلقاها بشماله ووراء ظهره ، صانها حافده للترجم به فى خرقة من السرق ، لا يزال يعرضها فى سبيل الفخر على من يصل إلى باب السلطان من رسل الروم ، ولقد عرضها أيام سفارته إلى ملك قشتالة على وزيره شمويل اليهودى وطلب تجديدها وقال للملك هذا يتضمن خدمة جدك السلطان مولاى جد مولاى السلطان . هذا الرجل حسن الشكل كثير الهشة ، جيد الرياش ، كثير التملق والتوسل شديد المداخلة لأذيال الأمراء متبذل فى أسواق الخدمة . . اطمع خلق الله وابخلهم بما لديه ، وأبعدهم فى مهاوى الخسة . أما فلسه فمخزون وأماخوانه فمحجوب ، وأمازاده فممنوع ، وأماثوبه فحبيس التخت إلى يوم القيامة » .

ومن لم تكن من قبلُ للسعد عنده مخيلةُ نُجْحٍ كيف تُرجى له بَعْدُ
وتصريفُه المشؤوم فلتتذكَّروا وما قلتُ إلا بالذى عَلِمَتْ سَعْدُ

وجرى أيضا ذكر بعض ما يوصف به فكان من التملح فيه :

قيل لى ماتت فراشة من بخار ابن كُماشه
أحرزتْ أجرَ شهيدٍ ناله الطعنُ وناشه
رحمة الله ورضوا ن على تلك الفراشه

وفى مثل ذلك أيضا :

مرَّ الذباب على فم ابن كماشةٍ فانفضَّ عسكرُهُ وهيض جناحُهُ
فكأنهم صرعى وقد عصفت بهم مسمومةً عند الصباح رياحُهُ
سرعانُ حربٍ من بنى حرب أتت حملَ الحسامَ عليهمُ سفَّاحُهُ
أعلى جَلَّ اللهُ كمْ من حائنٍ ناجيتَهُ صُبْحًا فساء صَباحُهُ

وقلت وقد حدث ما أوجبه :

من طلب الودَّ من سلاوى أنشأه الله من مساوى
هاويةٌ أمُّه وفيها أبوهُ مِن بَعْدِ ذاكَ هَاوِى
راويةُ الفضل فى انقطاع عنهم إذا ما فَرَضْتَ راوى
حَمْقَى فما شئتَ من دماغٍ قد عَدِمَ المخَّ فهو خاوى
مرضَى من الجهل لا حكيمٌ ولا طبيبٌ ولا مداوى
ليس لهم فى المَشَاق نِدٌّ ولا نَظيرٌ ولا مساوى
قبَّحها الله من وجوهٍ أدحضها الله من دعاوى
ياليتنى إذْ سكنتُ فيهم فى أرض والا[1]تن قِنَاوى[2]

(١) ولا تن : لعله اسم قبيلة بربرية فى جنوب المغرب .

(٢) قناوى نسبة إلى قنوه فى الجنوب من المغرب حيث يستجلب الخدم والرقيق فى تلك العصور .

وخاطبت شيخ[1] العرب المخصوص بالمزية لهذا العهد مُنبها على بر من قصَدَه، مستعينا بجاهه من الأصحاب[2] :

عَرَصاتُ[3] دارك للضياف مُبارِكُ	وبضوء نار قِراك يُهدى السالك
ونوالُك المبذولُ قد شمل الورى	طُرًّا وفضلك ليس فيه مُشارك
قُلْ للذى قال الوجودُ قد انطوى	والبأس ليس له حسام فاتك
والجودُ ليس له غَمام هاطل	والمجد ليس له سنام[4] تامك
جمع السجاحة[5] والرجاحة والندى	والبأس والرأى الأصيل مُبارَكُ
للدين والدنيا وللشيم العلا	والجودِ إنْ شَحَّ الغمام[6] الماسك
عند الهياج ربيعةُ بن مُكَدَّم[7]	فى الفضل والتقوى الفُضَيْلُ[8] ومَالِكُ[9]

(١) هو الشيخ مبارك بن إبراهيم بن عطية بن مهلهل الخلطى . راجع (الناصرى : الاستقصا جـ ٤ ص ١٣) .

(٢) أورد المقرى هذه الرسالة فى كتابه (نفح الطيب جـ ٩ ص ١٠٤ وما بعدها) وكذلك الناصرى السلاوى فى كتابه (الاستقصا جـ ٤ ص ١٣ وما بعدها) .

(٣) فى نفح الطيب والاستقصا : ساحات دارك . والعرصة هنا (بسكون الراء) ساحة الدار وجمعها أعراص وعرصات .

(٤) فى نفح الطيب : همام باتك .

(٥) فى نفح الطيب والاستقصا : الشجاعة .

(٦) فى نفح الطيب والاستقصا : السافك وهى الأصح .

(٧) ربيعة بن مكدم .

(٨) لعله يقصد الزاهد المشهور أبا على الفضيل بن عياض الفنديني (بضم الفاء وسكون النون وكسر الدال ، نسبة إلى فندين وهى من قرى مرو) : عاش فى القرن الثانى للهجرة أيام الخليفة هارون الرشيد ، ويروى أنه كان فى أول أمره من قطاع الطرق فى خراسان ثم تاب وتزهد ثم سافر إلى الكوفة حيث سمع الحديث بها ثم انتقل إلى مكة وجاور بها إلى أن مات سنة ١٨٧ هـ . ومناقب الفضيل كثيرة أورد ابن خلكان بعضها فى الترجمة التى أفردها له . راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢١٥ ـ ٢١٧) .

(٩) لعله يقصد الإمام أبا عبد الله مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) وصاحب المذهب السنى المعروف باسمه ، ومؤلف كتاب الموطأ وهو كتاب فى الفقه والحديث معا رتب فيه أبواب الفقه على الحديث بمعنى أنه ذكر أبواب الفقه المختلفة كالصلاة والزكاة والصوم ... إلخ . ثم ذكر الأحاديث النبوية الخاصة بكل موضوع من هذه الموضوعات الفقهية ، وتوفى الإمام مالك بالمدينة سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع ، وكان رحمه الله شديد البياض إلى الشقرة، طويلا، عظيم الهامة =

ورث الجلالةَ عن أبيه وجـدِّهِ	فكأنَّهم ما غابَ منهم هـالك
فجيـادُه للآمـلينَ مراكب	وخيامـه للقاصـدين أرائك
فإذا المعـالى أصبحت مملوكة	أعناقهـا بالحق فهو المـالك
يا فارسَ العُـرب الذى مِن بيتـه	حرمٌ لهـا حـجٌ به ومنـاسك
يا مَنْ يبشر باسمـه قُصّاده	فلهم إليـه مسـارب ومسـالك
أنت الذى استأثرتُ فيك بغبطتى	وسِـواكَ فيـه مآخـذ ومتارك
لا زلتَ نورا يُهتـدى بضيـائه	مَنْ جَنَّـهُ للروع ليـلٌ حالك
ويخصُّ مجـدَك من سلامى عاطرٌ	كالمسك صَاكَ به الغَوالى صَائك

الحمد لله الذى جعل بيتك شهيرا ، وجعلك للعرب أميرا ، وجعل اسمك فالا ، ووجهك جَمَالا ، وقربك جاهاً ومالا ، وآل رسول الله لك آلا ، أسلم عليك يا أمير العرب وابنَ أمرائها ، وقُطْبَ سادتها وكبرائها ، وأهنيك بما منحك الله من شهرة تبقى ، ومكرمة لا يضلُّ المنصف بها ولا يشقى ، إذ جعل خيمتك فى هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف أشياعه ، مأمناً للخائف على تباين[1] المذاهب والطوائف (١٥٨ و) وصَرَفَ الألسنة إلى مدحك ، والقلوب[2] إلى حبك ، وماذلك إلا لسريرة لك عند ربك . ولقد كنت أيام تجمعنى وإياك المجالسُ السلطانية على معرفتك متهالكا ، وطوع الأمل سالكا ، لما يلوح على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشيم الدالة على العلياء ، وزكاء الأصول ، وكرم الآباء ، وكان والدى ، رحمه الله ، عُيِّنَ للقاء خال السلطان قريبكم ، لمَّا توجه فى الرسالة إلى الأندلس ، نائباً فى تأنيسه عن مخدومه ، ومنوّها حيث حلّ

= أصلع يكره حلق الشارب ويراه من المثلة ويسمى مالك بالأصبحى (بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الباء) نسبة إلى ذى أصبح وكانت قبيلة كبيرة باليمن وإليها تنسب السياط الأصبحية .

راجع (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧) وراجع كتاب الاستاذ أمين الخولى عن الإمام مالك بن أنس .

(١) فى نفح الطيب : كثرة ، وفى الاستقصا : قياس .

(٢) فى الاستقصا : الخلود .

بقدومه ، واتَّصَلَتْ بعد ذلك بينهم المهاداة والمعرفة ، والوسائل المختلفة ، ثم[1] لما حل ولدى بفنائكم شملته مكارمكم العربية ، ونالته فضائلكم التى اقتضتها الأصول الزكية والنفس الأبية ، فعظُمَ لأجل هذه الوسائل شوقى إلى التشرف بزيارة ذلك الجناب الذى حُلُوله شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذُخْر ، فلما ظهر الآن لمحل الأخ القائد الكذا فلان اللحاقُ بك ، والتعلق بسببك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضى ، والله ييسر فى البعض ، عند تقرير الأمر وهدنة الأرض . وهذا الفاضل بركةٌ حيث حل، لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجدٌ وابن أمجاد ، ومثلك لا يوصى بحسن جواره ، ولا يُنَبَّهُ على إيثاره ، وقبيلك فى الحديث من العرب والقديم[2] ، وهو الذى أوجب لها مزيةَ التقديم، لم يفتخر قط بذهب يجمع ، ولا ذخر يرفع ، ولا قصر يبنى ، (١٥٨ ط) ولا غَرْس يجنى ، إنما فخرها عدو يَغْلَبُ وثناء يجلب ، وجُزُر تنحر ، وحديث يذكر ، وجُودٌ على الفاقة، وسماحة بجهد[3] الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفَنِيَ النَّشَب ، وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيل العِرَاب ، وكل الذى فوق التراب تراب ، وبقيت المحاسن تروى وتنقل ، والأغراض تجلى وتُصقل ، ولله درّ الشاعر إذ يقول :

وإنما المرء حديثٌ بَعْدَهُ ... فَكُنْ حَدِيثاً حسناً لِمَنْ وَعَى[4]

هذه مقدمةٌ أرجو أن يُنْسِئَنِي[5] الله بعدها لقاء الأمير ، فيجلى اللسان عما فى الضمير .

ومدحى على الأملاك وقف وإننى[6] ... رأيتُكَ منها فامتدحتُ على رسم

وما كنتُ بالمُهْدِى لغيرك مدحتى ... ولو أنه قد حلّ فى مفرق النجم

---

(١) هذه العبارة التى تنتهى بالنفس الأبية ، ساقطة فى كتاب الاستقصا .

(٢) فى الاستقصا : وقبيلك من العرب فى الحديث والقديم .

(٣) فى الاستقصا: كجهد

(٤) هذا البيت من مقصورة الشاعر ابن دريد .

(٥) فى نفح الطيب والاستقصا : أن يسر الله تعالى .

(٦) فى نفح الطيب : ومدحى على الأملاك مدح وإنما .... الخ .

وطلب مني صاحب العلامة الرئيس الفاضل أبو القاسم بن رضوان[1]، أن أكتب لولده على ظهر مجموع، انتسخ له من شعري بالإجازة، فكتبت له ما نصه:

أما بعد حمد الله الذي جعل الفضائل بذراً وزرعاً، وأصلا يخلف فرعاً فإن أهمل الأصل فهو من الاستفادة الفصل، وإن ترك الزرع ضاق بالحاجة الضرع، فحفظها لهذا السبب حفظ الأنواع، وأغرى بها سليمة الفِطَر وكريمة الطباع، فاطردت العناية واستمرت، وانثالت، ونجحت الأعمال، وانبعثت الآمال، وتعدت شروط الوجوب إلى شروط الكمال، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد ورسوله الذي فضلت ملته الملل، وشفت (١٥٩ و) هدايته العلل، فكان مما انفردت به رواية الخلف عن السلف، وتلافى الفوائد الفعلية من قبل التلف، والرضا عن آله الطيبين، وصحابته المنتخبين، فإنني لما استدعاني السيد الكبير الحبر الإمام صاحبُ القلم الأعلى، والطريقة المثلى، والذات الفُضلى، ريحانة الأندلس التي تضوّع منها المغرب، وتغنى بحديث فضلها الحادى المطرب، وفخر الأفق الجهادى بيتاً معموراً بالوزراء الأخيار، والصلحاء الأبرار، ونسباً في ذروة الأنصار من بني النَّجار، وحسبك بخؤولة المختار، وعفافاً طاهر الثوب ضافي الإزار، إلى الوجه المبشر بالسعادة ويمن النقيبة، في الإبداء والإعادة، والحياء الذي نضَّر الوجه، وأرق البشرة، والذات التي لا تعرف الشره والعلم المملك من أزمة الفنون، المسلّم له في الأبكار منه والعُون، أبو فلان لإجازة ولده الأمجد، وارث رتبته الشماء بعد تملي الحياة وطول البقاء، وقرة عين المجادة والعلياء، أبي عبد الله محمد، وابن أخيه الفاضل الصدر الرفيع القدر، أبي الفضل وهو الولد الأسعد أبو سالم إبراهيم، شمل الله الجميع بستره وعصمته، ووصل لهم ما عودهم من نعمته، وشغلهم بالعلم النافع وخدمته، وأعلقهم بوسائل العرفان وأزمته، تضاءلتُ علم الله إجلالا، بمحله من التبحر في المعارف، واستظلاله بظلها الوارف، لكن

---

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي، راجع ترجمته في الحاشية السابقة رقم ٣ ص ٣٢٩.

أقدمتُ امتثالا ، وحذوت من أمره مثالا ، وبادرت اعتماداً على إغضائه واتكالا ، (١٥٩ ط) فقلت أجزت الولدين المذكورين فيما يصح لى أن أجيز فيه من رواية أشْرَكَ هذا الفاضلُ فى بعضها ، وأسهم بقلمه فى فرضها ، ونظم ونثر هذا المكْتَتِبِ من بعض بنيه وتأليفٍ ينبه عليه : ككتاب الإحاطة[1] بتاريخ غرناطة فى أسفار سبعة ، وعائد[2] الصلة فى سفرين ، وعمل من طب[3] لمن حب ، فى سفر والكتاب

(١) كتاب الاحاطة بتاريخ غرناطة للوزير الغرناطى لسان الدين بن الخطيب . هذا الكتاب ، عبارة عن تراجم للملوك وأمراء وأعيان وعلماء غرناطة وجميع الذين وفدوا عليها من المغرب أو المشرق وهذه التراجم مرتبة على الحروف الأبجدية لأسماء أصحابها ولم ينس ابن الخطيب أن يترجم لنفسه فى آخر هذا الكتاب وقد شرح ابن الخطيب السبب الذى دفعه إلى تاليف هذا الكتاب وهو حبه لوطنه غرناطة ورغبته فى كتابة تاريخ لبلده كما فعل ابن عساكر فى تاريخ دمشق والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد وابن عبد الحكم فى تاريخ مصر . هذا وتجدر الاشارة هنا إلى أن هذه المحاولة قدسبق أن قام بها قبل ابن الخطيب : الأديب الشاب الغرناطى أبو عبد الله بن جزى الذى كتب أثناء مقامه بفاس تاريخا عاما لبلده غرناطة ولكنه للأسف مات قبل أن يتمه سنة ٧٥٧هـ وقد صرح ابن الخطيب نفسه أنه قابل ابن جزى بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب سنة ٧٥٥ هـ ، وانه قرأ كتابه وسار على منهاجه عند تأليف كتابه الإحاطة ، كذلك يذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيرا فى احاطته من تاريخ ابن جزى .

وكتاب الاحاطة لابن الخطيب توجد منه أجزاء مبعثرة فى بعض مكتبات العالم كالأسكوريال والأكاديمية التاريخية بمدريد والأزهر الشريف وخزانة الرباط وجامعة القرويين . وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة طبعة قديمة غير كاملة فى جزئين ، كذلك نشر الأستاذ عبد الله عنان الجزء الأول من هذا الكتاب ، والواقع أن كتاب الإحاطة يحتاج إلى لجنة من المؤرخين والأدباء والجغرافيين من المهتمين بهذا الحقل الأندلسى لأن الجهد الفردى غير كاف لنشر مثل هذه الموسوعات العلمية التى تحتاج إلى مجهود جماعى لتحقيق أماكنها الجغرافية وتراجم أعلامها وشرح أسلوب ابن الخطيب المعقد على أساس علمى صحيح ، هذا وفى أواخر القرن الثامن الهجرى اختصر كتاب الاحاطة أديب مصرى اسمه بدر الدين البشتكى وسماه مركز الاحاطة « وهذا المختصر له أهمية كبيرة لأنه كتب من واقع النسخة الكاملة لكتاب الاحاطة ، ولذا احتفظ بأجزاء كثيرة ضاعت من الأصل الموجود لدينا من كتاب الاحاطة ، ولا يزال كتاب مركز الاحاطة مخطوطا فى مكتبة الجامعة العربية وخزانة الرباط .

(٢) عائد الصلة : هذا الكتاب مفقود ، وواضح من عنوانه أنه واحد من سلسلة كتب الصلات فى تراجم اعلام الأندلس التى ابتدأها ابن الفرضى وسار فيها ابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير وابن عبد الملك المراكشى ، ويبدو أن ابن الخطيب قد ختم هذه السلسلة المتتابعة بهذا الكتاب وقد قال هو نفسه فى هذا الصدد « وعائد الصلة فى سفرين وصلت به صلة الأستاذ أبى جعفر ابن الزبير . راجع (الإحاطة ورقة ٤٣٤ — أسكوريال) .

(٣) عمل من طب لمن حب : من الكتب التى ألفها ابن الخطيب أثناء مقامه بسلا وقد أهداه

اليوسفى[1] فى سفرين ، وطرفة[2] العصر فى ثلاثة ، والصيب[3] والجهام فى سفرين ، ونفاضة الجراب[4] فى ثلاثة والأراجيز الخمس من نظمى بمدينة سلا فى أصول[5] الفقه ، والتاريخ الإسلامى[6] ، والسياسة[7] ، والملاج[8] والأغذية[9] ، إلى غير ذلك مما هو بهرج

= للسلطان المغربى أبى سالم إبراهيم ، والكتاب يتضمن علم الأبدان وتنقسم إلى قسمين : يتناول القسم الأول الأمراض التى تؤثر فى جميع أجزاء جسم الإنسان ، والثانى يتناول الأمراض الخاصة ، ويوجد من هذا الكتاب نسخة أصلية فى خزانة القرويين بفاس وكذلك فى المكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٠١١ ، والمكتبة الوطنية بمدريد رقم ٢١١ .

(١) كتاب اليوسفى فى صناعة الطب : هذا الكتاب مفقود أيضا ، وواضح من عنوانه أن ابن الخطيب الفه لسلطانه أبى الحجاج يوسف ونسبه إليه اقتداء بالرازى الطبيب المشهور فى كتابه المنصورى .

راجع (محمد التطوانى : ابن الخطيب من خلال كتبه جـ ٢ ص ١٣٨) .

(٢) طرفة العصر فى أخبار بنى نصر كتاب مفقود أيضا : ويتضمن أخبار دولة بنى الأحمر أو بنى نصر ملوك غرناطة على غرار كتاب اللمحة البدرية وقد يؤيد ذلك بعض الفقرات التى أوردها ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة نقلا عن هذا الكتاب . راجع (محمد التطوانى ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٣) الصيب والجهام والماضى والكهام : هو عنوان الديوان الذى جمع فيه ابن الخطيب معظم شعره ويقع فى مجلدين . راجع (الاحاطة ورقة ٤٣٣ — الاسكوريال) ولقد أشار بروكلمان إلى وجود نسخة من هذا الديوان فى مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٥٤٣ . راجع (بروكلمان جـ ٢ ص ٢٦٣) غير أن الراهب الأسبانى الراحل ملنشور أنطونيا الذى كان قبل وفاته مديرا لمكتبة الاسكوريال صرح بأنه قد بحث عن هذا الديوان فى أنحاء المكتبة المذكورة ولكنه لم يعثر له على أثر .

هذا وتوجد إشارة لابن القاضى فى كتابه درة الحجال ص ٢٨٦ بأن ابن الخطيب قد اختصر ديوانه المذكور فى مجلد واحد نظرا لضعف الهمم وزهد طلاب الأدب فى المطولات ، وأخيراً يشير الفقيه محمد التطوانى إلى احتمال وجود نسخة من هذا الديوان فى الزاوية العياشية بجنوب المغرب كما يشير أيضا إلى العثور على قطعه من هذا الديوان فى خروم بخزانة القرويين بفاس . انظر (ابن الخطيب من خلال كتبه جـ ٢ ص ١١٣) .

(٤) نفاضة الجراب : هو عنوان هذا الكتاب الذى بين أيدينا وقد تكلمنا عنه فى شىء من التفصيل فى المقدمة .

(٥) هو المعروف باسم الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة . راجع ص ١٨٧ حاشية ٢ .

(٦) هو المعروف باسم : رقم الحلل فى نظم الدول . راجع ص ١٢١ حاشية ١ .

(٧) اسمها تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة . راجع ص ١٨٨ حاشية ٣ .

(٨) وهى أرجوزة فى صنعة الطب . راجع ص ١٨٨ حاشية ١ .

(٩) لعلها الأرجوزة المسماة بالمعتمدة فى الأغذية المفردة . راجع (محمد التطوانى : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٣٩) .

يفتقر إلى إغضاء العارف ، وزيف يحتاج إلى مساحة إمام الصيارف ، إجازة تامة على شرطها المعتبر وسننها الواضح الأثر ، والله يعدل بنا إلى ما ينفع ، ويزكى ويرفع ، فقد ذهب العمر الأطيب فى السعى الأخيب ، وانصرف الزمن الأبدع ، فى السراب الذى يخدع . اللهم لا تطردنا عن بابك ، ولا تقطع بنا عن جنابك .

وكتب الغافل الراجى الآمل فلان فى كذا . .

انتهى ويتلوه فى الثالث رجع التاريخ . .

وانتهى (أول هذا السفر المسهب وبجانبه)[1] إلى العشر الآخر من ينير العجمى الموافق لآخر ربيع الأول من العام . . .

---

(١) هذه الكلمات غير واضحة فى الأصل .
وهذا الختام بخط مخالف لخط الكتاب .



وصف مكناسة الزيتون كما أورده أبو عبد الله محمد بن غازى العثمانى فى كتابه الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون (ص ٢٧ — ٢٨ — الرباط ١٩٥٢) ، وكما أورده كذلك أحمد المقرى فى كتابه نفح الطيب (حـ٨ص ٣١٦ — ٣١٩ — القاهرة ١٩٤٩) ، وذلك نقلا عن كتاب نفاضة الجراب[١] للسان الدين بن الخطيب .

وأطلّت[٢] مدينة مكناسة فى مظهر النَّجد[٣] ، رافلة فى حلل الدوح[٤] ، مبتسمة عن شنب المياه العذبة ، سافرة[٥] عن أجمل المواد[٦] ، قد أحكم وضْعَها الذى أخرج المرعى ، قيد النص[٧] وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلا لا تستطيع العين أن تخلفه حسنا ووضعا ، من بلد دارت به المجاشر المُغِلّة[٨] ، والتفَّتْ بسوره الزياتين المفيدة ، وراق بخارجه للسلطان[٩] المستخلص الذى يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة[١٠] والتفاف شجرة ونباهة بنية[١١] وإشراف ربوة .

ومثلت بإزائها الزاوية القُدْمى المعدة للوارد ، ذات البركة النامية ، والمئذنة السامية ،

---

(١) يسميه ابن غازى كتاب الرحلة المسماة بنفاضة الجراب فيمن بقى من الأصحاب ، والصحيح هو نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، ولقد اعتمدنا فى المتن على ماروواه المقرى مع تسجيل الفروق .

(٢) فى الروض الهتون : وأظلت .
(٣) » » » : المجد .
(٤) » » » : الروح .
(٥) » » » : سافلة .
(٦) » » » : المرأى .
(٧) » » » : البصر .
(٨) » » » : المطلقة .
(٩) » » » : السلطان .
(١٠) » » » : رحب ساحته .
(١١) » » » : تبينة .

والمرافق المتيسرة ، يصاقبها الخان[1] البديع المنصب ، الحصين الغلق ، الخاص بالسابلة والجوّابة فى الأرض يبتغون من فضل الله تعالى ، تقابلها غربا الزاوية الحديثة المربية برونق الشبيبة ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال[2] .

وبداخلها مدارس ثلاث لبثّ العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ماشئت من أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تقذف فيها صافى[3] الماء أعناقُ أسدية ، وفيها خزائن الكتب ، والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين .

وتفضل هذه المدينة كثيرا من لداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه ، وتعمير الخزائن[4] ، ومداومة البر لجوار ترابها سلما من الفساد ، معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالبا على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ، ويصحبها التعمير ، وتتجافى عنها الأرض . ومحاسن هذه البلدة المباركة جمة ، قال ابن عبدون من أهلها ولله دره :

إن تفتخر فاس بما فى طيها ... وبأنها فى زيها حسناء

يكفيك من مكناسة أرجاؤها ... والأطيبان هواؤها والماء

ويُسامِتها[5] شرقا جبل زرهون ، المنبجس[6] العيون ، الظاهر البركة ، المتزاحم

---

(١) فى الروض الهتون : الجنان .

(٢) الزاويتان القدمى والحديثة من بناء أمير المسلمين أبى الحسن المرينى ، إلا أن الأولى بناها فى دولة أبيه السلطان أبى سعيد ، والثانية بناها بعد استقلاله بملك الدولة وللسلطان أبى الحسن المرينى فى هذه المدينة آثار أخرى غير الزاويتين المذكورتين ومن أجل مآثره بها المدرسة الجديدة التى أشرف على بنائها قاضى المدينة . ويؤثر عن السلطان أنه لما أخبر بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعد على كرسى من كراسى الوضوء حول صهريجها . وجىء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ففرقها فى الصهريج قبل أن يطالع مافيها وأنشد :

لا بأس بالغالى إذا قيل حسنْ ... ليس لما قرّت به العين ثمنْ

(راجع للمقرى : نفح الطيب حـ ٨ ص ٣١٩ — ٣٢٠ ، الروض الهتون ص ٢٧) .

(٣) فى الروض الهتون : صابى .

(٤) فى الروض الهتون : الخزين .

(٥) فى الروض الهتون : ويسامتها .

(٦) » » » : المتفجر .

العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكراً ورزقاً حسنا ، فهو عنصر الخير ومادة الجبي . وفي المدينة دور نبيهة ، وبنى أصيلة ، والله سبحانه ولي من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون ... قد صحَّ عذر الناظر المفتون

فضل الهواء وصحة الماء الذى ... يجرى بها وسلامة المخزون

سَحَّت عليها كل عين ثَرّة ... للمزن هامية الغمام هَتُون

فاحمر خدُّ الورد بين أباطح ... وافترّ ثغر الزهر بين غصون

ولقد كفاها شاهداً مهما ادعت ... قَصَبَ السباق القربُ من زرهون

جبل تضاحكت البروق بجوِّه ... فبكت عِذَابُ عيونه بعيون

وكأنما هو بربرىٌّ وافدٌ[1] ... فى لوحه والتين والزيتون

حُييت من بلد خصيب أرضه ... مَثْوَى أمان أو مناخ أمون

وضعت[2] إليك من الإله عناية ... تكسوك ثَوْبَىْ أمنة وسكون

(١) فى الروض المتون : نافد .

(٢) « « « : وضفت عليك .



(فى وصف لقائه لعلماء مكناسة)

قال لسان الدين بن الخطيب فى نفاضة الجراب[1] :

لما دخلت مكناسة الزيتون سنة إحدى وستين وسبعمائة نزلت بدار حافلة ، وأتت إلىَّ القضاة والعدول والأدباء والفضلاء :

فمنهم الشيخ الفقيه القاضى بها ، أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد ، وكان من أهل المعرفة والحصافة ، قائما على كتاب أبى عمرو بن الحاجب فى مذهب مالك وكان ممتازاً به فيما دون تلمسان قرأه على الشيخين عَلَمَىْ الأفق المغربى : أبى موسى ، وأبى زيد ابنَيْ الإمام عالمى تلمسان والمغرب جميعاً . وتصدر المذكور لإقرائه الآن ، فما شئت من اضطلاع ومعرفة واطلاع . وقيد جزءاً نبيلا على فتوى الإمام القاضى أبى بكر بن العربى المسماة بالحاكة ، وسماه « بالجازمة على الرسالة الحاكة » أجاد فيه وأحسن ، وقرأت عليه بعضه وأذن لى فى تحمله .

ومنهم الفقيه الفاضل الخير يونس بن عطية الونشريسى[2] ، له عناية بفروق الفقه وولى القضاء بقصر كتامه .

---

(١) راجع ابو عبدالله محمد بن غازى العثمانى : الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون « ص ١٨ – ٢٠ » ، المقرى : نفح الطيب (ج ٧ ص ٢٧١ – ٢٧٥ ، ج ٨ ص ١٥٤–١٥٦) ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس (ص ٧٨ و ١١١) .

(٢) النسبة هنا إلى بلدة ونشريس أو ونشريش بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسنطينة . راجع (القرطاس ج ١ ص ١٥٨ – طبعة الفلالى (٨٣٤ – ٩١٤ هـ ١٤٣٠ – ١٥٠٨) وإلى هذه=

ومنهم الفقية الفاضل الخير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوى ، لديه جملة حسنة من أصول الفقه أشف بها على كثير من نظرائه قراءة منه إياها على أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل الصباغ ، وشاركه فى قراءتها على الإمام أبي عبد الله الأبي[1] .

ومنهم الفقيه العدل أبو على الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسى ، من أهل الحساب ، والقيام على الفرائض ، والعناية بفروع الفقه ، ومن ذوى السذاجة والفضل ، ويقرض الشعر ، وله أرجوزة فى الفرائض[2] مبسوطة العبارة مستوفية المعنى .

ومنهم الفقيه المدرك الأستاذ فى فن العربية أبو على عمر بن عثمان الونشريسى ، حضرت مذكراته فى مسألة أعوزت عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهى قول الشاعر .

الناس أكيَسُ[3] من أن يمدحوا رجلا   ما لم يَرَوْا عنده آثار إحسان

وصورة السؤال . كيف صح وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما فى الوصف إذ وقع الشاعر « أكيس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك .

البلدة أيضاً ينسب العالم أبو العباس أحمد الونشريسى صاحب الموسوعة القضائية الكبرى : المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب (وتقع فى ١٢ جزءاً « طبع فاس ») .

(١) لعل النسبة هنا إلى مدينة آبلة Avila فى شمال غرب مدريد بأسبانيا أو لعلها نسبة إلى مدينة الأبلة (ضم الألف والباء وفتح اللام وتشديدها) التى كانت تقع على نهر الأبله فى الشرق العربى على شط العرب جنوبى شرق البصرة . وكانت مرفأ السفن من الهند وثغرا من ثغور الفرس وكانت عامرة كثيرة البساتين وقد فتحها المسلمون فى سنة ١٤ هـ وبقيت عامرة فى أيام الخلفاء الراشدين وأيام الأمويين ثم خربت فى سنة ٢٥٦ هـ فى أيام العباسيين . راجع (على ظريف الأعظمى : مختصر تاريخ البصرة ص ٥ (بغداد ١٩٢٧) . ولعل النسبة الأولى هى الأصح وقد سبق ان أشرنا إلى بعض العلماء الذين ينتمون إلى هذه المدينة الأندلسية . راجع على سبيل المثال ص ١٤٠ حاشية ٢ من كتابنا مشاهدات لسان الدين بن الخطيب .

(٢) أى المواريث .

(٣) أكيس : أفعل تفضيل من الكيس (بفتح الكاف) وهو العقل .

ومنهم الشيخ الفقيه العدل الأديب الإخبارى المشارك أبو جعفر أحمد بن محمد ابن ابراهيم الأوسى الجنّان[1] ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، وهو كاتب عاقد للشروط ، ناظم ناثر مشارك فى فنون من العلم . له تصنيف حسن فى ثلاثة أسفار اسمه « المنهل المورود ، فى شرح المقصد المحمود » . شرح فيه وثائق ابن القاسم ، فأربى على الاجادة بياناً وافادة ، وناولنى اياه ، وأذن فى حمله عنه ، وأنشدنى كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنى بها ناقها من مرض .

البس الصحة بُردا قشيبا[2] وارشف النعمة ثغراً شنيبا[3]
واقطف الآمال زهرا نضيراً واعطف الاقبال غصنا رطيبا
إن يكن ساءك وعكٌ تقضى تجد الأجر عظيما رحيبا
فانتعش في دهرنا ذا سرور يصبح الحاسد منه كئيبا

وقرأت بالدور الخشبى بالدار التى نزلت بها ، أبياتا منقشة استحسنتها لسهولتها فأخبرنى أنها من نظمه وهى .

انظر إلى منزل متى نَظَرَتْ عيناك يعجبك كل ما فيه
ينبىء عن رفعة لمالكه وعن ذكاء الحجا لبانيه
يناسب الوشى فى أسافله ما يرقم النقش فى أعاليه
كأنه روضة مُدَبَّجَة جاد لها وابل بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها ووافقَتْها على تجليه
فهو على بهجة تلوح به ورونق للجمال يبديه
يشهد للساكنين أن لهم من جنة الخلد ما يحاكيه

---

(١) الجنان بفتح الجيم وتشديد النون بمعنى البستانى وصارت تطلق مجازا على شاعر الطبيعة الذى يصف الرياض والجنان كابن خفاجة الهوارى مثلا .

(٢) برد قشيب أى جديد .

(٣) ثغر شنيب أى طيب الرائحة .

وفاتحته محركا قريحته، ومستثيرا ما عنده بقولى .

إن كانت الآداب أضحت جنة فلقد غدا جنانها الجنان
أقلامهُ القُضبُ اللدان بِدَوْحها والزهر ما رقمته منه بنان

وذكر ابن الخطيب سجعا بليغا ثم قال . فراجعنى الجنان بما نصه .

يا خاطب الآداب مهلا فقد ردك عن خطبتها ابن الخطيب
هل غيره فى الأرض كفؤ لها وشرطها الكفاة قول مصيب
أصبح للشرط بها معرسا فاسْتَفْتِ فى الفسخ فهل من مجيب ؟

أيها السيد الذى يتنافس في لقائه ويتغالى، ويصادم بولائه صرف الزمان ويتعالى، وتستنتج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه، وتقتنص شوارد العلوم بروايات كلامه فكيف بمداناة عيانه، جلوت على من بنات فكرك عقائل نواهد، وأقمت بها على معارفك الجمة ودلائل وشواهد، واقتنصت بشَرَكِ بديهتك من المعانى أوابد شوارد، وفجَّرْتَ من بلاغتك وبراعتك حياضا عذبة الموارد، ثم كلفتنى من إجراء ظالعى[1] فى ميدان ضليعها[2]، مقابلة الشمس المنيرة بسراج عند طلوعها، فأخلدت إخلاد مهيض الجناح، وفررت فرار الأعزل عن شاكى السلاح، وعلمت أننى إن أخذت نفسى بالمقابلة، وأدليت دلو قريحتى للمساجلة، كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها، وإن رضيت من القريحة بسجيتها، وأظهرت القَدْرَ الذى كنت امْتَحْتُ من ركيتها، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين، ونبت عن أسمى دواوينهم كما تنبو عن الأشيب عيون العين، ثم أن أمرك يا سيدى لا يَحُلُّ وثيق مبرمه ولا يحل نسخ محكمه، فامتثلته امتثال من لم يجد فى نفسه حرجا من قضائك، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك، أبقاك الله تعالى قطبًا لفلك المكارم والمآثر وفصا لخاتم المحامد والمفاخر، والسلام .

(١) الظالع الذى أصابه الظلع وهو شبه العرج .

(٢) الضليع : القوى على فعل مايريد، وفى ذلك يقال مثلا : وأنى يدرك الظالع شأو الضليع ؟ !

ومنهم القاضى بها الشيخ الفقيه الخير أبو عبد الله محمد بن على بن أبى رمانة ، شيخ فاضل من أهل الحياء والحشمة وذوى السذاجة والعفة . داعبته وقد تأخر عنى يوم وصولى بما تقرر عنده ، وعفا على عتبه الأعتاب فقلت .

جفا ابن أبى رمانة وجه مقدمى ونـكب عنى لمعرضا وتحامان

وحجب عنى حبه غير جاهل بأنى ضيف والمبرة من شان

ولـكن درانى مغربيا محققا وأن طعامى لم يكن حب رمان

وذكر بعده نثراً بديعا يوقف عليه فى محله .



في وصف لقائه للشيخ الزاهد أبي العباس بن عاشر بسلا[1]

قال لسان الدين بن الخطيب في نفاضة الجراب :

ولقيت من أولياء الله تعالى ، الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فرارا عن زهرة الدنيا ، وعزوفا عنها ، وإغفاء في الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة وظهور الكرامة ، أبا العباس بن عاشر[2] ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره . لصعوبة تأتيه ، وكنف هيبته ، قاعدا بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ، كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد ضرسه[3] أهل الدنيا وتطارحهم[4] ، فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مجرمز[5] للوثبة من طارقه ، نفع الله تعالى به .

بولى الله فابدأ وابتدر واحد الآحاد في باب الورع

---

(١) راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٩٦ ، السلاوى الناصرى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٤ ص ٢٤) :

(٢) هو الشيخ العارف بالله ابو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي ، جاء إلى المغرب وعكف على تدريس كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ثم لم يلبث أن أخذ طريق الصوفية فاعتزل الناس ، وعاش عيشة الزهاد والمتصوفة بين مقابر مدينة سلا حيث قابله ابن الخطيب سنة ٧٦٢ وتوفى ابن عاشر هناك سنة ٧٦٥ هـ (١٢٦٤) ومقامه يزار حتى الآن . ومن كبار تلاميذه الصوفي الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم بن عباد الرندى شارح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندرى وقد توفى بفاس ٧٩٢ هـ .
راجع ابن القاضى : درة الحجال جـ ١ ص ٧٩ ، جذوة الاقتباس ص ٧٨ .
راجع كذلك للمقرى : (نفح الطيب جـ ٩ ص ١٩٥ – ١٩٨ ، جـ ٧ ص ٢٦١ – ٢٧١) .

(٣) ضرسه أهل الدنيا أى جربوه وعرفوا شيمته .

(٤) تطارحهم – أى طرحهم ولم يخالطهم .

(٥) مجرمز أى تقبض واجتمع كناية عن أنه متوثب ومستعد لينطلق فى أمره .
راجع (المقرى : نفح الطيب جـ ٩ ص ١٩٦ حاشية) .



فى وصف مراكش وتامسنا[1] (الشاوية)

قال لسان الدين بن الخطيب فى نفاضة الجراب ، وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى :

ماذا أُحَدِّثُ عن بحر سَبَحْتُ به   من البحار فلا إثمٌ ولا حرج

دعاه مبتدع الأشياء مستويا   ما إن به درك كلا ولا درج

حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا   صحت ابشرى يا مطايا جاءك الفرج

قربت من عامر دارا ومنزلة   والشاهد العدل هذا الطيب والأرج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها ، واعتبر ما صار إليه حالها بعد الموحدين قال :

بلد قد غزاه صرف الليالى   وأباح المصون منه مبيح

فالذى خرَّ من بناه قتيل   والذى خر منه بعض جريح

وكأنَّ الذى يزور طبيب   قد تأتَّى له بها التشريح

أعجمت منه أربُعٌ ورسوم   كان قدما بها اللسان الفصيح

(١) راجع السلاوى الناصرى ، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٤ ص ١٦ ، المقرى : نفح الطيب ج ٩ ص ١٨٩) .

كم معان غابت بتلك المغانى وجمال أخفاه ذاك الضريح

وملوك تعبدوا الدهر لما أصبح الدهر وهو عبد صريح

دوخوا نازح البسيطة حتى نال ما شاء ذابل وصفيح[1]

حين شبت لهم من البأس نار ثم هبت لهم من النصر ريح

أثر يندب المؤثر لما طال بعد الدنو منه النزوح

ساكن الدار روحها كيف يبقى جسد بعد ما تولى الروح ؟

ومما قاله فى الشيخ أبى العباس السبتى ، دفين مراكش ، على لسان سلطان غرناطة المخلوع الغنى بالله وهو يومئذ بفاس :

يا ولى الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع

راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجى من علاك حسن الصنيع

فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل الجميع

قد جعلنا وسيلة تربك الزا كى وزلفى إلى العليم السميع

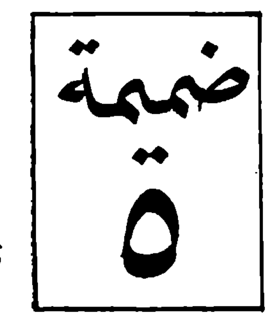
كم غريب أسرى إليك فوافى برضى عاجل وخير سريع

وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا :

كأنا بتامسنا نجوس خلالها وممدودها فى سيرنا ليس يقصر

مراكب فى البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدرى ولا البر يبصر

(١) نازح البسيطة : بعيد الأرض ، الذابل : أراد به الرماح ، والصفيح : أراد به السيف . راجع (نفح الطيب جـ ٩ ص ١٨٩ حاشية) .



قصيدة فى مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليلة ميلاده

أوردها ابن الخطيب فى كتابه الإحاطة نقلا عن نفاضة الجراب كما أوردها المقرى أيضا نقلا عن نفس المصدر[1] .

قال لسان الدين بن الخطيب .

ثبت فى كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدعي الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر مَنْ أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضى جملة السذاجة وكرم الخلق وطيب النفس وخدن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن ، المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار ، العزوف عن فضول القول والعمل ، جامع المحاسن ، من عقل رصين ، وطلب ممتع وأدب نقاوة ويد صناع ، أبو القاسم بن أبى زكريا البرجى[2] ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة الفريدة :

---

(١) راجع (ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها (طبعة القاهرة) ، المقرى : نفح الطيب جـ ٨ ص ١٧٨ – ١٨٣) .

(٢) هو أبو القاسم محمد بن يحيى الغسانى البرجى الغرناطى كان أديباً شاعراً رحل إلى المغرب وكتب للسلطان أبى عنان المرينى ثم عين قاضياً بفاس ، ولما ولى أبو سالم أجراه على الرسم المذكور . وكان لملوك المرينيون يستعملونه فى السفارة إلى ملوك المسلمين فى مصر والنصارى فى قشتالة (أسبانيا) توفى سنة ٧٨٦ .

راجع (ابن الخطيب : الإحاطة جـ ٢ ص ٢١٦ (طبعة القاهرة) ، ابن خلدون : التعريف ص ٦٤ – ٦٥ ، العبر : جـ ٧ ص ٤٥٢ ، المقرى نفح الطيب جـ ٨ ص ١٧٨ ، ١٨٣–١٨٤) احمد ابن الأحمر : روضة النسرين ص ٢٩) .

أصغى إلى الوجدِ لما جدّ عاتبُه صَبٌّ له شُغُلٌ عمّنْ يُعاتبه

لم يُعط للصبر من بعد الفراق يدا فَضلٌ من ظَلّ إرشادا يخاطبه

لولا النَّوَى لم يَبِتْ حرانَ مكتئبا يُغالبُ الوجد كتْماً وهو غالبه

يستودع الليل أسرار الغرام وما تُمليه أشجانُه فالدمع كاتبه

لله عصرٌ بِشَرْقِيّ الحِمَى سَمَحَتْ بالوصل أوقاتُه لو عاد ذاهبه

يا جيرةً أودعوا إذ ودّعوا حُرَقاً يَصْلَى بها من صميم القلب ذائبه

يا هل تُرى تجمع الأيام فِرقتنا كعهدنا أو يردُّ القلبَ سالبه

ويا أُهَيْلَ ودادى والنوى قذفٌ والقربُ قد أُبهمت دونى مذاهبه

هل ناقضُ العهد بعد البُعد حافظُه وصادعُ الشمل يوم الشعب شاعبه

ويا ربوعَ الحِمَى لا زلتِ ناعمة يبكى عهودَك مُضْنَى الجسم شاحبه

يا مَنْ لقلبٍ مع الأهواء مُنعطفٍ فى كل أوْبٍ له شوقٌ يجاذبه

يسمو إلى طلب الباقى بهمته والنفسُ بالميلِ للفانى تطالبه

وفتنة المرءِ بالمألوف معضلةٌ والأنسُ بالإلف نحو الإلف جاذِبُه

أبكى لعهد الصبا والشيبُ يضحك بى يا للرجال سَبَتْ جِدىٌّ ملاعبه

ولن ترى كالهوى أشجاهُ سالفُه ولا كوعد المنى أحلاهُ كاذبه

وهمة المرءِ تُغليه وتُرخِصه مَنْ عَزَّ نفسا لقد عزت مطالبه

ما هان كسبُ المعالى أو تناوُلُها بل هان فى ذاك ما يلقاه طالبه

لولا سُرَى الفَلَكِ السامى لما ظهرت آثارُه ولما لاحت كواكبه

فى ذمة الله ركْبٌ للعُلا ركبوا ظَهرَ السُّرى فأجابَتْهم نجائبه

يرمون عرض الفَلاَ بالسير عن عُرُضٍ طى السجلَّ إذا ماجدٌّ كاتبه

كأنهم فى فؤاد الليل سِرُّ هوًى لولا الضّرامُ لما خفَّت جوانبه

شدُّوا على لهبِ الرمضاءِ وطأتهم فغاص فى لجَة الظلماء راسبه
وكلَّفوا الليل من طول السُّرى شططا فخلفوه وقد شابت ذوائبه
حتى إذا أبصروا الأعلام ماثلةً بجانب الحرم المَحْمِىِّ جانبه
بحيث يأمنُ من مولاهُ خائفهُ من ذنبه وينال القصدَ راغبه
فيها وفى طيبةَ الغراءِ لى أملٌ يصاحبُ القلبَ منه ما يصاحبه
لم أنس لا أنس أياما بظلهما سقى ثراه عميمُ الغيث ساكبه
شوْقِى إليها وإن شطَّ المزار بها شوقُ المقيم وقد سارت حبائبه
إن ردَّها الدهر يوماً بعد ما عَبِثَتْ فى الشمل منا يداه لا نعاتبه
معاهدٌ شَرُفَتْ بالمصطفى فلها من فضله شرفٌ تعلو مراتبه
محمد المجتَبي الهادى الشفيعُ إلى ربٍّ العباد أمينُ الوحى عاقبه
أوْفَى الورَى ذمما ، اسماهُمُ هِمماً اعلاهُمُ كرماً ، جلَّت مناقبه
هو المكمَّلُ فى خَلْقٍ وفى خُلُقٍ زَكَتْ حُلاَه كما طابت مناسبه
عنايةٌ قبل بدء الخلق سابقةٌ من أجلها كان آتيهِ وذاهبه
جاءت تُبشرنا الرُّسْلُ الكرام به كالصبح تبدو تباشيرا كواكبه
أخبارُه سرُّ علم الأولين وسَلْ بِدَيْرِ تَيماءَ ما أبداه راهبه
تطابَقَ الكوْن فى البشرى بمولده وطبَّقَ الأرض أعلاما تجاوبه
فالجن تهتف إعلانا هواتفهُ والجن تقذف إحراقا ثواقبه
ولم تزل عصمةُ التاييد تكنُفهُ حتى انجلى الحقُ وانزاحت شوائبه
سرى وجنحُ ظلام الليلِ منسدلٌ والنجمُ لا يهتدى فى الأفقِ ساربه
يسمو لكل سماءٍ منه منفردٌ عن الأنام وجَبْرائيلُ صاحبه
لمنتهىً وقفَ الروح الأمينُ به وامتاز قُربا فلا خَلْقٌ يقاربه

لِقاَبَ قوسين أو أدنى فما علمت نفسٌ بمقدار ما أولاه واهبه
أواه أسرارَ ما قد كان أودَعَه فى الخلق والأمرُ باديه وغائبه
وآبَ والبدرُ فى بحر الدّجى غرقٌ والصبح لمّا يؤُبْ للشرق آيبه
فأشرقت بسناه الأرض واتبعت سُبُلَ النجاة بما أبدت مذاهبه
وأقبل الرشد والتأحت زواهره وأدبر الغيّ فانجابت غياهبه
وجاء بالذكر آياتٍ مفصلةً يَهْدى بها من صراط الله لاحِبُه
نورٌ من الحكمِ لا تخبو سواطعه بحرٌ من العلم لاتفنىَ عجائبه
له مقامَ الرّضا المحمودُ شاهدُه فى موقف الحشر إذ نابت نوائبه
والرسلُ تحت لواء الحمد يقدمُها محمدٌ أحمدُ السامى مراتبه
له الشفاعاتُ مقبولا وسائلها إذا دَهَى الأمرُ واشتدت مصاعبه
والحوض يروى الصدى من عَذْبِ مورده لايشتكى غُلَّةَ الظمآنِ شاربه
محامد المصطفى لاينتهى أبدا تعدادُها ، هل يَعُدُّ القَطْرَ حاسبه ؟
فضلٌ تكفّلَ بالدارين يُوسعها نُعمى ورُحمى فلا فضلٌ يناسبه
حسبي التوسُّلُ منها بالذى سمحت به القوافى وجَلّتهاَ غرائبه
حيَّاهُ من صلوات الله صَوْبُ حَياً تُحْدَى إلى قبره الزاكى نجائبه
وخلَّدَ الله مُلكَ المستعين به مؤيد الأمر منصورا كتائبه
إمامُ عدل بتَقْوَى الله مشتمل فى الأمر والنهى يرضيه يراقبه
مسددُ الحكم ميمونٌ نقيبته مظفرُ العزم صدقُ الرأىِ صائبه
مُشَمِّرٌ للتقى أذيالَ مجتهدٍ جرَّارُ أذيالِ سُحْبِ الجودِ ساحبه
قد أوسعت أمَلَ الراجى مَكارمهُ وأحسبت رغبةَ العافى رغائبُه
وفاز بالأمن محبوراً مسالمه وباء بالخزى مقهوراً محاربه

كم وافد آملٍ معهودَ نائله ... أثنى وأثنت بما أولى حقائبه
ومستجير بعزٍ من مثابته ... عزّت مراميه وانقادت مآربه
وجاءه الدهرُ يسترضيه معتذرا ... مستغفراً من وقوع الذنب تائبه
لولا الخليفةُ ابراهيمُ لانبهمَتْ ... طُرْقُ المعالى ونال الملكَ غاصبهُ
سمت لنيل تراث المجد همته ... والملكُ ميراثُ مجدٍ وهو غاصبه
ينميه للعز والعَلْيَاَ أبو حسن ... سمح الخلائق محمود ضرائبه
من آل يعقوب حسب الملك مفتخراً ... بباب عزهم السامى تعاقبه
أطواد حلم رَساَ بالأرض محتده ... وزاحمت منكبَ الجوزا مناكبه
تحفها من مرين أبحرُ زخرت ... أمواجها وغمام ثار صائبه
بكل نجم لدى الهيجاء ملتهب ... ينقضُّ وسط سماء النقْع ثاقبه
أكفهم فى دياجيها مطالعه ... وفى نحور أعاديهم مغاربه
يا خيرَ من خلصت لله نيته ... فى الملك أو خَطَبَ العلياء خاطبه
جردت والفتنة الشعواء ملبسة ... سيفاً من العزم لاتَنْبُو مضاربه
وخضتها غير هيّابٍ ولا وكلٍ ... وقلما أدرك المطلوب هائبة
صبرت نفسا لعقبى الصبر حامدة ... والصبر مذ كان محمودٌ عواقبه
فليهن دين الهدى إذ كنت ناصره ... أمْنٌ يواليه أو خوف يجانبه
لا زال ملكك والتأييد يخدمه ... تقضى بخفض مناويه قواضبه
ودمت فى نعم تصفو ملابسها ... فى ظل عزٍّ عُلاً تصفو مشاربه
ثم الصلاة على خير البرية ما ... سارت إليه بمشتاقٍ ركائبه

الفهارس

قام باعداد الفهارس الأستاذ درويش النخيلى المعيد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

١

فهرس الموضوعات

٢

فهرس الضمائم

الموضوع	رقم الصفحة
ضميمة رقم ١ : فى وصف مكناسة الزيتون	٣٧١ – ٣٧٣
ضميمة رقم ٢ : فى وصف لقائه لعلماء مكناسة	٣٧٥ – ٣٧٨
ضميمة رقم ٣ : فى وصف لقائه للشيخ الزاهد أبى العباس بن عاشر بسلا	٣٧٩
ضميمة رقم ٤ : فى وصف مراكش وتامسنا	٣٨٠ – ٣٨١
ضميمة رقم ٥ : قصيدة فى مدح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ليلة ميلاده	٣٨٢ – ٣٨٨

٣

فهرس الأعلام

٤

فهرس الأعلام التى ترجم لها فى الحواشى (*)

(*) الرقم الأول يدل على الصفحة، والرقم الثانى يدل على الهامش

٥

فهرس الجماعات والشعوب والقبائل

٦.

فهرس المواقع والأمكنة والبلدان

٧

فهرس المواقع التى عرف بها فى الحواشى(*)

(*) الرقم الأول يشير الى الصفحة ، والثانى يشير للحاشية .

٨

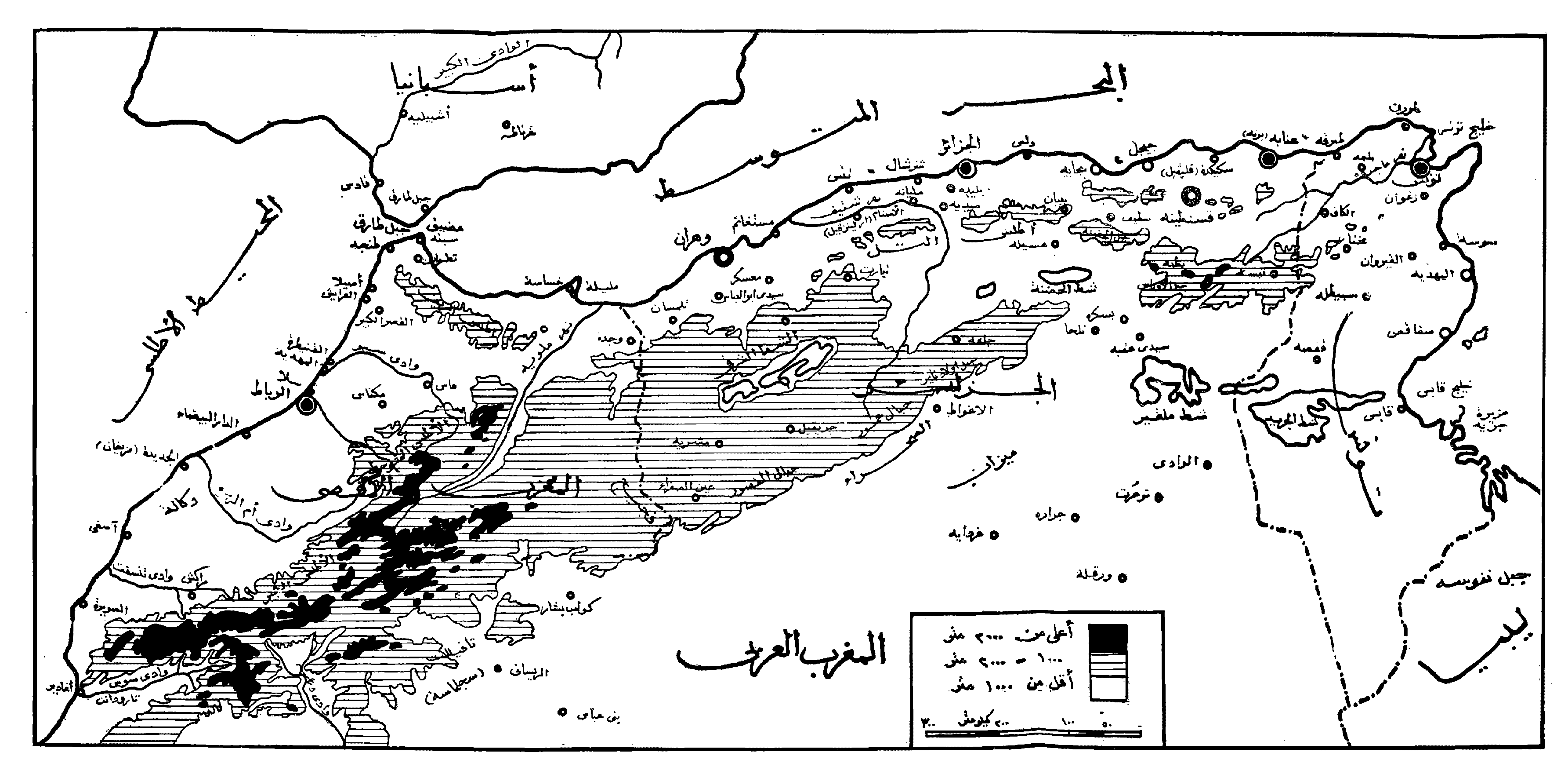
فهرس المصطلحات

فهرس المصطلحات التى عرف بها فى الحواشى (*)

(*) الرقم الأول يرمز للصفحة ، والثانى للحاشية .

١٠

فهرس الكتب التى ذكرت بالمتن



المغرب العربي
البحر المتوسط
المحيط الأطلسي
أسبانيا
الجزائر
المغرب الأقصى
ليبيا
أعلى من ٢٠٠٠ متر
١٠٠٠ - ٢٠٠٠ متر
أقل من ١٠٠٠ متر
كيلومتر
وهران
مستغانم
شرشال
تنس
الجزائر
بجاية
جيجل
سكيكدة (فليفيل)
عنابة (بونه)
القالة
تونس
خليج تونس
زغوان
الكاف
سوسة
المهدية
القيروان
سبيطلة
صفاقس
خليج قابس
قابس
جبل نفوسة
قفصة
شط ملغيغ
شط الجريد
الوادي
تقرت
ورقلة
غرداية
بسكرة
سطيف
قسنطينة
مسيلة
تيهرت
معسكر
تلمسان
وجدة
مليلة
تطوان
طنجة
سبتة
مضيق جبل طارق
جبل طارق
أشبيلية
غرناطة
قادس
القصر الكبير
أصيلا
الرباط
سلا
مكناس
فاس
الدار البيضاء
الجديدة (مزيغان)
آسفي
الصويرة
مراكش
وادي تنسيفت
أغادير
تارودانت
وادي سوس
تافيلالت
الريساني (سجلماسة)
بني عباس
نهر ملوية
وادي سبو
وادي أم الربيع
الوادي الكبير
دكالة
الصحراء
جلفة
الأغواط
عين الصفراء
مشرية
ميزاب
شط الحضنة

دار النشر المغربية
5-13 زنقة الجندي روش
الهاتف: 24-51-47-24
الدار البيضاء

الثمن 55 درهما